"هذه أعظم رواية جاسوسية قرأتها علي الاطلاق"

الجنرال ديفيد باتريوس - رئيس سابق لوكالة الـCIA

محطة دمـــشق

DAMASCUS STATION



A NOVEL

ديـــفيد مكلوسكي

DAVID McCLOSCKEY

محطة دمشق

على خلفية سوريا التي ترزح تحت وطأة الخوف وتشتعل بالتمرد، تأتي رواية "محطة دمشق" كإثارة تخطف الأنفاس، لتقدم لوحة فنية معقدة ترسم ملامح الجاسوسية، والحب، والولاء، والخيانة، في واحدة من أصعب مهام المخابرات المركزية الأمريكية وأخطرها على الاطلاق.

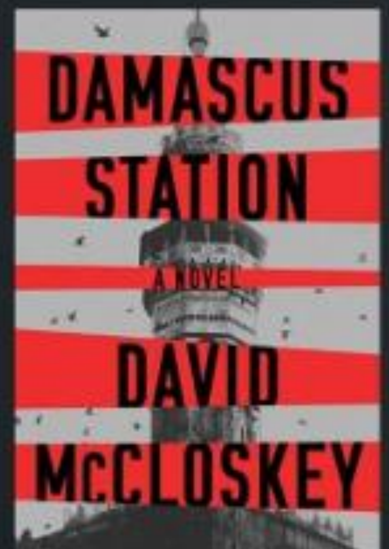
يُوفَد ضابط العمليات في المخابرات المركزية الأمريكية، سام جوزيف، إلى باريس في مهمة مصيرية: تجنيد مريم حداد، المسؤولة النافذة في القصر الرئاسي السوري.

لكن المهمة تأخذ منعطفًا غير متوقع حين يقع الاثنان في علاقة محرّمة. علاقة ستكون بمثابة الوقود الأسرع لعملية تجنيدها، لكنها أيضًا ستزج بهما في قلب خطر يفوق الوصف فور وصولهما إلى دمشق، سعيًا خلف الرجل المسؤول عن اختفاء مسئول أمريكية.

بيد أن مطاردة القط والفأر للقاتل سرعان ما تقودهما إلى دربٍ من الاغتيالات السياسية رفيعة المستوى، وتكشف لهما سرًا أسود يكمن في قلب النظام السوري.







ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

"هذه أعظم رواية جاسوسية قرأتها علي الاطلاق"
الجنرال ديفيد باتريوس - رئيس سابق لوكالة الـCIA

محطة دمــــشق

DAMASCUS STATION

A NOVEL

ديــفيد مكلوسكي

DAVID McCLOSCKEY

محطة دمشق

DAMASCUS STATION





ديفيد مكلوسكي

DAVID McCLOSCKEY

محطة دمشق

DAMASCUS STATION

ترجمة

Wadistreambooks on Telegram

الجزء الأول

الجرائم

الفصل الأول

السنوات الأولى من الانتفاضة السورية

بعد ثماني ساعات من القيادة عبر مسار كشف المراقبة [1]، بدأ **سام** يشعر بأن قبضته على المقود ترتخي، وأن نبضه يتباطأ تدريجيًا. كان قد توقف ثلاث مرات داخل دمشق وضواحيها، ونفّذ المنعطفات المقررة في مسار المراقبة، يراقب باستمرار بحثًا عن أي تعقب، وعيناه تتنقلان بين المرايا. في كل محطة، كان يتعمّد التباطؤ قليلًا، في محاولة لاستفزاز أي مراقبة معادية.

كانت الحرارة تخترق الزجاج الأمامي، والمكيّف يعاني لمجاراة الجوّ اللاهب. ألمه في ظهره ازداد، وكتفاه متشنّجان كأنما التصقا إلى الأبد. علق في زحمة سير، وتوقّفت السيارة عند تقاطع يظلله – لحسن الحظ – نخيلٌ وصنوبر. أخذ **سام** يقرع بأصابعه على المقود، يتفحّص المرايا فيما ضوء الإشارة الأحمر يطول، مقارنًا بين السيارات من حوله وبين قائمة ذهنية للسيارات التي صادفها خلال اليوم.

تحوّل الضوء إلى أخضر. عندها اندفع إلى وسط الطريق ضابط **مخابرات سورية** يرتدي سترة جلدية، رافعًا يده ليأمر السيارة الأولى في الصف بالتوقف. أطلقت السيارة التي خلفها بوقها غاضبة، فيما سحب ضابط آخر إلى الطريق حاجزًا خشبيًا عريضًا يحمل ملصقات لوجه الرئيس **بشار الأسد**، ولوّح للسائق بالتقدّم. صرخ أحدهم: إنها نقطة تفتيش.

---

[1] **مسار كشف المراقبة (Surveillance Detection Route - SDR)** : هو مسار مخطط له ومصمم بعناية ليساعد الشخص على كشف ما إذا كان تحت المراقبة من خلال مناورات وتوقفات غير متوقعة. (المترجم)

ارتفع نبض **سام** من جديد، رغم أن هذه كانت سادس نقطة تفتيش يمر بها اليوم. فـ"الغطاء غير الرسمي[2]" يعني أن كل شيء على المحك. لا حصانة دبلوماسية لو كُشف أمره، ولا صفقة تبادل محتملة. لو أمسكوا به، فسيختفي في قبوٍ مظلم للأبد. *إذا لم تكن متوتّرًا وأنت تقود في بلدٍ معادٍ بلا طوق نجاة، فلابد أنك مريض بلا مشاعر.*

سحب جواز السفر من جيب سترته ووضعه على لوحة القيادة. كان جوازًا كنديًا أزرق اللون (سياحيًا)، باسم رجل يُدعى **جيمس هانسن**. الصورة صورته، وكذلك تاريخ الميلاد. استلم الوثيقة من جهاز الاستخبارات الكندية في يوم ربيعي مائل إلى الذوبان في **أوتاوا**، بعد أن أنهى جولة في مكاتب شركة وهمية حديثة التأسيس تُدعى **أوريون للاستثمارات العقارية**. كان الغطاء محكمًا بالكامل – هناك من يجيب الهاتف ويردّ على الرسائل الإلكترونية – والكنديون كانوا سعداء بالمشاركة، مقابل مقعدٍ على طاولة الإحاطة في **لانغلي**[3] فور عودة الجاسوس **كومودو** إلى الأمان. ففي عالم الاستخبارات، حتى الأصدقاء لا يتشاركون، بل يتبادلون.

كان **كومودو** من أنجح المصادر في شبكة محطة **دمشق**. رجل في منتصف العمر، وحيد، يوصف في تقارير العمليات بأنه "قليل الغرابة". يعمل عالمًا متوسط الرتبة في **مركز الدراسات والبحوث العلمية السوري** (SSRC) المسؤول عن برنامج **الأسد** للأسلحة الكيميائية.

تعتقد وكالة الأمن القومي الأمريكية أن السوريين تمكنوا من اختراق نظام التواصل السري الخاص بـ"كومودو"، لذلك أعدّت **لانغلي** خلال يومٍ واحد خطة إخراجٍ عاجلة تتضمن أن يقود **سام** سيارةً تحت غطاءٍ تجاري إلى داخل سوريا

[2] **غطاء غير رسمي (Non-official cover - NOC)**: هو هوية سرية لضابط استخبارات لا ترتبط رسميًا بحكومته، مما يمنحه حرية أكبر في الحركة ولكنه يفقده الحصانة الدبلوماسية إذا تم كشفه (المترجم)

[3] **لانغلي (Langley)**: هو اسمٌ يُستخدم بالعموم للإشارة إلى مقر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) الواقع في لانغلي، مقاطعة فيرفاكس، بولاية فيرجينيا.

ليُخرج المصدر بنفسه. كما قررت الوكالة استعادة **ڤال أوينز**، ضابطة الحالة[4] المشرفة على "كومودو".

كان **سام** و**ڤال** قد خدمَا معًا في العراق – جولتها الأولى وجولته الثالثة – وتوطدت بينهما علاقة قوية أشبه بالعائلة. كانت **ڤال** صديقة، وحياة أحد العملاء على المحك. وحين اجتمع هذان المعنيان في ذهنه، عاد نبضه يتسارع، بالتزامن مع إشارة الجندي له بالتقدّم.

اقترب جندي شاب بعيونٍ صارمة وشاربٍ رفيع من نافذته وسأله عن الأوراق. حافظ **سام** على التواصل البصري لحظة واحدة باحترام، ثم ناوله الجواز – مفتوحًا مسبقًا على صفحة الفيزا السورية – ووجّه نظره نحو الطريق. قلّب الجندي الصفحات، مترددًا كأنه يفكر في استدعاء مشرفه، ثم حدّق في وجهه.

قال بإنجليزية متعثرة:

– **"Why in Syria?"**

أجابه **سام** بالعربية:

– "عمل."

أومأ الجندي نحو رفيقٍ له يقترب من الخلف، يفتش بنظره السيارات والمباني المحيطة. كانت المنطقة تحت سيطرة النظام، لكن الهجمات المفاجئة من الثوار والجهاديين – من تفجيراتٍ انتحارية، أو قذائف آر بي جي، أو كمائن خاطفة كتلك التي رآها **سام** في بغداد – صارت مألوفة في دمشق. شدّ الجندي فكه وضرب جواز السفر على راحته.

قال:

– "افتح الصندوق الخلفي."

---

[4] **ضابط الحالة (Case Officer)** : هو ضابط استخبارات محترف مسؤول عن تجنيد وإدارة وتوجيه عميل معين (مصدر معلومات). يُعتبر ضابط الحالة حلقة الوصل الوحيدة بين العميل ووكالة الاستخبارات، حيث يتولى التواصل معه وتكليفه بالمهام واستلام المعلومات منه.

ضغط **سام** على الزر ففُتح الباب الخلفي. اقترب جندي آخر، أخرج حقيبته، ورماها على الأرض.

قال الآخر:

- "هل هي مقفلة؟"

- "لا."

سمع **سام** صوت السحاب يُفتح وملابس تُلقى بغير اكتراث داخل السيارة.

قال الجندي الثاني:

- "لماذا الملابس غير مطوية؟"

- "لأنني مررت بعدة نقاط تفتيش اليوم."

ضرب الجندي الأول باب السائق بمؤخرة سلاحه وقال:

- "سيارة مؤجرة؟"

أومأ **سام** برأسه.

- "الأوراق."

فتح حجرة القفازات وسلمه أوراقًا تشير إلى أن السيارة تابعة لشركة **رينبو لتأجير السيارات** في **عمّان**. وبينما كان الجندي يتفحّصها، حاول **سام** أن يطرد من ذهنه صورة الميكانيكي في محطة **عمّان** وهو يشرح، مستخدمًا دمية مطابقة تمامًا لطول ووزن **كومودو** (متر وسبعة وستون سنتيمترًا، مئة وخمسة وأربعون رطلًا)، كيف يمكن طيّ جسدٍ بشري داخل المقصورة السرّية في الصندوق الخلفي.

أعاد الجندي الأوراق وسأله:

- "ما نوع العمل يا سيد هانسن؟"

- "استثمار عقاري. فيلات هنا، وربما بعض البيوت في المدينة القديمة."

ابتسم الجندي وقال بسخرية:

- " الفيلات رخيصة هذه الأيام."

– "نعم." ثم ابتسم **سام** بدوره. "نعم، هذا صحيح."

عاد الجندي الآخر وقال:

– "الحقيبة سليمة."

ناول الأول الجواز وقال بخشونة:

– "تابع طريقك."

انطلق **سام** على الطريق السريع **M1** متجهًا نحو المدينة القديمة، فيما كان أذان **المغرب** يعلو من مآذن دمشق. كانت حركة المرور خفيفة، فالسوريون باتوا يهرعون إلى بيوتهم مع حلول الظلام اتقاءً لقذائف الهاون التي تتبادلها قوات النظام والثوار.

ومع غروب الشمس خلفه، بدأ جسده يصدّق ما استقرّ في ذهنه منذ لحظات: لقد أصبح "أسود" – أي خارج المراقبة. شعر للحظة بالارتياح، ثم بدأت مرحلة الشك، الطقس المقدّس لكل ضابط عمليات منذ أول تدريب في **"المزرعة"**.[5]

اللعنة على هذه المهنة... لا يمكنك أن تكون متأكدًا أبدًا، وكان دومًا أسهل أن تُلغي المهمة وأنت ما زلت في الغطاء، من أن تُقدم على الخطوة الحاسمة وأنت تجهل إن كنت قد كُشفت.

ترك الأسئلة تتوالى في ذهنه.

هل انكشف أمام تلك **اللكزس السوداء** ذات الباب المخدوش في **يعفور**؟ هل السيارة الصفراء المتربة التي لاحقته بعد التوقف الثاني – عند الفيلا المزركشة ذات المسبح على شكل ساعة رملية – كانت صدفة؟ وهل ذلك الوميض من نافذة بناية خلال آخر نقطة تفتيش كان موقع مراقبة ثابت؟

مضغ علكة نعناع ببطء وهو يحدّق عبر الزجاج المتآكل نحو دمشق التي تقترب. كانت مراقبة السيارات من أصعب أنواع المراقبة، إذ تجعل تكرار المشاهد مربكًا. أراد أن يترجل ويختبر الشوارع، لكن لا مبرر لذلك. ضواحي دمشق صارت منطقة

---

[5] **" المزرعة (The Farm) "** : هو الاسم الشائع لـ "كامب بيري"، وهو مرفق تدريب سري تابع لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) في ولاية فيرجينيا، حيث يتلقى ضباط العمليات تدريباتهم على مهارات التجسس.

حرب، و**جيمس هانسن** – المستثمر العقاري – لن يتجوّل عبثًا في منطقة كهذه. سيتجه إلى بيته المستأجر في المدينة القديمة وينام، قبل أن يعود غدًا إلى **عمّان**.

توقف بسيارته على بُعد بنايتين من المنزل الآمن. وضع أطلسًا قديماً على السقف وتظاهر بالبحث عن طريقه بين الأزقة المتعرجة. كانت هذه فرصته الأخيرة للانسحاب. أخذ نفسًا عميقًا وشعر بنسيم الليل البارد على جلده. لم يقف شعر عنقه، ولم يَحسّ أنه مراقب. نظر حوله مرة أخيرة، يلوّح بالأطلس كسائحٍ تائه، ثم ألقى به على المقعد المجاور.

أوقف السيارة أمام بيتٍ قرب **باب توما**[6]. كان الموقع الذي اختاره الكنديون مثاليًا على أطراف المدينة القديمة، فالمنزل الآمن **أرخميدس** يتيح الدخول إلى الأزقة الضيقة في قلب المدينة – مثالية لاختبار المراقبة – كما يسهل الوصول منه إلى الطرق الواسعة المحيطة.

البيت قصر عثماني قديم من ثلاثة طوابق يمتد على نصف حي تقريبًا. ولأن المرائب تُعدّ قبيحة في بيوت دمشق القديمة، صمّم المالك – وهو أحد المتعاونين مع الكنديين – بابًا مموّهًا في الجدار الخارجي يشبه واجهة البيت نفسها.

ضغط **سام** على زر صغير بجانب فانوسٍ غازي على الجدار الشمالي. فُتح الباب بصريرٍ خافت، فقاد السيارة إلى الداخل. كان الممر خلف المرأب ضيقًا، وفي نهايته أرضية رخامية تفضي إلى بابين مزدوجين شاهقين يتجاوز ارتفاعهما أربعة أمتار، يزينهما حديد مشغول بآيات قرآنية تشكّل زخارف معقدة.

فتح الأبواب فبانت الساحة الداخلية. نافورة تتوسطها، تحيط بها أشجار برتقال وليمون صغيرة. صاحت الغربان – غير المرئية – من بين الفروع، كأنها تحذّره. من الشرق دوّى وابل قذائف هاون، فارتجف لا إراديًا قبل أن يعود إلى الداخل ويغلق الأبواب.

---

[6] **باب توما :(Bab Touma)** هو أحد أبواب دمشق القديمة السبعة ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، ويُنسب اسمه إلى القديس توما أحد رسل المسيح.

كان بحوزته مخطط المنزل، أرسله الكنديون مسبقًا، فلم يجد صعوبة في الوصول إلى المطبخ. فتح خزانة عتيقة فوجد ما طلبه: علبة ألواح طاقة عالية، كيسًا صغيرًا يحوي عشر حبوب **زانكس** (2 ملغ)، جهازًا متنقلًا لتركيز الأوكسجين، حقيبة شرب **CamelBak**، وحفاضات للكبار. ملأ الحقيبة بالماء، أخذ واحدة من الحفاضات، وضع كل شيء في حقيبة سوداء وأغلقها.

عاد إلى المرأب وفتح الصندوق الخلفي. أدار سلسلة من الأقفال السرية بترتيبٍ دقيق كما تدرب في **عمّان**، فانبثقت المقصورة الخفية أسفل الفراغ. كانت مبطنة بسيليكون أسود خاص – نُقل من أقبية **لانغلي** إلى محطة **عمّان** في حقيبة دبلوماسية – يمتص الحرارة ويخفي الأجسام الدافئة عن أجهزة الأشعة تحت الحمراء. وضع الحقيبة بداخلها وتمنى لو أن الوكالة تسمح بتزويد حقائب الإنقاذ بأقراص السيانيد [7] كما يفعل الروس. فعميل وكالةٍ أُمسك به في سوريا لا ينتظره سوى شهورٍ من التحقيق والتعذيب. *لو كنتُ مكان "كومودو"، لطلبت الحبة دون تردّد.*

***

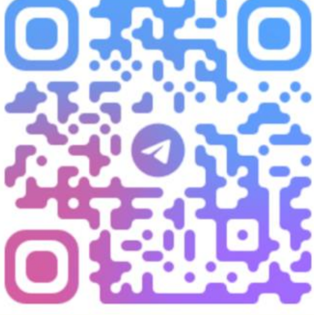
للتنفيس عن التوتر، بدأ **سام** أداء تمرينات ضغط وبطن لمدة نصف ساعة، ثم أخذ حمامًا ساخنًا. كانت **ڤال** متأخرة بخمس عشرة دقيقة، ولم يعد يحتاج إلى ساعةٍ ليدرك ذلك. تدريب **المزرعة** علّمه أن يشعر بالوقت بدقّة عسكرية.

بدّل ملابسه إلى قميصٍ أبيض نظيف وبذلة رمادية فاتحة، ثم عاد إلى المطبخ يبحث عن قهوة. وجد إبريق ضغط قديمًا مغطى بالغبار، وغلاية كهربائية، وعلبة بن مطحون. لم يكترث بتاريخ الانتهاء؛ كان يحتاج الكافيين أكثر من أي شيء آخر. ترك القهوة تنقع، ثم شرب الكوب الأول في ثلاث جرعات. ملأ كوبًا ثانيًا وحدّق في البخار المتصاعد.

---

[7] **السيانيد (Cyanide)** : سم قاتل وفوري المفعول، اشتهر تزويد الجواسيس به تاريخيًا على هيئة أقراص مخبأة لاستخدامهافي الانتحار السريع لتجنب الأسر أو الاستجواب.

اتصل برقمٍ محفوظ في ذاكرته وسأل عن مستجدات "صفقة دبي". أجابه صوت أحد المتعاونين السوريين – وهو لا يعلم شيئًا عن حقيقة الشيفرات المتفق عليها – أن "الصفقة مؤجّلة".



قال **سام**:

– "أكد لي من فضلك."

أجابه الرجل:

– "نعم يا سيد هانسن، الصفقة مؤجلة."

أنهى المكالمة، ثم رمى الكوب على الأرض فتهشّم إلى شظايا.

***

كانت احتمالية اعتقال **كومودو** وسوء الوضع الأمني تعني أن **السي آي إيه** مضطرة لتجاوز إجراءات الإخلاء المعتادة. لا وقت لنقله بين بيوت آمنة ولا لانتظار انحسار الخطر. كان تحت المراقبة منذ أسابيع، لذا سيغادر الثلاثة من هذا المنزل.

استلقى **سام** على السرير بملابسه، قلبه يخفق من الكافيين والأدرينالين. لو كانت المخابرات السورية قد قبضت على **كومودو**، فسيكون الدور التالي على **فال**. وما كان بوسعه سوى الانتظار. كانت المهنة، في جوهرها، انتظارًا متوترًا.

لكن الانتظار ذاته يصنع حافة حادة تدفع الكثيرين إلى الإدمان أو الانهيار. بعضهم غرق في الكحول، وبعضهم في الحبوب أو النساء. النهاية دائمًا واحدة: الطرد أو الجنون أو الموت.

تذكّر زميله من تدريب المزرعة، ضابط الغطاء غير الرسمي في **بيلاروسيا**، الذي وجدوه معلقًا في شقته بـ**مينسك**، تحته أرضية مغطاة بقوارير الفودكا وأمبولات المخدرات.

المهمة قادرة على سحقك.

قرابة الثانية بعد منتصف الليل، سمع **سام** بابًا يئن في مكان ما من البيت، ثم وقع خطوات في الممر.

وجد **ڤال** في المطبخ، ساقها تهتز بعصبية، ويدها المرتعشة تغرف البن في الإبريق. انسكب بعضه على الرخامة، فضربت بيديها عليها وصاحت:
- "اللعنة، اللعنة، اللعنة! ثلاث نوافذ... لقد فوت **كومودو** ثلاث نوافذ زمنية للاستلام![8]"

كانت أنفاسها متقطعة وهي تحاول السيطرة على نفسها. شغّلت الغلاية وجلست على الأرض، مسندة ظهرها إلى الخزائن. جلس **سام** إلى جانبها بصمت. لم يتبادلا كلمة حتى بدأ صوت الغليان يملأ الغرفة. كانت نحيلة مشدودة، تمامًا كما يتذكرها من بغداد، لكن شعرها الأشقر صار أطول بكثير. وضع ذراعه حولها، فأسندت رأسها إلى كتفه.

بعد دقائق نهض وجلب حقيبة حمراء من المقصورة السرية في السيارة، وألقاها إليها. فتحتها **ڤال** فوجدت جوازًا كنديًا جديدًا يحمل صورتها واسمًا مستعارًا، مع أدوات تنكر: شعر مستعار، نظارات، وبطن إسفنجي يزيد وزنها عشرين رطلًا.

قالت وهي تتأمل الصورة:
- "يا رجل، أبدو فظيعة وأنا بدينة سمراء!"

ضحك **سام** وقال:
- "أعرف. لذلك اخترت هذا الشكل بالذات."

ابتسمت، ثم عادت ملامحها إلى الجدّ:
- "يجب أن نمنحه بضع ساعات أخرى لإرسال الإشارة الطارئة. إن لم يفعل، نغادر."

***

[8] **نوافذ زمنية (Pickup Windows):** هي فترات زمنية محددة ومتفق عليها مسبقًا لتنفيذ عملية ما، مثل استلام معلومات أو لقاء عميل، لضمان التزامن وتقليل المخاطر.

جلسا على أرض المطبخ، ينتظران إشارة تفيد أن **كومودو** ما زال حيًا، ينتظران الفجر، أو اقتحام **المخابرات** للبيت. تبادلا المراقبة، لكن لم يستطع أيٌّ منهما النوم. كانا يفركان أعينهما المتعبة حين دوّى صوت معدني من الشارع.

صاح أحد المتظاهرين عبر مكبّر صوت:

"سِلمية! سلمية!"

وردّد الجمع الهتاف الذي تردّد صداه داخل البيت.

قال **سام**:

– "بدأت مظاهرات الجمعة."

أجابت وهي متعبة:

– "ساحة العباسيين تبعد بضعة شوارع شمالًا. اللجان المعارضة وصفحات فيسبوك دعت لاعتصام حتى سقوط النظام. لكنهم بدأوا باكرًا اليوم. علينا أن نغادر قريبًا."

نظر **سام** من النافذة فرأى الحشود تتدفق في الشارع.

قالت **فال**:

– "ستكون أكبر مظاهرة في دمشق حتى الآن... وربما الأكثر دموية."

ثم جلست ثانية ، طاوية ذراعيها على الطاولة:

– " أظن كومودو قد انتهي أمره ."

قال **سام** وهو ينهض واقفاً:

– "على الأرجح. لكن لنتحدث الآن عن أي شيء آخر سوى هذه العملية الفاشلة. علينا أن نرحل."

همّت بالحديث عندما نعقت الغربان في الخارج، فانتصب الشعر على عنق **سام** في الحال. أطبقت فمها، ورأى **سام** في عيني **ڤال** المتسعتين أنها شعرت بالاضطراب نفسه.

سلميّة، سلميّة.

وقفا كلاهما. صرَّ كرسي **سام** على الأرضية في الصمت المطبق.

سلميّة، سلميّة.

أَنَّ باب المنزل العتيق وهو يتحطم منخلعًا عن مفاصله.

الفصل الثاني

لم ترَ **مريم** حشودًا بهذا الحجم في سوريا إلا عندما كانت طفلة صغيرة. كانت مضغوطة بين أكتاف المتظاهرين وهي تقترب مع الموجة البشرية من **ساحة العباسيين**. رفع الناس لافتاتٍ مصنوعةً في البيوت، وكثيرون طلَوا وجوههم بألوان العلم، وبعضهم حمل صناديقَ تبريدٍ كما لو كانوا في نزهة. رجلٌ ضخم إلى يسارها كان يحمل كرسيًا قابلاً للطيّ، ورايةً صغيرة خضراء وبيضاء وسوداء بثلاث نجوم حمراء – رمز الثورة. وفي كل مرة يهتف أحد القادة في مكبّر الصوت، كان الرجل يرفع الراية عاليًا فوق رأسه. امرأة إلى يمين مريم كانت تمسك بيد طفلةٍ صغيرة يرتسم على قميصها الوردي كلمة **"الحرية"** بالإنجليزية. تبادلت مريم مع الطفلة نظرةً سريعة وهما تمرّان، فرفعت الصغيرة أصابِعها بعلامة النصر قبل أن تختفي في الزحام.

كانت الساحة تخفق بطاقةٍ هائلة، لكن قلب مريم كان يخفق بالخوف وحده. فهي تعمل في **القصر**، وتعلم تمامًا أن النظام لن يسمح لهذه الفوضى أن تدوم طويلًا. ومع ذلك، كان عليها أن تؤدي مهمتها.

من قلب الساحة تعالى صوت مكبّرٍ يصرخ: "سلمية، سلمية!"

ومن طرفها الجنوبي رأت مريم أن الساحة – التي هي في الحقيقة دوران مروري – قد اختفت تحت الأقدام. بحرٌ من الرؤوس والأكتاف والأعلام واللافتات غطّى الطرقات كلّها. كانت هناك لتحمي **رزان**، ابنة عمّها الحبيبة، الطائشة اللامبالية، السهلة الاتباع. كانت – على الأرجح – مغمورةً بشيءٍ من النشوة، ملفوفةً بعلم الثورة، تمشي نحو العباسيين[9] تحت لافتاتٍ من الكرتون تطالب بالحرية، بإلغاء قانون

---

[9] **العباسيين (Al-Abbassiyeen)**: إحدى أشهر الساحات والأحياء الحيوية في العاصمة السورية دمشق، وتُعتبر نقطة مواصلات رئيسية تضم "جراج العباسيين" الشهير.

الطوارئ، وبانتخاباتٍ جديدة. كل ذلك بدا معقولًا... لكنه – قانونيًا – خيانة.

كانت مريم تدرك ذلك، لكنها تابعت طريقها، تكتم رغبتها في الصراخ باسم ابنة عمّها لتعود إلى البيت. لو أنها فقط تجنّبت الساحة، وتجنّبت المظاهرة... *ثم ذهبتا لتحتسيا الخمر معًا، كما في الأيام الخوالي.*

لكن رزان تابعت المسير إلى قلب الساحة، حيث شُيِّد مسرحٌ مرتجل من قطع خشبٍ وأثاثٍ استعير من بيوتٍ مؤيّدةٍ للمعارضة. راحت مريم تمسح المكان بعينيها باحثةً عن رجال **المخابرات**[10]، ثم وقفت على مسافةٍ كافية من المسرح لتبدو كمجرد عابرة سبيل.

خرجت لأشتري الحلويات فقط، ورأيت صدفةً تلك التظاهرة الخائنة يا حضرة الضابط — تمرّنت في صمت على هذه الجملة بخزيٍ شديد. كانت رزان تضحك دومًا وتقول لها: *دائمًا احكي لحمير المخابرات قصةً جاهزة يا فتاة!*

توقفت مريم عند متجرٍ صغير للحلويات داخل الساحة. كان ضجيج الحشد يصمّ الآذان، أشبه ببهجةٍ جماعيةٍ لم تسمع مثلها في سوريا من قبل. فالتجمّعات الكبيرة لم تكن تُسمح إلا في المهرجانات الإجبارية التي كان الرئيس الراحل – والد الرئيس الحالي – يقيمها في الملعب القريب من الساحة.

كانت آنذاك طفلةً صغيرة وسط الجماهير، تردّد الهتافات التي تلقّنها لهم المسؤولون:

"صيدلي سوريا الأول!" و"فارس دمشق المقدام!"

وحين عادت إلى البيت، سألت أباها همسًا، وقد كبرت بما يكفي لتدرك أن هذه الأسئلة لا تُسأل علنًا:

– "هل الرئيس فعلاً صيدلي بارع؟"

ابتسم والدها بخوفٍ وهو يربّت على شعرها، ونظر حوله ثم همس في أذنها:

– "إنه كاذبٌ بارع يا حبيبتي."

---

[10] **المخابرات (Mukhabarat)**: يُطلق على جهاز الاستخبارات السوري **(Mukhabarat)** ، وتنطق بالانجليزية بنفس لفظها العربي.

صعد إلى المنصّة شابّان نحيلان وسيمان في الوقت نفسه، يهتفان بسقوط الرئيس وسط صيحات الحشد المؤيدة. لمحَت مريم رجلَ مخابراتٍ يرتدي سترة جلدية، يصوّر الناس بكاميرته. كان واحدًا من مئاتٍ مثلِه.

وحين كانت كثافة الحشد تثير فيها شيئًا من الطمأنينة أولًا، بدأ الرعب يتسلّل إليها تدريجيًا. جالت عيناها بين الوجوه حتى استقرتا على رزان عند أسفل المنصة. رأتها تستلم مكبّر الصوت من أحد المتظاهرين. فتحرّكت مريم فورًا. *آن أوان إنزال تلك الفتاة الغبية من المنصة قبل أن تهلك نفسها.*

لكنها ما إن تقدّمت حتى رأت ظلًا مظلمًا يمتدّ على الأرض أمامها، كأن حبرًا انسكب على التراب.

رفعت رأسها فرأت رجلاً يرتدي السواد فوق سطح متجر الحلويات. كان يلفّ وشاحًا على وجهه، ويمسك بسلاحٍ كبير. وضع يده على أذنه كأنه يصغي إلى جهازٍ لاسلكي، ثم نظر عبر الشارع إلى سطحٍ آخر، حيث رجلٌ آخر بملابس مشابهة يثبت مدفعًا على قاعدة ثلاثية.

على المنصّة، كان أحد الشابين يمسك مكبّر الصوت ويطالب الرئيس **الأسد** – رئيسها في العمل، تقنيًا – بإقرار أحزابٍ سياسية جديدة.

أما مريم فاختبأت خلف متجر الحلويات. مرّت أمامها لافتة كتب عليها بالإنجليزية:

"الحرية تبدأ بالولادة، في سوريا تبدأ بالموت."

ثم رأت شابًا وفتاة يتبادلان قبلة وسط الزحام، وامرأةً بدينة ترقص بمرحٍ فاضح أمام لافتةٍ كتب عليها:

"استيقظ يا أسد، انتهى زمنك!"

نظرت مريم إلى المسرح، فرأت **رزان** تصعد وهي تمسك بالمكبّر. دوّى الهتاف مجددًا. رفعت رأسها فلم تعد ترى القناصين على الأسطح. كانت رزان ترتدي بنطال جينز ضيقًا وقميصًا مطرّزًا بعلم الثورة، رفعت يدها متحدّيةً، وهتفت مطالبةً بالحرية، معلنةً أن الشعب يريد إسقاط النظام.

صرخت: "سلمية، سلمية!"

وردّد الحشد خلفها بصوتٍ واحد.

ثم علت صرختها الحادّة:

– "إنه جزار! طاغية! على الأسد أن يرحل... أن يستقيل فورًا!"

وفي تلك اللحظة حاولت مريم التحرك فعلًا، أحسّت بعضلاتها تتشنّج استعدادًا للجري، لكنها وجدت نفسها ملتصقةً بجدار متجر الحلويات، تشعر بريحٍ حادة تمرّ بجانبها مع اندفاع جنود المخابرات في الشارع.

أصابها الذهول مما قالته ابنة عمّها. شعرت كأنها تشاهد نفسها من خارج جسدها، وهي تصرخ في الهواء سلسلة شتائم موجّهة إلى رزان – الغبية، الشجاعة، المتهوّرة.

رأت عنصرًا من المخابرات في وسط الحشد يهمس في جهازه اللاسلكي. ثم دوّى طلقٌ ناري. ثم آخر. وثالث.

وسقط أحد الشابين على المنصة، يندفع من صدره غبارٌ أحمر ورديّ.

ألصقت مريم ظهرها بالجدار، وقد صار باردًا رغم حرارة الحجر.

ساد صمتٌ مفاجئ، وبدأت اللافتات تتهاوى والناس يركضون مذعورين.

ثم انطلقت بنادق المخابرات تمزّق الجموع.

كانت الطلقات أولًا متقطعةً مترددة، ثم انتظمت في إيقاعٍ دمويّ مع تزايد جرأة القتلة.

رأت فتاةً محجّبة ترفع ذراعيها لتصدّ هراوةً تهوي عليها.

ورجلَ مخابراتٍ يضرب آخر بهراوته ثلاث مراتٍ على رأسه حتى انفتح كالثمرة الناضجة.

حاول الرجل أن ينهض، لكن ساقيه لم تطيعا، فدفعه الضابط أرضًا وهشّم رأسه مرةً أخرى.

صرخت مريم بلا وعي:

– "ابتعدي يا رزان! تحرّكي!"

لكن رزان لم تكن تسمع، ولن تسمع على الأرجح.

صرخت رزان عبر مكبّر الصوت:

– "حرية! حرية! حرية!"

ثم دوّت البنادق من فوق الأسطح، طلقاتٌ عالية العيار تشقّ الأجساد واللافتات والأعلام.

تطاير شيءٌ دافئ على وجه مريم، فخفضت رأسها، تمسح عينيها وتلعن ابنة عمّها. لم تفهم ما هو إلا حين رأت الدم على أصابعها. تحسّست رأسها وصدرها وساقيها – كانت سليمة.

كانت الجماهير تهرب بجنون، والرصاص ينهال.

أما رزان فكانت ما تزال على المنصة، تمسك المكبّر كأنها تتشبث بالحياة نفسها، فيما يتدافع الناس من حولها كقطيعٍ من الظباء المذعورة.

قفز رجل ضخم من رجال المخابرات إلى المنصة، ملوّحًا بهراوته.

صرخت رزان من مكبّر الصوت بصوتٍ مبحوح:

– "حرية! نريد الحرية!"

ثم وضعت المكبّر أرضًا، ورفعت وجهها نحو جبل قاسيون، وأغمضت عينيها. وفي اللحظة التالية، هوت الهراوة على رأسها.

الفصل الثالث

همست **ڤال** وهي تحاول الانحناء داخل الحجرة السرية في سيارة لاند كروزر:
- "سام، لا أستطيع أن أجد لنفسي موضعًا، حقيبة السيارة هذه لا تتسع لي... إنّ كومودو قزم، وأنا طولي ستة أقدام!"

كان **سام** يضع يده على خاصرتها، دافعًا جسدها لتأخذ وضعية الجلوس القرفصاء داخل الصندوق الضيق المخفي في مؤخرة السيارة. تأوهت من الألم، وأطلقت شتائم مكتومة بينما كان يطوي أطرافها كما لو كان يشكّل ورقة أوريغامي. سمع من داخل المنزل أصوات صراخ وخطوات تقترب شيئًا فشيئًا. نادوا باسمها وهم يفتشون الغرف. لقد جاؤوا من أجلها.

أطلقت ضحكتها تلك التي يعرفها منذ بغداد، الضحكة التي كانت تقول من دون كلمات: *لقد انهار كل شيء*. ثم قفزت خارجة من الحجرة السرية. أحس بغصةٍ ثقيلة في صدره وسألها مرة أخرى إن كانت تريد المجازفة، وهو يعرف الجواب مسبقًا. قال مترددًا:
- "ربما أُقلك في المقعد الأمامي؟"

ردت بسرعة وهي تلهث:
- "سمعتَ ما كانوا يصرخون به في الداخل، لا مجال لذلك. معي جواز السفر الدبلوماسي، لديّ حصانة. سأكون بخير. أنتَ من سيكون في ورطة إذا أمسكوا بك."

أومأ برأسه. كان عليه أن يعرض الأمر، لكن كليهما يعرفان ما يجب فعله. قبّلها على خدّها، فابتسمت ابتسامة شاحبة وضغطت على الزر المثبّت على الحائط. بدأ باب المرأب يئنّ وهو ينفتح ببطء. قالت له بصوتٍ ثابت وهي تهمّ بالعودة إلى

الداخل:

– "مشروباتنا معًا في الوطن بعد أسابيع قليلة."

ثم استدارت وعادت إلى المنزل الآمن.

***

[أصوات غير مفهومة، أوراق تُقلب]

– "هل هذا يعمل؟"

[استجابة مكتومة، ضجيج]

– "أفضل؟ حسنًا. هذه هي المقابلة الثانية المشتركة بين قسم مكافحة التجسس وقسم الأمن مع الضابط العملياتي من الدرجة GS-12[11]، صامويل جوزيف (سام)، بعد عودته من دمشق. نحن الآن في محطة عمّان، اليوم هو السادس والعشرون من مارس، الساعة الواحدة بعد الظهر بالتوقيت المحلي. المرجع هو البرقية رقم 2345 التي تتضمن النصف الأول من إفادة السيد جوزيف حول عملية الإخراج من سوريا."

المحققان هما تيم ماكمانوس من مكافحة التجسس ولويد كريغ من الأمن.

– "سنراجع مجموعة من الأسئلة بناءً على فهمنا للعملية."

س: "اذكر اسمك الكامل للتسجيل."

ج: "صامويل جوزيف."

س: "قالت لك ڤاليري أوينز إن العميل كومودو فاته ثلاث مواعيد لالتقاطه؟"

ج: "ناقشنا هذا من قبل، تيم. نعم، قالت إنه فاتها جميعًا."

س: "وكانت عملية المراقبة العكسية ذات اتجاه واحد؟ كانت ستغادر سوريا معك؟"

ج: "تيم، أشعر أننا نعيد ما قيل."

[أوراق تُقلب، همهمة غير واضحة]

---

[11] **GS-12**: هو نظام لتصنيف الدرجات الوظيفية والرواتب في الوكالات الاستخباراتية الأمريكية، وتشير الدرجة 12 إلى موظف في المستوى المتوسط إلى المتقدم يمتلك خبرة كبيرة.

س: "هل تحدثت عن المراقبة العكسية بعد وصولها إلى المنزل الآمن؟"

ج: "لا."

س: "هل هذا غير مألوف؟"

ج: "ليس إن كانت العملية ناجحة. لو شعرت ڤال بأنها مكشوفة، كانت ستلغي العملية وتعود إلى البيت."

س: "كيف تعرف هذا؟"

ج: "عملت معها من قبل، في بغداد. اللعنة يا لويد، نحن—"

س: "سام، يجب أن نكمل الأسئلة. وصلتنا أسئلة إضافية من المقر قبل ساعة."

ج: "حسنًا، حسنًا. كانت ڤال ضابطة عمليات استثنائية. حصلنا على شهادة العمل في المناطق المحظورة معًا. إذا وصلت إلى المنزل الآمن، فهذا يعني أنها اعتبرت نفسها في الظل."

س: "هل كنت تعرفها جيدًا؟"

ج: "نعم. كنا قريبين."

[أصوات هامسة، سعال]

س: "هل كنتَ على علاقة عاطفية معها في أي وقت؟"

ج: "لا."

س: "شكرًا. ولم تلاحظ شخصيًا أي مراقبة أثناء وجودك في سوريا؟"

ج: "لم ألاحظ."

س: "هذه خريطة المنزل الآمن. هل يمكنك الإشارة إلى نقاط الاقتحام؟"

ج: "دخلوا من الباب الأمامي هنا. استخدموا مطرقة اقتحام فيما أظن. كما كسروا نافذة على الشارع. وبالسرعة التي وصلوا بها إلى المرأب، أظن أن بعضهم قفز من فوق الجدران إلى الفناء، لكنني لست متأكدًا. كانوا يتدفقون كالسيل. ركضنا نحو السيارة عبر هذا الممر إلى الفناء، وأظن أنني سمعت بعضهم يتسلق الجدار حينها. وصلنا إلى المرأب و..."

س: "انتظر يا سام، المقر سأل عن هذا تحديدًا. لماذا لم تهربا معًا وهي في المقعد الأمامي؟"

ج: "ڤال وأنا نتحدث العربية بطلاقة. سمعنا فريق المخابرات يصرخ العبارة نفسها وهم يفتشون: 'إنها ليست هنا'، كانوا يستخدمون اسمها. جاؤوا لأجلها، لا لأجلي. لم نجرؤ أن يرانا أحد معًا."

س: "إذًا حاولتما استخدام الحجرة السرية في السيارة؟"

ج: "نعم، لكنها لم تتسع لها."

س: "وماذا فعلتما بعد ذلك؟"

ج: "اتخذنا قرارنا. هي تبقى وتتحمل المواجهة لأنها تملك الحصانة الدبلوماسية. سيستجوبونها ثم يعلنونها شخصًا غير مرغوب فيه وتعود."

س: "وماذا لو أمسكوا بك؟"

ج: "سأختفي للأبد في زنزانة سورية، وأنا أحمل جوازًا كنديًا سياحيًا. القرار كان صائبًا من الناحية العملياتية، وأي لجنة مراجعة ستحكم بذلك."

س: "لسنا نعارض القرار يا سام. كانت حقيبتك بالفعل في السيارة، ماذا حدث بعدها؟"

ج: "فتحت باب المرأب، وانطلقتُ بالسيارة متجهًا نحو الحدود."

س: "ولم يروك؟"

ج: "يبدو أنهم لم يعرفوا أن للمنزل مخرجًا عبر المرأب. حسب علمي، لم يرَ أحد السيارة."

س: "ذكرت لرئيس المحطة في عمّان أنك سمعت شيئًا أثناء مغادرتك؟"

ج: "نعم."

س: "ماذا سمعت؟"

ج: "سمعتُ ڤال تصرخ."

***

أوقف **سام** التسجيل على الحاسوب. لاحظ أن أصابعه تدق على الطاولة بلا وعي، فشبك يديه في حجره وحدّق في الجدار، بينما صرخة **ڤال** تطنّ في ذاكرته.

في مكتب **إد برادلي**، رئيس قسم الشرق الأدنى، لم تكن هناك صور تذكارية كما يفعل معظم ضباط العمليات. على الرف خلفه بضع هدايا من أصدقاء، منها قبعة

جندي أسترالي مطوية ونموذج بندقية *كلاشينكوف* تعود لخالد شيخ محمد، لكنّ فخره الأكبر كان نظام صاروخ *ستينغر* معطّل، تلقّاه تكريمًا لقيادته البرنامج ضد السوفييت في أفغانستان.

جلست عند الطاولة أمامه **آرتميس بروكتر**، رئيسة محطة دمشق العائدة إلى لانغلي لمعالجة تداعيات القبض على **ڤال أوينز**.

كانت قصيرة القامة، بالكاد تبلغ المتر والنصف، شعرها الأسود المتشابك يتطاير كأنه مشحون بالكهرباء، وبشرتها شاحبة مكسوة بنمشٍ خفيف. جسدها صغير لكن مشدود بالعضلات. كان زملاؤها يقولون عنها إنها "أرنب طاقة متوترة"، سريعة، لا تتوقف.

فتح **برادلي** الترمس وأخذ رشفة من القهوة. قال:
– "صرخة **ڤال** ... أي نوع كانت؟"

أجاب **سام** بجمود:
– "صرخة ألم. لقد انهالوا عليها ضربًا."

رفع نظره نحو **بروكتر** وسألها:
– "هل من خيط؟"

قالت:
– "واحد فقط. وصلتنا إشارة البارحة. تمّ اعتراض اتصال يفيد بأن وكالة مخابرات تُدعى مكتب *الأمن* اعتقلت أمريكية. المعلومة غير مؤكدة بعد، لكنها تبدو معقولة."

قال سام متعجبًا:
– "لم أسمع من قبل بهذا المكتب."

أجابت:
– "ولا نحن. لكننا وجدنا إشارات إليه في وثائق مسروقة من أواخر العام الماضي. يبدو أن الأسد أراد جهازًا يراقب الأجهزة الأخرى، فعيّن اللواء **علي حسن** رئيسًا له

ومنحه سلطات واسعة داخل القصر. الرجل ابن النظام حتى النخاع. أخوه **رستم حسن** يقود الحرس الجمهوري[12]."

قال **برادلي**:

– "إن كان السوريون يحتجزونها، فذلك خبر جيد. يمكننا الضغط دبلوماسيًا."

قالت **بروكتر** بحدة:

– "حذرنا الأسد عبر القنوات الخلفية من أننا سنحمّل النظام المسؤولية إن حدث لها مكروه. لكنهم ينكرون وجودها لديهم. البيت الأبيض والكونغرس قد يقبلان بترك موظفينا في السجون أسابيع، أما أنا فلا. إن حصلت على رقم هاتف علي حسن، سأتصل به بنفسي."

قال **سام** متوترًا وهو يفكّ ربطة عنقه:

– "وهل لا نهددهم مطلقًا؟ هذا عبث. إنها محتجزة بطريقة غير قانونية."

حدّق فيه **برادلي** بصرامة:

– "فخامة الرئيس لديها سياسة أشمل تجاه سوريا، ولا يمكن أن تطيح بها من أجل أحدنا. معها جواز دبلوماسي، وسنعيدها قريبًا."

قال سام بمرارة:

– "وحتى ذلك الحين سنكتفي بالتحذيرات دون عقاب؟"

أجاب **برادلي** وهو يملأ فنجانه مجددًا:

– "أتفق معك، لكن تلك سياسة البيت الأبيض الآن. ننتظر. لن يمسوها بأذى، سيحتجزونها فحسب ويطرحون أسئلة. ثم سيطلقون سراحها. ومع ذلك، إن عثرت وكالة الأمن القومي على رقم حسن، فلن أتردد في الاتصال به."

ثم نظر إلى الساعة وقال:

– "عليّ الذهاب. عندي جلسة مساءلة مطولة على التلّ."

---

[12] **الحرس الجمهوري (Republican Guard):** قوات نخبة عالية التسليح والتدريب في الجيش السوري، مهمتها الأساسية حماية العاصمة دمشق والقصر الرئاسي وضمان أمن النظام.

سأل **سام**:

- "مع لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ؟"

قال برادلي بابتسامة متعبة:

- "نعم، أولئك 'الساسيز' بأنفسهم."

صافح **سام**، وغادر. بقي الأخير يتأمل صاروخ ستينغر في الزاوية قبل أن يقول:

- "سمعت أنها مجنونة قليلًا."
- "بروكتر؟"
- "نعم."
- "هي شيء آخر تمامًا. على فكرة، هل عندك خطط للعشاء الليلة؟"
- "لدي دجاجة مشوية وست علب بيرة في ثلاجتي الفارغة."
- "جميل. أحضر الجعة وتعال إلى المزرعة للعشاء معي ومع أنجيلا. لديّ لك مفاجأة."
- "ما هي؟"
- "إلهاء بسيط."

***

قاد **سام** سيارته ساعتين تقريبًا عبر زحام الطرق السريعة حتى وصل إلى مزرعة **برادلي**. كانت التلال الزرقاء تلوح في الأفق تحت شريطٍ برتقالي من غروب الشمس. ثلاثة خيول ترعى قرب السور الحجري. حين نزل تذكّر أنه نسي إحضار الجعة، لكنه لم يكد يقرر العودة حتى فتحت **أنجيلا برادلي** الباب مرحّبة به بابتسامة دافئة.

- "أهلًا يا سام!"

عانقته وأدخلته إلى المطبخ. قالت وهي تفتح زجاجتين من كورزلايت وتدفع إحداهما إليه:

- "إد في الأسفل، في الصندوق كالعادة."

كانت تقصد المنشأة الآمنة في القبو، حيث يمكنه استقبال مكالمات سرّية وقراءة البرقيات من بيته. كانت تكره ذلك المكان، ولهذا أصرت على العيش في المزرعة رغم بُعدها.

جلست على الطاولة، وبدأت تسأله:

– "كيف حال العائلة؟"

– "بخير."

– "وصديقاتك؟"

– "لا توجد الآن."

– "خسارة. وأين ستكون وجهتك التالية؟"

– "القرار بيد الكبار."

– "يجب على إد أن يحسم أمره إذًا."

هزّ رأسه ضاحكًا. أعلنت أنها ستعدّ شرائح لحم، فامتلأ المطبخ برائحة الزبدة والحديد المحمّى. حين صعد إد من القبو، أوقفته زوجته قائلة:
– "تعرف القواعد، نصف ساعة بلا أحاديث عمل."

أجاباها بصوتٍ واحد:
– "نعم يا سيدتي."

فأشارت لهما بإصبعها الأوسط وضحكت.

وبعد أن نالت أكثر من وقتها المعتاد، خرج إد وسام إلى الشرفة الخلفية يحملان مبردًا فيه ست عبوات بيرة. جلسا في صمت لدقائق، ثم تبادلا قصصًا من القاهرة وذكريات زملاء قدامى.

قال إد أخيرًا:

– "لديّ مهمة لك قد تخرجك من كآبة قصة فال."

– "ما هي؟"

– "محاولة تجنيد في باريس. وفد من القصر السوري سيلتقي مع معارضين

هناك. فرصة نادرة. أنت الأنسب: تتحدث العربية بطلاقة، وخبرة في تجنيد سوريين. حدّد الهدف المناسب منهم."

قال سام مبتسمًا:

– "هل محطة باريس غير مهتمة؟"

– "نريد إبقاء الفرنسيين خارج اللعبة. العملية حساسة."

– "جميل. أخيرًا مكان لطيف بدل الجحيم المعتاد. هل يمكنني إحضار *الباندي*تو*ز*؟ يعرفون باريس وسيفيدوننا في المراقبة."

*الباندي*تو كان الاسم الرمزي للأشقاء **كساب** الثلاثة: إلياس، يوسف، ورامي. سوريون أمريكيون يعملون دعمًا ميدانيًا للمحطة.

قال إد:

– "أحضرهم. وحجزت أيضًا محللين لمساعدتك. خذ ليلتك وفكّر بالأمر. لو نجحت بتجنيد أحد من القصر، ستكون ضربة كبيرة."

وقف ليستعدّ للنوم، لكن سام استوقفه:

– "إد، بخصوص مهمتي القادمة، لدي اقتراح."

– "نعم؟"

– "ماذا عن دمشق؟"

توقّف إد عند الباب، ينظر إلى الجبال البعيدة.

قال سام بثبات:

– "أنتم بحاجة لرجال أكفاء هناك. إنها منطقة صعبة ولا تصلح للعائلات. أنا حرّ من هذه القيود. يمكنني أن أساعدك أنت وبروكتر."

– "هل هذا بدافع الانتقام من السوريين؟"

– "بل لأكون نافعًا حيث يلزم. كما قلتَ، نحن عميان داخل سوريا. لغتي العربية جاهزة، ولن أحتاج دورة تدريبية. أريد المنصب."

ابتسم إد وقال:

– "بروكتر صارمة."

– "فلْتكن."

– "قد تجعل حياتك جحيمًا."

– "هناك حرب أهلية، لن يكون شيء سهلًا أصلًا."

أطلق إد ضحكة قصيرة وقال:

– "تمّ. دمشق إذًا. سنبدأ الإجراءات غدًا."

أغلق الباب خلفه، وبقي سام على الشرفة يحتسي بيرة جديدة، يحدّق ـفي العتمة. ثم عادت إلى ذهنه صرخة **فال**، تخترق السكون قبل أن تتلاشى ـفي ليلٍ دافئ.

***

في اليوم التالي، توجّه **سام** إلى مكاتب المحلّلين ـفي مبنى المقرّ الجديد، ذلك الصندوق الفولاذي الزجاجي المواجه لخرسانة المبنى الأصلي للمقرّ. كان مركز قاعة الاجتماعات الأمامية طاولة من الخشب المقلّد تحيط بها كراسٍ دوّارة صادرة عن الحكومة: بعضها حديث ومريح، وبعضها الآخر يئنّ ويتأوّه كأنّه من عهد الرئيس **كارتر**.

على الجدار علّقت أربع ساعات تُظهر التوقيت ـفي **واشنطن العاصمة**، و**الرباط**، و**تل أبيب**، و**بغداد** — وهي تقريبًا الحدود الجغرافية لقسم التحليل المتخصّص ـفي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. كانت كل ساعة منها تتأخر بين أربع وسبع دقائق، على نحوٍ يبعث على السخرية. أمّا الجدار الداخلي فقد تناثرت عليه جوائز وشهادات تقدير عشوائية، كثيرٌ منها قديم العهد:

"وسام الوحدة المتميّزة – اتفاقيات كامب ديفيد"،

"رئيس الفريق المتميّز للعام – إيرين يازغال"،

وأخرى غامضة أو تافهة ـفي ظاهرها، كـ"مقالة المراجعة الاستخباراتية العالمية للشهر – جيمس ديبمان".

كان ـفي القاعة محلّلان اثنان يتجادلان، لكنّهما نهضا لاستقبال **سام** عند دخوله.

كانت **زيلدا زيدان** نحيلة القوام، ذات شعر أسود فاحم يصل إلى كتفيها، وأنف حادّ مستقيم أقرب إلى الطراز الروماني. ترتدي بذلة سوداء غير مناسبة تمامًا لمقاسها، تعقد حول عنقها وشاحًا ورديًّا.

أمّا **جيمس ديبمان**، فكان بدينًا، مرتديًا قميصًا أبيض قصير الأكمام وربطة عنقٍ برتقالية فاقعة اللون. مدّ يده الرطبة لمصافحة **سام** الذي لم يجد بدًّا من قبولها، ثم أشار إليه بالجلوس.

دفعت **زيلدا** كومة ضخمة من الأوراق والمجلّدات عبر الطاولة نحوه.

قال **ديبمان**:

– "هذا إنتاج فريقنا خلال الأشهر الستة الماضية، يجدر بك قراءته."

ثم استرخى في مقعده يعبث بغطاء شارة الهوية الزرقاء المتهالك حول عنقه.

كانت **زيلدا** تراقبه بعينٍ ضيّقة، ثم قالت:

– "نحن نعلم أنّك قضيت مهمّات عديدة في الشرق الأوسط، لكن لم تزر سوريا من قبل. فما الذي سيكون أكثر فائدة أن نبدأ به؟"

قال **سام**:

– "الإيجاز المعتاد الذي تقدّمونه لضبّاط الميدان."

كان يعرف سوريا على نحوٍ عامّ من خلال خدمته في العراق، لكنه لم يطّلع بعمق على التحليل الاستخباراتي الخاصّ بها.

أضاءت عينا **ديبمان** حماسًا، فدفع أوراق ملاحظاته جانبًا، وتمتم نحو **زيلدا**:

– "أظنّه منسّق أكثر من اللازم."

ثم سعل، وشرب جرعة من الماء من زجاجة كبيرة، وفرقع مفاصله قائلاً:

– "قصّتنا تبدأ عام 1930."

تدحرجت عينا **زيلدا** ضجرًا.

***

كان ذلك عام ولادة **حافظ الأسد**، والد الرئيس الحالي، واعتقد **سام** أنّه تاريخ مبكر جدًا لبدء السرد.

قالت **زيلدا** غاضبة:
– "تبًّا لك يا ديبمان، دائمًا تبدأ من هذا التاريخ البعيد! فلنبدأ من الحرب، من الأشياء ذات الصلة."

ثم أزاحت خصلة شعرٍ عن وجهها وقالت:
– "الحقيقة أنّ سوريا قبل الحرب كانت شيئًا هشًّا للغاية. نعم، كانت تبدو مستقرة"
— وأشار **ديبمان** بعلامتي اقتباس في الهواء — "لكن الدولة نفسها كانت قد فرغت من الداخل. لا نفط لديها، لذا لم يكن بوسع الأسد أن يُرضي الشعب بالأموال أو يغدق عليهم الرشى. المحسوبيات كانت محدودة وتذهب لعدد قليل من المقرّبين، أغلبهم من عائلة الأسد نفسها. وهذا أغضب الناس. جميع شركات الاتصالات مملوكة لابن عمّ الرئيس مثلًا. أضِف إلى ذلك جفافًا شديدًا في الشمال والشرق دفع أكثر من مليون إنسان نحو الغرب، إلى أحياء الصفيح المحيطة بالمدن الكبرى. كلّ ذلك كان مزلزلًا للاستقرار. أجهزة الأمن قاسية، منتشرة في كل مكان. تحتاج موافقتهم لتضيف طابقًا إلى منزلك، أو لتتزوّج حتى. أمور يومية صغيرة، لكنها أرهقت الجميع."

قال **ديبمان** وهو يرفع حاجبيه بإعجاب مصطنع:
– "قسوة يومية، مبتذلة تمامًا."

نظرت إليه **زيلدا** كأنها تكاد تخنقه بسلسلة بطاقته، بينما فكّر **سام** أنّ ربطة عنقه البرتقالية كانت أكثر إغراءً لذلك.

فتح أحدهم باب القاعة وأغلقه سريعًا.

قالت **زيلدا**:
– "أين كنت؟ آه، نعم." ثم شربت ماءً وأكملت:
– "ثورات تونس ومصر اشتعلتا، ففكّر بعض السوريين: لِمَ لا نحن أيضًا؟ البلاد كانت كالحطب اليابس، لا ينقصها سوى شرارة. اندلعت احتجاجات صغيرة في

دمشق، بلا نتيجة. ثم واحدة في الجنوب، في بلدة عشوائية تُدعى درعا. زرتها مرة، لم تكن مدينة سعيدة. المخابرات عذّبت مجموعة أطفال. وانفجر كلّ شيء: مظاهرة، فقتلى، فجنائز، فقتلى مجددًا. دورة لا تنتهي. اتّسعت الاحتجاجات لباقي المدن حتى صارت حركة وطنية. كانت المظاهرات هائلة، عشرات الآلاف في يوم جمعة واحد في حماة. صور الأقمار الصناعية مذهلة. وبشار؟ لم يكن يعرف كيف يتصرّف. كان يمكنه ببساطة أن يقتحم بالسلاح ويقضي على المحتجين كما فعل والده في حماة عام 1982، حين دمّر معظم المدينة لقمع تمرّدٍ مسلّح."

قال **ديبمان** وهو يرسم بيده حركة نحر على عنقه:

– "أكثر من عشرة آلاف قتيل، ولا أحد يعرف العدد الدقيق."

زفرت **زيلدا** بضجر وقالت:

– "ما بالك يا ديبمان؟ كن جادًّا. المهم أنّ النظام لم يفعل ذلك في البداية، بل تردّد. كان متحفّظًا في بعض المراحل الأولى، على عكس ما روّجت له وسائل الإعلام. قدّم تنازلات سياسية باهتة لم تُرضِ أحدًا. أحيانًا كان يطلق النار عمدًا، وأحيانًا عرضًا، وأحيانًا لا يطلق النار أصلًا ويترك المظاهرات تمضي. ثم في النهاية تحوّل إلى حملة عسكرية شاملة، بعد أن نفدت الخيارات. شعارهم الضمني صار: اقتلوا الجميع."

قال **ديبمان** وهو ينظّف نظارته:

– "كان الأمر مربكًا فعلًا. النظام أحرق جسوره بنفسه، ولم يعد أمامه سوى القتال حتى النهاية."

قالت **زيلدا**:

– "والنتيجة؟ بدل أن يقضي على المعارضة، قوّاها، لا سيّما العناصر الإسلامية والجهادية المتشددة. العنف منحهم مبرّرًا لطلب السلاح. كما أنّه عمّق الانقسام الطائفي والعرقي. انحازت الأقليات – المسيحيون، العلويون، الدروز – نحو النظام، بينما اتّجهت الأغلبية السُنّية ضده. عائلة الأسد علويّة كما تعلم. سوريا بلد متنوّع حقًا؛ فالمسيحيون والعلويون مثلًا يشكّلون نحو عشرة بالمئة لكل فئة من السكان. النظام أجاد ربط معظم الأقليات – بل وبعض الأغنياء من السُنّة أيضًا – به؛ لأنهم ببساطة لا يملكون خيارًا آخر. ثم تحوّلت الدولة إلى ميليشيا متطرّفة بحدّ ذاتها."

قال **ديبمان**:

– "لكنّهم بدل أن يعبدوا الله، صاروا يعبدون بشّار."

قالت **زيلدا** بصرامة:

– "هاوية هائلة بين مؤيدي النظام ومعارضيه."

ضحك **ديبمان** قائلًا:

– "على سبيل المثال، الجانب الموالي لديه كهرباء وطعام، والمعارض لا."

تابعت **زيلدا**:

– "يهتم صانعو القرار بعدّة مؤسسات في سوريا. أوّلها القصر الرئاسي، وهو عمليًّا مكتب بشّار الشخصي، يضمّ مستشاريه وكبار المكلّفين بالتنسيق مع أجهزة الدولة. وقد أنشأ مؤخرًا ما يُسمّى مكتب الأمن لإدارة مهام المخابرات الحسّاسة، برئاسة **علي حسن**. ثانيها الحرس الجمهوري، وهو القوة العسكرية الأهم في البلاد، بقيادة **اللواء رستم حسن**، شقيق علي. رستم هو رأس الحربة، وذراع بشّار المنفّذة داخل مركز الدراسات والبحوث العلمية، المعروف بـ **SSRC**[13]. لقد ركّز النظام السلطة في يديه لأن مؤسسات الدولة تضعف بسبب الانشقاقات واغتيالات المعارضين."

سأل **سام**:

– "فإلى أين تتجه المعركة برأيكم؟"

وقفت **زيلدا**، ضمّت يديها خلف ظهرها، ونظرت من النافذة قائلة:

– "النظام باقٍ. لأنّه أعمق من عائلة الأسد، ومن الطائفة العلوية، ومن جهاز القمع نفسه. لقد تمكّن من تشريب الدولة والمجتمع إلى درجة جعلته أقوى مما ظنّ الجميع. لديه الموارد، الولاء، والوحشية اللازمة للبقاء. أمّا عن المستقبل، فالأمل انتهى، والاحتجاجات تحطّمت. المفاوضات مجرّد واجهة. لا تسوية ممكنة. فكل طرف يؤمن أنه لا بدّ أن ينتصر."

---

[13] **SSRC (Scientific Studies and Research Center)** هو مركز الدراسات والبحوث العلمية في سوريا: وهو الجهة الحكومية المسؤولة عن البحث والتطوير للأسلحة المتقدمة، بمافي ذلك الصواريخ والأسلحة الكيميائية.

قال **ديبمان**:

– "وكلا الطرفين يظنّ أنه قادر على ذلك — الجهاديون الذين يقودون التمرّد ميدانيًّا، والأسديون، الميليشيا المتنكّرة في هيئة حكومة. أما الناس العاديون، الساعون للبقاء، فيُرغمون على الاختيار بينهما."

أطلّ رأسٌ من الباب، وصاح صوت حادّ:

– "أنتم متأخّرون خمس دقائق، هذه القاعة محجوزة!"

قالت **زيلدا** وهي تجمع الملفات:

– "إنها معركة حتى الموت، يا سام. إنها الأوكتاغون."

***

في ذلك المساء، ساعدت **زيلدا سام** في إجراء عمليات بحثٍ بيولوجي وتحقيقٍ حول السوريين المسافرين إلى باريس مع وفد القصر. وصلت نتائج التتبّع من ضابط عمليات قسم سوريا في وقتٍ متأخر من الليل. أكل الاثنان نقانق من آلة البيع التابعة لشركة **هورمل** في مبنى المقرّ الأصلي. كانت وكالة الاستخبارات المركزية المكان الوحيد الذي رأى فيه **سام** آلة تبيع النقانق، وقد تمنّى لو التقط صورة لها، لكن التصوير ممنوع داخل المبنى.

جلس بجانب **زيلدا** وسط متاهة مكاتب المحلّلين، وأخذ قضمة من النقانق بينما قرأ نتائج البحث عن إحدى المسؤولات، **مريم حدّاد**:

1. ***نتائج التتبّع (1 من 2):*** *تشير التقارير إلى أنّ المذكورة مواطنة سورية تعمل مستشارة سياسية في القصر، وتتبع مباشرةً لمستشارة الرئيس* ***بُثينة نجّار****. تفيد المصادر بأنّ عمرها اثنان وثلاثون عامًا، وهي مسيحية سورية. كما تذكر أنّها على اتصال منتظم بمسؤولين كبار في القصر، بمن فيهم الرئيس* ***الأسد*** *والمستشار* ***جميل عطية****.*

2. ***نتائج التتبّع (2 من 2):*** *تفيد التقارير بأنّ والدتها كانت قائمة بالأعمال في باريس قبل تقاعدها. أما والدها،* ***اللواء جورج حدّاد****، فيقود الفيلق الثالث في الجيش*

*السوري المتمركز حاليًّا في **حلب**. وتشير تقارير أخرى إلى أنّ عمّها، **العميد داوود حدّاد**، يخدم في فرع 450 من مركز الدراسات والبحوث العلمية **SSRC**.*

3. **قسم مكافحة التجسس** يوصي بفتح اتصالٍ تطويري مع المذكورة رهن موافقة قسم الشرق الأدنى.

قال **سام**:

– "ذات علاقات واسعة."

قالت **زيلدا** وهي تمضغ قلمها:

– "ابنة حقيقية للنظام. تحتاج إلى عائلة كهذه لتعمل في القصر."

استدار **سام** نحوها وقال:

– "قد تكون مريم مثيرة للاهتمام. المسؤولون المتوسطو المستوى غالبًا ما يملكون وصولًا واسعًا، دون أن يكونوا متورّطين بعمق في النظام. وإن تمكنت من الحصول حتى على معلوماتٍ عارضة من عمّها، فقد نصل إلى برنامج الأسلحة الكيميائية. هل يمكنك فتح تقارير الـREF؟"

أومأت **زيلدا** وبدأت التنقّل بين قواعد بيانات الاستخبارات المتداخلة والمتشعّبة، كأنها خرائط دوائر متقاطعة. اقتربت من الشاشة تكتب بسرعة، ثم قالت بعد دقائق:

– "وجدت شيئًا."

اقترب **سام** خلفها ليرى. كان تقريرًا مسروقًا من المخابرات السورية يصف احتجاجًا في دمشق. فحص التاريخ: الخامس والعشرون من مارس، اليوم الذي اعتُقلت فيه **فال**. ذكر التقرير أن المخابرات ألقت القبض على شابة تُدعى **رزان حدّاد**. توقّف عن القراءة.

قال:

– "اللقب شائع، مثل اسم (سميث)."

قالت **زيلدا**:

– "أعلم، لكن انظر إلى نهاية التقرير، هناك تعليق من كاتبه."

قرأ **سام** بصوتٍ منخفض:

"تم الإفراج عن الموقوفة بناءً على طلبٍ رسميّ تم تتبّعه إلى ضابط أمن سياسي تابع للفيلق الثالث."

قال **سام**:

– "وحدة والد مريم."

قالت **زيلدا**:

– "تمامًا. ولا أظنّ أن أحدًا غيره في حلب سيتّصل بفرع المخابرات في دمشق ليطلب الإفراج عن فتاة مجهولة."

قال **سام**:

– "أفراد العائلة المعتقلون يشكّلون دائمًا وقودًا جيدًا للتجنيد. كان لديّ عميل في السعودية أخوه تعرّض للتعذيب. لم يتكلم، لكنه عمل جاسوسًا لصالحنا خمس عشرة سنة بدافع الانتقام الصامت."

أنهى النقانق وقال بابتسامة باهتة:

– "لقد وجدنا ضالتنا."

الفصل الرابع

كانت **مريم** تحدّق في صورة **فاطمة وائل** المثبتة على الملف الأصفر الباهت المستقر فوق الطاولة.

الصورة، المأخوذة أثناء آخر سجنٍ لفاطمة على يد المخابرات، بدت مهترئة الحواف. مرّرت مريم أطراف أصابعها على حدودها، وواجهت بعينيها نظرة فاطمة المليئة بالشجن.

تلك العيون التي كانت تبدو عادةً ميتة في ألبومات المخابرات، غير أنّ عيني فاطمة حملتا صلابة امرأةٍ تلقت ضربات عمرٍ كامل وما زالت واقفة.

وضعت مريم الصورة جانبًا، وأعادت تصفح محتوى الملف بينما كانت رئيستها تتحدث عبر الهاتف.

الصفحة الأولى: ملخص لاعتقالات فاطمة.

أغلبها جاء بموجب قانون الطوارئ القديم الذي منح الدولة سلطة مطلقة لمحاكمة جرائم غامضة، منها "التحريض على الفتنة" – أي المشاركة في احتجاج سلمي – و"التعاون الخبيث مع قوة أجنبية" – أي إجراء محادثات سياسية مع السفير الفرنسي في دمشق.

كان الملف لا يقلّ عن خمس بوصات سُمكًا، يضم كل تقريرٍ كُتب عن فاطمة منذ أوائل التسعينيات، حين كانت في الثانية والعشرين من عمرها وقد تورطت – عن تهوّر – بنشر مقالٍ في صحيفةٍ يدعو إلى استقالة الأسد الأب.

خمس سنواتٍ في السجن بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٨. التهمة: التحريض على الفتنة.

أما الآن، ففاطمة تعيش في المنفى بين فرنسا وإيطاليا، امرأة سورية شجاعة تقود المعارضة في الخارج، تحظى باحترامٍ كبير بين كثيرٍ من الفصائل المقاتلة على الأرض، وشوكة دائمة في خاصرة الأسد.

أغلقت مريم الملف حين أنهت رئيستها، المستشارة السياسية **بثينة نجّار**، مكالمتها الهاتفية.

كانت بثينة قد أوكلت إلى مريم مهمة التفاوض مع المعارضين المقيمين في الخارج، ولا سيما مع **المجلس الوطني**[14]، وهو المظلّة التي تدّعي تمثيل المقاتلين في الداخل. كان هدف مريم بسيطًا في مظهره: إقناعهم بالتخلي عن المقاتلين الإسلاميين الذين باتوا يقودون الحرب الأهلية، والتبرؤ من زملائهم المنفيين، ثم العودة إلى الوطن حيث ستُمنح لهم السلامة والعفو مقابل الصمت.

كانت تلك المهمة أهمّ ما كُلّفت به حتى الآن، وبوابة محتملة إلى مرتبةٍ أعلى.

جلست بثينة إلى الطاولة بجوار مريم، وفتحت ملفها الخاص بفاطمة، ثم بدأت – كعادتها حين تركز – بمضغ ذراع نظارتها من **غوتشي**.

قالت:

– "إذن، ما رأيكِ في فاطمة يا مريم؟ من أي زاوية نقترب منها في باريس؟"

ملست مريم تنورتها البيج وسحبت تقريرًا من الملف.

قالت بثقة:

– "المخابرات الإيرانية وفّرت تغطية ممتازة لشقة فاطمة في باريس وفيلا توسكانا. ومن الواضح أن فاطمة تفتقد سوريا. تعيش في رفاهية هناك، لكن دمشق تبقى وطنها. ستقبل التفاوض... ولكن الثمن يجب أن يكون باهظًا."

ارتشفت رشفة من قهوتها ثم قلّبت في التقارير. توقفت عند واحدٍ كانت قد طوته بعناية في الليلة السابقة، وهي جالسة على سريرها بقمصٍ طويل، قد أنهت حينها فنجانها الرابع من القهوة.

قالت:

– "ها هو. ثلاثة تقارير من مصادر في المعارضة: باريس، روما، إسطنبول. كلها تتحدث عن فسادٍ وسوء استخدامٍ للأموال. وهذا تقرير طريف."

---

[14] **المجلس الوطني السوري** (Syrian National Council – SNC): هو ائتلاف لجماعات المعارضة السورية مقرهفي اسطنبول، تركيا، تم تشكيلهفي أغسطس 2011 أثناء الانتفاضة السورية ضد حكومة بشار الأسد.

دفعت الورقة إلى بثينة التي وضعت نظارتها وقرأت.

قالت مريم:

- "إنه فاتورة حاول المجلس الوطني تقديمها لوزارة الخارجية الفرنسية لتغطية نفقات مجموعة من الغرف في فندق **بريستول**. كانت وفودهم قد وصلت من إسطنبول."

قالت بثينة وهي تنقر لسانها:

- "طبعًا لا يرضون بأقل من الأفضل."

أضافت مريم:

- "كانت الغرفة الواحدة بألفٍ ومئتي يورو لليلة. ويبدو أن كلّ واحدٍ منهم أراد غرفة منفصلة."

قهقهت بثينة، وقضمت طرف كرواسون.

قالت مريم:

- "رفض الفرنسيون تسديد الفاتورة، فاضطر المجلس لتحملها. وهناك عشرات الأمثلة الأخرى. والتقارير تشير إلى أن هذا البذخ بدأ يثير شقاقات بين القادة الكبار، ومن بينهم فاطمة. فهي تكره التبذير."

قالت بثينة ساخطة:

- "كيف يظن هؤلاء الحمقى أنهم يُحدثون فرقًا؟ نحن نقاتل إرهابيين، وهم يسهرون في باريس!"

دفعت مريم مذكرةً جديدة نحوها.

- "اقتراحي: تأمين عودتها الآمنة إلى دمشق مقابل تصريحٍ علني تصف فيه المتمردين بالإرهابيين، وتلتزم الصمت بعد عودتها."

قالت بثينة وهي تبتسم بخبث:

- "سترفضكِ أولاً، إنها عنيدة."

كانت مريم تحترم عناد فاطمة.

لكننا كنا سنكون صديقتين في حياةٍ أخرى... في عالمٍ لم يُخلق بعد.

قالت مريم بهدوء:

– "أتفق معكِ. لكنها حجر الأساس في المجلس الوطني. إن رحلت انهار المجلس. وإن لم تتعاون، علينا استخدام وسائل أقلّ لطفاً."

دفعت ورقةً أخرى نحو بثينة، كانت تلك الورقة قد جعلت معدتها تنقبض وهي تكتبها ليلة البارحة.

قالت:

– "هذه قائمة بأقارب فاطمة الذين ما زالوا داخل سوريا، مرتّبين بحسب درجة قربهم منها. إن رفضت شروطنا، أقترح أن نبدأ بالاعتقالات من الأعلى حتى ترضخ. سأقدّم لها القائمة في باريس."

ابتسمت بثينة، وبدت مستمتعة بمشهد الصراع.

– "موافقة. أظن أن الضغط سيكون ضروريًا للأسف."

نزعت نظارتها، وضعتها على الطاولة، ثم التفتت نحو الباب لتتأكد من أنه مغلق.

قالت بصوتٍ خفيض:

– "يجب أن تعرفي قبل رحلتنا إلى باريس أن أحد مصادري في مكتب **جميل عطية** أبلغني بأن ذلك الشيخ العجوز المنحرف يتآمر ضدنا. يريد للرحلة أن تفشل."

كان جميل عطية مستشارًا آخر للرئيس، وبينه وبين بثينة عداءٌ قديم وحرب نفوذ داخل القصر. وكان اشتهاره بولعه بالفتيات القاصرات – اللاتي يجلبهن خلال الرحلات الدبلوماسية إلى شرق آسيا – أمرًا يعرفه الجميع، لكنه لم يكن كافيًا لإقصائه بعد. كانت بثينة ما تزال تبحث عن السلاح الإداري المناسب لإسقاطه.

سألت مريم:

– "ما الذي تخشين أنه يخطط له؟"

كان عطية قد استهدف موظفين في مكتبها من قبل لبثّ الخوف وإرباك بثينة. حتى إنّ **عدنان**، أحد الكتبة، قضى ثلاث ليالٍ في المستشفى بعد زيارةٍ من بلطجية عطية.

قالت بثينة:

- "لا أعلم. لكن كوني حذرة، إنه رجل ماكر ووحشي."

***

كانت عائلة **مريم حدّاد** تؤمن قبل كل شيء بإقامة الحفلات. ومع خطوبة أحد أبناء العمومة أخيرًا، وجدوا الذريعة. استأجروا فناء مطعم فاخر في **الحيّ المسيحي بدمشق**، كان في الأصل قصرًا عثمانيًا.

امتدت الطاولات في الفناء الرخامي حول النافورة. ومضى نادلٌ يحمل زجاجة شامبانيا غارقة في الجليد.

ارتدت مريم فستانًا أسود من الحرير اللاصق بجسدها، وشعرت بالجمال والقوة وهي تتنقل بين الطاولات حتى بلغت والدتها، فقبّلت خدّها المتخم بمساحيق التجميل.

نظرت بعادةٍ راسخة حولها تبحث عن والدها وأخيها الغائبين. عادة يصعب كسرها. كلاهما ضابطا مدفعية في **حلب**، ولم يظهرا منذ ستة أشهر.

إنها ستالينغراد سورية، هكذا قال أخوها في آخر مكالمة.

تناولت مريم كأسًا من الشامبانيا من يد النادل، وتبادلت مع أمها حديثًا فارغًا: عن الثياب والتسوق وخطيب ابنة العم الباهت.

لم يُوفّروا في الإنفاق. وُضعت أطباق ورق العنب، التبولة، الزعتر، والبابا غنوج، ثم أطباق اللحم على الطريقة السورية، والكبب والكباب بأنواعه، والسمك الأبيض المقلي بالفلفل، ويخنات الكرّاث والبندورة والبامية، تلتها صوانٍ من الحلويات من صنع أشهر طهاة **سوق الحميدية**.

في زاوية الفناء المضاء بالأضواء المعلقة عزفت فرقة صغيرة موسيقاها.

جلس عمها **داوود** على رأس إحدى الطاولات الكبيرة، يدير الجلسة كعادته.

كانت مريم قد أنهت لتوها رقصةً محرجة مع ابن عمٍ ثمل حين أشار لها داوود بالحضور.

قال وهو يرفع كأسه:

- "كلنا نشتاق إلى والدك وأخيكِ، كان لا بد أن أقولها، ولن نتحدث عنها بعد الآن. سنراهم قريبًا."

ابتسمت مريم ابتسامة واهنة:

- "شكرًا، عمي."

أدار داوود كأس الشامبانيا بين أصابعه متأملًا فقاعاته.

قال:

- "وكيف حال **رزان**؟"

- "هي أفضل قليلًا. لم تقصد أن تتجاهلك يا عمي، لكنها..."

رفع يده مقاطعًا:

- "أفهم أنها لا تريد الظهور في العلن. لكن أخبريها أن تتصل بوالدها."

- "سأفعل، إنها فقط حزينة... تتعافى... وتشعر بالخجل."

قال بصوتٍ خافت:

- "بل غاضبة. وأنا كذلك."

دفع كأسه بعيدًا، وقال:

- "كنت أتمنى أن تحضر الليلة رغم كل شيء. وشكرًا لأنك تستضيفينها، هذا يعني لي الكثير. هي تحبكِ، ومع رحيل **منى**..."

توقف.

كان ذكر اسم عمّتها الراحلة مؤلمًا، رغم مرور أكثر من عشر سنواتٍ على وفاتها.

تابع بعد صمتٍ قصير:

- "أعني أن بيتها الآن خاوٍ، وأبوها غارق في عمله، والمكان ليس مناسبًا لها. أعلم أنها ممتنة لوجودها في شقتك."

قالت مريم:

- "كنا دائمًا قريبتين... مثل شقيقتين."

ابتسم داوود:

– "أعرف. أنا وأبوك كنا محظوظين بأن وُلدت لنا بنتان بفارق شهرين فقط."

أرادت مريم أن تغيّر الموضوع، لكن داوود كان بحاجةٍ إلى الكلام.

أشارت إلى النادل وطلبت ويسكي. رفع النادل حاجبيه دهشة، ثم مضى.

قال داوود بصوتٍ خافت:

– "أخبريها أننا ما زلنا نبحث عن ذلك المجرم من المخابرات الذي فعلها. لدينا خيوط، لكن لا اسم بعد."

قالت:

– "سأخبرها. هذا يهمها كثيرًا أن تعرف أنكم ما زلتم تبحثون."

أومأ، ثم عاد النادل حاملاً كأس الويسكي. أخذت مريم كأسه الفارغ وسكبت فيه قليلًا من الشراب بدل الشامبانيا.

ابتسم وقال:

– "كنتِ دائمًا واحدةً منا يا مريم، منذ كنتِ صغيرة. عضوًا في مجالس الحرب."

نظر نحو ساحة الرقص حيث كان الناس يتمايلون ويصفقون.

قال:

– "أنا وأبوك أخذنا مواقعنا لنحمي هذا المشهد."

وأشار بيده نحو الفناء المزدحم.

– "لنحافظ على عائلة مسيحية كبيرة آمنة في سوريا. انظري ماذا فعلنا. والدك في الجيش بحلب، وأنا..."

توقف، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهية.

لم يتحدثا يومًا عن عمله في **مركز الدراسات والبحوث العلمية – الفرع ٤٥٠**، المختص بأمن ونقل الأسلحة الكيميائية.

أخذ رشفة أخرى وقال:

– "لقد فعلت عائلتنا ما طُلب منها. كنا أوفياء، صامتين، ومطيعين مقابل الأمان. كنّا

سوريين نموذجيين. لكن النظامَ نقض عهده. انظري ما حدث لرزان. لا ملاذ لنا. نحن عالقون."

لمع في عينيه بريق ندمٍ قبل أن يشيح بنظره نحو الراقصين.

قالت مريم وهي تكره كلماتها في قرارة نفسها:
- "رزان كانت دائمًا متمردة يا عمي، ستتجاوز الأمر."

أومأ برأسه نحو ساحة الرقص.
- "هل نرقص؟"

***

وصلت مريم إلى شقتها قبيل الفجر، فوجدت **رزان** ما تزال مستيقظة، ممددة على الأريكة ببيجامة حريرية متجعدة، تشاهد على قناة الجزيرة مقابلة مع **فاطمة وائل**.
أطفأت مريم التلفاز، وأزاحت ساقي ابنة عمها وجلست بجوارها. على الطاولة زجاجة نبيذٍ أبيض فارغة.

قالت رزان بعينها اليسرى المثبتة على الشاشة السوداء:
- "تبعثين رائحة طيبة."

أما عينها اليمنى فكانت ما تزال مغطاة بضماد. *كالقرصانة*، هكذا كانت تمزح في لحظاتها الخفيفة. الضربة التي تلقتها هشّمت عينها، وما زالت لم تبصر النور بعد. الأطباء لم يعرفوا إن كانت ستعود للرؤية يومًا.

قالت مريم:
- "والدك يفتقدكِ، اتصلي به، بالله عليكِ. ليس ذنبه ما حدث."

- "أعرف... هل استمتعتِ الليلة؟"

- "نعم."

وأخبرتها عن العائلة، والمطعم، والرقص. لكنّ نظرة رزان جعلت مريم تشعر بالذنب تجاه كل لحظةٍ من تلك السهرة.

سألتها مريم:

– "لماذا تختبئين منه؟"

– "من أبي؟"

– "نعم."

– "لا أدري."

صمتت لحظة، ثم سألتها مريم:

– "هل تكرهينني أيضًا؟ أنا أعمل في القصر. لستُ أفضل من أبيك."

تكورت رزان على نفسها، وأخفضت بصرها.

قالت بصوتٍ متهدّج:

– "لا أكره أحدًا منكما."

انحدرت دمعة من عينها السليمة، ومسحتها بأطراف أصابعها.

– "أكره الرجل الذي فعل هذا بي. أكره سجننا الكبير."

ثم ارتمت على كتف مريم، تمرر أصابعها برفق على الجلد تحت الضماد، تشهق خافتة.

قالت وهي تتنهد:

– "الطبيب قال لا ينبغي لي البكاء، فهو يبطئ الشفاء."

***

تركتها مريم على الأريكة ودخلت غرفتها، دون أن تشعل النور.

نزعت فستانها ووقفت بجانب السرير بملابسها الداخلية، تتنفس بعمق، تشد قبضتيها ثم ترخيهما.

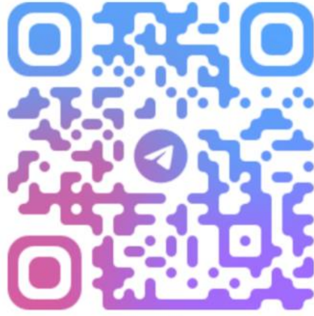
بدأت بالركلات الأمامية، تنتقل من قدمٍ إلى أخرى، تزداد سرعةً، تنفّسها يتصاعد، والغضب في داخلها يتحول إلى حركةٍ حادّة، كأنها تطرد الألم مع كل ضربة.

كانت تسمع الهواء يتشقق مع حركتها، وتلمس العرق يتكوّر على ظهرها وجبينها.

سقطت أرضًا وأخذت تمارس تمرينات الضغط، تمد ذراعيها حتى يحترقا من الجهد، ثم نهضت لتواصل ضرباتها براحتيها، تتخيل كل ضربةٍ تسحق وجه جلّاد رزان.

أسرع يا مريم، أسرع، لا تتوقفي... تحركي.

هكذا كان صوت مدربها في رياضة الكراف ماغا [15] في **باريس** منذ سنوات يتردد في رأسها.



---

[15] **كراف ماغا (Krav Maga):** فن قتالي إسرائيلي عسكري للدفاع عن النفس، يركز على تحييد الخطر بأسرع وأبسط طريقة ممكنة في مواقف واقعية.

الفصل الخامس

كان **اللواء علي حسن** يعرف الموت حقَّ المعرفة، فقد قتل أمَّه في ساعاته الأولى في هذا العالم، ثم قتل كثيرين بعدها على مدى أربعة عقود. وها هو الآن، في لهيب الحرب الأهلية السورية، يغازل الموت من جديد، بينما يُمرّر نصلًا تحت جلد إبهام الجاسوس التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، **مروان غزالي (كومودو)**.

صرخ الرجل حين سحب عليّ السكين، ثم مسحها بقطعة قماش وأعادها إلى جيب قميصه.

قال علي وهو يجلس قبالة الأسير:

– لا مجال للتناقضات، كنتُ قد شرحتُ لك هذا من قبل.

كان غزالي عاريًا، موثوقًا إلى كرسي متهالك بجوار طاولة، خلفه كشافات قوية تبهر العين. أما **العقيد صالح كنعان**، أحد مساعدي علي، فقد بسط على الطاولة عدة أوراق ليوحي بالجدية، رغم أن عليّ كان يعرف مضمونها مسبقًا.

قال علي وهو يتصفح إحداها:

– في الشهادة الثالثة يا مروان، قلت إنك التقيت بضابطة الاستخبارات الأمريكية، **ڤاليري أوينز**، في دمشق فقط.

ثم التقط ورقة أخرى ودفعها أمام الأسير الذي حاول أن يركّز بصره عليها، لكن كل ما رآه كان حطام إبهامه.

قال عليّ وهو يقلب الورقة التالية:

– سأقرأها لك... في إفادتك الرابعة، ذكرت لقاءً مع أوينز في **أبوظبي**، لكن في الإفادة الخامسة اختفى ذلك اللقاء، وعدتَ لتقول دمشق فقط.

أشعل سيجارة واتكأ على كرسيه.

- والآن، قل لي من فضلك: ماذا حدث في أبوظبي؟

قال غزالي متوسلًا:

- كانت غلطة... لم أنم لأيام، كنتُ أهذي. شرحتُ هذا لرَجلك.

وأشار إلى كنعان، وأسنانُه تصطك من البرد.

قال علي وهو يجرّ كرسيه أقرب:

- أنت تكذب. قل الحقيقة لنتجنّب المتاعب. ماذا حصل في أبوظبي؟

أطرق غزالي رأسه وبدأ في النحيب:

- لم ألتقِ أحدًا هناك.

تنهد عليّ. كان قد عمل محققًا جنائيًا قبل انضمامه إلى المخابرات، وحقق في قضايا قتل وسرقات، بل وفي حادثة صلبٍ مروّعة ما زالت تطارده في منامه. وكان يعلم أن الألم الجسدي وحده لا يستخرج الحقيقة؛ الأفضل هو إنهاك الجاسوس بالعزلة وطول الاستجواب حتى يتهالك عقله وتنهار إرادته. عندها فقط يعترف بكل شيء.

لكن الكذب لا بد أن يُعاقَب. كانت تلك إحدى قواعده.

أخرج السكين من جيبه. فصرخ غزالي.

***

غسل علي قميصه ونظّف النصل في مغسلة الحمّام الصغيرة في قبو المبنى، ثم جفف السكين وأعادها إلى جيب صدره، وأشعل سيجارة جديدة. امتلأت الغرفة الخانقة بالدخان وهو يعصر القميص من الماء.

كما توقّع، اعترف غزالي أخيرًا بأنه التقى أوينز مرة في أبوظبي وسلّمها وثائق مسروقة.

أطفأ السيجارة وصعد إلى مكتبه، يضيق عينيه في مواجهة ضوء الصباح المتسلل من النوافذ. وقف أمام الزجاج يشاهد طائرة سورية – مقاتلة **MiG** روسية الصنع – تشقّ السماء قبل أن تُسقط حمولتها على حيٍّ يسيطر عليه المتمرّدون. ارتجف الزجاج، وتدفقت أعمدة الدخان فوق أنقاض الأبنية السكنية.

أشعل سيجارة أخرى ونظر إلى صورة **الرئيس بشار الأسد** المعلّقة فوق الباب. كل موظف رسمي وكل ضابط أمن في البلاد يملك نسخة منها.

كان علي نحيف البنية، إلا أن كرشه الصغير – ثمرة السهر الطويل والضغط المزمن للتحقيقات والعمل الاستخباراتي والحرب – كان واضحًا. شعره الأسود مصففٌ إلى الخلف بإتقان، وعيناه حادتان، وأنفه مائل قليلًا عند منتصفه، وفكّه حاد كالنصل. يمتد على جانب عنقه الأيسر أثر ندبة قديمة تصل إلى أسفل خده، وكانت تحكّه أحيانًا.

ألقى نظرة إلى الساحة أمام المبنى، حيث المتاريس الخرسانية تتشابك في متاهة رمادية. وعلى الجدار لافتة باهتة كتب عليها: *الجمهورية العربية السورية – وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي*.

كانت تلك كذبة قديمة لم يتكلّف أحد عناء تصحيحها.

فالمبنى صار الآن مقر **مكتب الأمن**، وهو جهاز استخبارات تابع للقصر الرئاسي. واحد من سبعة عشر جهازًا أمنيًا في سوريا زمن الحرب، كما أحصاها عليّ بنفسه. عالم المخابرات متاهة من الأجهزة المتداخلة والولاءات المتعارضة. حتى كبار المسؤولين لا يعرفون أين تبدأ سلطة جهاز وأين تنتهي. الرئيس نفسه، كما فعل أبوه من قبل، صنع هذا التشابك عمدًا ليُبقي كلّ مؤسسة تحت رقابته.

ومع احتدام الحرب، أنشأ الرئيس مكتب *الأمن* ليكون ذراعه الخاصة في صيد الجواسيس. وأسند قيادته إلى علي حسن.

نظر إلى ساعته. حان الوقت ليتحدث مع **ڤاليري أوينز**. التقط علبة سجائره وهبط إلى القبو.

***

كان قبو المكتب متشابك الممرات، تفوح منه رطوبة العفن، تتكدس فيه خزائن الملفات وصناديق دراسات زراعية تعود إلى سبعينيات القرن الماضي. حوّله علي ورجاله إلى متاهة من الزنازين وغرف التحقيق، عازلين الجدران ضد الصوت، مزوّدينها بكاميرات وميكروفونات، ومفروشات إسمنتية للنوم، ودِلاء كحمّامات.

فتح كنعان باب الزنزانة ودخل علي. كانت أوينز مستلقية على سريرها الحجري تحدّق في السقف. ما زالت الضمادة تغطي جرح رأسها الناتج عن العنف أثناء القبض عليها، وقد أمر عليّ بعدم إيذائها مجددًا، حتى إنه علّق الضابط الأحمق الذي ضربها.

جلس عند قدميها، وتحدث بالعربية.

قالت ببرود:
- سيدي اللواء، طلبتُ منك ألا تدخن هنا.

- بالطبع يا آنسة أوينز.

أطفأ السيجارة على الأرض... ثم ابتسم، وأشعل أخرى، ونفث الدخان في وجهها. فزمت شفتيها غضبًا.

قال:
- أريد أن أسألك مجددًا عن طريقة تواصلك مع مروان غزالي في دمشق.

تفحّص عينيها مترقبًا أي بريق اعتراف، فلم يرَ سوى الكراهية. *هذه مدرَّبة جيدًا*. أسبوعان من البرد والجوع ولم تنطق بما يستحق.

جلست أوينز تمرر يديها في شعرها الأشقر المتسخ، وقد لمع طرف السرير من أثر الزيوت.

قالت ببرود:
- تحدثنا في هذا من قبل يا لواء. لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. أنا سكرتيرة ثانية في السفارة الأمريكية...

قاطَعها:

– نعم نعم، سكرتيرة ثانية، أعرف. هل أعيد لك عرض التسجيل الذي يُظهر سيارتك – بلوحاتها الدبلوماسية – تمر قرب الموقع الذي حدده غزالي كمكان إجلائه؟ ربما نُشاهده معًا مجددًا يا آنسة أوينز؟

وقفت **ڤاليري** تمدد جسدها النحيل، وقد بدا عليها النحول من السجن.

قالت:

– شاهدنا الشريط مرارًا، كنت أقوم بجولة مشتريات. أريتك المحلات التي زرتها على خرائطك الجميلة. والآن أريد مكالمة السفارة، احتجازي هنا غير قانوني.

تجاهل علي الطلب كعادته اليومية منذ أسبوعين.

قال بهدوء:

– غزالي أخبرنا بأشياء كثيرة. حتى أننا علمنا عن اجتماع في أبوظبي، ووثائق مثيرة للاهتمام سرقها هناك. لكن ما أودّ معرفته حقًا هو طريقة تواصله معك. هل كان هناك جهاز؟ إن أخبرتِني أين هو، ربما أدعكِ تتصلين بالسفارة. أليس عرضًا معقولًا؟

استلقت مجددًا على السرير الحجري وقالت:

– لا أعرف مروان غزالي. أنا دبلوماسية أمريكية، سكرتيرة ثانية...

لوّح علي بيده مقاطعًا، ثم خرج وأغلق الباب تاركًا إياها في الظلام.

***

كانت الساعة العاشرة حين أوقف السائق سيارته أمام منزل اللواء علي . ابناه التوأمان نائمان، وزوجته **ليلى** مستلقية على الأريكة، تقرأ وتشرب كأس نبيذ.

وبحسب عادتهما، لم تسأله عن يومه، ولم يُخبرها هو بشيء. صبّ لنفسه كأسًا وجلس عند قدميها يدلكهما. وضعت الكتاب وأغمضت عينيها.

قال مبتسمًا:

– ماذا فعلتِ أنتِ والأولاد اليوم؟

قالت بخمول:

– اسكت وواصل التدليك.

أطاعها كما تعوّد أن يطيع الأوامر.

وبعد دقائق من الصمت، كوفئ بسماعها تقول:

– اشترينا حاجات البيت، الطوابير كانت طويلة، واللحم شحيح هذا الأسبوع. ثم لعبنا قليلًا، يوم عادي. آه... أخف قليلًا هناك.

تأوهت وهي تشير إلى كعب قدمها.

نظر إلى شعرها الأسود المنسدل على طرف الأريكة، ورداؤها الحريري المنسدل يكشف ساقيها، وأظافر قدميها المطلية حديثًا. كانت يده تصعد ببطء على ساقها حين رنّ هاتف الشقة. تجاهله، فكل من يستحق الرد يعرف أن يتصل على هاتفه المحمول.

لكن طرقًا متسارعًا دوّى على الباب، تبعه صياح في الممر. نظر من العين السحرية فرأى **السيدة غراوي**، الأرملة جارته، وشعرها منفوش، ومساحيقها ممسوحة بالدموع.

أشار إلى ليلى لتفتح الباب. دخلت المرأة وهي تكرر، بصوت مختنق:

– أخذوه... أخذوه... اختفى... لا أعلم أين!

احتاجت إلى كوب شاي قبل أن تنجح في النطق الكامل: ابنها اعتُقل عند حاجز حكومي، ربما بالأمس، ربما قبله، لا تعرف. علمت الآن فقط من قريب لها يعمل في الشرطة، رأى اسمه على لائحة موقوفين. الحرس الجمهوري قبضوا عليه، ولا أحد يعرف أين.

استمع علي بصمت، يوشك أن يشعل سيجارة. كان يعرف الطريق المعتاد لهؤلاء الموقوفين: مركز احتجاز مؤقت، تُهمة خيانة، تحقيق قاسٍ يتصاعد وجعه بلا

نهاية، ثم حين تُنتزع الاعترافات يُرحَّلون إلى **صيدنايا**، حيث يُعذَّبون للمتعة ثم يُشنقون. بعد ذلك تُلقى الجثث في مقابر جماعية خارج السجن، بأيدي حفّاري قبور استعارهم النظام من وزارة الإسكان.

لكن أحيانًا، كان هناك طريقان للنجاة: إما أن يقابل المعتقل ضابطًا نادرًا لديه ضمير ومهارة تحقيق حقيقية، أو يملك *واسطة* تنقذه.

لهذا جاءت إليه. تعرف أنه لواء، وتعلم أن أخاه **رستم** هو القائد النافذ للحرس الجمهوري.

قالت باكية:

– هل يمكنك المساعدة يا سيادة اللواء؟ أريد فقط أن أعرف أين هو.

مسحت دموعها فلطّخت وجهها بالكحل.

لم يكن علي يعرف سبب اعتقال الفتى، لكنه خمن: بطاقته تُظهر أنه من قرية شمال حمص يسيطر عليها أحد أمراء المتمردين. يكفي ذلك، مع قليل من الخمر وضابط متهور، ليُدفع إلى المعتقلات.

لم يكن يهتم كثيرًا بالسبب، لكنه يعرف الفتى منذ طفولته، كان يلعب مع توأميه، ولم يكن متطرفًا ولا مجرمًا.

وقد رأى بنفسه معتقل رستم في الملعب القديم: الأجساد الهزيلة المتكومة، الأنين القادم من الأنابيب، الرائحة المطهّرة التي تخفي ما تحتها. ذهب هناك مرة لينقذ ابن طبيبه، فوجده مكبّلًا إلى أنبوب وسط بركة دم. تلك الليلة شرب حتى فقد وعيه.

قال لها أخيرًا:

– سأجده لكِ. انتظري مكالمتي في البيت.

أومأت شاكرة، ثم غادرت. وما إن أغلقت ليلى الباب حتى أسرع علي إلى الصالة، التقط علبة سجائره، أشعل واحدة، ثم قرر الاتصال بأخيه فورًا قبل أن يُنقل الصبي فيضيع.

رنّ الهاتف ثلاث مرات، ثم سمع صوت رستم يقول:

– مرحبًا يا شقيقي الصغير.

عضّ علي شفته:

– كيف حالك يا كبيري؟

– أنهي بعض الأوراق، ماذا تريد؟

– لديّ فتى معتقل، أود أن أطمئن عليه.

أصدر رستم صوت تململ وهو يعبث بالأوراق:

– ليس مجددًا يا علي. دع القضاء يأخذ مجراه، لا يمكننا التدخل في كل قضية.

كاد علي يصرخ: *القضاء الذي ربط ابن الطبيب إلى أنبوب لأنه انتقد الحكومة على «فيسبوك»*؟ لكنه كتم غيظه. لو قال ما يفكر به لانتهت المكالمة وضاع الصبي.

قال بهدوء:

– الشاب من عائلة طيبة، وليلى تعرفهم. أضمنه بنفسي.

أجابه رستم بنفَس ضجر:

– ما زلت تفكر كالمحقق، الخوف هو ما يُبقي الناس مطيعين، وتحقيقاتك تخرق تلك القاعدة. لكن لا بأس، أنا متعب وهذه الليلة طويلة. ما اسمه؟

– شكرًا يا أخي، اسمه **غراوي**.

– سأتصل بك بعد قليل بالمكان، وسأرتب الأمر.

صمتٌ قصير تلاه حفيف أوراق.

– وبالمناسبة، هل اعترف الخائن أو المرأة الأمريكية عن الجهاز بعد؟

تحدثا طويلًا عن *الجهاز* الذي كان يستخدمه غزالي للتواصل مع ڤاليري أوينز. اعترف غزالي أنه استخدم مواقع سرية على الإنترنت، وهذا صحيح – فقد أمسكوا به بتقنيات إيرانية. وكان الإيرانيون يطمعون بالعثور على جهاز إلكتروني ليزرعوا فيه

سلاحًا سيبرانيًا، شبيهًا بفيروس **Stuxnet** الإسرائيلي، يتيح لهم اختراق أقمار الـCIA وكشف اتصالاتها.

قال عليّ:
– قصته ثابتة، موقع إلكتروني لا غير.

– هل ضغطت عليه بما يكفي؟

– الظلام، البرد، الجوع، وقطع الأصابع... لم يغيّر قوله، يا أخي الكبير. أؤكد أنه لا يكذب.

– وماذا قالت الأمريكية؟

– ما زالت تنكر أنها من الـCIA، لم تفدنا بشيء.

قال رستم بحدة:
– يجب أن نكون أقسى معها.

– أوامر الرئيس واضحة، يا أخي. لا مساس بالأمريكية. أسئلة فقط.

– أعمل على تغيير ذلك. أريد تحقيقًا «حقيقيًا» معهما معًا. لقد تأخرنا.

حكّ عليّ أثر ندبته وفتح الثلاجة يبحث عن لقمة، فرأى كيس جزر، وتذكّر إبهام غزالي المبتور، والمخاطرة التي يخوضها بإبقاء عميلة الـCIA حيّة بطلب من الرئيس. أغلق الثلاجة خالي اليدين.

قال:
– لماذا الاهتمام المفاجئ بالجواسيس، يا أخي؟

أجابه رستم ببرود:
– تسأل كثيرًا يا علي... دائمًا محقق، لا جندي.

– عملي أن أجد الجواسيس. ما الذي يحدث فعلًا يا رستم؟

ضحك رستم ضحكة قصيرة:

– هذه الحياة مليئة بالأسئلة التي لا إجابة لها. سأجد الغلام.

وأغلق الخط.

خرجت ليلى من غرفة الجلوس.

– هل ستخرج الليلة؟

أومأ. قبّلته على خده، عادت إلى كتابها، وغابت في غرفة النوم.

***

كان **الفتى جار اللواء علي** محتجزًا في مستودع قديم جرى تحويله مؤخرًا إلى مركز اعتقال مؤقت. وكان وصول علي متوقَّعًا بفضل اتصاله بأخيه **رستم**، فبادر القائد المسؤول عن المركز إلى مرافقته نحو الزنزانة.

وما إن فتح الضابط الباب الصدئ حتى اندفعت رائحة لا توصف، مزيج من العرق والعفن والبراز، حتى كاد الحارس يتراجع إلى الوراء. أطلّ عليّ داخل الغرفة، فوقع بصره على عشرات الوجوه الشاحبة، عيون غائرة ترمقه برجاءٍ وألم، أكثر من خمسة وسبعين رجلًا محشورين في مساحة لا تزيد عن غرفة جلوسه في البيت.

أمر الضابط بإحضار الفتى، فتحرك الجمع ببطء حتى خرج شاب مدمى الوجه، يعرج وهو يسير نحوه. أشار علي برأسه.

قال القائد ببرود وهو يغلق الباب خلفه:

– سأجعل رجالك يأخذونه بعد أن ننتهي من الأوراق.

في مكتب القائد جلس علي يتصفح التقارير. بدا واضحًا أن الفتى ضُرب بشدة، وقد كتب الضابط المناوب في تقريره أنه «خضع للفحص».

رفع علي نظره وسأل بهدوء:

– ما التهمة؟

قال القائد وهو يشبك يديه خلف ظهره:

– معاداة الحكومة.

للمزيد من الترجمات



– وماذا يعني ذلك بالضبط؟

– كان غير محترم مع أحد ضباطنا.

قال عليّ وهو يوقع على الأوراق:

– أفهم... هل كان مخمورًا؟

– نعم.

– وهل كنتم تنوون إطلاق سراحه بعد أن «تعلّموه الأدب»؟

التزم القائد الصمت.

قال عليّ بعد لحظة:

– وماذا تعني بالفحص؟ ولماذا أُجري أصلًا؟

أجابه بابتسامة خفيفة:

– فحص كامل للجسم للتأكد من أنه لا يحمل سلاحًا، مجرد إجراء احترازي.

وفي تلك اللحظة خرج من الغرفة الخلفية **عقيد من الحرس الجمهوري** ممسكًا الفتى من كتفه. كان وجه الغلام مزرقًّا محمرًّا من أثر الدموع، والرائحة الكريهة ازدادت فور دخوله.

قال العقيد بلا اكتراث:

– تبوّل على نفسه أثناء الفحص.

ثم أشار إلى وجهه المتورم كمن يعرض لوحة فنية، وجذب ياقة قميصه ليرغمه على النظر إليه.

– إن رأيناك هنا مرة أخرى فلن تخرج بعدها أبدًا، فهمت؟

أومأ الفتى بصمت، فدفعه العقيد نحو علي قائلًا:

– خذه، صار لك.

سقط الغلام أرضًا، منهارًا.

***

قاد علي السيارة عائدًا إلى البناية حيث تسكن الأرملة **غراوي**. أبقى النوافذ مفتوحة رغم البرد ليتبدد بعض من رائحة العرق والبراز. لم يتبادلا كلمة واحدة حتى أوقف السيارة على الرصيف أمام مدخل العمارة، إذ لم يجد مكانًا آخر.

قال علي بنبرة جافة:

– قل إنهم سطوا عليك وضربوك، سرقوا محفظتك، ولا تذهب إلى ذلك المكان مجددًا.

ظل الفتى صامتًا، يحدّق في الأرض. *النظام ابتلع واحدًا آخر.*

قال علي وهو يشعل سيجارة:

– لن أخبر أحدًا بما حدث.

أسند الغلام رأسه إلى لوحة القيادة، وانفجر بالبكاء.

***

في الصباح التالي، وصل **رستم** ومعه **باسل مخلوف** – المساعد المقرّب منه والمفضّل لديه – إلى مكتب الأمن مبكرين، يحملان ملفًا مختومًا بختم الرئيس الرسمي الذي يحمل نقش صقر قريش.

تصفّح علي الأوراق بسرعة، ثم رماها على مكتبه بعد أن قرأ الأسطر الأولى:

بموجب المرسوم الرئاسي الصادر استنادًا إلى صلاحيات قانون الطوارئ لعام ١٩٦٣ ، تُنقل فورًا وبشكل دائم مهمة التحقيق في قضية الخائن مروان غزالي من مكتب الأمن إلى الحرس الجمهوري...

دفع علي بعض الملفات جانبًا، جلس، وأشعل سيجارة دون أن يكلّف نفسه عناء تقديم واحدة لضيوفه.

جلس باسل قربه. كان رجلًا نحيلًا، جلده شاحب رمادي، وشعره الخفيف المائل إلى الأمام يناقض شاربَه الكثّ على طريقة **صدّام حسين**، والذي كان يبلّله دائمًا بطرف لسانه، من غير وعيٍ على ما يبدو. قدماه ضخمتان على نحوٍ غير متناسق مع جسده. لكن ما يميّزه حقًا كان أمرين: عيناه الرماديتان الفاترتان الخاليتان من أي حياة، وصوته الأجشّ العميق، نتيجة حنجرته الممزقة على يد جماعة **الإخوان المسلمين** في أحداث **حماة** شتاء عام ١٩٨٢.

كان **رستم** يأتمن باسل على أدقّ مهامه. رسميًا، يشغل منصب مدير مديرية *الصواريخ والقذائف* في الحرس الجمهوري، وهو المسؤول عن كل سلاح استراتيجي في ترسانة **الأسد**.

أما عليّ فكان قد قرأ التقارير النفسية التي أعدها أطباء الحرس عن باسل، بعد أن سرقها له **كنعان** من قسم السجلات. كتب الطبيب النفسي في أحدها:

إنه عرضة لنوبات فقدانٍ مؤقت للوعي والانفصال عن الواقع، وقد يدخل حالات يعيش فيها مجددًا صدمات ماضية. يتحدث كثيرًا عن حماة وكأنه لا يزال هناك. أحيانًا يتحدث عن نفسه بضمير الغائب، ويصف نفسه بأنه «كومانشي» – وهي قبيلة هندية أمريكية، يذكرها بالإنجليزية أثناء الجلسات.

ومنذ ذلك الحين لُقِّب باسل بـ«الكومانشي»، وقد سمع علي القصص الرهيبة عنه كما سمعها الجميع داخل النظام.

قال علي بابتسامة متوترة:

– باسل، يسعدني أنك وجدت وقتًا تقتطعه من إدارة الصواريخ والقذائف لتتفرغ لـ«استجواب بسيط». يا لك من رجل متعدد المواهب!

قال باسل بصوته الخشن دون أن يبتسم:

– أحب اللمسة الشخصية في عملي.

قال علي ساخرًا:

– هل جئت بسيارة لنقل السجين، أم أرتّب واحدة بنفسي؟

كان رستم يقف عند النافذة مبتسمًا:

– فكّرنا أن نجري الأمر هنا.

قال باسل ببرود قاتل:

– تأكد فقط أن تكون الغرفة فيها بالوعة صرف في الأرض. لا أريد أن أترك لك فوضى دامية بعدنا.

قال علي محتجًا:

– أخي الكبير، هذا غير...

رفع رستم يده مقاطعًا:

– أنا المسؤول عن التحقيق الآن، يا علي. ضع **غزالي** في غرفة الاستجواب الكبيرة، وتأكد أن باسل يملك كل ما يحتاجه.

قال باسل وهو يلعق شاربه:

– وأحضر أيضًا **ڤاليري أوينز**، لدي بعض الأسئلة لها.

الجزء الثاني

التجنيد

الفصل السادس

كان **سام** المنهك من السفر يقود سيارته نحو محطة باريس مباشرةً بعد وصوله من مطار **شارل ديغول**، إثر ليلة بلا نوم قضاها في مقعد وسط في الدرجة الاقتصادية – نظام الترفيه لا يعمل – محشورًا بين رجل ضخم من **مونتانا** وطفل صغير وجد متعة في نكزه طوال الرحلة.
أنزله سائق الأجرة أمام مبنى السفارة، وهو قصر كريمي اللون قائم في زاوية غنّاء من ساحة **الكونكورد**.
حتى في تلك الساعة المبكرة اضطر إلى الوقوف في طابور لإبراز شارة عمله وجواز سفره الأسود. لم يكن يتوق إلى شيء أكثر من حمّام ساخن وغفوة قصيرة في فندق إقامته، لكنه كان مضطرًا لتسجيل الدخول على شبكة الوكالة ليطّلع على أي برقيات ليلية تتعلّق بعملية تجنيد **حداد**.

استقبله موظف دعم في المحطة فور عبوره الطابور، ورافقه صعودًا عبر درج رخامي حلزوني لأربعة طوابق. وضع سام هاتفه في أحد الرفوف، وتبعها إلى داخل غرفة المحطة المحصّنة وهي تضغط الأزرار ويفتح القفل بصوت ناعم.

قال وهو يتفحص المكان الرحب:
"نوافذ، أليس كذلك؟"

ابتسمت وقالت:
"في أوروبا محطاتنا فيها نوافذ. ولدينا أيضًا قهوة جيدة."

أشارت نحو المطبخ الصغير، فالتقط هو حقيبة مهام مؤقتة، ووصلها بالحاسوب وبدأ في قراءة البرقيات. لحسن الحظ، وجد تأكيدًا على أن فريق المراقبة المسمّى **بانديتوز** قد وصل إلى باريس، وأنهم سيلتقون به بعد الظهر للبدء في

الجولات التجريبية.

راجع الخرائط التي تُظهر الفندق الذي تنزل فيه البعثة السورية والمسارات المحتملة لتحركها. ثم أمعن النظر في الصورة الوحيدة التي تملكها الـ **CIA** لـ **مريم حداد**، وقد التُقطت لبطاقة تعريفها في القصر قبل أن تُسرّب النسخة الرقمية الكاملة من الدليل بفضل أحد اللصوص التابعين للوكالة. جلس للحظات مبهوتاً أمام الصورة.

قال صوت من خلفه:

"هذه، بلا شك، هدف تطويري[16] واعد."

استدار سام فرأى **بيتر شيبلي**، رئيس محطة باريس، مبتسمًا. لم يسبق له أن التقاه، لكنه عرفه بسمعته وبصداقته مع **إد برادلي**. كان شيبلي رئيس المحطة في **كابول** في الأيام الأولى من الحرب الأفغانية، وقد أنقذ الرئيس الأفغاني من محاولة اغتيال أثناء أحد اجتماعاتهما. وكحال كثير من ضباط الميدان، انهار زواجه، فرجعت زوجته الفرنسية إلى باريس مع الأطفال، وطلب هو العمل هنا ليكون قريبًا منهم ويحاول إصلاح ما انكسر.

قال سام وهو يصافحه:

"سعيد برؤيتك، سيدي الرئيس."

لاحظ بإعجاب أن شيبلي يشرب قهوته سوداء.

قال شيبلي:

"هذه هي القضية السورية التي تعمل عليها هنا؟"

أجاب سام:

"هي، نعم. مسؤولة في القصر. اسمها **مريم حداد**. الاحتمالات ضئيلة. لم نجند سوريًا منذ عامين على الأقل."

قال شيبلي وهو يومئ برأسه:

"لكننا نحاول، أليس كذلك؟"

[16] **هدف تطويري (Developmental)** : مصطلح استخباراتي يُطلق على الشخص الذي يتم إعداده وتطويره تدريجيًا ليصبح عميلاً أو مصدراً للمعلومات في المستقبل.

وأشار بيده نحو مكتبه وأضاف:

"وصلتنا أخبار من **دمشق**. الـ **NSA**[17] عثرت على خط الهاتف الأرضي لمكتب **علي حسن**."

قال سام:

"متى؟"

"الليلة الماضية. وافق برادلي على العملية للتو. **بروكتر** ستجري الاتصال بعد دقائق. طلبت أن تحضر المكالمة."

في مكتب الرئيس، جلس سام يطلّ من النافذة على ساحة الكونكورد بينما كان شيبلي يتصل. جاءه صوت بروكتر المميز:

"بيتر؟ هل هو معك؟"

قال شيبلي:

"نعم، **آرتميس**. وصل تواً من الطائرة ويبدو كما لو خرج من مطحنة."

أشار لسام أن يجلس، وناولَه ورقة واحدة، كانت برقية عمليات مطبوعة من الـ **NSA** إلى محطة دمشق، تتضمّن رقم الهاتف.

قالت بروكتر:

"الوقت قريب من الغداء في دمشق، سنحاول الاتصال الآن. لديّ ضابط اتصالات من المحطة سيعبث بمصدر الاتصال. إذا كان لدى حسن نظام تعريف للمتصل فسيبدو الرقم وكأنه من القصر نفسه. سنستخدم بعض تلك البرمجيات الغريبة لتجعل صوتي يبدو ذكوريًا. سام، تدخّل إذا أخطأت بالعربية. سنبدو جميعًا متشابهين، صحيح يا ستاب؟"

---

[17] **إن إس إيه :(NSA – National Security Agency)** وكالة الأمن القومي الأمريكية، وهي وكالة استخبارات أمريكية مسؤولة بشكل أساسي عن استخبارات الإشارات(SIGINT) ، أي جمع ومراقبة وتحليل الاتصالات الأجنبية، بالإضافة إلى حماية أنظمة الاتصالات والمعلومات التابعة للحكومة الأمريكية.

قال ضابط الاتصالات ستاب:
"نعم، سيدي. أعددنا الاتصال كمكالمة جماعية، لكن أي كلام من جانبنا سيخرج عبر معدل صوتي ليبدو كصوت رجل منخفض النبرة."

قالت بروكتر:
"النصّ المعدّ مرفق مع البرقية."

قال شيبلي وهو يتفحص الورقة:
"آرتميس، لا يوجد أي مرفق هنا. ما النص الذي تتحدثين عنه؟"

لكن الهاتف بدأ يرن، فصمتت بروكتر. رن خمس مرات.

قال صوت بالعربية:
"العميد **علي حسن**."

قالت بروكتر بالعربية:
"اسمع جيدًا، أيها العميد. لديك إنذار واحد فقط."

***

لم يكن في وسع رجل أن ينجو داخل النظام السوري من دون قدر من **البارانويا**. حتى أكثر البيروقراطيين توازنًا وهدوءًا كانت تساورهم تلك الخشية الدفينة: أن يُزاحوا، أن يأتي الطارق في منتصف الليل، أن تُهدَّد أسرهم.
لم يرَ **علي** نفسه مفرطًا في الارتياب حين كان يسجّل معظم مكالماته الهاتفية في المكتب. كان الأمر في نظره احتياطًا ضروريًا لحماية النفس، مع أنه يعلم أن استخبارات سلاح الجو تراقب الهاتف ذاته – وهو اكتشاف توصل إليه، على نحو ساخر، لأن جهازه هو نفسه كان قد زرع أجهزة تنصت في خطوطهم.
وبمجرد أن سمع ذلك الصوت المعدني الغريب في المكالمة، ضغط زر التسجيل.

كان علي قد درس الإنجليزية لبضعة أشهر في **موسكو**، لا على يد أفضل الأساتذة، لكنه اكتسب دراية كافية باللغة وعدّ نفسه مقبولًا فيها. المكالمة التي تلقاها – أو بالأحرى فُرضت عليه – كانت تُدار بالعربية أساسًا، لكنها انزلقت أحيانًا إلى

إنجليزية عامية لم يفهمها.
أما **كنعان**، فقد درس في **جامعة نورث داكوتا** في التسعينيات، حين أوجدت مفاوضات السلام بين سوريا و**إسرائيل** شيئًا من التقارب بين الحكومتين، فاستغلت أسرته الفرصة وأرسلته للدراسة في أمريكا، فعاد متقنًا الإنجليزية بلكنة غريبة لا تشبه ما اعتاد علي سماعه.

أوقف علي التسجيل والتفت ليعطس، ثم أشعل سيجارة وسار نحو النافذة.
جلس كنعان أمامه متأمّلًا، وقد خبت ابتسامته الساخرة التي راودته أثناء المكالمة، وبات واجمًا يحلّل ما سمعه.
نظر علي من النافذة صامتًا، يدخّن بينما تحوم مروحية فوق بلدة **دوما**. رأى شيئًا – ربما برميلاً متفجرًا – يسقط منها نحو الأرض. التفت مبتعدًا.

قال:
"أعد التشغيل. أريد سماعه من البداية."

***

العميد علي حسن: من يتحدث؟
المتصل المجهول: لا يهم. نعلم أنك تحتجز **ڤاليري أوينز**. نريد إطلاق سراحها اليوم وإعادتها إلى السفارة الأمريكية.
العميد علي حسن: من أنت؟
المتصل المجهول: قلت لك، لا يهم. ولأكن واضحًا: نعلم أنها في مكتب الأمن لديك، أيها العميد. أنت مسؤول عن سلامتها.
صوت ولاعة سجائر يشتعل
المتصل المجهول: ألو؟
العميد علي حسن: لا أعرف امرأة بهذا الاسم. أنتم من الـ **CIA**؟
المتصل المجهول: كنت أعلم أنك ستقول ذلك، أيها الأحمق (**DouchBag**).

قال علي:
"أوقف التسجيل."

ثم التفت إلى كنعان الذي ابتلع ريقه.

"ما الكلمة الإنجليزية الأخيرة التي قالها؟"

تأمل كنعان لحظة قبل أن يجيب:

"إنها شتيمة أمريكية سوقية، تطلق على رجل غبي لا يدرك غباءه."

قال علي:

"ولِمَ هي «كيس Bag»؟"

"الجزء الأول من الكلمة يشير إلى... منتجات نسائية."

"توضع في كيس؟"

"نعم."

تجهم علي.

"أعد التشغيل."

***

العميد علي حسن: هذه الـ **CIA**، صحيح؟ سأبلّغ الرئيس بهذه المكالمة.

المتصل المجهول: أنت المسؤول شخصيًا، أيها العميد، تفهم؟ أطلق سراحها الآن.

العميد علي حسن: قلت لك إنني لا أعرف عما تتحدث. وداعًا.

المتصل المجهول: لا تغلق الخط! [صراخ غير واضح] ستكون مسؤولًا. وإذا أُصيبت بأذى فسأتولى أمرك بنفسي، يا علي. إن لمست شعرة واحدة من رأسها فسأقطع خصيتيك وأطعمك إياهما. سأـ

[العميد علي حسن يُنهي المكالمة]

قال علي:

"الجزء الأخير هناك، أظنه بالإنجليزية كلها، لأن هذا الشخص غضب بشدة. فهمت أنه نهاني عن إغلاق الخط، لكني لم ألتقط الباقي. كان يتكلم بسرعة."

لخّص له كنعان فحوى الكلمات.

قال علي متجهمًا:
"خصيتي أنا؟ هذا ما قالوه؟"

أومأ كنعان.

"والجزء المتعلق بشعرها؟"

"تعبير يقصدون به أنهم سيعاقبوننا إن أصبناها بأدنى أذى. *إن لمسنا شعرة من رأسها*." وجذب كنعان خصلة من شعره موضحًا.

عبس علي مجددًا، التقط سيجارة أخرى وأشعلها وهو يواجه النافذة.
"شكرًا، هذا يكفي الآن."

توقف كنعان عند الباب.
"سيدي، اتصل أحد معاوني أخيك وسأل متى ستنتهي النسخة النهائية من تقرير المرأة التابعة للـ **CIA**. قال إن أخاك ينتظرها اليوم."

أومأ علي.
"دعني أقرأها مرة أخرى. انتظر هنا."

تناول التقرير الموجز الذي صاغه للرئيس يصف فيه ما جرى في غرفة التحقيق قبل يومين.
كان قد تشاجر مع **رستم** حول من سيكتب التقرير، إلى أن وضع **الكومانشي** السكين على عنق كنعان وحسم الأمر.
"أنت من ستكتبه، يا أخي الصغير."
فتح علي المجلد الأصفر وقرأه مجددًا، ثم تأمل الصفحة الثانية حيث كانت الصورة.

أشار إلى كنعان أن يقترب وسلّمه المجلد.
"انسخها وقدّمها. نحتفظ بالأصل."
فعل كنعان ما أُمر به وأعاد الحزمة إلى مكتبه.

حمل علي المجلد ونزل الدرج إلى القبو. أشعل سيجارة وسار في العتمة نحو خزانة ملفات محددة.

كان يحتفظ بخزنة في مكتبه شأن كل مسؤول رفيع في النظام، لكنها عادة أول ما يُفتح ويُنهب في مداهمات الفساد أو التصفيات السياسية. كما أن بيته يمكن أن يُفتَّش في أي وقت، ولم تكن له بعد علاقات خارجية تتيح له حسابًا سويسريًا.
لذا استخدم خزائن الملفات الزراعية كصندوق ودائع شخصي.
فتح درجًا يحمل لافتة: **"مستوى مياه بحيرة الأسد، تقارير وتحليلات ١٩٨٨–١٩٩٢"**، ووضع فيه الصورة، إلى جانب شريط فيديو التحقيق. ثم أغلق الدرج.

عاد إلى مكتبه وأشعل سيجارة جديدة وهو يتصل بالمنزل. نظر إلى ساعته وقال:
"حبيبتي، هل أكلتِ أنتِ والصبيان؟"

***

في الشقة، أمسك **علي** بابنه **سامي** ورفعه عاليًا ثم ألقاه في كومة الوسائد على السرير، فصرخ الصبي فرحًا وهو يطير في الهواء.
عوى علي كذئب، وطارَد **بسام** إلى غرفة المعيشة. أمسك به قرب المطبخ حيث كانت **ليلى** تُعدّ العشاء، رفعه، وضمّ بطنه إلى فمه محدثًا صوت فقاعات وهمي جعل الصبي يضحك بجنون، بينما كان **سامي** يتشبث بساقيه محاولًا الركوب على قدميه.
انهاروا جميعًا على الأريكة، واليدان الصغيرتان تغطيان عينيه، وصوت سامي يقول:
"من هذا يا أبي؟ من؟"

عبث علي بشعره ثم رفعه أمامه ودغدغه في بطنه الصغير، فغرق الطفل في الضحك. لحقه ببسام، أمسكه، رفعه على كتفه، وأعاده إلى الأريكة ليقفز مع توأمه في مرح صاخب.
ثم انضم علي إلى ليلى في المطبخ ليساعدها في إنهاء الطعام.

قالت مبتسمة:
"مفاجأة لطيفة أن تعود باكرًا اليوم."

توقف عند عتبة الباب صامتًا يراقبها وهي تقطع الفلفل. كانت حركتها حازمة، السكين يضرب لوح التقطيع بقوة إيقاعية. أنهت الفلفل البرتقالي، ثم الأخضر. طق،

طق، طق.

دفعت الشرائح إلى طبق الصبيين، ثم وضعت بجانبها قليلًا من الحمص.

قالت:

"سأعدّ لك طبقًا قبل أن تعود إلى المكتب."

قطعت رأس الفلفل بضربة نهائية، ثم وضعت السكين جانبًا بحركة مسرحية.

استند علي إلى إطار الباب مبتسمًا. ناولته صحنين، فحملَهما إلى المائدة، ثم أخذ كوبين صغيرين من طراز "قصة لعبة" وملأهما ماءً.

اقتربت ليلى منه من الخلف واحتضنته وهي عند المغسلة وقالت:

"سعيدة بعودتك."

شعر بلمسة شعرها تنساب على كتفه وبقبلة على عنقه.

إن لمست شعرة واحدة من رأسها...

انزلقت المياه على أصابعه المرتجفة وفاضت المياه في الكوب. تمتم ساخطًا، أفرغ القليل من الماء وجفف يديه.

سألته ليلى بقلق:

"هل أنت بخير؟"

قال مبتسمًا وهو يقبّل جبهتها:

"بالطبع، حبيبتي."

ثم استدار نحو غرفة الجلوس.

"أولاد، العشاء جاهز!" ناداهم.

الفصل السابع

تَشَكَّلَتْ عمليةُ **المراقبة المضادة لـمَريَم حدّاد** بعد يومين من التخطيط داخل شقة آمنة تتبع لمحطة باريس، تقع قرب *ساحة فُوج* في حيّ «المارا» العصري. اعتاد **سام** على العقارات الكئيبة التابعة لقسم الشرق الأدنى، فدهش حين وجدها شقّة أنيقة خلف باب خشبي ثقيل في الطابق الخامس من مبنى حجريّ ذي لون كريميّ، تُطلُّ نوافذُه على الساحة العامرة بأسقفها ومدخّناتها؛ مظلة من القرميد الرماديّ والعنبر والأوخر.

لكن تلك الأناقة تبدّدت الآن؛ إذ غصّت غرفة المعيشة بالخرائط وصور الأقمار الصناعية وصناديق البيتزا وعلب الطعام الصينيّ الفارغة.

في الليل كانوا يقودون في الشوارع، يتدرّبون على «رقصة» تبادل المواقع التي يُديرها المراقب الرئيس، وهو من يتولّى إبقاء العين على **مريم**. أما الثلاثة اللبنانيون – **التوائم كسّاب** – فقد اكتسبوا لقبهم الرمزي «BANDITOs» من شوارع بيروت حين نفّذوا عمليات مشابهة لكشف ما إذا كانت حزب *الله* يراقب عملاء الـCIA.

لكن الفرنسيين لم يستثمروا في شبكة كاميرات كالبريطانيين، ناهيك عن تقليص ميزانيات الأجهزة الأمنية الفرنسية، مما أدى – كما قرأ سام في أحد التقارير – إلى إلغاء معظم برامج المراقبة الداخلية إلا تلك المتصلة بمكافحة الإرهاب. أي إن احتمال أن تُحرجهم المخابرات الفرنسية في الشوارع كان ضئيلاً.

قال **رامي** وهو يطالع خريطة المنطقة حول فندق الوفد السوريّ:

– «بصراحة يا سام، العملية في باريس كلها تبدو كعطلة سياحية لطيفة!»

كان الإخوة الثلاثة محنيّين فوق الصورة الفضائية يمضغون العلكة. ضحك سام.

قال **رامي**:
– «ما المضحك؟»

رفعوا رؤوسهم نحوه.

قال سام:
– «أنتم لا تبدون إخوة كثيراً، لكن حركاتكم واحدة تماماً.»

حين سمع **برادلي** بخطة سام لتجنيدهم قال:
– «هل جننت؟ ثلاثة توائم في عملية مراقبة؟ الهدف ألا يراك أحد، لا أن تمنحه ثلاث فرص ليتعرّف إليك!»

أرسل سام في برقيته التالية صورهم ليقنعه: **رامي** قصير ممتلئ الخدين، **يوسف** نحيل طويل، **إلياس** في المنتصف تماماً.

تنهّد رامي وهو يلوك قطعة من العلكة.

قال سام:
– «قد تكون عطلة لكم، لكني أنا من سيضطر إلى التقرّب من امرأة سورية في الشارع.»

كانت العملية «دافئة» وليس «باردة» لأن لديهم معلومات سابقة عنها، لكنها تبقى من أخطر وأصعب مهام التجنيد؛ فعميل الـCIA يجب أن يقترب من الهدف خلال ثوانٍ ويقنعه بلقاء ثانٍ في مكان آمن، ولا أحد يضمن ردّ فعله. صديق له في إسطنبول حاول تجنيد ضابط روسيّ عند درجات سلم المترو، فدفعه الأخير من أعلى الدرجات. *لا تُجنّد أحداً إلا على أرض مستوية*، قال له بعدها.

أشار سام إلى درجٍ حجريّ على ضفة السين قرب فندقها وقد رسم أحد الإخوة حوله دائرة حمراء:
– «دعونا نتجنّب هذا المكان.»

***

مع الصباح، جاء الضوء الباريسيّ مشرقاً يبعث على التثاؤب، وبدأت مرحلة الانتظار الطويلة، أولى فصول أي عملية مراقبة وأكثرها مللاً. كان **سام** قد أنهى كوبين من القهوة حين انفتحت أبواب الفندق المزدوجة وخرجت **مريم حدّاد** إلى شارع *رو دو ريفولي* الصاخب بالمقاهي الفاخرة والمتاجر المظلَّلة بالمشربيات البيضاء.

قال في جهازه المشفَّر:

– «الهدف خرج.»

من مخبئه في المخبز المقابل أنهى فطيرة *بان أو شوكولا* ورشف آخر القهوة، ثم ترك بعض النقود على الطاولة وغادر.

بدأت الرقصة. هل سيلزمها السوريون طوال اليوم ليتأكدوا من سلامتها؟ هل ستحاول المخابرات الفرنسية الـDGSE تجنيدها؟ يوم كامل من المشي والترقّب سيكشف الكثير.

ردّ الثلاثة عبر السماعة في وقت واحد:

– « عُلِم.»

قال سام:

– «ترتدي ملابس رياضة، يبدو أنها خارجة للجري. حظّنا جيد.»

الجري يعني طريقاً غير متوقَّع، وهذا يجبر أي فريق مراقبة مضاد على استخدام عناصر متنقّلة – أشخاص أو سيارات أو درّاجات – يتبادلون المواقع خلفها. والفرق الثابتة – سيارات راكنة أو أشخاص في مقاهٍ – يصعب على سام اكتشافها في أرضٍ أجنبية. أما المتنقّلة فحركتها تفضحها.

وقفت مريم على الرصيف تتمطّى وتتنشّق هواء الربيع.

ما زالت تشبه الصورة الوحيدة التي تملكها الـCIA لها. وكما فعل مع الصورة، أطال سام النظر أكثر مما يقتضي الاحتراف. شعرها الكستنائيّ ينسدل حتى

منتصف ظهرها، عظام وجنتيها حادّة، وأنفها مستدير طبيعيّ – يبدو أنها تخلّت عن عمليات التجميل التي تجتاح نساء الطبقة العليا ـ في دمشق.

جمعت شعرها ـ في ذيل حصان ونظرت حولها كأنها تفكّر ـ في المسار.

ابتسم لها شاب فرنسيّ مارٌّ، فبادلته ابتسامة واسعة أظهرت غمازتيها.

انطلقت تجري نحو *حدائق التويلري*.

قال سام:
– «اتجاهك يا رامي، جنوب كاستيليوني.»

– «عُلِم، أتوجّه إلى التقاطع.»

كان على رامي أن يحدّد مسارها، ثم يتناوب مع أخويه وسام كي لا يُكشَفوا.

قاد سام درّاجته الـ«فيسبا» حتى وصل *ساحة الكونكورد*، متجاوزاً المسلّة الفرعونية ـ في وسطها، فتوقّف عند إشارة حمراء قرب الجسر.

قال رامي عبر السماعة وهو يلهث:
– «ليست هدف مراقبة عاديّاً، سام. إنها أكثر، ما الكلمة...»

– «جميلة؟» قال سام. ضحك **يوسف** عبر الخط.

– «كنت سأقول ممتلئة الصدر.»

قال سام مازحاً:
– «تماماً كهدفنا ـ في إسطنبول، الفرق أنه هذه المرة امرأة لا جنرال سعوديّ بدين. احمدوا الله.»

ثم أضاف رامي:
– «تجتاز الحديقة نحو النهر، ورجل شابّ – أسود القميص والسروال، يبدو شرقياً – يجري خلفها. ربما صدفة، لكنه يلفت النظر.»

قال سام:

- « عُلِم.»

انتظر الضوء. وضع علكة في فمه. توتّره القديم بدأ يعود؛ الإحساس الخفيّ بأن أحداً يراقبك، ذلك التنبيه الغريزي الذي تعلّمه في *المزرعة*. التتبع الفرديّ الدقيق يحتاج مهارة عالية، حتى غير المدربين يشعرون به عاجلاً أم آجلاً. والفرنسيون لن يرسلوا شاباً واضح الملامح كهذا في فريقهم الأرضيّ.

انطلق بالإسكوتر، انحرف إلى الرصيف عند السلّم الحجريّ المؤدي إلى ممشى النهر.

- «سأتابع علي الأقدام.»

ركض وراء الرجل الذي يلاحق مريم. راقب خطواته، وتوجيه نظره، وحركات يده نحو أذنه كما يفعل مستخدمو السماعات. مريم أسرعت. العرق بدأ يلتصق بقميص سام، وأدرك أنه لن يستطيع الجري طويلاً دون أن يُكشف.

قال:

- «الرجل ما زال يتتبعها. أعود للطريق العلويّ. يوسف، التقطهما إن افترقنا.»

- « عُلِم.»

صعد الدرج الحجريّ التالي إلى حديقة تعجّ بالزجاجات المكسورة وأعقاب السجائر. راوغ المشاة وأصحاب الكلاب، وقفز فوق رباط أحدها فشهق الرجل العجوز.

وحين بلغ جسر *ألما* وجد الإجابة: الرجل الأسود القميص صعد الدرج وراء مريم، تبادل كلماتٍ سريعة مع شاب آخر بملابس رياضة حمراء فضفاضة، ثم انطلق الأخير خلفها.

قال سام:

- «صارت مراقَبة. العداء سلّم المهمة لزميله.»

***

الآن تأكّد سام و«الباندِيتون» أن **مريم مراقَبة** من فريقٍ من ثلاثة رجال. اثنان شابّان رياضيان وثالث بدين أكبر سناً – قال **إلياس**:

– «سوريّ بالتأكيد، انظر إلى شاربه القديم ونظرته الغليظة، شكل مخابراتيّ من الطراز العتيق.»

كان يرسل إشارات يدويةٍ ركيكة لزميله من نافذة مكتبة، مما فضحهم. تابع السوريون مريم حتى عادت إلى فندقها، ثم ظهروا مجدداً حين خرجت للتسوّق في *غاليري لافاييت*. لم يحاولوا استكشاف المراقبة أو استفزازها.

واستمرت المتابعة حتى انضمّت إلى زملائها على العشاء في شارع *سان أونوريه*. وبعد أن عادت إلى غرفتها، اجتمع سام وفريقه في الشقة الآمنة. جلب **يوسف** بيتزا هَت ببروني واثنتي عشرة زجاجة بيرة فرنسية رخيصة.

قال سام عابساً:

– «نحن في عاصمة الطعام العالميّ، وهذا ما تأتون به؟!»

ردّ يوسف:

– «نحن نراقب، فنأكل بيتزا هَت.»

ضحك **إلياس**:

– «ما دامت البيتزا تفي بالغرض، فلمَ التغيير؟»

وضعوا البيتزا على الطاولة الخشبية القديمة التي اشتراها أحد عملاء المحطة من سوق السلع المستعملة، واكتشفوا أن الشقة تفتقر إلى فتّاحة زجاجات. لم يشربوا أثناء التخطيط من قبل، لذا لم ينتبهوا للنقص.

قال سام:

– «غير معقول.»

جلب سكين مطبخ كبير وحاول فتح الزجاجة، فانكسر النصل فوراً. ثم لجؤوا إلى حيلة وضع الغطاء على حافة الطاولة وضربه حتى انفتح، مع بعض الشظايا الخشبية. أخذ سام رشفة طويلة.

قال رامي:

– «فرنسيون؟ عملاء محليون؟»

قال سام:

– «مستبعد. الفرنسيون لا يرتكبون حماقات كهذه. إنهم سوريون.»

رفع قطعة بيتزا فامتدت منها خيوط الجبن كأنها حبل. قال متأففاً:

– «هل يُعقل أن يُسمَّى هذا طعاماً؟»

***

وجود الفريق السوريّ عقد العملية؛ إذ لم يعد بالإمكان التحدث إلى مريم في الشارع من دون تعريضها للخطر. كان يحتاج دقائق معها في مكانٍ طبيعيّ أن يتحدث فيه أمريكيّ إلى دبلوماسية سورية دون إثارة الريبة.

لذا قصد سام **محطة باريس** ليطّلع على تسجيلات الاستخبارات الإشارية *SIGINT*[18] ويعيد صياغة الخطة. ساعدته خبيرة تقنية تُدعى **ليزا** استعارتها المحطة من وكالة *NSA*. جمعت المكالمات المسجَّلة: بعضها بين **بثينة نجّار** وعشيق مجهول – قالت ليزا محمرة الوجه:

– «ربما لا تودّ الاستماع لهذه، إنها صريحة جداً» – ومكالمة بين مريم ووالدها.

استمتع سام بالاستماع إلى عربيتها الغنائية وضحكتها. وحين تحوّث الحديث إلى معركة *حلب* – (ملاحظة من NSA: «الفيلق الثالث بقيادة جورج حدّاد متمركز في حلب منذ أكتوبر») – شدّدت مريم نبرتها وبدت على أبيها مسحة حزن وتردّد.

قال سام:

– «أطفئي التسجيل، دَعيهما يحتفظان بلحظتهما.»

ثم سألها:

– «هل ورد شيء عن جدول الوفد؟»

---

[18] **سيغنت :(SIGINT)** اختصار لمصطلح "استخبارات الإشارات (Signals Intelligence) "، وهو فرع من الاستخبارات يختص بجمع المعلومات عبر اعتراض الاتصالات والإشارات الإلكترونية.

قالت:

- «حدثٌ اجتماعيّ واحد فقط.»

استدارت إلى حاسوبها وأخرجت تقريراً من وكالة *NSA* قبل ستة أيام: مكالمة بين السفير الفرنسي في دمشق ونائب وزير الخارجية الفرنسيّ، يقترح فيها الأول تنظيم مناسبة اجتماعية أثناء زيارة الوفد السوريّ لتحسين العلاقة بين الوزير و**بثينة نجّار**، شرط أن يُمثَّل فيها شركاء أجانب، وخصوصاً الأمريكيين.

أمسك سام التقرير وتوجّه إلى مكتب رئيس المحطة **بيتر شيبلي**. انتظر خارجاً حتى أنهى الرجل مكالمةً محتدّة مع طليقته بشأن ابنٍ رسب في الرياضيات. توقيت *سيئ لمضايقة الدبّ العجوز*، فكّر سام، لكنه دخل بعد أن سمع سماعة الهاتف تُغلق.

قرأ شيبلي الورقة بنظارته ثم رماها على المكتب.

- «اللعنة! السفير يُخفي عنا مثل هذه الأمور دوماً. أنت متأكد أنها مراقَبة؟»

- «نعم.»

رفع إصبعه إلى كتفه ليشد الحمالة وقال:

- «اخرج قليلاً، ستكون مكالمة غير سارة.»

جلس سام على أريكة خضراء خارج المكتب ثلاث دقائق. سمع في الدقيقة الأولى نبرة غضب، وفي الثانية صراخاً يملأ المكان، وفي الثالثة همساً غاضباً انتهى بارتطام الهاتف بالمكتب وكلمةٍ واحدة واضحة: *اللعين!*

فتح شيبلي الباب ووجهه متوهّج، لكن ابتسامةً خبيثة شقّت تجهمه.

- «حصلت لك على دعوة. غداً مساءً، *قصر لويس فيليب*. الثامنة. ارتدِ شيئاً أنيقاً.»

***

كانت معظم عمليات التجنيد تستغرق أشهراً أو سنوات، لكن سام كان من «الصيّادين» القلائل الذين يمتلكون تلك الموهبة النادرة: اكتشاف الأشخاص

المناسبين، بناء الثقة، ثم جذبهم إلى العمل مع الـCIA. أنجز خمسة عشر تجنيداً ناجحاً خلال عشر سنوات، وهو رقم قياسيّ في دفعة «المزرعة».

القاعدة الذهبية التي يتعلّمها المتدرّبون لعمليات اللقاءات العلنية تقول بثلاث مراحل: افتح حديثاً عابراً، استخرج أكبر قدر من المعلومات دون أن تثير الشكّ، ثم رتّب لقاءً خاصاً لاحقاً. النجاح يعتمد على الكيمياء البشرية، وسام أمامه ليلة واحدة ليصنعها.

عند بوابة قصرٍ فخمٍ يبعد أمتاراً عن *وزارة الخارجية* في *كيه دورسيه*، أخرج **باتريدج** – المستشار السياسيّ في السفارة – الدعوات من جيبه. خارج القصر تجمّع عشرون متظاهراً يلوّحون بأعلام الثورة السورية الثلاثية النجوم. وقفت مجموعة من الدرك الفرنسيّ بأسلحتهم عند الرصيف. فتح لهم بوّاب ببدلة سوداء الباب بإيماءة رسمية. اختفى باتريدج بين الضيوف دون كلمة.

كانت القاعة فسيحة تفيض بالثريات والطلاء الذهبيّ، باران ومنضدة مقبّلات. جمع سام بعض الدجاج المتبّل في طبق صغير واتخذ زاوية يراقب منها المشهد. لاحظ أن الوفود متجمّعة على أساس وطنيّ: كلٌّ يتحدث إلى أبناء بلده. عدّل ربطة عنقه.

هناك رآها تحاول الإفلات من حديثٍ مع دبلوماسيّ قصير قادم من ما بعد الستار الحديديّ. بدت نظراتها تبحث عن مخرج. وحين التقت عيناها بعينيه، قرأ الرسالة التي لا تحتاج الي ترجمة : *أنقذني فوراً*.

اقترب منها بابتسامة، واحتضنها بحرارة قائلاً بالعربية الطليقة:
– «كم مرّ من الزمن! كيف حالك؟»

ابتسمت واحتضنته كصديقة قديمة، ثم اعتذرت من الرجل الذي انسحب ممتعضاً.

لن تُمحى صورة **مريم** في ذلك الفستان الأحمر القرمزيّ الحريريّ من ذاكرة سام. التصق عند خصرها وانساب حتى الأرض، وشعرها مرفوع يكشف عن عنقها وظهرها.

قال هامساً:

– «سام جوزيف.»

ردّت بخفوت وهي تبتسم:

– «مريم حدّاد. أمريكي؟»

أومأ برأسه.

– «لغتك العربية ممتازة.»

– «الكثير من التدريب. وكيف تعرفين إيغور[19] ذاك؟»

– «من؟ آه، اسمه نيكولاي أظنّ. بلغاريّ.»

– «إيغور اسم عام فقط... لا بأس. نعم، نيكولاي.»

قالت ضاحكة:

– «تعرفت إليه الليلة، لسوء حظي. شكراً على إنقاذي.»

تحوّلت إلى الإنكليزية بطلاقة مدهشة.

قال:

– «على الرحب. يبدو أنه الآن وجد ضحية جديدة.»

راقبا نيكولاي وهو يتجه نحو **باتريدج**. ضحكت مريم.

قال سام:

– «إنك تتحدثين الإنجليزية بإتقان. أين تعلمتِها؟»

قال:

– "بالمناسبة، لغتكِ الإنجليزية متقنة. أين تعلمتِها؟"

[19] **إيغور (Igor)** : اسم روسي شائع، يُستخدم في الثقافة الغربية كإشارة نمطية أو ساخرة لأي رجل روسي.

مرّ نادل وهو يحمل طبقاً من البسكويت المالح الذي تعلوه قطع لحم رمادية غامضة، فأشار له **سام** بالابتعاد.

قالت:

– "تلقيتُ دروسًا هنا عندما كنتُ صغيرة. كانت والدتي دبلوماسية، وقد استغلت فترة عملها في **باريس** وساعدتني على تعلم الفرنسية والإنجليزية، وكذلك فنون القتال."

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ذات مغزى وارتشفت من كأس الشمبانيا.

ارتشفَ هو الآخر من كأسه، وهو يقرأ لغة جسدها، محاولاً أن يتبين إن كان تعليقها بشأن القتال على سبيل المزاح.

عدّلت من وضع فستانها.

قالت:

– "أنا جادة."

أيقن أنها كذلك.

قال:

– "هل أرادت والدتكِ أن تتعلمي الدفاع عن النفس؟"

– "بالطبع. والدتي تعشق الفضائح، لذا فقد رشحت لي الكراف ماغا."

ابتسم وهو غير متأكدٍ الآن إن كانت تسخر منه، لكنها أدركت حيرته.

قالت مازحةً:

– "وهل هناك طريقة أفضل للدخول إلى عقول الصهاينة من هزيمتهم في ألعابهم الخاصة؟ اعرف عدوك."

ضحك. ارتسمت على وجه **مريم** ابتسامة ساخرة، لكنها سرعان ما تلاشت مع اقتراب رجل سوري ذي شارب يرتدي بذلة أصغر من مقاسه بنمرتين على الأقل،

ليذكّرها بفظاظة بوجوب الإبلاغ عن أي تواصل مع الأمريكيين. من الواضح أنه لم يكن يعلم أن **سام** يتحدث العربية، إذ ألقى عدة ملاحظات مهينة وهو يشير إليه. خمّن **سام** أنه أحد أزلام المخابرات المكلفين بمراقبة موظفي السفارة، واكتفى بأن ابتسم له ابتسامة بلهاء.

قلّبت عينيها بتكلف.

قالت بالعربية، متظاهرةً أن **سام** لا يفهم:

– "أعرف ذلك بالطبع يا **مهند**. سأقدم التقرير في الصباح. بحق الله، اذهب وأزعج شخصًا آخر."

أشاحت بوجهها عنه. تقبّض وجهه غضبًا وانصرف وهو يرمق **سام** بنظرة حادة.

ارتشفا من الشمبانيا في صمت حتى وصل **مهند** إلى الحانة وبدأ في التهام البسكويت المالح، وعيناه لا تزالان عليهما. ثم التفتت إلى **سام**.

قالت بالإنجليزية:

– "**مهند** شديد الشك ويستمتع بكتابة التقارير."

قال:

– "ربما يمكننا متابعة حديثنا مساء الغد مع احتساء مشروب؟"

كان قد استكشف بالفعل حانة صغيرة بالقرب من **السوربون**.

ارتشفت من كأسها، وعيناها مثبتتان عليه.

قالت:

– "أين؟"

– "ما رأيكِ في ’أو تورشون‘؟ في الحي اللاتيني. حددي أنتِ الوقت."

– "الثامنة والنصف؟ لدينا اجتماعات حتى السابعة."

- "هذا مثالي. أراكِ حينها."

قرعت كأسها الفارغ بكأسه وانصرفت. وجد نفسه يحدّق بها وهي تغادر ثم تجرّع آخر رشفة من الشمبانيا. كان هناك الكثير مما يستدعي التحليل: الصورة النمطية الأولية للأميرة الصحراوية جميلة الملامح، ذات البشرة الزيتونية، التي تذوب لتتحول إلى دبلوماسية تتحدث الإنجليزية وتمارس الكراف ماغا، لتصل في نهاية المطاف إلى شخصية مهنية مقتدرة تمتلك الشجاعة لتقتلع **مهند** من مكانه. وأيضًا، ذلك الفستان.

قاطع أفكاره صوت النادل:

- "المزيد من الشمبانيا، يا سيدي؟"

رفض طلبه، وبحث بنظره عن **مريم** ليلقي عليها نظرة أخيرة لكن دون جدوى.

وفي طريقه للخروج، ابتسم لـ**باتريدج**، الذي كان لا يزال عالقًا في حديث مع البلغاري ضخم الجثة.

الفصل الثامن

في صباح اليوم التالي، انضم **سام** و**بروكتر** و**برادلي** إلى مؤتمرٍ عبر اتصالٍ مرئيٍّ آمن، لمناقشة مدى حِكمة لقاء **مريم** على مشروبٍ إن استمرّ الفريق السوري في مراقبتها عن كثب.

قال **بروكتر**:

– "حديثٌ عابرٌ في حفلة، لا بأس. يسجّله أحد رجال الأمن في السفارة، تكتب هي في تقريرها أنّ أمريكيًا حاصرها للحظة، وانتهى الأمر. لكن لقاءً ثانيًا؟ سيضعك حتمًا تحت مجهر المخابرات السورية."

أومأ **برادلي** موافقًا وقال:

– "تأكّد من أنها نظيفة تمامًا قبل أن تلتقي بها."

في ذلك الوقت، كان **سام** قد تحرّر من مهام المراقبة. جلس في مقهى على بُعد شارعٍ واحدٍ من مطعم *أو تورشون*، يحتسي قهوته بينما يستمع إلى دردشة فريق **الباندیتوز** عبر القناة المشفّرة، إذ واصلوا مراقبتهم لها.

قال **يوسف** في السماعة:

– "حتى الآن، نظيفة يا سام. ما زلت أتابع سيارة الأجرة."

ردّ **سام** وهو يضع كوب القهوة جانبًا:

– "سأتوجّه إلى المطعم."

أجابه الصوت:

– "عُلم."

اختار **سام** مطعم *أو تورشون* تحديدًا، لأنه يضمّ غرفةً خلفية وثلاثة مخارج ممكنة. أما **البانديتوز** فسيواصلون المراقبة من الخارج. ترك **سام** سماعة الأذن المشفّرة، وفضّل مراقبة هاتفٍ مؤقتٍ سيُستخدم فقط في حال اقتراب الفريق السوري من المطعم.

دخل الغرفة الخلفية فوجد طاولة صغيرة في زاويةٍ هادئة. على الجهة المقابلة جلس طالبان فرنسيان يتبادلان همساتٍ متقاربة، وتبعته إلى الداخل عجوزان متأبطان أيدي بعضهما ببطء.

نزع **سام** السماعة – فالأشخاص المستهدفون ينفرون عادة من هذا النوع من الأجهزة – وأرسل رسالة إلى **البانديتوز**:
"وصلت إلى المطعم. أتحوّل إلى الهاتف."

جاءه الرد من **إلياس**:
"خمس دقائق ونصل. ما زلنا في الوضع الأسود."

تظاهر **سام** بتصفّح قائمة الطعام بينما أخذ يفكّر في مهمته. كانت محطة باريس قد أشارت في تقاريرها الاستخبارية إلى أن وفد النظام السوري سيبقى في باريس أربعة أيام أخرى. يمكنه متابعة تطوير العملية في دمشق لاحقًا، لكن الأمور هناك ستكون أكثر تعقيدًا. الوقت يضيق.

وصلت رسالة أخرى من **رامي**:
"نصل الآن. الوضع أسود."

ابتسم **سام** عندما رأى تلك الغمازتين اللتين استقبلتاه لحظة دخول **مريم** الغرفة الخلفية. كانت ترتدي بنطال جينز داكن، وحذاءً رماديًا من الجلد السويدي، وقميصًا أبيض فضفاضًا ينساب بخفة. فُرق شعرها البنيّ قليلًا عن منتصف الرأس وسقط بنعومة على كتفيها.

قالت مازحة:
– "مرحبًا أيها الغامض."

نهض **سام** لملاقاتها، مرتديًا بدلة زرقاء وقميصًا أبيض دون ربطة عنق.

قال مبتسمًا:

– "أراك تحرّرتِ من وصيّكِ هذه المرّة."

ضحكت قائلة:

– "أحيانًا يسمح لي بالخروج من السجن، وأحيانًا أهرب دون إذنه. أعددت هذا الصباح تقريرًا فاضحًا عنك، فكان مسرورًا للغاية."

ابتسم **سام** وهو يتساءل عمّا تضمنه التقرير حقًا.

قال:

– "كأس نبيذ؟"

أجابت وهي تخطف قائمة الطعام من يده:

– "نعم، لكن دعني أطلبه أنا. يبدو لي أنك... كيف أقولها بالإنجليزية؟"

قال مبتسمًا:

– "رجل بيرة؟"

– "رجل بسيط الذوق."

– "توصيف دقيق."

ابتسمت، ثم استدعت النادل وسألته ببضع كلماتٍ فرنسيةٍ طليقة، واختارت نبيذًا من قائمةٍ لم يسبق أن قرأها **سام**.

عاد النادل بعد لحظات حاملاً كأسين من نبيذ أحمر من قرية تُدعى *جيغونداس*.

قالت **مريم** وهي تتأمل اللون:

– "زرتُ تلك القرية مع والدتي... منذ زمنٍ بعيد."

ارتشفت رشفة خفيفة وأومأت للنادل، ثم التفتت إلى **سام**.

سألها بالعربية:

- "كم سنةً عشتِ في باريس؟"

أجابت:

- "عامين. كنت في السادسة عشرة حين وصلنا، والثامنة عشرة حين غادرنا. عدت إلى دمشق لأدرس في الجامعة، فوالدي أصرّ أن ألتحق بجامعة دمشق."

كان يعلم أنّها تتوقّع منه أسئلةً عن عملها، وعن الوضع في سوريا، وربما عن نقاشاتها مع المعارضين، لكنه لم يُرِد الحديث في أيٍّ من ذلك الآن. ما أراده هو بناء الجسر بينهما، أن يجعلها تتحدث عن نفسها، فذلك هو الوقود الحقيقي لعملية الاستقطاب.

قال:

- "وما أكثر ما أحببته في باريس؟"

قالت وهي تمرّر أناملها على ساق الكأس:

- "الحرية."

قال مبتسمًا:

- "احكِ لي عنها."

ابتسمت بدورها، وأخذت رشفة أخرى.

قالت:

- "حين وصلت كنت في السادسة عشرة، ولم أغادر سوريا يومًا قبل ذلك. كان شهر أيار، أذكر أنني خرجت من شقّتنا ومشيت على ضفة السين تحت الشمس. كان الهواء خفيفًا بطريقة غريبة، كما لو أن يدًا كانت تضغط على صدرك طوال حياتك، ليست بقوةٍ مؤلمة، لكن بما يكفي لتشعر بثقلها. في باريس... رُفعت تلك اليد. أغمضت عينيّ، وأخذت أتنفّس. ثم ركضت، ومعطفي يتطاير ودموعي تنهمر. كنت أضحك وأبكي في آنٍ واحد."

ضحك **سام** وقال:

– "لابد أن الناس ظنّوك ِ مجنونة."

قهقهت وهي تصدر الصوت نفسه الذي سمعه سابقًا في تسجيلات وكالة الأمن القومي.

قالت:

– "اشتريت علبة سجائر. ومع حلول الليل كنت أجلس أمام كنيسة ساكر كور في مونمارتر، أنظر إلى أضواء المدينة. دخّنت وراقبت بحر الأضواء المتلألئ."

قال مبتسمًا:

– "وتتنفّسين؟"

ضحكت مجددًا:

– "كلّما استطعت. كنت أتوقع أن تعود تلك اليد، لكنها لم تعد. صار العالم خفيفاً. ثم ظهرت امرأة فجأة، شابة نحيلة بشَعرٍ أشقر قصير وعظام خدّين جميلتين وبشرة كاللبن. طلبت قدّاحة. أشعلتُ لها سيجارتها وجلستْ إلى جانبي، نتأمّل المنحدر. قالت إنها هربت من بيتها. سألتها لماذا، فقالت إنها أرادت أن تكون حرّة، وها هي كذلك. ثم نظرت إليّ وسألتني: هل أنتِ حرّة؟ لم أجد جوابًا. قلت لا أعلم. أنهت سيجارتها وغادرت."

سألها **سام**:

– "هل ترغبين في أن نطلب شيئًا للأكل؟"

قالت:

– "لا، شكراً. لكنني رويتُ لكِ قصة عن نفسي، فلتخبرني الآن قصة عنك. لا سيرةً ذاتية، بل حكاية ممتعة. احكِ لي شيئًا مجنوناً، يا سام."

نظر إلى العجوزين في الجانب الآخر وقد بدآ يتبادلان القبل على الطاولة نفسها، فأشار نحوهما مبتسمًا.

ضحكت **مريم** وأومأت بخفة ثم قالت بالعربية بصوتٍ منخفض:

– "يا للروعة."

ثم أضافت:

– "لكن هذا لن يُنقذك من رواية قصتك."

ضحك **سام** وقال:

– "حسنًا. نشأت في ولاية مينيسوتا، في بلدة صغيرة تُدعى شيرمانز كورنر. كان هناك مطحنة دقيق ومزارع صغيرة. كنت في العشرين تقريبًا حين دعاني بعض عمّال المطحنة إلى لعبة بوكر، وفزت بهم جميعًا."

سألت وهي تبتسم:

– "أأنت ماهر في الورق؟"

قال:

– "أصبحت مهووسًا به. قرأت كلّ ما وقع تحت يدي، وشاهدت بطولات البوكر على التلفاز، وكنت أغطّي الجزء الذي يُظهر أوراق اللاعبين لأخمنها بنفسي. ظللت أفوز حتى جاءني أحدهم بعرض: بطولة بوكر كبيرة في كازينو للهنود خارج المدينة. خمسة آلاف دولار رسم الدخول، والجائزة ربع مليون. قال لي إنهم سيجمعون المال، وسأحتفظ بخمس المكافأة إن فزت."

قالت:

– "دعني أخمّن، فزت؟"

ضحك وقال:

– "فعلت. ربحت اثنين وستين ألف دولار. ونحن في طريق العودة نظرتُ إلى وجوههم، رجالٌ يعودون إلى زوجاتهم وأولادهم والمطحنة، وفكّرت: هذه تذكرتي للخروج من هنا. نزلت عند بيتي، صعدت إلى غرفتي، حزمت حقيبتي، وانطلقت إلى مينيابوليس، واشتريت تذكرة إلى لاس فيغاس. واستقرّيت هناك. كانت أمي غاضبة جدًا."

قالت:

– "وأنا أيضًا سأغضب لو فعل ابني ذلك. دعني أخمّن ثانية: ربحت الملايين، ثم قررت أنك لا تحتاج المزيد، فقلت لنفسك: لماذا لا أنضمّ إلى وزارة الخارجية وأسافر العالم؟"

ضحك **سام** وقال:

– "ليت الأمر كذلك. في البداية كان الحظ حليفاً لي. لعبت بعقلانية، وإن شعرت بأنني أفقد السيطرة كنت أبتعد فورًا. جمعت ما يقارب مئة وخمسين ألفًا. ثم دخلت لعبة خاصة عالية المخاطر، وضعت فيها كل شيء."

سألت:

– "وماذا حدث؟"

قال:

– "خسرت. تلاشى ما يعادل راتب ثلاث سنوات في دقائق. وبينما كنت أغادر، أوقفني صاحب اللعبة، رجل يُدعى ماكس. سألني: لماذا تلعب؟ قلت ببساطة: لأفوز. ربما قلتها بوقاحة شابٍ متعجرف. سألته لماذا يهتم، فقال إنه لا يهتم. لكنه رأى في عينيّ شيئًا. قال لي: الفوز وحده لن يكفيك يا سام. أنت تحتاج إلى ما هو أكثر."

سألت **مريم**:

– "وماذا قصد؟"

قال:

– "أخذني إلى نافذةٍ في جناحه داخل فندق بيلاجيو المطل على الشارع الرئيسي. قال إنني يمكن أن أملك كل شيء: المال، السيارات، المنازل. لكنه أخبرني أنه جرّب ذلك كله، وأن فيغاس نهشته من الداخل وتركته فارغًا. سألني إن كنت أريد أن أقدّم شيئًا. لم أفهم، لكنني قلت نعم. شيءٌ ما في داخلي تجاوب مع كلماته. ذلك الفراغ الذي كنت أشعر به في مينيسوتا ثم في فيغاس، كأنني تائه عن كل ما له معنى."

ابتسمت وقالت بمكر:

– "أو ربما لأنك فقدت للتو مئة ألف دولار."

ضحك **سام** وقال:

– "ربما. في الحالتين، ذلك الرجل اتضح لاحقًا أنه يجنّد أشخاصًا للعمل في وزارة الخارجية. وهكذا وجدت نفسي هنا."

قالت:

– "طريقة غريبة لدخول عالم الدبلوماسية."

أنهى **سام** كأسه، فمالت نحوه وقالت بصوتٍ منخفض:

– "شكرًا لأنك شاركتني هذه القصة."

طلبت زجاجة نبيذ أخرى، فقال مازحًا:

– "لقد أخبرتك بأكثر أفعالي جنونًا، فما قصتك أنت؟"

ضحكت وقالت:

– "ألست مهتمًا بسوريا؟ بالمحادثات مع المعارضة؟ ألا يجب أن تكتب تقارير لواشنطن؟"

قال مبتسمًا:

– "سؤالي أكثر إثارة للاهتمام."

تغيّر وجهها قليلًا، شربت رشفة كبيرة وقالت بنبرةٍ أكثر هدوءًا:

– "حسنًا، ذات مرة... شاركت في مظاهرة."

قال ممازحًا:

– "كنت أعلم أنكِ متمرّدة."

لكنّه لاحظ أصابعها وهي تعبث بقلق حول كأسها، فتابع بهدوء:

– "آسف، لم أقصد التقليل من الأمر. يمكننا التحدث عن شيءٍ آخر إن أردتِ."

ترددت لحظة ثم قالت:

– "لا، لا بأس. فقط لم أخبر أحدًا بذلك من قبل."

وهنا، التقط **سام** اللحظة بعقله كصورةٍ محفوظة. كان يعلم أن كل عملية تجنيد تبدأ هنا، عند أوّل سرٍّ شخصيّ. فحين يكشف الهدف سرّه الأول، سيأتي لاحقًا سرٌّ أكبر... من داخل حكومته.

قال برفق:

– "وماذا حدث؟"

قالت:

– "لديّ ابنةُ عمّ اسمها **رزان**، عفوية وجريئة. نحن في العمر نفسه تقريبًا ونشأنا كالأختين. كان لرزان صديقة في إحدى لجان التنسيق[20] المعارضة بدمشق، حيث كانوا ينظّمون الاحتجاجات. نحن من عائلة **حدّاد**، عائلة مسيحية معروفة في دمشق. والمسيحيون – كما تعلم – ظلّوا بمعظمهم على الحياد في تلك الانتفاضة، على أمل أن تنتهي. طلب منظّمو الاحتجاج من **رزان** أن تحضر، ليُظهروا تضامن المسيحيين مع المعارضة. وأخبرتني بذلك رغم عملي في القصر."

قال بهدوء:

– "فاتّبعتِها؟"

هزّت رأسها إيجابًا وقالت:

– "فعلت."

ثم أفرغت ما تبقى في كأسها، وملأته مجددًا، وحدّقت في عينيه مباشرة وهي تقول:

– "ذهبت لأحميها، لا لأنني كنت أؤمن بما فعلته."

قال بلطف:

– "حسنًا."

---

[20] **لجان التنسيق (Coordination Committees):** شبكات محلية نشأت مع بداية الانتفاضة السورية لتنظيم الاحتجاجات السلمية. مع تحول الصراع إلى مسلح، أصبحت هذه اللجان بمثابة الواجهة الإعلامية والمدنية للعديد من فصائل المتمردين، حيث عملت على نقل أخبارهم وتنسيق الدعم لهم.

تأملت وجهه لتتأكد من أنه فهم الرسالة. كان يراقب ملامحها، عينيها، حركة جسدها، ذلك التوتر الذي لم يُترجم بعد إلى كلمات. بقي صامتًا، يترك لها المساحة.

قالت أخيرًا:

– "أعطوها مكبّر صوت. قالت كلماتٍ مؤسفة تنتقد الرئيس علنًا. كنت أراقبها من خارج الحشد كمتفرجة. ثم رأيتهم يوقفونها. شخص ما ضربها بعصا على عينها اليمنى، ثم جرّوها وضربوها واعتقلوها. بقيت في السجن أيامًا حتى تدخّل والدي وأطلق سراحها. كانت محظوظة... لكنها لم تعد ترى بتلك العين."

سألها برفق:

– "وماذا فعلتِ أنتِ؟"

قالت بصوتٍ مبحوح:

– "لم أفعل شيئًا."

مدّ **سام** يده على الطاولة، مبسوط الكف، دعوة صامتة. وضعت يدها فوق يده. كانت ناعمة ودافئة. ابتسمت ابتسامةً حزينة تشكر بها صمته.

حاول أن يذكّر نفسه أن هذا لقاء تطوير، لا موعد عاطفي، وأن هناك خطوطًا لا يجب تجاوزها. لكنه، وهو ينظر إلى يديهما المتلامستين، أدرك أنه تجاوزها بالفعل.

قالت وهي تسحب يدها برفق:

– "ينبغي أن أعود إلى الفندق."

قال:

– "كم ستبقين في باريس بعد؟"

قالت:

– "حتى نهاية الأسبوع."

قال دون تفكير:

– "هل يمكن أن أراك مجددًا؟"

وما إن خرج السؤال من فمه حتى أدرك كم بدا شخصيًا.

ترددت قليلًا، ثم قالت بابتسامةٍ حزينة:

- "لا أظن أن ذلك فكرة جيدة. سأكون مشغولة، ثم... أنت أمريكي."

رمقت يده على الطاولة، ثم حوّلت بصرها بعيدًا. كان يعرف القاعدة: احترم الرفض الأول. فالمجنّد الجيد لا يُكره أحدًا. عليهم أن يختاروا بأنفسهم.

قال بهدوء:

- "أتفهم."

ثم أخذ القلم من داخل غلاف الفاتورة، وكتب رقم هاتفٍ على منديلٍ ورقي.

قال:

- "هذا رقمي. سأكون هنا لبقية الأسبوع. أودّ أن نكمل حديثنا... في وقتٍ شخصي."

دفَع المنديل نحوها، فنظرت إليه لحظة ثم وضعته في حقيبتها.

خلا المكان الخلفي من روّاده، وغادر الأزواج الفرنسيون منذ زمن.

قبل أن تذهب **مريم**، طبعت على وجنته اليمنى أثرًا من أحمر شفاهها. حاولت أن تمسحه، ثم رفعت أصابعها الملطّخة وهي تبتسم بخبث طفولي أشرق على وجهها.

قالت:

- "يبدو أنني لم أُزِلْه كله."

ضحك، وجذبها إلى حضنه.

تراجعت قليلًا ونظرت إليه لحظة، ثم قالت بسرعة وهي تلوّح له بالوداع، قبل أن تختفي في مساءٍ رمادي غائم.

الفصل التاسع

استيقظت **مريم** في صباح اليوم التالي، وأول ما خطر ببالها كان يده الممدودة فوق الطاولة تدعو يدها إليها.
لماذا أخبرته بكل ذلك؟
ما زالت لا تفهم كيف استطاعت أن تنفتح بذلك الشكل أمام دبلوماسي غريب.
وأمريكي أيضًا.

نظرت إلى المنديل الذي كُتب عليه رقم هاتفه، مطويًا الآن في محفظتها خلف بطاقة الائتمان. شعرت بقشعريرة. كان عليها أن تمزّقه وتلقي بقطعِه في المرحاض. كانت تعرف ذلك.
ومع ذلك... لم تفعل. لم يكن الأمر منطقيًا، لكنها لم تفعل.

نهضت وبدأت في تمارين **الكراف ماغا** حتى أرهقها التعب تمامًا.
تغضّن عرقها على جبينها، فدخلت إلى الحمام واستحمّت، ثم ارتدت رداءها وطلبت إلى الغرفة فطيرة «بريوش» وماكياتو. جلست تحدّق في فنجانها بينما راحت الأسئلة البسيطة، المؤلمة، تتصاعد في ذهنها:

من أنتِ؟
ولِمَ تفعلين هذا؟
ولماذا جئتِ إلى باريس لتهدّدي فاطمة وائل؟

لكنها لم تجب.

بدلًا من ذلك، فتحت خزانتها، وارتدت تنّورة سوداء ضيّقة، وقميصًا كريميّ اللون واسع الأكمام، وحذاءً أسود ذا كعب عالٍ. ثم قلادة من اللؤلؤ الياباني – هدية

من أمّها.

جمعت شعرها ـفي عقدة أنيقة، ومرّرت أحمر الشفاه الأحمر ذاته على شفتيها أمام المرآة. تأملت صورتها: أنيقة. بسيطة. النقيض الكامل لرجال المخابرات الخشنين الذين اعتادوا تهديد فاطمة.

أنا وجه سوريا الجديدة يا فاطمة.

تعالي، وانضمي إلينا، وتخلّي عن تمرّدك.

عودي إلى الوطن... وإلّا فستُدمَّرين.

***

نزلت **مريم** إلى بهو الفندق، فوجدت **بثينة** تتناول إفطارها ـفي قاعة الطعام القريبة من الاستقبال.

كان حرسها يجلسون خلفها على طاولة أخرى، يتراخون ـفي مقاعدهم كقطط الغابة.

كانت بثينة تمسك دفتر ملاحظاتها بيد، وهاتفها ـفي اليد الأخرى، تنقر على الشاشة برسائل نصية سريعة ومتوترة.

قالت دون أن ترفع رأسها:

– "مريم، عزيزتي، لن أستطيع مرافقتك هذا الصباح إلى لقاء فاطمة. ـفي الحقيقة، قد أضطر لإنهاء رحلتي باكرًا. هناك دراما ـفي دمشق."

أرسلت رسالة أخرى، فظهر اتصال من رقم مجهول على شاشتها.

تمتمت:

– "اللعنة..."

ثم أضافت:

– "اذهبي إلى الاجتماع وسنلتقي لاحقًا."

ظهرت رسالة أخرى، فقالت من جديد:

– "اللعنة."

***

جاء **سائق من السفارة** ليقلّ مريم من الفندق عند الثامنة صباحًا.
كانت أمطار الصباح قد انهمرت مبكرًا، والطرقات الباريسية تلمع ببِرَكٍ زيتية، والمارة من أصحاب الكلاب يرتدون أحذية طويلة.
في المقاهي، كان النُدُل يمسحون المقاعد المبللة استعدادًا للزبائن.

قاد السائق السيارة نحو السفارة، حيث كان ينتظر مريم سلاحها البيروقراطي: الأوراق، الملفات، الأسماء.

وعند البوابة، اخترق السائق حشدًا من المتظاهرين.
رفع أحدهم لافتة كُتب عليها:
"دكتور الموت" فوق صورة **الأسد**.

تنفّست مريم بعمق وهي تعبر البوابة، فيما كان المحتجون يضربون غطاء المحرّك والنوافذ بأيديهم.

أشار شاب سوري نحوها من خلف الزجاج، وصاح:
– "أنتِ عبدة الجزار!"

ثم ألصق ملصقًا يدويّ الصنع على النافذة.
كانت عليه صور جثث ممدّدة: بعضها تحت الأنقاض، وبعضها الآخر في أكفان الدفن البيضاء.

نظر إليها مجددًا وأشار بإصبعه، بينما كانت عيناها تتجاوزانه إلى صورة امرأة ميّتة... تشبه امرأة عرفتها في ليلةٍ من ليالي سوريا البعيدة.

*اسمها (**أم أبيها**)*

***

في عامهما الثالث في **جامعة دمشق**، كانت **مريم** و**رزان** تشربان.

وكانتا أيضًا تتسوقان، تتناولان الغداء في الخارج، تحضران الحفلات، ترقصان، تتواعدان، تتأنّقان، تدخّنان، تغتبان، تستهلكان، وتتجاهلان.
كانت الأيام صاخبة، مترفة، لأبناء وبنات النظام.

فقد اعتلى **بشار** كرسيّ الرئاسة حديثًا بعد وفاة والده. والصحف تتحدث عن التغيير؛ فالرئيس الراحل حكم البلاد ثلاثين عامًا كاملة.

انفتحت "الصالونات السياسية" في بيوت بعض المعارضين الشيوخ، وجاء الساسة الغربيون إلى دمشق. وكان **بشار** يقودهم بسيارته الـ«فولكسفاغن غولف» عبر أزقة المدينة القديمة، فيلتقطون الصور التذكارية.
كان بشار شابًا، يعرف الحواسيب، طبيبًا درس في لندن.
وزوجته **أسماء** – كما كانت **رزان** تقول دائمًا – "جميلة بحقّ".
وقد وضعتها مجلة *Vogue* على غلافها بعنوان: *وردة في الصحراء*.

لكن داخل النظام، كانت الأموال والنفوذ تتدفّق إلى دائرة ضيقة من المقرّبين من الرئيس الجديد: أبناء العمومة، الأصدقاء الموثوقون، العائلات النافذة. أما هم – أولئك الداخلون في الحلقة الذهبية – فقد حصدوا الثروات من النفط والاتصالات ووكالات السيارات.

كانت **رزان** – بطبعها المتهوّر والمتمرّد، والموالي للماركسية – تشرح لِـ **مريم** كيف يعمل النظام.
كانت ممددة على أرضية غرفتهما في السكن الجامعي، ترتدي قميصًا قطنيًا أبيض وسروال جينز، تمسك بزجاجة الفودكا وتشرب منها مباشرة، وإلى جانب رأسها منفضة سجائر مكتظة بالأعقاب.

قالت:
– "الأموال والتراخيص والمناصب كلها بيد **بشار** وقلة من المحيطين به، وهم يقسمونها بينهم، ثم يمنحون فتاتهم إلى الطبقة التالية، وهذه تفعل الشيء نفسه مع من دونها... وهكذا دواليك."

وضعت الزجاجة جانبًا، وسحبت نفسًا من سيجارتها، ثم مدت ذراعيها على السجادة حتى ارتفع قميصها قليلًا، كاشفًا عن بطنها الأسمر الذي يتوسطه ثقب صغير للحلية المعدنية – فضيحة كاملة في عُرفهم.

قالت بابتسامة ماكرة:

- "هكذا يرسّخ الأسد سيطرته على سوريا... *سورية الأسد*... *أسد سوريا*."

ثم ناولت الزجاجة لِـ **مريم**.

وضعت **مريم** دفتر رسمها جانبًا، وأخذت رشفة، مائلة حاجبها بدهشة نحو ابنة عمّها.

كانت تتفحص الغرفة بعينيها، متخيّلة أين يمكن أن تكون المخابرات قد زرعت أجهزة التنصت.

أما **رزان** فلم تُعر الأمر اهتمامًا، بل ابتسمت وسألتها:

- "أتدرين إلى أين تذهب كل تلك الأموال؟"

قالت **مريم** وهي تشرب الفودكا الرخيصة:

- "إلى الأسفل... إلى حيث ينتهي السيل."

فتحت **رزان** باب خزانتهما المشتركة وأخرجت زوجًا من أحذية **لوبوتان**، تُعرف فورًا من نعالها الحمراء.

ولم تحتج **مريم** إلى وقت لتتعرفها؛ فهما حذاؤها – أحد عدة أزواج تمتلكها.

قالت **رزان** وهي تتلعثم قليلًا من أثر الشراب:

- "من الأسد... إلى خزانة ملابسنا!

طبعًا بعد محطاتٍ قليلة في الطريق: عبر الجيش، و«المركز السوري للدراسات والبحوث العلمية»، إلى آبائنا... ثم إلينا."

كانت تعبث بدرج الحلي، ترفع قطع الذهب واحدة تلو الأخرى وهي تواصل مونولوجها، ثم وضعت يديها على صدرها ومسحت بأطراف أصابعها جبينها – كلاهما خضع مؤخرًا لعمليات تجميل – وقالت بانحناءة ساخرة:

- "هدية من سيادة الرئيس **بشار الأسد**!"

ثم انفجرت ضاحكة بقهقهة شبيهة بضحكة **مريم**، قبل أن تترنح وتصطدم بالحائط من أثر الخمر.

قالت **مريم** وهي تنظر إلى ساعتها:
– "حبيبتي، علينا أن نكون هناك بعد خمس عشرة دقيقة."

فسقط الحديث السياسي، وتهيأتا للسهر.
ارتدتا الأحذية – "لوبوتان الأسد"، كما قالت **رزان** وهي أكثر ترنّحًا – وارتديتا فساتين ضيقة، وغطّتا وجهيهما بطبقات من المكياج، واستقلّتا سيارة أجرة نحو مطعم *Art House* حيث كانت حفلة عيد ميلاد أحد الأصدقاء.

وفيما كانت السيارة تنطلق بسرعة عبر شوارع دمشق، أسندت **رزان** رأسها على كتف **مريم**.

قالت **مريم** بصوت خافت:
– "ماذا سيحدث لنا حين يتقدم بنا العمر؟"

قالت **رزان** وهي تحدق في الزجاج الأمامي:
– "سيُربّوننا للتزاوج."

قالت **مريم** بعد لحظة صمت:
– "أظنّك على حق."

– "الطريقة الوحيدة للنجاة من برنامج التزاوج هذا، أن نحصل على عملٍ جيد. حينها فقط تكون لدينا خيارات."

جلست **رزان** مستقيمة، ونظرت إلى الخارج.
فعلت **مريم** مثلها.
كانت المدينة تتلألأ من خلف النافذة، عامرةً بالحياة.
آهٍ يا **دمشق**...

كانت **مريم** تحب كيف كانت تلمع في مركزها، مثل قلبٍ نيونيٍّ نابض يمدّ جسد البلاد المتعفّن بالدماء.
وكان بوسعها – للحظة – أن تنسى الثقل الجاثم على صدرها.
تقريبًا.

تذكّرت مريم مزيدًا من الفودكا والرقص وتبادل القبل مع أحد الفتية من صفّ التاريخ، ثم لمعت الشرارة الشريرة في عيني رزان وهي تقول:

– لنقم برحلة ميدانية، حبيبتي.

وفكّرت مريم، وهي تكتم زفرةً ضاحكةً مرتجفة: *يا إلهي، ابنَتَ خالتي هذه مجنونة حقًا!*

ثم لا تدري كيف، لكن رزان اختطفت سيارة صديقةٍ لها، وها هي تقود بهما شرقًا على الطريق السريع «M5»، بعيدًا عن المدينة نحو الضواحي.

لم تتذكّر مريم كيف غادرتا مقهى «آرت هاوس». كان الهواء يصفع وجهيهما، ورزان تدخّن، والمذياع يصخب بصوت إنريكي إغليسياس، وهي تضرب المقود براحتَيها وترقص في مقعدها. الأضواء تدور، والعالم يتماوج. حاولت مريم أن تستجمع وعيها وسط الدوّار.

وبعد نصف ساعة تقريبًا – أو أكثر، من يدري؟ – التفتت إلى رزان وسألتها:

– إلى أين بحقّ الجحيم نحن ذاهبتان؟

فقالت رزان مبتسمة:

– إلى الخارج، حبيبتي. لنتفرّج على المعالم.

كانت قد أفاقت قليلًا من السكر، والسيارة تمضي بخطّ مستقيمٍ تقريبًا. لكنّها حين مرّت بمنطقة تُدعى «حرستا» لمحت مريم شريطًا معدنيًا على الطريق، فاصطدمت به السيارة وانفجر الإطار بصوتٍ خافتٍ مكتوم. راحت رزان تلعن وتتفحّص العدّادات المضيئة أمامها كأنها تعاويذ سحر. ثم انحرفت عن الطريق الرئيسي.

كانت الشوارع معتمة، والبيوت مغلقة النوافذ، لكن مريم أحسّت بعيونٍ تراقبهما من خلف المصاريع، تتفحّص سيارة «بي إم دبليو» ذات الزجاج الملوّن. مرّتا بمساجد كثيرة، ومتجر إلكترونيات، ومطعمٍ مهجورٍ تمرح فيه القطط.

ورأت مريم امرأةً منقّبة – مشهد نادر في وسط دمشق – تمشي خلف رجلٍ ومعها أطفال صغار. أكياس القمامة متناثرة على الأرصفة. تفادت رزان أحدها وهي

تلعن مجددًا، والإطار الممزّق يضرب الطريق بعنف حتى تحوّل إلى خيوطٍ مطّاطة.
صاحت رزان فوق الضجيج:
– لا أظنّهم اعتادوا رؤية نساءٍ مسيحياتٍ يقدن سيارات «بي إم دبليو» هنا!

كأنّ صراخها أيقظ مريم من ضباب الفودكا. ثمّ انبعثت شرارات حين لامس الجنطُ الإسفلت. توقّفت السيارة في شارعٍ مظلمٍ بلا اسم.

نزلا تبحثان في الصندوق الخلفي، فوجدتا إطارًا احتياطيًا، لكن لم تعرفا كيف تستبدلانه.
تبادلت مريم نظرةً مع رزان وقالت بصوتٍ مرتجف:
– نحن على بُعد خمس عشرة دقيقة من البيت، ومع ذلك لم أشعر يومًا أنني أبعد من الآن.
فسألت رزان:
– في أيّ ضاحيةٍ نحن؟
– أنتِ التي قدتِ، يا غبية.
– وماذا في ذلك؟
– مررنا بحرستا، أليس كذلك؟
– نعم.
– إذن نحن في دوما... دوما.

سارتا في الظلام تبحثان عن مساعدة؛ فتاتان شبه سكرانتين، سافرتان بلا غطاء رأس، ترتديان ثياب السهر. كانت معجزة أن تعثرا على ورشة تصليح سيارات على بعد عدّة شوارع شمالًا. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والمكان غارقًا في السكون.

طرقت رزان الباب. قالت مريم بخوف:
– ما الذي تفعلينه؟ إنها منتصف الليل!
– كم معكِ من المال؟
– ليس كثيرًا.
– نعطيهم ما معنا، المهم أن نعود.

في الطرقة الثالثة، فُتح الباب، وظهر رجلٌ كثّ اللحية، وجهه حادّ كالصوان. ما إن رأى امرأتين غريبتين على العتبة حتى أغلق الباب في وجهيهما. همّت رزان بالطرق ثانيةً، فأمسكت مريم بيدها في الهواء وقالت:

– لا، كفى.

كانتا على وشك الرحيل حين انفتح الباب مجددًا، وظهرت في المدخل امرأةٌ عجوز ترتدي النقاب. قالت ببرود:

– ماذا تريدان؟

قالت مريم:

– تعطّلنا قبل قليل هناك، الإطار انفجر.

سكتت المرأة كأنّ هذا جوابٌ غير كافٍ. تابعت مريم:

– كنا نأمل أن تتّصلي بسيارة أجرة أو أن يخرج أحد ليرى السيارة.

قالت المرأة:

– أتعلمان كم الساعة الآن؟

– نعم، نعتذر. فقط تعطّلنا في الطريق.

سألتها بنبرةٍ فاحصة:

– إلى أين كنتما ذاهبتين؟

قالت رزان:

– في نزهة.

حدّقت المرأة فيها نظرةً طويلةً جعلت مريم تشعر بالخزي ذاته. لمحت في تلك النظرة حكمًا على وجودهما كله، على ثيابهما وأحذيتهما اللامعة. تمنت لو تستطيع أن تخلع حذاء «لوبوتان» الذي أهداها إياه والدها وتلقيه في أحد أكوام قمامة دوما.

ثمّ قالت المرأة، بعد لحظة صمتٍ قصيرة:

– ادخلا.

قادتهما عبر ممرٍّ ضيّقٍ إلى مطبخٍ صغيرٍ متّسخ، وأشارت إلى طاولةٍ بلاستيكيةٍ عتيقة. تركتهما وذهبت تتحدث مع زوجها في الغرفة الخلفية، وكان بابها مواربًا، فرأت مريم على الأرض أطفالًا كثيرين – ثمانية أو تسعة – نائمين على بطانياتٍ رثّة.

عادت المرأة وقالت:

– ستة منهم أولادي، والباقون من أقارب زوجي من الشرق. الجفاف دمّر مزارعهم وقطعانهم، فلم يجدوا ملجأً غيرنا. سيخرج زوجي ليرى السيارة. أين تركتماها؟

قالت رزان مشيرةً بيدها:

– هناك، على بعد بضع شوارع.

قالت مريم مترددة:

– إنها سيارة «بي إم دبليو»...

أومأت المرأة دون تعليق، وكأنها ابتسمت تحت النقاب، ثم نزعت النقاب أمامهما. كان وجهها مجعّدًا، شعرها رماديًا، وأسنانها تشبه حبّات الذرة. لم يكن سهلًا تقدير عمرها، لكن ملامحها المتناسقة دلّت على أنها كانت جميلة قبل أن تفتك بها الحياة.

قالت مريم:

– أنا مريم، وهذه ابنة خالتي رزان.

قالت العجوز:

– وأنا اسمي "**أمّ أبيها**".

دخل الرجل يحمل صندوق عدّته، متجنّبًا النظر إليهما. حدّثته زوجته عن السيارة، فدفعت رزان بالمفاتيح نحوه، ومدّ يده ليأخذها. لاحظت مريم أن ذراعه اليسرى مليئة بندوب سكاكين وآثار حروق صغيرةٍ دائريةٍ، كأنها تاريخٌ محفورٌ بالنار. لمحت رزان تلك العلامات أيضًا، وتعلّق بصرها بها قليلًا، وهو ما لم يفُت أمّ أبيها.

بعد أن خرج الزوج، وضعت المرأة إبريق شايٍ صدئًا على النار. فتحت الخزانة تبحث عن الشاي، فامتلأت مريم شعورًا بالعار وهي تلاحظ رفوف المطبخ الفارغة والصراصير تتقافز في الزوايا. تذكّرت مخزن أمّها المليء دائمًا بالخبز الطازج والخضار والتوابل.

قالت المرأة فجأة:

– صيدنايا.

قالت رزان بخشونةٍ مرتبكة:

– ماذا؟

– آثار الحروق التي رأيتماها على ذراع زوجي... من السجن. صيدنايا. أمضى هناك ثلاث سنوات.

قالت مريم:

– آسفة. لم نقصد التحديق.

أشعلت أمّ أبيها النار تحت الإبريق وجلست. قالت وهي تنظر إلى اللهب:

– قالوا إنه هرّب أسلحة. من يدري؟ ربما كذبوا.

وحين صَفَر الإبريق، سكبت الشاي في ثلاثة أكوابٍ صغيرةٍ مُرّة. طلبت رزان سكرًا، فركلتها مريم تحت الطاولة. احمرّ وجه أمّ أبيها وقالت بهدوءٍ جافّ:

– لا سكر عندنا.

جلست قبالتهما، تحدّق في مريم بعينين متّقدتين رغم التعب الذي غطّى ملامحها. كانت، كما خمنت مريم، تعتبرهما شابتين مسيحيتين عاهرتين تائهتين في الظلام، لكنها احتست شايها كمعلمةٍ تستعدّ لإلقاء درسٍ قاسٍ في الأخلاق.

لم يتكلم أحد برهةً. ثم خرجت فتاةٌ هزيلة من الغرفة الخلفية وجلست في حضن أمّ أبيها تحدّق في الزائرتين. قالت العجوز:

– قبل السجن، كان زوجي يزرع المشمش هنا في دوما. كانت جميلة... الآن حُفرت آبار كثيرة، والماء شَحّ، والمخابرات تزوره كلّ حين. يعمل الآن في ورشة التصليح مع أخيه.

نظرت إلى قلادة رزان وأقراطها وحافة فستانها القصير. كانت رزان تغالب النوم، جفناها يهبطان ويرتفعان كرفرفات طائرٍ يحتضر، ولم تمسّ كوبها.

سألتها أمّ أبيها:

– تسكنان في المدينة القديمة؟

- نعم، نحن ندرس في جامعة دمشق.
- متزوجتان؟
- ليس بعد.
- خسارة، أنتِ جميلة.

قامت لتُعيد الطفلة إلى الفراش، وعادت لتجد رزان قد نامت جالسةً على الكرسي.

دخل الزوج من جديد يحمل المفاتيح، وقال شيئًا قصيرًا لزوجته. قالت أمّ أبيها لمريم:
- غيّر الإطار.

فتحت مريم حقيبتها لتدفع شيئًا، فرفعت أمّ أبيها يدها وقالت كلمةً واحدة:
- لا.

كانت كلمةً قاطعة. أومأت مريم برأسها شاكرة، وهمّت بإيقاظ رزان، لكن أمّ أبيها قرّبت كرسيّها منها، وأمسكت بيديها بين كفّيها، وحدّقت في أسنانها وهي تبتسم بابتسامتها المهشّمة.

رفعت **أمّ أبيها** يد **مريم** برفقٍ غريبٍ ووضعَتها على خدّها المليء بالتجاعيد، ثم أنزلتها ببطءٍ على فمها الذي نخره التسوّس، فإلى عنقها النحيل، حتى وصلت إلى صدرها المسطّح الذي غذّى ستّة أطفال. أمسكت بيدها وثبّتتها على قلبها، فشعرت مريم بنبضه يخفق تحت جلدٍ خشنٍ وناشفٍ كالأرض العطشى.

قالت بصوتٍ متهدّجٍ كأنّه آتٍ من باطن الزمن:
- حان وقتُ الرحيل يا مريم. لكن تذكّري هذا... تذكّري وجهي. أنا عبدةٌ عند أسواركم.

***

لكن مريم، بدلاً من أن تتذكّر، حاولت أن تنسى.
غير أنّها، الآن، وهي تلتفت من نافذة السيارة، لمحت صورة امرأةٍ على ملصق

احتجاجٍ في الشارع، فخُيِّل إليها أنّها وجه **أمّ أبيها**.

تمتم السائق ساخطًا وهو يشقّ الزحام:

– حمير!

اختفى الملصق خلف البوابة الحديدية وهي تُغلق. أغمضت مريم عينيها، سحبت نفسًا عميقًا، ثم زفرته كأنها تطرد من صدرها ذكرى لم تزل عالقة في العظم.

***

في الداخل، عند مدخل السفارة، طرقت باب المكتب الذي يضمّ محطة المخابرات.

فتح لها **مهند**، وجهه متورّد بالعرق.

تذكّرت تقريرها التافه الذي كانت قد قدّمته عن لقائها القصير مع **سام** في الاستقبال قبل أيام، وتساءلت عمّا فعله به.

قالت:

– أحتاج الملفات التي أرسلتها من دمشق.

أومأ لها، ثم غاب قليلًا وعاد حاملاً كومة من الأوراق. أخذت مريم ترتّبها، ثم سحبت منها ورقةً واحدة فقط – قائمة بأسماء أقارب **فاطمة** – ووضعتها في مغلّف داخل حقيبتها.

عادت إلى السيارة الدبلوماسية في ساحة السفارة، و**مهند** يتبعها، متجاهلةً هتافات الحشود الغاضبة خارج الأسوار. وحين انحنت لتدخل السيارة، أدركت فجأة أنّها لم تُخبر مهند أبدًا عن لقائها السريّ الثاني مع سام.

انطلقت السيارة عبر البوابة، والسائق يزمجر ويطلق الشتائم ويشير بحركاتٍ بذيئةٍ للحشد.

***

كانت ستلتقي **فاطمة** في شقّةٍ صغيرةٍ تملكها السفارة السورية في باريس. العقار باهظ الثمن، لكن الشقة – كسائر ممتلكات النظام – رخيصة الروح: أثاثٌ

خشبيّ ثقيل، وسجادٌ عتيق، وستائر تفوح منها رائحة العفن، وصورٌ لـ **حافظ الأسد** على الجدران تمنح المكان مسحةً من زمنٍ راكد.

دخل **مهند** أولًا، فمسح المكان باحثًا عن أجهزة تنصّت، ثم وقف عند الباب الخارجي يحرُس. جلست مريم في غرفة الجلوس الضيّقة على أريكةٍ قرمزيةٍ مهترئةٍ، بقع الزيت على وسادتها. انتظرت.

وبعد دقائق، دخلت **فاطمة** يتبعها مهند. كانت قصيرة الشعر، تموّجاته نحاسية، وجهها مستدير كوجه طفلٍ متمرّد، وعيناها تشعّان بتحدٍّ لم يخفت. كانت ترتدي بدلة سوداء وقميصًا منقّطًا بالأبيض، وحول عنقها وشاحٌ يحمل علم الثورة ذي النجوم الثلاث. جلست قبالتها، ثم خرج مهند إلى الممرّ. دخل موظف السفارة يحمل الشاي بالهيل.

قالت مريم:
– شكرًا لقدومكِ، فاطمة.
قالت فاطمة ببرود:
– أين بثينة؟
– في مهمةٍ عاجلة. أنا مفوّضة للتحدث باسمها.

أومأت فاطمة وهي تقلّب السكر في كوبها. سحبت وشاحها وفردته على الأريكة لتُظهر النجوم الثلاث. ثمّ قالت:
– أنتِ ابنةُ اللواء جورج حدّاد؟
– نعم.

تنهدت فاطمة، ووضعت الملعقة على الصحن بصوتٍ معدنيٍّ خافت:
– هل تدرين كم مرةً خضتُ مثل هذه الحوارات؟ كلها تبدأ بالشاي والمجاملات، ثم محاضرةٌ عن عبثية موقفي، ثم موعظةٌ عن الجذور الجهادية للثورة، وفي النهاية... يأتي العرض، فالثمن، فالتهديد.

ارتشفت رشفة شايٍ مرة، ثم تابعت:
– لكن أعترف لهم هذه المرة بالبراعة؛ لم يسبق أن أرسلوا إليّ رسولًا أنيقًا مثلك،

مريم. أنتنّ بارعاتٌ في المظهر، مثلكنّ مثل رئيسكم المهووس بالصورة. على كلّ حال، إن لم تكوني تنوين الخروج عن النص، فاختصري الطريق وابدئي بالعرض، فالثمن، ثم ما ستفعلونه إن رفضت.

وضعت مريم كوبها، وقالت بهدوءٍ مدروس:

– العرض: أن تعودي إلى الوطن.

الثمن: أن تُنشري في الصحف الأوروبية مقالاتٍ تصفين فيها الثورة بأنها واجهةٌ جهادية، ثم تصمتين بعد عودتك. وستعيشين بقية عمرك في بيتك القديم.

رفعت مريم المغلف من حقيبتها ووضعته على الطاولة.

قالت فاطمة:

– والتهديد؟

– نعم.

فتحت المغلف بيدٍ ثابتةٍ، ومرّت عيناها على القائمة: اثنان وعشرون اسمًا، يتصدّرهم «الأمّ المسنّة، ثمانون عامًا». رفعت بصرها إلى مريم.

قالت فاطمة بهدوءٍ عميق:

– عندما كنت صغيرة، لم أستطع أن أفهم كيف يمكن لأحدٍ أن يدعم النظام. كنت أكرههم، وأرفض حتى محاورتهم. لكنّني الآن، بعد أن كبرت، أدركت أنّنا نُولد داخل عالمٍ محدّد، داخل عائلةٍ لها قيودها. هناك نظامٌ يطوّقنا منذ الولادة. الفرنسيون، الأمريكيون، يولدون في عالمٍ يسمح لهم بالاختيار، ونحن لا. نحن السوريون، نولد داخل القفص... لأسبابٍ غائرةٍ في التاريخ.

ثم تابعت بنبرةٍ رقيقةٍ رغم صلابتها:

– لا أكرهكِ يا مريم، رغم أنكِ هدّدتِ أمي للتوّ. أنتِ تفعلين ما تظنّين أنه واجبٌ لتبقي أسرتك آمنة، ولتنعّمي بحياةٍ مريحةٍ وطعامٍ جيد. لكن لا تخدعي نفسك: لا تزال لديكِ حرية. فقط هي حريةٌ صعبة.

وضعت مريم كوبها بقوةٍ على الصحن، وصدرها يثقل كأنّ أحدًا جثم عليه.

طوت فاطمة الورقة، وأعادتها إلى مريم قائلةً:

– الجواب: لا. أنا امرأةٌ حرّة، وأنوي أن أبقى كذلك.

***

في ذلك المساء، أمطرت باريس، وغمر الغيم المدينة بلونٍ رماديٍّ كثيف. عادت مريم إلى السفارة لتكتب تقريرها عن الاجتماع. كانت **بثينة** قد غادرت إلى دمشق. المفاوضات فشلت، والرئيس يستعدّ لإلقاء خطابٍ يعلن نهايتها أمام البرلمان المطيع.

بعد أن أرسلت التقرير إلى البريد السريّ في القصر، خرجت إلى مقهى قريبٍ من الفندق. فتحت دفترها محاولةً أن تكتب شيئًا، لكن الصفحة بقيت بيضاء تسخر منها. أغلقت الدفتر وأخرجت هاتفها. ترددت لحظة، ثم اتصلت بـ **بثينة**.

قالت:

– هل قرأتِ بريدي؟

– نعم، متوقّع. ستحتاج إلى التفكير. عليكِ أن تحاولي معها ثانية. ستقضي بقية اليوم في التردّد. لحظة واحدة.

سمعت مريم أصواتًا مكتومة في الخلفية، كأن بثينة تتحدث مع أحدهم. ظلت تحدّق في الصفحة الفارغة أمامها، القلم بين أصابعها لا يتحرك.

عادت بثينة تقول:

– ما زلتِ على الخط؟

– نعم.

– سأتصل الآن بعلي حسن، لكن قولي لفاطمة إنّ أمّها ستُجلب إلى هنا بنهاية الأسبوع إن لم تتراجع.

– مفهوم.

عضّت مريم على فكّها بقوة.

– حسنًا. ابقي هناك للمتابعة. مع السلامة.

أغلقت الخط. نظرت حولها في المقهى؛ فتاةٌ وراء المنضدة تمازح طالبًا يطلب قهوته.

فتحت مريم محفظتها، أخرجت منديلًا صغيرًا مطويًّا عليه رقم هاتف. بسطته أمامها، تذكّرت ملمس يده، ثم التقطت الهاتف... وضغطت الرقم.

الفصل العاشر

كانت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تفضّل اختيار أماكن اللقاء بنفسها، غير أنّ **سام** شدّد في برقياته إلى لانغلي ودمشق على أنّ اقتراح موقعٍ بديل قد يثير ريبة **مريم**. لذلك، شُكِّلتْ عملية تحقيق سريعة. أدخلت الوكالة العنوان في عشرات قواعد البيانات لتتحقق من أيّ ذكرٍ له في الاتصالات الإرهابية المُلتقطة. وقسم أوروبا، عبر شركةٍ وهمية، أكّد صحة العنوان والنشاط التجاري لدى السلطات الضريبية الفرنسية. تولّى فريق **الباندیتوز** مراقبة المدخل ولم يلحظ أيّ تعقبٍ عدائي. حتى **رامي** زار المكان شخصيًا، فلاحظ وجود كاميرا مراقبةٍ واحدة خارجية. بدا كلّ شيءٍ سليمًا.

كان **رامي** و**إلياس** ينتظران خارج فندق **مريم**، بينما كان **سام** و**يوسف** في زقاقٍ يبعد شارعين عن العنوان الذي أعطته. كانت الأمطار قد توقفت، وأصبحت شوارع المدينة باردةً ورطبة.

قال **رامي** عبر جهاز اللاسلكي المشفّر:

- "لقد غادرت الفندق الآن."

كانت **مريم** قد طلبت منه أن يرتدي ملابس رياضية ويصل في تمام السادسة، وأخبرته أنه سيحصل على درسٍ خاص من إحدى صديقاتها القدامى.

همس **يوسف** مبتسمًا:

- "ستلقّنك درسًا قاسيًا."

وربما كان محقًا. تخيّل البرقية المحتملة: *ضابط في وكالة الاستخبارات يُصاب على يد سوريةٍ قيد التطوير خلال تمرين فنون قتالية إسرائيلية*. يا له من إحراج.

قال **إلياس** عبر الراديو:

– "إنها تفعل شيئًا مثيرًا للاهتمام. تسير على الأقدام باتجاه سان جيرمان، لكنها تتخذ طريقًا متعرجًا، مع بعض الانعطافات غير المتوقعة. بسيطة، لكنها أربكتنا قليلًا."

علّق **يوسف**:

– "أمرٌ محزن أن يكتشفك هاوٍ."

فردّ **رامي**:

– "نحن أفضل من المخابرات السورية. سنكون بخير."

سأل **سام** عبر الراديو:

– "ما جنسية المدرب الذي أراك الاستوديو؟"

قال **رامي**:

– "إسرائيلي."

ابتسم **سام** وتخيّل **مريم** في السابعة عشرة من عمرها، تتسلّل من شقة والديها وهي تحمل حقيبة التمارين لتتدرّب على يد إسرائيلي.

قال:

– "إنها لا تريد للمخابرات أن تراها. إنها تنفّذ مسارًا لاكتشاف المراقبة."

***

عند اقترابه من المبنى، رأى **سام** لافتةً باهتة مكتوبة بخط اليد: *كراف ماغا – باريس*، وضغط على الزر المجاور.

خرج صوتٌ معدني خشن من مكبر الصوت:

– "**نعم**؟"

قال **سام** بفرنسيةٍ مكسّرة:

– "عذرًا، لا أتحدث الفرنسية."

كانت خبرته الوحيدة مع اللغة خلال عمليةٍ نفّذها في المغرب أثناء مهمته في القاهرة، حيث كانت العربية لغة العملاء، لا الفرنسية.

ضحكة قصيرة تبعت قوله.

– "أنت محق. **سام جوزيف**؟"

– "نعم."

ثم سمع صوت النقرة وفتح الباب. صعد بسرعة الدرج الإسمنتي المتعرّج حتى الطابق الثالث.

وجد **مريم** في الداخل، تتمدد على الأرضية المطاطية. ابتسمت له. كانت ترتدي سروالًا أسود ضيّقًا، وحذاءً رياضيًا مهترئًا، وقميصًا أسود بلا أكمام. صافحه المدرّب وقدّم نفسه باسم **بيني** قائلًا:

– "يسعدني دائمًا أن يعود أحد طلابي القدامى. والأجمل أن يحضر معه شريكًا في النزال."

كان **بيني** ذا جسدٍ رياضي في منتصف الثلاثينات، لكن وجهه المتغضّن وحاجبيه الرماديين الكثيفين جعلاه يبدو أقرب إلى الستين. كان يتحدث الإنجليزية بلكنةٍ هجينة تجمع بين الفرنسية والعبرية.

سأله:

– "هل سبق أن تدربت على القتال يا سام؟"

أجاب:

– "نعم، كنت أتلقى دروس كاراتيه وأنا صغير."

أغفل ذكر تدريبات القتال المتلاحم في مزرعة التدريب، والدروس التي تلقاها قبل مهمته في بغداد.

ضحك **بيني** ضحكةً عميقة صافية:

– "سنحرص على أن تكون محميًا من **مريم**، فقد كانت من الطالبات... المتحمسات."

ابتسمت **مريم** وألقت نحوه خوذةً ودرعًا وقفّازين.

قالت:

- "فكّرت أن نبدأ بمنازلة خفيفة، تساعدني على إزالة صدأ دمشق."

سعل **بيني** ونظر إلى **سام** قائلًا:

- "أظنّك لم تحضر واقيًا... كيف أقولها بلطف؟" وأشار إلى منطقة حَسّاسة.

قهقهت **مريم**، بينما قال **سام** مبتسمًا:

- "لم أفعل."

قال المدرب:

- "عندي واحد للإيجار... مستعمل قليلًا."

***

عاد **سام** من الحمّام يعدّل الواقي البلاستيكي، بينما نظر إليه **بيني** بنظرة قلقٍ صامتة يفهمها الرجال، فاكتفى **سام** بإيماءةٍ مطمئنة. أشار **بيني** بيده وقال:

- "لنبدأ بمنازلة خفيفة."

تلامست القفازات. بدأت **مريم** بالدوران حوله، فيما كان **بيني** يشرح من الجانب:

- "الكراف ماغا ليست عن الجمال أو الشكل، بل عن التدمير. الهدف هو القضاء على الخصم بأي وسيلةٍ كانت."

اندفعت نحوه بلكماتٍ سريعة تجنّبها، ثم وجّهت ركبةً إلى صدره فأصابته مباشرة. تراجعت قليلًا، ثم عادت تدور كالنمر. كانت ضرباتها حادة سريعة، ونظرتها مركّزة من خلف الخوذة. شعر بطاقةٍ تتدفّق منها، وحاول توقّع حركتها التالية.

انهمرت اللكمات والركلات، صدّها بذراعيه، تراجع خطوة، ثم توقف وهو يلتقط أنفاسه، لكن ذهنه لم يكن في القتال فقط.

تذكّر اللقاءات.

اعترافاتها.

ميلها نحو المحتجين، رغم إنكارها.
اتصالها بعد الرفض الأول.
اللقاء الحميم بعيدًا عن المراقبة.
والآن... تحاول إيذاءه فعليًا.

هتفَت:
- "هاجم، **سام**، هاجم!"

لم يكن يرغب في القتال الجدي حفاظًا على غطائه، فموظفو الخارجية لا يتلقّون مثل هذا التدريب. لكنّه قرّر تجاهل التردد. وجّه إليها ثلاث لكماتٍ سريعة أصابت الدرع والخوذة، فردّت بركلةٍ إلى بطنه وضربةٍ بالمرفق إلى رأسه بينما ركبتها أصابت موضعًا مؤلمًا. تأوه، ثم وجه إليها لكمةً أخرى وركلةً ليبتعد عنها. صاحت:
- "هيا، هاجمني مجددًا!"

فعل، وبدآ يقرآن حركات بعضهما البعض. صدّت لكماته، صدّ ركلاتها، انخفض أمام مرفقها، ثم حاولت خنقه ودفعه إلى الحائط. أطلق **بيني** صفارته. أنزل **سام** ذراعيها كما تعلم، فردّت بلكمةٍ على خوذته فتفاداها. شتمت بالعربية وانقضت عليه مجددًا، لكنه انحنى ووجّه لكمةً إلى جانب خصرها الرشيق. ابتسمت بمكرٍ وردّت بركلةٍ خاطفةٍ التقطها بيده فلفّ ساقها وسقطت أرضًا، لكنها تراجعت إلى الوراء بسرعة، ركبتها مثنية مثل ذيل عقرب. حاول الاقتراب، لكنها ركلته مرارًا من وضعية الاستلقاء. توقف قليلًا، فقفزت واقفةً، صَفعت قفازين ببعضهما، شتمت، وعادت للهجوم.

لكن هذه المرة اندفعت بجسدها كله، نطحته وسقطا معًا أرضًا، وجثمت فوقه تضربه مرارًا. كان يسبّ ويتأوه، حتى صاح المدرب:
- "قف، قف!"

ابتسم **سام** وهو يراها من خلف الخوذة، عينيها تلمعان باضطرابٍ بين الرغبة والغضب، كأنها تفكّر في أن تقبّله أو تقتله، أو كليهما.

نهضت ومشت إلى الزاوية لتشرب الماء، فيما ساعده **بيني** على الوقوف.

***

يقاتل جيدًا، فكّرت **مريم**. *لقد تدرّب بجد. كاراتيه وهو صغير؟ هراء. هذا رجلٌ يعرف فنون القتال.*

أحسّت بعودة الحماسة القديمة، البعيدة عن **فاطمة** والحرب، قريبة من باريس التي عرفتها شابةً، ومن خفة النفس التي افتقدتها طويلًا.

قالت:

– "الأسلحة، **بيني**؟"

أومأ الإسرائيلي، والتفت إلى **سام** الذي بالكاد استقام على قدميه. قال:

– "المنازلة مفيدة، لكن الكراف ماغا في الأصل تُدرّب على مواقف الحياة الحقيقية. قلتَ فقط كاراتيه؟ لا أكثر؟"

– "صحيح. وبعض المشاجرات في الشوارع، مباريات بوكر سيئة، ذلك النوع."

قال **بيني**:

– "أفهم." لكن نبرته دلّت على العكس، وكذلك نظرة **مريم**.

قالت:

– "ربما يُشهر سلاحًا نحوي؟"

ابتسم **بيني**، وأخرج مسدسًا بلاستيكيًا من الرفّ وسلّمه لـ **سام** قائلًا:

– "تأتي من خلفها، توجه المسدس إلى رأسها، تطلب المال. تنتظر لحظة لتمنحها فرصة رد الفعل، ثم تطلق النار إن استطعت. وأنا أقرر الفائز، اتفقنا؟"

أومأ **سام**، اقترب منها، وضع المسدس على مؤخرة رأسها وقال:

– "أعطني حقيبتك."

قبضت على السلاح بيدها اليمنى، واستدارت بحركةٍ سريعةٍ نقلت فيها السيطرة إلى يديها، ثم نهضت وأدارت كتفها تحت مرفقه، وشدّت ذراعه إلى الخلف حتى صار مشدودًا. وجهت ضربة إلى خوذته، فتأوه، فدارت به لتثني ذراعه خلف ظهره، ثم وجهت لكمةً إلى مؤخرة رأسه، فسقط، وأمسكت بياقته وقفزت لتغرس المسدس

البلاستيكي في صدره.

انهار على الأرض. أربع ثوانٍ فقط كانت كافية.

نهض بصعوبة، وسأله المدرب إن كان بخير. قال وهو يخلع الخوذة:

– "أذناي تصفران."

غسل فمه في الحوض، وشاهد الدم ينساب مع الماء، ثم التفت إليها مبتسمًا ابتسامةً مائلة وقال:

– "متى يحين دوري؟"

ضحك **بيني**، وربّت على كتفه، ثم تناول هراوةً من الرفّ:

– "الآن **مريم** تهاجمك بهذه."

***

كان يعلم أنّ الهجوم بالعصا يتطلب نقيض الغريزة البشرية. من يرفع ذراعه لصدّ الضربة يُكسر ساعده فورًا. لذا، المفتاح أن تندفع نحو الخصم، تقلّل المسافة، ثم تقاتل بالمرفقين والركبتين والرأس.

نظرت **مريم** إلى العصا، فتذكّرت رجل المخابرات الذي غرز الهراوة في عين **رزان**، وتذكّرت صرخاتها، وعجزها آنذاك.

لم تفعلي شيئًا، يا فتاة... كنتِ فقط تشاهدين.

اندفعت نحو **سام** رافعة العصا. لم يرفع ذراعه بل اندفع نحوها أيضًا. لامست الضربة كتفه دون أثر، وأمسك بيدها الضاربة وضغط على أعصاب كفها حتى سقطت العصا. أمسك بمعصميها بقوةٍ ثابتة، فنظرت إليه مباشرة تنتظر الضربة التالية. كانت عضلاتها تؤلمها، وعظامها تثقلها. أرادت الماء.

لكنه لم يضرب. تردّد، ونظر في عينيها.

نطحت خوذته برأسها بقوة، فسقط إلى الوراء.

ضحك **بيني** وأطلق صفارته معلنًا نهاية النزال.

***

كانت **سان جيرمان** ليلًا قد استعادت زخمها. زالت الأمطار، وازدحمت الشوارع بطلاب السوربون ومُرتادي المقاهي في ملابس السهرة، وزجاجات النبيذ تتصبّب عرقًا فوق الطاولات.

سارا معًا في الشارع، رغم أنه لم يكن تصرفًا حكيمًا. ارتديا ثيابًا مدنية، لكنّ كدمةً في جبهة **سام** كانت شاهدةً على نطحةٍ قوية قليلاً.

اختارا مطعمًا هادئًا وطلبا طعامًا كثيرًا: كبد الأوز، كونفيه البط، كاسوليه الفاصوليا البيضاء، وصحن بطاطا مقلية عبست له **مريم**. طلبت النبيذ، بينما أخذ هو كأس بيرة مع البطاطا. قال:

– "كأسٌ واحد فقط."

ضحكت:

– "لو رآني أحد في بلدي أشرب النبيذ مع البطاطا لقتلني."

سألها:

– "وأين وطنك الآن؟"

قالت:

– "الآن؟ في واشنطن. أعمل على ملفّ سوريا في الخارجية قبل نقلي القادم، أعيش في شقةٍ هناك."

ابتسمت قائلة:

– "آه، شقة واشنطن... هل فيها كلاب؟"

– "لا."

– "قطط؟"

– "لا."

– "فتاة؟"

– "لم تعد موجودة."

قالت مازحة:

– "أستطيع تخيّل المكان... بيرة رديئة في الثلاجة وجدران فارغة."

كان تخمينها دقيقًا إلى حدٍّ مؤلم.

ضحك وقال:

– "لن أمكث طويلًا، إنها شقة مؤقتة."

– "ووجهتك القادمة؟"

– "على الأرجح الشرق الأوسط."

أومأت وتناولت قطعة خبز.

سألها:

– "وأنتِ؟ أين منزلك؟"

– "لدي شقة في المدينة القديمة."

– "أفترض أنه لا كلب هناك؟"

– "لا، مخلوقات قذرة."

ضحك قائلًا:

– "قطة إذًا؟"

– "لا."

– "رجل؟"

– "امرأة... فضيحة كبيرة." قالت وهي تبتسم بمكر.

ضحك وقال:

– "رزان؟"

– "نعم، تسكن معي. شقتنا ليست مثل شقتك الكئيبة، بل أنيقة ومليئة بالطعام."

رفع النادل الأطباق الصغيرة، فاستغل **سام** الفرصة وسأل:

– "كيف تسير الاجتماعات؟"

قالت وهي تعبث بلحم البط:

– "ليست جيدة. انهارت المفاوضات اليوم. رئيسي عاد إلى الوطن. واجتماعي مع **فاطمة وائل**، إحدى المعارضات، كان سيئًا."

أومأ **سام** وهو يفكر في كيفية استغلال هذا الخيط.

سأل:

- "هل ستغادرين أيضًا؟"
قالت:
- "لا، طلب مني رئيسي البقاء أيامًا قليلة للمتابعة مع **فاطمة**."

رنّ هاتفها، فنظرت إلى الرقم وعبست.
قالت:
- "عذرًا، عليّ أن أجيب."
غادرت المطعم.

أكمل **سام** شرابه وهو يستعرض في ذهنه إمكان تجنيدها. لكن الحميمية التي نشأت بينهما أزعجته لأمرين:
الأول، أنه يريدها فعلًا، وهذا خطر مهني قاتل. علاقةٌ عاطفية بين ضابطٍ وعميلة سببٌ كافٍ للفصل.
الثاني، أنه يعلم أن أنجح طريقةٍ لتجنيدها قد تكون بإشعال تلك الشرارة العاطفية نفسها.

عادت **مريم** وجلست قائلة:
- "فاطمة ستسافر غدًا إلى منزل عائلتها في فيلفرانش سور مير، على الساحل. وافقت أن تلتقيني هناك. سأغادر صباحًا."
قال **سام**:
- "لابد أنها تأثرت بلقائكما لتقبل لقاءً آخر."
قالت:
- "ربما، لا أعلم لماذا."
- "ولِمَ لا؟"

- "لأنني هددتُ عائلتها إذا لم تتبرأ من المعارضة. نحن نفعل هذا مع جميع المعارضين المقيمين في الخارج. أنا أدير البرنامج داخل مكتب **بثينة**."

نظرت **مريم** الآن بعيدًا، خارج النافذة، وأخذت قضمة أخرى من الخبز المحمص. ثم نظرت إليه مرة أخرى.

قالت:

– "هذا أمر مفترض على نطاق واسع، أليس كذلك؟"

– "بالطبع."

ولكن لم يتم تأكيده من قبل مصدر غير مدقق له وصول مباشر، فكر. *حتى الآن.*

قالت:

– "قلتَ إنكَ ستبقى بضعة أيام أخرى في **باريس**؟"

أومأ برأسه، وأنهى البيرة، وقرر أن يطرح الأمر على المحك.

قال:

– "كنتُ أخطط لذلك. ولكن ماذا لو أتيتُ إلى **فيلفرانش** وأنتِ هناك؟ لبضعة أيام."

غمست إحدى قطع الخبز المحمص المتبقية في كبد الأوز وابتلعتها مع جرعة من الماء. رمقته بتلك النظرة التي ألفها على طاولات البوكر عندما يضع الخصم بأصابع مرتعشة ما يعتقد أنه يمكن أن يكون يدًا رابحة.

قالت:

– "أعتقد أن ذلك سيعجبني."

رتّبا التفاصيل اللوجستية وهما يتناولان كريم بروليه: ستأخذ القطار إلى الساحل صباح الغد، وسيتبعها هو في فترة ما بعد الظهر، ويجد مكاناً للإقامة – منزلًا *آمنًا*، فكر، آملًا أن يكون لدى **شيبلي** واحد قريب – وينتظر منها اقتراح وقت ومكان للقاء. بينما كانا يتحدثان، شرد ذهنه في نصف دزينة من البرقيات التي كان يعرف أن **لانغلي** ستحتاجها في ذلك المساء.

تفقد هاتفه. لا شيء من فريق "البانديتوز". تعانقا عناقًا طويلاً، وعيناهما مثبتتان ببعضهما، وكلاهما يستشعر الحدود، والنوايا، والتوقعات. ضغطت جبهتها على جبهته، متجنبة الكدمة، وانحنت إلى الوراء.

قال:

– "أكثر نعومة من نطحة الرأس."

تنهدت وابتسمت.

- "لقد ترددت."

نظر حوله. كانا آخر من بقي في المطعم.

قال **سام**:

- "غدًا في **فيلفرانش**؟"

- "غدًا في **فيلفرانش**."

قبلته على خده وغادرت، والباب يصدر رنينًا خلفها.

مسح **سام** أحمر الشفاه في الحمام قبل إرسال تقرير كشف المراقبة. ذكّره انعكاسه في المرآة بأنه قد انتهك للتو لائحة الوكالة رقم 22-345 - "القيود على الاتصالات مع الرعايا الأجانب". هز انعكاسه رأسه توبيخًا، ثم اختفى.



الفصل الحادي عشر

ارتدت **آرتميس أفروديت بروكتر** بدلة رياضية من قماش الفيلور بلونٍ أخضر ليموني لحضور الاجتماع الآمن عبر الفيديو. جلس **سام** و**شيبلي** في محطة باريس، بينما كان **برادلي** في لانغلي، و**بروكتر** في دمشق. وقد أثار التقرير الليلي الذي أرسله سام بشأن قضية **مريم** اهتمام عددٍ كبير من الجهات — تقارير سوريا، إدارة الاستخبارات والتسلح ومكافحة الانتشار، والمركز الطبي والنفسي للتقييم — ما دفع برادلي لتنظيم اجتماع سريع يضم فقط المعنيين بالعمليات.

قال **إد برادلي** بصورته المتكسّرة عبر الاتصال:

– "ما هذا المخلوق الفلوري الذي ترتدينه؟"

أجابته **بروكتر** ساخرة:

– "إنها بدلة فيلور رياضية، أيها الجاهل. اليوم جمعة غير رسمية هنا في محطة دمشق. أعجبتك بالمناسبة؟"

قال **سام** بابتسامة خفيفة:

– "إطلالة جميلة. تذكرني بواحد من رجال المافيا الأوكرانيين كنت أتعامل معه منذ سنوات."

أمرته **بروكتر** أن يصمت، ورفعت شعرها الأسود المجعد، ثم تناولت شيئًا أصفر اللون قائلة:

– "ما مدى قربنا، برأيك؟"

أجاب سام:

– "قريبون."

قالت بسرعة دون أن تنظر إليه، منشغلة بفتح مغلف حلوى "ستاربِرست":
- "قريبون إلى أي حد؟"

قال سام:
- "لقد سئمت من الحكومة ووظيفتها، وتعرض علينا المزيد في كل لقاء."

وبينما كانت **بروكتر** تمضغ الحلوى بصوتٍ مرتفع، قالت:
- "يمكننا ترتيب التفاصيل هنا في دمشق، لكن من وجهة نظري، العقبة الأساسية التي يجب تجاوزها مع الآنسة مريم في فرنسا، قبل أن تعود إلى دمشق، هي جعلها تشعر بالارتياح لفكرة لقاء أمريكي بعيدًا عن الأعين."

أمسكت **بروكتر** قلم سبورة وبدأت تديره بين أصابعها قائلة:
- "دعني أطلعك على ما يجري في دي-تاون، دمشق، أقدم مدينة مأهولة على كوكب الأرض. الأمور تدهورت منذ زيارتك الأخيرة."

فتح سام فمه ليتكلم، لكنها تابعَت دون أن تترك له مجالًا:
- "حرفيًا، لا سبب يدعو أمريكيًا واحدًا للقاء سوري في دمشق الآن. لا يدعوننا حتى لحفلات الكوكتيل. مفهوم نوعًا ما، بعد أن طلبنا من الأسد التنحي، لكن ما زال ذلك وقحًا إن سألتني."

اختفت يداها من الإطار، وحين عادت كانت تحمل قطعة حلوى أخرى، وضعتها في فمها وقالت وهي تنظر نحو الشاشة:
- "أفضل سيناريو من وجهة نظر محطة دمشق هو أن تغادر مريم فرنسا بعنوان منزل آمن وخطة تواصل أساسية. ربما عبر موقع إشارة أو نقطة تسليم ميتة. لا توجد لدينا اتصالات قصيرة المدى حاليًا، وقبل أن نزوّدها بجهاز متطور، أقترح أن نبدأ بشيء يمكننا التحقق منه."

هزّ سام رأسه موافقًا:
- "الإيرانيون يحاولون إيقاعنا طوال الوقت، وهم يدرّبون السوريين. يجب أن نتأكد تمامًا. سأحاول أن أحصل منها على شيء ذي قيمة."

لم يشك سام لحظة في مصداقية مريم، لكنه كان يعرف أن الإجراءات تقتضي الحذر، وأن المعلومات التي زودتهم بها لم تُلحق ضررًا فعليًا بالنظام السوري بعد. أرادت الوكالة مزيدًا من الأدلة لتوثيقها رسميًا.

قال سام:

– "رئيسة، كيف تؤثر الأوضاع الأمنية على الاجتما—"

قاطعته **بروكتر**:

– "نعم، نعم، الاجتماعات؟ صحيح، كانت مشكلة، لكنها قابلة للإدارة. لا حاجة بعد للحماية الأمنية، والحمد لله، فذلك يفسد الأجواء. وسط دمشق عادةً آمن، كما كان حين دخلتَ لجلب **كومودو وڤال**. الحكومة تسيطر عليه. هناك تفجيرات انتحارية بين حين وآخر، لكن المتمردين لا يسيطرون على الأرض. لاحظنا أيضًا أن السوريين حوّلوا موارد المراقبة ضد المتمردين، لذا أحيانًا لا يلاحقوننا أصلًا. لكن إن قرروا مراقبتك عن قرب، يمكنهم أن يغرقونا بالعملاء. ليست مهارة ميدانية فائقة، لكنهم يعرفون الشوارع، ويملكون نقاط مراقبة ثابتة في كل زاوية."

ثم أضافت:

– "المغزى أن تطوير مريم داخل دمشق سيكون متعة حقيقية. السوريون سيراقبونك أربعًا وعشرين ساعة يوميًا خلال الأسابيع الأولى، سيضايقونك، ربما يقتحمون شقتك، أو يطرقون نافذة سيارتك وأنت في الزحام بابتسامة مخابراتية عريضة. ربما يتركون قذارة على سريرك. كل هذه الحقائق ستؤثر على تطور العلاقة. كلما أنجزت أكثر في فرنسا، كان أفضل."

قال سام:

– "سأحاول تجنيدها هذا الأسبوع. على الأقل سأخوض المحاولة."

قالت بروكتر مبتسمة:

– "شاب ممتاز."

تدخّل **برادلي** قائلًا:

– "شيبلي، هل يمكننا الحصول على منزل آمن قرب فيلفرانش؟"

أجاب شيبلي:

– "لدي واحد هناك، لكن سيُثير التساؤلات حول كيف يستطيع دبلوماسي دفع الإيجار."

سأل برادلي:

– "قلت في إحدى رسائلك إنك حدثتها عن فيغاس؟"

قال سام:

– "صحيح. يمكنني القول إنني دفعت التكاليف من أرباحي هناك."

ضحك **شيبلي** وقال:

– "آمل أنك كنت جيدًا. المكان مجنون فعلًا."

***

ركب **سام** قطار الـTGV من باريس إلى نيس. ومع ابتعاد خرسانة ضواحي باريس الملطخة بالغرافيتي، وبروز الخضرة الزاهية للمزارع المتدحرجة، ظل ذهنه منشغلًا بسؤالٍ واحد طوال الأسبوع: *من يكون السوريون الثلاثة الذين تبعوا مريم في باريس؟*

في البداية ظنّهم من رجال المخابرات التابعة للسفارة، لكنه لم يستطع طرد الشك من رأسه. لم يكونوا مدرَّبين على المراقبة. بدا الأمر كأنه فخ أو تمثيلية.

طلب قهوة من عربة الطعام، وحين لمح أفراد المراقبة الجالسين في الجهة الأخرى، عاد إلى مقعده صامتًا. تابع عبر النافذة الحقول والكروم والقرى الصغيرة وهي تمرّ. فكّر في طريقة تجنيدها، وحلّل شخصيتها ودوافعها، وبدأ يصوغ في ذهنه برقية التجنيد: تقييم العميلة، خطة الاتصال، الترتيبات المالية، وبرنامج العمليات لاستخراج المعلومات. إن نجح، ستحصل العملية على اسم رمزي يمنحها مباركة لانغلي. بقي عنصر واحد هشاً: لم يكن يملك خطة للتعامل مع مشاعره نحوها.

توقف القطار في أفينيون بسبب عطل ميكانيكي، فخرج سام إلى المنصة ليمتدّ جسده تحت نسيم الربيع النقي بين أشجار السرو. ذكّره الهواء بشَعر مريم.

خرجت **مريم** من منزل **فاطمة** المزين بلوحاتها المائية، وسارت على ممرات ضيقة تعانق سواحل **سان جان كاب فيرا**. حاول **مهند** مرافقتها إلى **فيلفرانش**، لكن مريم طلبت من **بثينة** التدخل، وتمكنت الأخيرة من إقناعه بأن وجودها وحدها سيكون أكثر إقناعًا.

أربعة أيام وحدها على الريفييرا الفرنسية! بالكاد صدّقت ذلك. بل ظنّت — ولا تزال — أن الأمر ربما فخ من بثينة أو من المخابرات.

كانت تنظر إلى مركب شراعي أبيض يشقّ الموج نحو الأفق، بينما تسير فاطمة بجانبها في صمت. وحين انعطف المسار، انفتحت أمامهما إطلالة على الساحل المتهدّج المكسوّ بالصنوبر والشجيرات. عبر الخليج بدت بيوت **فيلفرانش** ذات الأسقف الحمراء كعلب صغيرة مرصوصة على التلال.

قالت مريم:

– "شكرًا لأنك قبلت اللقاء مجددًا."

ردت فاطمة:

– "شعرت أن بيننا ما لم يُقل بعد."

قالت مريم:

– "ماذا تعنين؟"

ابتسمت فاطمة وقالت:

– "أظن أنك تفهمين."

توقفت مريم، وضعت يدها على كتفها، ونظرت في عينيها بجدية:

– "أخشى أنني لا أفهم."

ثم واصلت السير، تتبعها فاطمة بخطوة.

قالت فاطمة:

– "أرى أنك لستِ مؤيدة للأسد، فلماذا لا تساعدينا؟"

انتابت مريم نوبة من الحذر الفطري — ميراث كل سوري. هل فاطمة عميلة للمخابرات داخل المعارضة؟ هل تعمل لبثينة؟ أم أنها ببساطة مثالية حالمة؟

كانت تود أن تقول لها: *لا أفهم إلى أين تمضي هذه الثورة، فليس هناك حكومة بديلة تنتظر لو رحل الأسد، بل فوضى وانقسام، ولهذا لن أنضم إليكم.*

لكنها قالت فقط:

– "أفهم، عرضك أنتِ الآن."

مرّتا فوق شاطئٍ حصوي صغير، تتوزع عليه نساء شبه عاريات كفقماتٍ تحت الشمس. ابتسمت فاطمة قائلة:

– "يدهشني كم هو هادئ هنا. الحرب تفتك ببلادنا، وعلى الضفة الأخرى من المتوسط يتشمّسون كآلهة صغيرة. أريد لسوريا أن تكون هكذا. وأظنك تريدين ذلك أيضًا."

أرادت مريم أن تقول: *نعم يا أختي، أريده أكثر من أي شيء.* لكنها قالت:

– "هل فكّرتِ في عرضي؟"

تجاهلتها فاطمة قائلة:

– "لمَ لا تنشقين؟ انضمي إلينا في أوروبا."

أرادت أن تقول: *لأنني لست جبانة.* لكنها قالت ببرود:

– "فاطمة، لقد نفد صبري."

توقفت فاطمة واستدارت نحوها:

– "اعتقلي أمي إن شئتِ يا مريم، لكن احذري، أنتِ تولّدين المجزرة. أتمنى أن تكون روحكِ مستعدة لذلك."

أرادت أن تصرخ: *أنت محقة، لست مستعدة.* لكنها قالت:

– "وأنتِ تولّدين الجهاد يا فاطمة."

وقفت فاطمة عند نهاية الدرب، تنظر إلى البحر:

– "إذًا لقد اخترتِ طريقك."

لم تجبها مريم، ولم تستطع النظر إليها. ركّزت عينيها على الخط الذي يفصل البحر عن السماء وقالت:

– "لديكِ يومان لتقرري. عودي إلى الوطن ولن نعتقل والدتك. وإن بقيتِ، فلن أستطيع مساعدتك."

ثم غادرت بصمت. واتصلت ببثينة لتقديم تقرير كامل والتوصية باعتقال والدة فاطمة العجوز فورًا بسبب دعمها لأعداء الجمهورية العربية السورية. قالت بثينة:

– "قلتُ لكِ إنها عنيدة. انتظري أيامًا قليلة، ربما تعود لرشدها."

وصلت مريم إلى الفندق منهكة. تمددت على السرير تفكر في كلمات فاطمة ورقم الهاتف الذي لا يجب أن تتصل به. ثم نهضت، خلعت ملابسها حتى بقيت بملابسها الداخلية، وبدأت تؤدي حركات الركل واللكم التي علّمها إياها **بيني** في باريس منذ زمن.

راحت تجمع الخيوط التي لاحظتها في القطار إلى فيلفرانش: مهاراته القتالية، ثقته بنفسه، اقتراحه مرافقتها إلى الريفييرا، أسئلته الغامضة. لقد قابلت عشرات الدبلوماسيين الأمريكيين. **سام** لم يكن واحدًا منهم.

والآن، أدركت مريم أنها تتمنى *أن تكون محقة*.

***

أول ما خطر في بال **سام** عند وصوله إلى المنزل الآمن هو أنه انضم إلى القسم الخطأ في الـCIA.

المنازل التي استخدمها في مصر والعراق كانت قذرة، خانقة، تفتقر للمياه والتكييف. في أحد البيوت الآمنة في الأنبار، قفز عنكبوت جمل من الرف وعضّ أحد عملائه في العنق. وفي القاهرة، اضطر إلى استبدال مرحاض مكسور بدلو دهان قديم.

أما الآن، فـ"المنزل الآمن" لم يكن إلا قصرًا حجريًا في قرية **إيز** الجبلية، على بعد عشرين دقيقة شرق فيلفرانش. تقع البلدة على طريق روماني قديم فوق الريفييرا، يسكنها بضع عشرات من السكان المحليين وكبار الأثرياء الأوروبيين والأمريكيين الباحثين عن الشمس والهدوء.

وجد سام المفتاح في أحواض الزهور، كما أخبره عميل الدعم، ودخل القصر. أضاء المدخل الحجري المزدان بالأثاث الفرنسي العتيق. دوّن في ذهنه ملاحظة بألّا يفتح زجاجات النبيذ الموضوعة على الطاولات. كانت هناك شرفة تطل على ساحل **كوت دازور**، وسبع غرف نوم فخمة، ومطبخان مجهزان بالكامل، أحدهما للخدم. وجد بيرة باردة في الثلاجة، فتح واحدة وخرج إلى الشرفة ليرسل رسالة إلى **إلياس** يؤكد أن فريق المراقبة يراقب فندق مريم.

***

كانت **مريم** ممددة على السرير تحدق في المروحة تدور ببطء كعقرب ساعة يعدّ العدّ التنازلي لقرارها. *ما الذي تفعلينه؟ ما زال بإمكانك التراجع. اركبي القطار إلى باريس وعودي إلى الوطن. لكن إن اتصلتِ به الآن...*

ارتدت حذاء إسبرادريل بلونٍ كريمي، وربطت شرائطه حول كاحليها، ثم اختارت فستانًا قطنيًا بخطوط زرقاء وبيضاء حتى الركبتين كانت قد اشترته في باريس.

وبعد عشر دقائق من التردد والنفس القصير، التقطت هاتف غرفتها واتصلت بالرقم الذي أعطاها اياه **سام**.

***

في الخارج، كان رجال المراقبة يأكلون البيتزا أمام الفندق. قال أحدهم إن الهدف تحرك، فالتقطها سام بسيارته المستأجرة. كان تناول العشاء في مطعمٍ محلي خيارًا طبيعيًا، لكنه أراد أن تعتاد مريم على اللقاءات في أماكن خاصة. وكان المنزل الآمن مثاليًا لذلك.

قال سام وهو يفتح لها الباب:

– "فكرت أن نطبخ العشاء سويًا."

جلست في المقعد، وسوّت فستانها فوق ساقيها السمر. وعندما قبّل خدّها، لاحظ النمش الصغير تحت عينيها.

قال مبتسمًا:

- "ما رأيك أن نذهب إلى فيلتي؟ تبعد عشرين دقيقة شرقًا، في قرية إيز. مكان جميل، قرية قديمة من القرون الوسطى."

قالت بهدوء:

- "سيكون ذلك رائعًا."

سلكا طريق **الموين كورنيش**، الطريق الروماني الذي شقّ حافة الجرف الممتدّ بمحاذاة البحر. كانت أضواء **نيس** و**فيلفرانش** تملأ الأفق الغربي، فيما تلألأت **موناكو** في الشرق.

قال سام:

- "وصلني اليوم خبر مهمّ بشأن مهمّتي القادمة... دمشق."

فتحت النافذة ومدّت وجهها إلى نسيم المساء حتى بعثر الهواء شعرها.

- "إنها أخبار رائعة يا سام"، قالت وهي لا تزال تنظر إلى الخارج. "ربما سنلتقي مجددًا."

- "أتمنى ذلك"، قال سام. ثم أنزل نافذته هو الآخر واستنشق هواء البحر.

- "لن أعتاد على هذا أبدًا."

ابتسمت ولم تقل شيئًا.

داخل القصر، طرحت السؤال الحتمي، وإنْ بلطفٍ متعمّد وبالعربية لتتأكد من إجابته:

- "كيف وجدت هذا المكان؟"

قال مبتسمًا:

- "قضيت عطلة موفقة في فيغاس قبل أسابيع قليلة... ووجدت الوكيل المحلي المناسب."

تجاهلت جوابه، ودخلت إحدى غرف النوم لتتأمل منظر البحر الذي بدا الآن جدارًا أسود في الأفق. تبعها **سام** بخطوات بطيئة، وهو يفكّر في حالها : *إنها تعلم أنه يكذب، لكنها تتغاضى مؤقتًا.*

سألته:

– "ماذا سنطبخ؟"

قال مبتسمًا:

– "فكرت أن نطهو سباغيتي."

رفعت حاجبها:

– "سباغيتي؟ أنت؟"

– "لدي بعض الأطباق الجيدة، وهذا أحدها."

قادها إلى المطبخ ووضع المكونات على الطاولة، ثم طلب منها أن تقطع البصل والجزر والكرفس.

قالت مازحة وهي تضع يدها على خاصرتها وتشير بالسكين إلى الكدمة على جبهته:

– "أتثق بي وأنا أمسك السكين بعد... حادثك؟"

ضحكت، فقال مبتسمًا وهو يلمس جبهته:

– "لهذا السبب أنا أقف في الجهة الأخرى من المطبخ، على مسافة آمنة."

قطع سام رغيف خبز فرنسي ووضعه على الطاولة، ثم صب زيت الزيتون والخل البلسمي في طبق ورشّ عليه قليلاً من الملح الخشن. أخرج زجاجة نبيذ – كان **شيبلي** قد أوصى بها – فابتسمت **مريم** وهزت رأسها ضاحكة، لكنه صبّ لها كأسًا لتتذوقه على أي حال. ارتسمت الدهشة على وجهها.

قالت:

– "ربما، مثل القتال، تعرف عن النبيذ أكثر مما تدّعي."

- "ليتني كذلك، لكنّ صاحب المحل في فيلفرانش هو من اختاره لي، رغم أنه لم يُخفِ ازدراءه لفرنسيّتي الركيكة."

كوّم الطحين والبيض ليصنع عجينة المعكرونة.

قالت وهي تقطع الخضار:
- "كم هي صعبة السياسة في وزارة الخارجية عندكم؟"

ضحك وسأل:
- "ماذا تقصدين؟"

مسحت دموعها من أثر البصل، ثم احمرّ وجهها قليلًا.
- "سأعطيك مثالًا."

تحدّق به بعينين تقولان *استمع إليّ جيدًا الآن.*

قالت:
- "فريقي في القصر مسؤول عن ملف المعارضة الخارجية وصورة الحكومة في الإعلام. مكتب **علي حسن** للأمن هو المحور المركزي لأجهزة المخابرات في سوريا، فهو يتجسّس على الجواسيس أنفسهم، وإن أراد الرئيس العثور على خائنٍ ما، استعان بعلي."

كانت يدا **سام** مغطاتين بالعجين وهو يعجن الطحين والبيض معًا، فرفع كأس النبيذ وارتشف رشفة وهو ينظر إلى **مريم** وكأنّ الحوار عادي، فيما كان ذهنه يكتب برقية إلى **لانغلي**. لم ينتبه إلى آثار الطحين والعجين التي تركها على الكأس.

قالت:
- "الفريق الكبير الآخر في القصر يقوده **جميل عطية**، وهو عدوّ لدود لرئيستي **بثينة**. وهو أيضًا... منحرف."

توقف سام عن العجن ورفع رأسه عابسًا:
- "منحرف؟"

- "نعم، معروف بذلك."

قال ساخرًا:

- "حسنًا، لا أتعامل مع منحرفين في مكتبي، لكن لدينا كثير من الحمقى بلا شك."

قالت:

- "انتهيت من التقطيع."

صبّ كمية سخية من زيت الزيتون في القدر، وألقى بالبصل المفروم، ثم حين بدأ يذبل أضاف الجزر والكرفس.

قال:

- "الآن علينا عصر الطماطم."

- "علينا؟ بل عليك أنت،" قالت وهي تحتسي النبيذ. "لا أريد أن ألطّخ فستاني بالصلصة."

ابتسم، ولبرهة نسي أنه يحاول تجنيدها للعمل مع **CIA**.

ألقى بالطماطم في وعاء وسحقها بيديه حتى صارت سائلة، ثم أضافها إلى القدر مع الماء ورقائق الفلفل الأحمر والملح.

سألته وهي جالسة على الطاولة تراقبه:

- "من أين تعلمت هذه الوصفة؟"

قال وهو يعمل بتركيز:

- "من جدتي، كانت إيطالية ونشأت في نيويورك."

- "وتعلمت منها طبقًا واحدًا فقط؟"

- "في الحقيقة طبقين اثنين، لكنها كانت عجوزًا شريرة جدًا."

قهقهت **مريم** ورمت خرقة عليه.

بينما كانت الصلصة تغلي ببطء، عملا معًا على فرد العجينة بآلة اللفّ اليدوية التي وجدها **سام** في خزانة المطبخ، وهما يضحكان كلّما تمزقت الرقائق الرفيعة. علقت يديه بالعجين، فرمته بالدقيق، فردّ لها الكيل بمثله وهي تتفاداه ضاحكة.

قال:

- "نسيت كم أنت سريعة... ويجب أن أكون حذرًا، فهذه المرة ليس لديّ أي حماية."

وأشار إلى أسفل خصره مازحًا، فضحكت.

فردا المعكرونة ووضعاها على أوراق شمعية تنتظران أن تثخن الصلصة. صبّ النبيذ مجددًا لهما على الرغم من حذره الداخلي.

قالت وهي تستأنف الحديث:

- "بثينة وعطية يكرهان بعضهما كرهًا شديدًا. والجميع يعرف أن بثينة عشيقة قائد الحرس الجمهوري."

استمع جيدًا أيها الأمريكي، أنا أشرح لك كيف تسير الأمور.

عرف **سام** أن هذا خبر جديد تمامًا لـ **وكالة الاستخبارات المركزية**. كانت المحللة **زيلدا** قد حدثته ذات مرة عن نساء الأسد وأيّ المسؤولين أوفيات لأزواجهنّ، لكن هذا التفصيل لم يُذكر من قبل. وكان يدرك أنه جمع بالفعل ما يكفي لثلاث تقارير استخباراتية على الأقل ستجعل المحللين في لانغلي يتهافتون عليها.

قالت **مريم**:

- "تحاول بثينة ورستم تدمير عطية بجمع أدلة على فساده، وهو بدوره يردّ بالمثل ويخلق المشاكل لمكتبنا. أليست لديكم سياسات كهذه؟"

أخرج **سام** قدرًا كبيرًا وبدأ يملؤه بالماء.

- "يعتمد على ما تقصدين بالسياسة. لدينا مسؤولون..."

قالت مقاطعةً، بنبرة متقصدة:

- "في وزارة الخارجية؟"

أومأ وقال:

- "نعم، في وزارة الخارجية."

ثبتت عينيها عليه لحظة، لكنه تابع الحديث كأنه لم يلحظ شكّها.

– "عندنا أيضًا تنافس دائم على النفوذ. مسؤول يرضى عنه الوزير، وآخر يُقصى."

– "نعم، لكن سياساتنا أكثر... ما الكلمة بالإنجليزية؟ همجية. أكثر همجية."

قالت الكلمة الأخيرة بالإنجليزية وأضافت:
– "مثلًا، قدّمت بثينة للرئيس أدلة جديدة على ميول عطية المنحرفة تجاه القاصرات. وعندما علم بذلك، أرسل رجاله لضرب شاب يعمل معنا في المكتب. كادوا يقتلونه. أراد أن يبعث رسالة: لا تعبثي معي."

ثم نزلت عن الطاولة لتقلب الصلصة.

قال **سام** بالعربية:
– "وكيف تردّ بثينة؟"

– "عثرت بالفعل على حسابات مصرفية لم يكن الرئيس يعرفها – أموال رشاوى وفساد. لدى الجميع حسابات كهذه، لكنها اكتشفت حساباته هو. كما جمعت قائمة طويلة بأسماء الفتيات القاصرات اللواتي استغلّهن."

قال متفاجئًا:
– "ألا تكفي تهمة كهذه لإسقاطه؟"

– "لا أظن. إنها تلطّخ سمعته فقط، أما داخل القصر فالجميع يعلم. الرئيس يثق ببثينة ورستم، لكنه أيضًا يثق بعطية كما وثق به والده. ولهذا لا يحسم قراره... فتستمرّ المعركة."

هزّت كتفيها بلا مبالاة.

غليا المعكرونة، ثم صفّياها ووضعاها في الأطباق. صبّ فوقها الصلصة وملعقة من جبن الريكوتا. قطفت **مريم** أوراق الريحان ورشّتها فوق الطعام. خرجا إلى الشرفة ومعهما الخبز وزجاجة نبيذ أخرى. لفحتهما نسمة هادئة حرّكت شعرهما وثيابهما وهما يأكلان.

قرّب **سام** كرسيه نحوها، وحين فرغا من الطعام سألته:

- "وماذا سيحدث في دمشق؟"

قال بهدوء:

- "أودّ أن أراك هناك أيضًا."

قالت بخفوت:

- "وأنا كذلك."

- "سيكون الأمر مختلفًا هناك... أكثر قيودًا."

تجاهلت التعليق، فصبّ مزيدًا من النبيذ. جلسا متقاربين جدًا. ثم اقتربت رؤوسهما أكثر، وتبادلا قبلة طويلة، رطبة، بطيئة.

مرّر يديه في شعرها، ثم وقفا متشابكين وبدأت الأيدي تنزلق إلى الأزرار والأحزمة والسحّابات. وفي اللحظة التي بدأ فيها يرفع يديه إلى ما تحت فستانها الصيفي، استجمع ما تبقى من سيطرته ليدرك أن ما قد يحدث لن يؤدي فقط إلى طرده من الوكالة، بل أيضًا إلى إفساد مهمّته بالكامل؛ إذ لن يستطيع بعده التمييز بين العاطفة والدافع الاستخباراتي.

أبعد شفتيه عنها وقال بصوتٍ خافت:

- "ربما علينا أن ننهي الليلة هنا."

كان شعرها مبعثرًا، وأحمر شفاهها ممسوحًا، وفستانها ملتويًا. أما هو فكان حزامه مفكوكًا، وبنطاله غير مزرّر، وقميصه نصف مخلوع. تراجعت إلى الخلف بعينين متّقدتين بالغضب والخذلان، ثم دخلت الحمّام لتستعيد هيئتها، وخرجت إلى المطبخ غاضبة وهو يضع الأطباق في المغسلة.

قالت ببرود:

- "أريد أن تعيدني إلى الفندق."

قال محاولًا:

- "مريم، أنا..."

قاطعتْه وهي ترفع يدها:

- "أريد أن تعيدني فورًا."

قادها في صمت إلى **فيلفرانش**، وأدرك أنه ربما "دمّر كل شيء"، كما كان يقول **برادلي** دائمًا. عزّى نفسه بأنه لو كانت تحتاج إلى حبّه لتعمل لصالح الوكالة، لكان التجنيد فاشلًا منذ البداية. لكن حين نظر إليها جالسة في المقعد المجاور، تحاول الابتعاد عنه قدر ما تستطيع، أدرك أنه ارتكب خطأً جسيمًا.

عند وصولهما إلى الفندق، سألها إن كان يمكنه أن يصعد معها.

قالت وهي تحدّق عبر الزجاج الأمامي:

- "لن تحصل على فرصة ثانية الليلة، فهمت؟"

- "فهمت."

تبعها عبر الردهة وصعدا السلالم المتعرجة إلى غرفتها في الطابق الثالث، يأمل في فرصة لتحديد موعدٍ آخر.

استدارت عند الباب وقالت:

- "هذه غرفتي."

- "هل أراك غدًا؟"

- "ربما. سأراسلك."

قال متوسلًا:

- "هل يمكنني الدخول لدقائق فقط... لأشرح؟"

أومأت، وأدخلت المفتاح في القفل وأدارته. تقدّم خطوة نحو الباب المفتوح. دخلت هي أولًا، وهناك لاحظ **سام** الخدوش على مقبض الباب وطلاءه المتقشر. كانت الغرفة مظلمة. كانت **مريم** تعبث بمفتاح الإنارة وهي تقول إنها متعبة وأن أمامه دقيقة واحدة فقط لشرح ما يريد.

أضاءت الأنوار.

وكانوا هناك — **ثلاثة من المراقبين السوريين من باريس.**

الأول بدين، يرتدي قميص "بينك فلويد" وجينزًا، يمسك بعصا وكبّالة يدين. الاثنان الآخران مسدساهما مزوّدان بكواتم صوت، يقفان عن جانبيه مرتديين سترات رمادية وسوداء.

تجمّد الجميع للحظة من الدهشة. نظر **سام** إلى قميص "بينك فلويد"، فصرخ الرجل بالعربية يطالبه بإبراز هويته. بحث **سام** سريعًا بعينيه عن سلاح، فرأى مصباحًا على المكتب، ومرّ في ذهنه المشهد بسرعة: *اختطاف، لا اغتيال، وإلا كنا ميتين الآن. إن أخذوها، فالله يعلم ما سيحدث.*

رفع **سام** يديه. فعلت **مريم** المثل، وهي تخبرهم بأنها التقت سام في المدينة، لكنّه تقدّم خطوة وقال بالعربية إن هذا خطأ كبير، وإنه سيتعاون.

اقترب "بينك فلويد" وأمره أن يستدير. لوّح بعصاه. تقدّم **سام** خطوة واندفع فجأة، ناطحًا الرجل بجبهته في أنفه. سمع طقطقة العظم، وانتزع العصا من يده ووجه ركبته إلى خاصرته. ثم هوى بالعصا على جمجمته، وانتزع مصباح المكتب وألقاه على الرجل ذي السترة السوداء قبل أن يرفع مسدسه. أصاب المصباح صدره وارتدّ إلى الخلف فوق السرير.

في تلك اللحظة تحرّكت **مريم** بفستانها المرفرف، وركلت الرجل ذي السترة الرمادية فأسقطت مسدسه أرضًا، لكنه صدّ ضربتها التالية ودفعها مبتعدًا. انحنى ليلتقط السلاح، لكن **سام** كان قد قبض على المسدس الذي في يد الرجل الأسود الملقى على السرير.

شدّ أصابعه حول السلاح وأطلق رصاصتين، فسقط ذو السترة الرمادية على المكتب. كان الأسود يحاول النهوض ممسكًا بموضع المصباح الذي أصابه، وسحب سكينًا من غمده وانقضّ على **مريم**. أطلق **سام** ثلاث رصاصات، أصابت عنقه ورأسه وكتفه، فتهاوى على السرير جثةً، عيناه الزجاجيتان تحدّقان في المروحة الدوارة.

اقترب **سام** من "بينك فلويد" ليتأكد من أنه حيّ، لعله يسأله شيئًا، لكن ضربة الجمجمة كانت قاتلة؛ كان جسده متهالكًا بلا نبض.

وقفت **مريم** تلهث، وصدرها يعلو ويهبط، وعيناها واسعتان كمن شهد كابوسًا.

تحسس **سام** نبض الرجلين الآخرين فلم يجد شيئًا.

قال بين أنفاس متقطعة:

- "اللعنة... اللعنة!"

ثم تمتم بما تعلمه في التدريب: *عندما يبدأ الجحيم، غادر النقطة فورًا.*

قال بصرامة:

- "علينا أن نغادر الآن."

وكانت قد بدأت فعلًا تحزم حقيبتها بعصبية، وهي تصرخ:

- "الآن تخبرني الحقيقة، فهمت؟"

ثم صاحت مرة أخرى بصوتٍ مرتجف، ممزوج بالخوف والغضب:

- "فهمت؟!"

الفصل الثاني عشر

لو أن فندق **لو بانوراميك** اهتم بتزويد نفسه حتى بأبسط أنظمة الأمان، لكانت الكاميرا في الطابق الثالث قد سجّلت رجلًا أمريكيًّا طويل القامة وامرأةً عربية يعلّقان لافتة *"الرجاء عدم الإزعاج"* على باب الغرفة رقم (٣٠٢) في تمام الساعة الثانية عشرة وثمانٍ وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل. وكانت كاميرا أخرى قد التقطت المشهد ذاته للثنائي نفسه وهما يغادران بهدوء عبر الردهة، والمرأة تشير بعصبية إلى الرجل بيدها اليمنى بينما تشدّ على حقيبتها باليسرى. أمّا الرجل، الذي لم يكن يحمل شيئًا، فقد أمسك بيدها وهما يسرعان نحو الباب. ولو وُجدت الكاميرا فعلًا، لكانت قد أظهرت طرف بلوزةٍ بارزًا من سحّاب الحقيبة وكأنه دُفع إليها بعجلةٍ شديدة. وكانت هناك نقطة دم صغيرة على جبين المرأة، لم تلاحظها بعد ما بدا محاولة سريعة لغسل وجهها. وكان شعرها وكتفاها لا يزالان مبتلّين تمامًا.

لكن **سام**، وهو يقود **مريم** خارج الردهة، شعر بالارتياح حين لاحظ أن الفندق يخلو من أي كاميرات مراقبة ظاهرة، وأن موظف الاستقبال يغطّ في نومٍ عميق خلف المنضدة.

ما إن تجاوزا البهو حتى انكشفت له ثلاثة مشكلاتٍ رئيسية. أولها – والأكثر إلحاحًا – تهدئة **مريم** التي كانت تعاني من كدمة في خاصرتها وتُكثر من الأسئلة القلقة التي لا تنتهي.

أما الثانية فكانت: إلى أين يذهبان؟ بدا المنزل الآمن في **إيز** هو الخيار الأنسب، فألقيا بحقيبة مريم في السيارة المستأجرة وانطلقا عبر الطريق الساحلي عائدين نحو القرية، يصمتان أغلب الوقت إلا من تفجّرات الشتائم العربية التي كانت تقطع سكون الليل بين حينٍ وآخر. أمسك **سام** بعجلة القيادة بإحكام وحرص على إبقاء السرعة دون الخمسين كيلومترًا في الساعة.

وأمّا المشكلة الثالثة – والأكثر تعقيدًا – فهي ما العمل بالجثث. لم يكن يدري إن كان أحد قد سمع صوت الطلقات أو الشجار. إن حدث ذلك، فستكون الشرطة الفرنسية في المكان خلال دقائق. وإن لم تُبلَّغ بعد، فربما لديهم بعض الوقت. ومع ذلك، فإن وقوع جريمة ثلاثية القتل يضمن ألا يستطيع أحد في سوريا ربط **مريم** بوكالة الاستخبارات المركزية، وكان **سام** يأمل أن يفصل تمامًا بين **مريم** وبين ما حدث في الفندق.

أمسك المقود بيده اليسرى واتصل بـ**شيبلي**.

سألته مريم:

– "من تتصل به؟"

قال:

– "رئيسي في فرنسا."

قالت بسرعة:

– "انتظر. قبل أن تفعل، أنا أعرف أحد هؤلاء الرجال، الضخم منهم. يعمل مع **عطية**، إنه من المخابرات."

سألها:

– "مقره في فرنسا؟"

قالت:

– "لا أظن. هل كانت محاولة اختطاف؟"

قال:

– "محاولة فاشلة جدًا."

ضربت لوحة القيادة بيدها وهي تصرخ بالإنجليزية:

– "اللعنة!"

اتصل **سام** بـ**شيبلي** قرب **بيوليو** وأخبره بما جرى. ظلّ الرئيس صامتًا بضع ثوانٍ، وفي تلك اللحظة رأى **سام** لافتة **إيز** فخفّف السرعة، بينما كانت **مريم** تمرر يديها على وجهها بإرهاق.

قال **شيبلي**:

– "اذهب فورًا إلى المنزل الآمن، وخذ السورية معك. سأرسل فريقًا للتصرّف بالجثث قبل أن تصل الشرطة، إن لم تكن وصلت بعد. لديّ عناصر دعم مختصون بهذا النوع من الأعمال."

قال **سام**:

– "وكيف تريد أن أدوّن هذا؟"

ردّ الرئيس:

– "هل أنت متأكد أن الخاطفين كانوا سوريين؟ ليسوا فرنسيين؟ ولا من أصولٍ مغاربية؟"

– "أنا متأكد أن أحدهم أُرسل من دمشق، فمريم تعرفه من هناك."

– "والآخران؟"

– "نظنّ أنهما سوريان أيضًا."

قال الرئيس بعد برهة:

– "من وجهة نظري، لا فائدة من تقريرٍ رسمي في هذا. فريقنا بخير، السورية بخير، والخاطفون الثلاثة قُتلوا. لكن لو وصلت القضية إلى سجلات الشرطة الفرنسية، فلن تتمكن من العودة إلى فرنسا مجددًا."

قال **سام** بهدوء:

– "أقبل المخاطرة."

– "اطلب من فريق المراقبة متابعة الفندق. رجالي سيصلون خلال ساعات قليلة. إن جاءت الشرطة، فعلى السورية إما أن تهرب أو تسلّم نفسها."

ثم سمع أنفاس **شيبلي** الثقيلة عبر السماعة قبل أن يقول:

– "أبقني على اطلاع."

وانتهت المكالمة.

***

أخذت **مريم** حمامًا بينما كان **سام** يجهّز أجهزة المراقبة. قاد **إلياس** إلى **إيز** ليجلب مفتاح غرفة مريم ويسلّمه لفريق التنظيف التابع لـ**شيبلي**. بعد نصف ساعة اتصل **رامي** وأخبره أن الفندق لا يزال هادئًا ولم تصل الشرطة بعد.

اتصل **سام** بـ**شيبلي** مجددًا، فأخبره أن الفريق سيصل إلى **فيلفرانش** خلال ساعتين، قبل أن تصل عاملات التنظيف. قال إنهم سيجمعون الملابس والأسلحة التي استُخدمت أثناء القتال.

قال **شيبلي**:

– "ضع كل شيء في كيس قمامة واتركه خارجًا."

سأله **سام**:

– "وماذا سيفعلون بالجثث؟"

أجاب الرئيس ببرود:

– "سيجلبون المناشير والحمض وبعض الحقائب، وأنت تعرف الباقي. أسئلة أخرى؟"

بعد أن أنهى المكالمة، وضع **سام** كل قطعة ملابس ارتداها في كيس القمامة وأخذ حمامًا ساخنًا، ثم جلس على الشرفة ممسكًا بزجاجة بيرة. كان المساء لطيفًا والهواء باردًا قليلًا، والقمر كبيرًا ساطعًا بين الغيوم الرقيقة. كان يعلم أنها تعرف. شرب جرعة طويلة وقال لنفسه: حان الوقت.

خرجت **مريم** إلى الشرفة بزجاجة نبيذ وجلست مقابله، تشرب نصف كأس بصمت. كانت ترتدي رداءً فضفاضًا وشعرها لا يزال مبتلًّا من الحمام.

قال لها:

– "أين ملابسك؟"

قالت:

– "في الحمّام."

جمعها في الكيس نفسه مع الأسلحة وجهاز الصعق بالكهرباء ووضعه خارجًا كما أوصاه **شيبلي**، ثم عاد ليجدها تصبّ كأسًا آخر من النبيذ.

قالت:

– "لديّ أسئلة. سأبدأ أنا، ثم تسأل أنت."

قال:

- "اتفقنا."

قالت:

- "أأنت من وكالة الاستخبارات المركزية؟"

- "نعم."

- "واسمك الحقيقي **سام**؟"

- "نعم."

- "ومن ولاية مينيسوتا فعلًا؟ قضيت وقتًا في لاس فيغاس؟ كل ما قلت عن خلفيتك صحيح؟"

- "نعم."

- "وهذا المكان تابع للوكالة؟ ليس بيتًا استأجرته من مال القمار؟"

- "نعم، إنه منزل آمن."

- "ووجهتك القادمة دمشق؟"

- "نعم."

- "وتقاتل بهذه البراعة لأنك مدرّب؟"

- "نعم."

- "ولماذا كنت في باريس؟"

- "لأتحدث إليك."

قالت بثقة:

- "لتجنيدي."

أنهى زجاجته وأجاب:

– "نعم، لتجنيدك."

– "ولم تكن تلك الحادثة في الفندق من تدبيركم؟"

قال مبتسمًا:

– "أنتم السوريون بارعون في الشكّ..."

قاطعتْه:

– "أجبني."

– "لا. لم نُدبّر شيئًا. فوجئت كما فوجئتِ أنتِ تمامًا."

رفعت كأسها وشربت جرعة أخرى. لاحظ **سام** أنها لم تكن مضطربة، بل هادئة متماسكة. لقد رأت الموت من قبل.

سألته:

– "هل عليّ أن أهرب من فرنسا؟"

قال:

– "لا أظن. لم تُبلّغ الشرطة بعد، وفريق التنظيف في طريقه. سنتأكد خلال ساعات."

قالت بنبرة حادة:

– "الكيمياء بيننا... هل كانت حقيقية أم افتعلتها لتجنيدي؟"

قال بثبات:

– "حقيقية. حقيقية جدًا."

قالت:

– "انتهيت الآن."

ثم ضمّت ردائها بإحكام أمام نسمات الريح الجبلية، ونظرت إلى البحر في الأفق.

وضع زجاجته الفارغة جانبًا، وقرّب كرسيه منها يراقب عينيها وحركات يديها ووضع رأسها، فكل ذلك سيكون له أهميته لاحقًا.

قال:

- "هل رأيتِ جرائم قتل من قبل؟ أو قتلتِ أحدًا بنفسك؟"

قالت وهي تمرر يدها في شعرها المبلل:

- "نعم. الحرب في سوريا يا سام."

قال:

- "لكن أكثر من ذلك. لقد فعلتِها أنتِ، أليس كذلك؟"

قالت بهدوء:

- "نعم. مرة واحدة. في دمشق حين كنت في العشرين. حاول أحدهم اغتصابي، ولم ينجح. قتلته. ولا يؤرقني ذلك، إن كان هذا سؤالك التالي."

قال:

- "ليس كذلك. كنت أعلم مسبقًا. لماذا أخبرتِني الليلة عن القصر؟"

قالت:

- "أردتُك أن تعرف."

- "لماذا؟"

- "لأن عليّ أن أفعل شيئًا."

- "هل ترغبين في أن نعمل معًا؟"

- "أأعمل معك أنت؟"

- "نعم. سنعمل معًا في دمشق."

- "صف لي كيف سيكون هذا العمل."

كانت تمارس حسّها التفاوضي الشامي بكل براعة، تُطيل الحديث دون أن تنطق بالموافقة صراحة. شرح لها **سام** الخطة على الشرفة: تدريب سريع في فرنسا، وخطة اتصالات آمنة داخل سوريا، وعنوان للاجتماع في دمشق، ولائحة بالموضوعات المطلوبة، وترتيبات مالية.

رفعت يدها قائلة:

- "لا أريد المال. لست مرتزقة."

قال:

- "أتفهم، مريم، لكننا سنضعه في حساب مؤجل، فقط للاحتياط."

قالت:

- "لن أغادر سوريا أبدًا. هذا غير ضروري."

لم يُجادلها. الأموال ستُودع باسمها، والمكتب المالي سيحتفظ بالسجلات. إن هربت أو تقاعدت فسيكون المال لها. الوكالة لا تخلف وعودها مع عملائها. لقد سلّم **سام** ذات مرة عميلًا مكافأة عشر سنوات دفعة واحدة بعد خروجه من السجن بتهمة التجسس، جلس أمامه في القطار ودفع حقيبةً مليئة بالنقود إلى قدميه قائلًا: *"من أصدقائك الأمريكيين."* ثم غادر دون التفات.

قالت **مريم**:

- "ستُريني الطريق إلى المنزل الآمن دون أن يكتشفنا رجال المخابرات؟"

قال:

- "نعم، سنفعل..."

اهتزّ هاتفه في جيبه، كان **رامي** يتصل، وكانت الساعة تقترب من الخامسة صباحًا.

قال:

- "ما الجديد؟"

قال **رامي**:

- "المنظفون غادروا للتو. موظف الاستقبال يشخر نائمًا. لا وجود للشرطة."

شكره، ثم اتصل بـ**شيبلي** قائلًا:

- "هل تحتاج هي إلى المغادرة؟"

قال الرئيس:

- "لا، فريقي يؤكد أن الغرفة نظيفة."

نظر إلى **مريم** التي كانت تتكئ على سور الشرفة الحديدي تحدّق فيه بعينين فاحصتين. قال:

- "ربما تغادر الفندق صباحًا وتنتقل إلى هنا، إلى إيز؟"
سأله الرئيس:
- "وهل توافق؟"
قال:
- "نعم."
- "حسنًا، اتصل بي غدًا."
وانتهت المكالمة.

قالت **مريم**:
- "نحن بخير، أليس كذلك؟"
وتساءل **سام** كم سمعت من المكالمة.
قال:
- "نعم، بخير. عليكِ أن تغادري الفندق صباحًا وتأتي إلى هنا، إن وافقتِ."
قالت:
- "وكيف أتعامل مع ما حدث حين أعود إلى سوريا؟"
قال:
- "تقصدين محاولة الاختطاف؟"
أومأت. فقال:
- "لا أرى أنك بحاجة إلى فعل شيء الآن. **عطية** سيظن أنهم فشلوا، وسيصمت مؤقتًا، وربما يعيد المحاولة لاحقًا. لم يكن الأمر رسميًّا."
قالت بنبرةٍ عميقة:
- "تلك هي مشكلة سوريا يا سام... لا أحد يعلم أبدًا."

الفصل الثالث عشر

صاغ **سام** البرقية بعد أن غفت **مريم** في إحدى غرف النوم، وأرسلها مشفّرة إلى قائمة **BIGOT**[21] الكفيلة بإيقاظ بيروقراطية الـ **CIA** النائمة. كانت طبيعة الوكالة المزدوجة تثير دهشته دائمًا؛ إذ تمتلك القدرة على تعقّب رجل وقتله في أعماق جبال هندوكوش النائية، لكنها في المقابل تعجز عن العثور على دبّاسة تعمل في مقرّها في **لانغلي**. وهكذا كانت حال تجنيد مريم أيضًا.

انشغلت **بروكتر** بالتأكّد من أنّ العميلة الثمينة ستحصل على ما تحتاج إليه خلال ثلاثة أيام، حين تعود إلى دمشق. أرسل رئيس القسم خريطة لمواقع محتملة للتبادلات السرّية (dead drops[22])، ونقاط الإشارات والمقابلات، إضافة إلى منزلين آمنين في المدينة القديمة. كانت هناك صور فضائية كثيرة، وكلّ شيء ينبغي أن يتوافق مع نمط حياة مريم. كان على **سام** أن يبني كلّ ذلك معها في **إيْز**، ولحسن حظّه، فإنّ بضعة أيام تُعدّ عمرًا طويلًا لقضائه مع عميلة.

لم يستطع النوم، فقام ليُعدّ القهوة. كانت الساعة السابعة صباحًا، والشمس بدأت تلوح على الأفق. مريم ما تزال نائمة. وبينما كان ينتظر القهوة لتختمر، شمّ رائحة الملح من البحر وسمع هدير الأمواج وهي تضرب الصخور أسفل الشرفة. ضغط على المكبس، وصبّ فنجانًا، ثم خرج إلى التراس يتأمّل شروق الشمس. لم يكن شيء يقطع سكون الصباح سوى صوت الأمواج وبوق سيارة وحيدة. ارتشف القهوة دقائق ثم عاد إلى الداخل، وأخرج خرائط بروكتر على جهازه اللوحي الآمن.

---

[21] **قائمة بيغوت (BIGOT list) :** مصطلح استخباراتي لقائمة توزيع شديدة السرية، لا تضم سوى أسماء الأشخاص المصرح لهم حصراً بالاطلاع على معلومات حساسة تتعلق بعملية أو مصدر معين.

[22] **نقطة لقاء (dead drop) :** نقطة تبادل سرية ومتفق عليها مسبقًا، تُستخدم لترك وتسلم المواد بين الجواسيس دون الحاجة إلى لقاء مباشر.

لكنّ بيروقراطية **لانغلي** البطيئة كانت دائمًا العائق. طلب سام مدرّبًا لتلقين مريم تقنيات كشف المراقبة، فجاءه الردّ بأنه لا أحد متاح. استشاطت بروكتر غضبًا واستعمل كلمة "dogshit" في مراسلات رسمية. كتب يقول: *لدينا هنا عميلة من الدرجة الأولى، من دولة مصنّفة ضمن الفئة الأولى، ومستشارة في القصر الرئاسي، ولا يمكنكم إرسال مدرّب؟ ما هذا الهراء؟* لكنّ احتجاجه لم يُجدِ نفعًا. كان على **سام** ورفاقه في فريق **بانديتوز** أن يتولّوا المهمة بأنفسهم.

خرجت مريم من غرفتها وبدأت تبحث في الخزائن، ثم أغلقتها بصوت مرتفع قائلة:

– "كلّ شيء موجود في هذا العالم، ما عدا الشاي."

ثم سكبت لنفسها فنجان قهوة وجلست بجوار سام على الأريكة.

قال لها:

– "قبل أن نبدأ، أريد وعدًا. أن نخبر بعضنا الحقيقة في كلّ شيء. بلا جدران، بلا أنصاف حقائق، بلا أكاذيب."

كان قد ألقى الخطاب ذاته على عملاء سابقين، لكنّهن لم يكنّ يرتدين أثواب النوم. تطلّع إلى عيني مريم باحثًا عن الخداع أو الشجاعة. رأى الصدق، ورأى الخوف. وهذا يعني أنّها أدركت ثقل القرار الذي اتخذته.

قالت وهي تثبّت نظرها فيه:

– "أعدك يا سام."

فأجابها:

– "وأنا كذلك يا مريم."

– "إذن، من أين نبدأ؟"

أمضيا أربع ساعات يستعرضان حياتها: العائلة، روتين العمل، الأصدقاء، المطاعم التي تزورها، الأعداء، ومخاطر الابتزاز. استشارا الخرائط، وأشارت إلى شقّتها، والقصر، ومنزل والديها.

في الظهيرة خرجت مريم إلى القرية لتشتري شطائر وتتصل بـ **بثينة** لتخبرها بعدم إحراز تقدّم مع **فاطمة**. في تلك الأثناء فعّل سام قاعدة بيانات المراسلات المشفّرة على جهازه اللوحي وقرأ الأخبار السارّة:

1. **قسم الشرق الأدنى** يوافق على تقييم العميل **جولد جاغر** بشأن دوافع المتطوّعة وتقدّمها نحو التجنيد.
2. يُوصى بإنشاء اسم رمزي بعد موافقة قسم مكافحة التجسّس.
3. نتطلّع إلى مراجعة خطة الاتصالات والعمليات الخاصة بـ **جولد جاغر**.

كان اسم **بيرت أو. جولد جاغر** هو الاسم المستعار الذي يستخدمه سام في المراسلات الرسمية لتجنّب طباعة اسمه الحقيقي على الوثائق. وغالبًا ما تكون تلك الأسماء سخيفة. كان سام قد سمع أن برنامجًا حاسوبيًا يستخرجها من دليل هواتف بريطاني يعود إلى خمسينيات القرن الماضي. وجدت **بروكتر** الاسم مضحكًا وبدأ يناديه بـ **"جاغرز"**. ثم رأى سام برقية أخرى من قسم مكافحة التجسّس:

1. **القسم يوافق على عملية التجنيد** ويتطلّع إلى خطة الاتصالات والعمليات.
2. تم تشفير العميلة الجديدة بالرمز: **BL/ATHENA أثينا** .

كان الاسم **أثينا** مثاليًا، وتحسّنًا كبيرًا مقارنة بآخر عملائه الذي حُمل اسمه الرمز **SLIMER**.

اتصل بـ **إلياس** وطلب من فريق **بانديتوز** الاجتماع في **نيس** صباح الغد لتدريب مريم السريع على كشف المراقبة. كانت أزقّة البلدة القديمة المتشابكة تشبه تضاريس دمشق إلى حدّ بعيد.

كتب سام برقية لبروكتر تتضمّن خطة اتصالات مقترحة وأسئلة متابعة لرئيس القسم، بناءً على حواره مع مريم صباحًا. أرفق صورة لخريطة رسمها معها تُظهر مسارها في الجري عبر دمشق وصولًا إلى **جبل قاسيون** المطلّ على المدينة، وسأل إن كان يمكن إيجاد موقع مناسب للتبادل هناك. أرسل البرقية، أغلق قاعدة البيانات، وملأ فنجانه بالقهوة مجددًا.

عادت مريم ومعها الغداء: صينية من شطائر السلامي والزبدة، وزجاجات ماء، وسلطة، وقطعة **كيش**. أوضحت أن بثينة طلبت منها محاولة عقد اجتماع أخير مع فاطمة، وكان ذلك بمثابة هدية، يمنحهما مزيدًا من الوقت. وبينما كانا يأكلان، شرح لها أنه طلب من دمشق تحديد موقع للتبادل.

قال:

– "يمكننا الذهاب إلى أحد المسارات القريبة بعد الظهر، وسأريكِ كيف تُدار عمليات الإخفاء."

ارتشفت رشفة من المياه المعدنية، وقد بدا عليها التفكير.

سألها:

– "ما الأمر؟"

قالت:

– "هل يمكننا التحدث قليلًا عن القصر؟ أريد أن أفهم نوع المعلومات التي تُفيدكم."

– "بالطبع."

– "مثلًا، إن كانت بثينة تُسهّل معاملات مالية غامضة للحرس الجمهوري، هل يكون ذلك مهمًا بالنسبة لكم؟"

– "سيكون مهمًا للغاية."

ارتشفت مريم قليلًا من الماء ثم تابعت:

– "ظهر رستم في مكتب بثينة قبل بضعة أشهر في اجتماع لم يحدث مثله من قبل ولا بعده. عادةً تشركني بثينة في كل شيء، لكنّها هذه المرّة تصرّفت وحدها. بعد الاجتماع أخبرتني بسبب ذلك — لم يكن ينبغي أن تفعل، لكنها فعلت. قالت إنّ الحرس يحتاج إلى شراء معدات بطريقة سرّية. العقوبات تزداد قسوة، ولا يثقون بشركات الواجهة التابعة لمركز الدراسات والبحوث العلمية (SSRC) لإدارة المعاملات الحساسة."

سألها سام:

– "هل ذكرت اسم الـ SSRC تحديدًا؟"

– "نعم."

– "مثير للاهتمام."

تابعت مريم:

– "تُنشئ بثينة شركات واجهة عبر شبكة من رجال أعمال سوريين موالين، أغلبهم في بيروت، وبعضهم في عمّان، وقلة في قبرص والخليج. ساعدت في ستّ معاملات، لكن ليس لديّ الصورة الكاملة."

– "وهذه العمليات كلّها مرتبطة بالقصر؟"

– "أعتقد ذلك. تأتي الأموال من حسابات مرتبطة بالحرس الجمهوري وتُحوّل إلى حسابات عدّة باسم بثينة داخل القصر. ثم نحولها إلى شركات الواجهة، التي يُفترض أنها تشتري شيئًا ما للحرس. يبدو أن هذا الأمر يثير قلق بثينة. لكن الجزء الأهم هو أنّي بحثت عن إحدى تلك الشركات ولم أجد لها أثرًا على الإنترنت، لا موقعًا ولا بيانات. وعندما فتّشت قاعدة بيانات القصر، وجدت أنّ شركة مطابقة بالاسم أُنشئت عام ٢٠٠٢ للعمل مع مركز الدراسات والبحوث العلمية."

قال سام:

– "أظنّني أفهم مقصدك — أسلحة كيميائية. لكن ربما يستخدمون الشركة الآن لشراء شيء آخر؛ أنابيب، براغي، أدوات بسيطة."

هزّت رأسها موافقة:

– "ربما. لكنني اتصلت بالشركة بدافع الفضول. قلت لهم إنني من قسم المالية وطلبت منهم قراءة بنود الفاتورة لأن الماسح الضوئي لم يعمل جيدًا. كان هناك بند واحد فقط: كحول *أيزوبروبيلي*، وهو مكوّن أساسي في إنتاج غاز السارين. أعلم ذلك لأن مكتب بثينة اضطرّ للردّ على تساؤلات حول حظر الأوروبيين تصدير المواد الكيميائية إلى سوريا."

سألها سام:

- "هل تعرفين قيمة التحويل المالي لتلك الشركة؟"

- "عشرة ملايين دولار أمريكي."

- "هل لديك فكرة عن كيفية الوصول إلى قائمة الشركات الكاملة والمعاملات فيما بينها وبين القصر؟"

- "أتوقّع أنها موجودة في حاسوب بثينة."

- "هل تتركك وحدكِ معه أحيانًا؟"

كان يدرك أن المخاطرة تستحق، لكنه لم يتمكّن من منع ذهنه من الشرود — فهي جالسة مطويّة الجسد على الأريكة تراجع الخرائط، وتطلّ من تحت ثوبها الأبيض لمحات أربكته.

***

قادا السيارة عبر **بولي سور مير** وتوقّفا في الطرف الشمالي من **سان-جان-كاب-فيرا**. ارتديا ملابس عادية كأنهما في نزهة. لبست مريم بنطال جينز وقميصًا مخططًا بالأبيض والأزرق وحذاءً رياضيًا أبيض، بينما ارتدى هو جينزًا وتيشرت رماديًا. كانت المسارات الترابية التي تطوّق شبه الجزيرة تشكّل نموذجًا واقعيًا لموقع تبادل سري على طريق للجري في دمشق. كان الوقت آخر العصر، السماء صافية، والممرّات مزدحمة قليلًا. مرّ بهما زوجان، يضع كلٌّ منهما يده في جيب الآخر الخلفي، وهما يضحكان. تحدثت مريم بالعربية قائلة:

- "أليس من الممنوع أن يحبّ الضابط عميلته؟ لأنّ ذلك يجعله أقلّ موضوعية، أليس كذلك؟"

- "صحيح."

- "وماذا يحدث لو اكتشفت الـ CIA قُبلتنا؟"

- "سأكون بخير. سيسألون الكثير من الأسئلة. ربما يخضعونني لاختبار كشف الكذب..."

توقّف عن الكلام فجأة حين اقترب زوجان يدفعان عربة طفل. وبعد أن تجاوزاهما، تابع:

- "قد يخضعونني لاختبار بوليغراف. لكن سأكون بخير. القبلة تختلف عن..."

فأكملت مريم الجملة بالإنجليزية:
- "الجنس."

أربكه الانتقال المفاجئ إلى الإنجليزية فقال:
- "نعم. لذلك قد يفصلونني. تحقيق شامل، ذلك النوع من العقوبة. أعرف رجلًا نام مع عميلة. أوقفوه عن العمل لعامين."

- "وما معنى أوقفوه؟"

- "أي جلس وراء مكتب لا يفعل شيئًا."

- "فهمت."

واصلا السير، وانتقل الحديث إلى موضوع أقلّ إثارة: أماكن الإخفاء.

قال سام:
- "الموقع الجيّد يوازن بين أمرين: الغطاء المادي وسهولة المرور. الأول ضروري للإخفاء، والثاني لأن العميل والضابط يجب أن يمرّا بالمكان دون توقف يُثير الشكّ. هناك دومًا تناقض بينهما: فكلّما كان المكان مكشوفًا أكثر كان الوصول إليه أسهل، وكلّما كان مخفيًا أكثر تعذّر المرور بسهولة. ذات مرة استخدمت قطة محنّطة قرب موقع إنشاءات، يضع العميل الرسائل داخل تجويف كان يحوي أحشاءها. لم يجرؤ أحد على لمسها، لكنّ الموقع كان شديد الخفاء إلى درجة أن العميل لم يتمكّن من تمييز القطة الصحيحة بين الجثث على الطريق، فاضطرّ إلى تركها."

ضحكت مريم:
- "أتمزح؟"

– "أبدًا."

– "لا قطط من فضلك."

– "أعدك، لا قطط. ربما نستخدم سلّة قمامة، نلصق داخلها الورقة بشريط لاصق، ويكون الغطاء العلوي قابلاً للإزالة."

وجد سام موقعًا مناسبًا في الجانب الغربي من شبه الجزيرة: سلّة قمامة بجوار جدار حجري قصير، وحولها نفايات مبعثرة. أخرج سكينًا صغيرًا وخلع الغطاء.

قال:

– "هذا أفضل ما سنجده."

ثم التقط منديلًا ودسّه داخل السلّة، وألقى بها وسط القمامة. نظرت مريم إلى المكان بامتعاض.

قال مبتسمًا:

– "كلّ هذا أقلّ بريقًا مما يظنّ الناس. الأمر كله قمامة وقطط ميتة أكثر مما هو تجسس سينمائي."

***

تدرّبا ساعتين، يتوقّفان كلما مرّ أحد. كان سام يصوّر فيديو على هاتفه بينما تكرّر مريم عملية الإخفاء والاسترجاع. كانت سريعة التعلّم، ورشاقة تدريبها على **كراف ماغا** تساعدها. تتحرك بانسياب، بثبات، وبنية. التقط لها مقاطع من كلّ الزوايا، وبنهاية النهار أصبحت حركاتها تغطّي العملية تمامًا: راكضة تربط حذاءها في ثلاث ثوانٍ.

عند الغروب قالت إنها اكتفت، لكنه أصرّ على محاولة أخيرة. صوّرها من الخلف كأنه عميل مخابرات سوري يراقبها. ركضت نحو سلّة القمامة، أبطأت عند اقترابها، ثم انحنت عند الخصر في زاوية قائمة، وساقاها مستقيمتان، وجسدها ينثني للأسفل، وظهرها منتصب، وقد برزت تفاصيل جسدها بما شتّت انتباهه عن التقييم

المهني. التفتت إليه بابتسامة ماكرة، ثم اعتدلت واقفة وتظاهرت بأنها تشرب من العلبة. أومأت بعينها وقالت:

- "أظنّنا سنكتفي بهذا القدر."

فقال بابتسامة باهتة:

- "أوافقك تمامًا."

الفصل الرابع عشر

أعدّا الوصفة الثانية من وصفات جدّته، طبق **كاشيو إيه بيبي**: بوكاتيني مغموس في عشرين يورو من جبن البيكورينو المذاب، مرشوش بالفلفل الأسود المطحون. أشعلا بعض فوانيس الشموع ونثراها فوق التراس. كانت **مريم** ترتدي فستانًا أحمر مزهرًا، وصندلًا بسيطًا، وأقراطًا ذهبية دائرية، وشعرها منسدلًا نصفه على ظهرها في تموجات فوضوية.

كانت قد اكتشفت القبو المخصص للنبيذ بعد أن راجعا مقاطع تدريبها على "نقاط اللقاء Dead drop"، فأحضرت نبيذًا أحمر من توسكانا. سألها **سام** إن كان باهظ الثمن. فقلبت عينيها وقالت:
– "ليس هذا هو المقصود. نريد شيئًا يتماشى مع المعكرونة. هذا السانجيوفيزي سيكون جيدًا."

– "إذن، هل هو باهظ الثمن؟"
– "نعم."
– "رائع."

ثم عادت لتقلب عينيها ساخرًا.

قالت بعد أن جلسا وقرعا الكؤوس:
– "شكرًا لأنك أتيت إلى غرفتي في الفندق... لأنك أنقذتني. أدركت بعد ظهر اليوم أنني لم أقل ذلك بعد."

قال بهدوء:

– "كنتِ ستفعلين الأمر نفسه من أجلي."

– "أعلم. لكن رغم ذلك..."

أكلا لبرهة في صمت، ثم وضعت مريم أدوات المائدة جانبًا وقالت:

– "أنا خائفة. خائفة من العودة. من اتخاذ الخطوة الحقيقية الأولى."

قال:

– "سنفعل ذلك معًا. سأحميك."

***

نظرت **مريم** في عينيه، وفهمت حينها سبب انجذابها إليه. ففي هذا العالم الغريب أصبح واحدًا من أقرب الناس إليها. يعرف عنها كل شيء، سال دمه إلى جانبها، ويعرف سرّها الأشد ظلمة. في باريس شعرت بالكيمياء بينهما، لكنها الآن صارت أعمق: حميمية عاطفية خام لم تكتمل. أرادت المزيد، أرادت كل شيء.

قالت:

– "أعلم أنك ستحميني، فهذا عملك، أليس كذلك؟ تجنّد الجواسيس وتحصل على أسرارهم. لكن ماذا لو أُمسكت؟"

– "مريم، لا..."

– "دعني أكمل. إن قبضوا عليّ سيعذبونني ثم يقتلونني. أما أنت فستعود إلى وطنك. أنا أضع حياتي على المحك، وأنت لا تفعل. هذه حقيقة."

– "وذلك يزعجك."

– "طبعًا. علاقتنا – شراكتنا – مميزة. لا أستطيع وصفها تمامًا، لكنها كذلك."

مالت للأمام وأشارت إلى صدرها:

– "لهذا أريد أكثر مما يناله العميل العادي."

تحرك في كرسيه ونظر نحو البحر المضاء بالقمر. دوّر النبيذ في كأسه دون وعي، وعندما حدّق في السائل الداكن، بدا كأنه غاب عن الحاضر للحظة. مرّر يديه في

شعره ثم وضعهما على الطاولة. رأت مريم العرق المتناثر على القماش. نظر في عينيها متأكدًا من ثقتها قبل أن يتكلم.

قال:
- "سأخبرك شيئًا لا يعرفه أحد. هل سيساعدك هذا؟"
فأومأت أنها تريد أن تسمع.

- "لديّ ثلاثة إخوة. لكن كان هناك رابع ذات يوم، اسمه **تشارلي**، أصغرنا بأربع سنوات. طفل مضحك، يقول والدَي ذلك دائمًا، وقد عرفته هكذا منذ البداية. شعر أشقر، عينان زرقاوان واسعتان، وابتسامة سهلة. كان يرقص ويصنع وجوهًا غريبة ويضحك الجميع. كنا متقاربين. كنت كبيرًا بما يكفي لأعتني به، وصغيرًا بما يكفي لألعب معه."

رأت فكه يتصلّب كما تفعل هي حين تكبح دموعها. سكتت.

قال:
- "أذكر مرة كان عمره أربع سنوات تقريبًا، وأنا في الثامنة. أخونا الأكبر داني كان يذاكر الرياضيات ويبكي لأنه لم يفهم. حاول والدي مساعدته ثم قال له أن يأخذ استراحة وخرج من المطبخ. جلس داني يبكي، فتسلّل تشارلي إليه، نظر إلى الكتاب وكأنه يفهمه، ثم أغلقه ووضع ذراعه حوله وقال: لا تقلق، ستفهمها لاحقًا. ثم وضع داني رأسه على كتفه."

ضحك **سام** ومسح زاوية عينه اليمنى وارتشف النبيذ.
- "ثم بلّل تشارلي إصبعه بريقه، ودفعه في أذن داني وهو يقول له إن المسائل سهلة وسيحلّها قريبًا."

قهقهت مريم وكادت تختنق بالنبيذ:
- "وماذا فعل داني؟"
- "صرخ وطارده في أنحاء البيت. ورسب في الاختبار كما أظن."

تصلب فكه مجددًا. مرّت ثوانٍ صامتة، وحدها أصوات الحشرات في التلال ووشوشات الناس من الشوارع القديمة تملأ الجو.

قال سام بصوت خافت:

– "بعدها بأشهر قليلة، كنا وحدنا في البيت. أمي طلبت منا أن نشتري البيض من المتجر. عشر دقائق سيرًا، كنا نفعلها دائمًا. قالت لي: خذ تشارلي معك. أخذنا كرة بيسبول. كنا نرميها لبعضنا. طلب أن أرمي له كرة عالية. الطريق لم يكن مزدحمًا عادة، لكني شعرت أنه أمر سيئ. ومع ذلك ألحّ بوجهه الطفولي، فاستسلمت. ركضت قليلًا للأمام، كنا على تلة تحيطها أشجار الصنوبر. رميت الكرة عالية، ربما بغضب، فاصطدمت بغصن واتجهت نحو الطريق. لم أرَ السيارة القادمة، شاحنة سوداء تصعد التلة بسرعة. قال الأطباء إنه لم يتألم. جلست بجانبه على الطريق، لا أعرف كم من الوقت. كانت عيناه مفتوحتين، كأنه لا يزال يتابع الكرة. السائق المسكين كان يتمشى ممسكًا رأسه ويتمتم. لم يجد أحد الكرة أبدًا. تركتها هناك ولم أخبر أحدًا."

قالت مريم وهي تشد فكها:

– "ليس ذنبك. لم تكن أنت من صدمه."

تنهد وملأ كأسه من جديد. كانت المعكرونة قد بردت.

قال:

– "ربما علينا أن نسخّنها مجددًا."

وحين وقفا في المطبخ، قبلته وقالت:

– "شكرًا لأنك أخبرتني."

أكلا بشراهة من القدر مباشرة، يضحكان على شجارهما في باريس، وعلى طريقتها في "نقاط اللقاء Dead drop" وعلى ما لمحته وهي تحاول خلع قميصه تلك الليلة.

قالت وهي تشير إلى كتفه الأيسر:

– "دعني أرى ما هناك. لم أستطع أن أرى جيدًا تلك الليلة. هذا ما زال سرًا."

رفع قميصه فكشفت عن كلمة **Clarity** محفورة على لوح كتفه الأيسر.

سألته:

- "ما معناها؟ ولماذا الجزء بعد حرف i مشوّه هكذا؟"
- "تقصدين رديئًا؟"
- "لا، أقصد قبيحًا."

تحرك بعصبية، واضح أنه كرّر هذه القصة كثيرًا. مرّت يدها على ظهره القوي وقالت:

- "لم تعجبني تلك الوشمة."

قال مبتسمًا بمرارة:

- "كلير كانت صديقتي في الثانوية. ليلة سكرنا فيها ذهبنا إلى محل وشوم، ونقشنا أسماءنا على ظهورنا. بعد الانفصال لم أستطع تحمل تكلفة إزالة الوشم كله، فطلبت من أحدهم أن يمحو حرف e ويكملها إلى كلمة Clarity. بدت لي حينها فكرة عميقة."

انفجرت ضاحكة حتى كادت تختنق بقطعة بوكاتيني، تطايرت قطرات من الجبن على فستانها. مسحتها وهي تضحك:

- "لقد دفعت لإزالة وشم الأسد عن مؤخرتي. كان يستحق كل ليرة سورية."

غمزت، فضحك هو أيضًا وقبّلها، وقد شعر أن ثقله الداخلي يخفّ مع كل ابتسامة منها.

ضحكًا، نزلا إلى القبو بحثًا عن زجاجة أخرى.

***

وحين قاربا نهاية الزجاجة الجديدة، سألت مريم:

- "كم مرة سنلتقي في دمشق؟"

قال:

- "يعتمد الأمر. لكن الأفضل ألا نلتقي إلا عند الضرورة. اللقاء المباشر هناك خطر. لسلامتك علينا أن نتواصل قدر الإمكان عبر نقطة اللقاء. لاحقًا ستحصلين على جهاز خاص."

– "وماذا عن تدريب الغد؟"

– "سنغطي أساليب كشف المراقبة، *SDRs*، كي تضمني أن المخابرات لا تتابعك قبل اللقاء. سنتدرّب أيضًا على تمرير الرسائل الخاطفة. أمامنا الكثير."

لم يخبرها بالغثيان الذي يشعر به عند فكرة عودتها إلى الداخل.

قالت بنبرة هادئة:

– "يومان فقط، ثم... من يدري."

جلسا على أريكة التراس في صمت دافئ، يواجهان الساحل، يحتضنها ويحتسيان آخر ما تبقّى من النبيذ. للحظة، بدا كأنهما ثنائي عادي، لا عميل وعميلة.

بقيا هكذا حتى قبلها فبادلته القبلة، وسرعان ما اجتذبهما شعور طبيعي بأن يقودها إلى غرفة النوم في منزل آمن تابع لوكالة الاستخبارات الأمريكية. تلاحمت أفواههما، تارة للضحك وتارة للعضّ الخفيف، حتى وصلا إلى السرير، فخلعت فستانها وملابسها الداخلية، بينما تعثّر هو في بنطاله وضحكت بصوتها المميز، ثم سحبها إليه وسقطا على السرير، يضحكان مثل صديقين اكتشفا فجأة سرًّا قديمًا غاب عنهما طويلًا.

قالت بالإنجليزية وهي تلهث:

– "أوه... ، حبيبي..."

ضغط جبينه على جبينها وقبّلها. كان جسدها يتماوج تحت يديه، بشرتها تلمع، وشعرها المبتل يلتصق بوجهها والوسادة، والهمسات والأنفاس تتناغم. لم يرَ إلا أحمر شفاهها وقد صار لوحة جريمة على جلدهما. شمّ رائحة اللافندر وسمع رنين أقراطها وهي تتحرك بإيقاع واحد.

خرج للحظة من اللحظة، ليُدرك كم بدا طبيعيًا ومغرّبًا أن يكون الآن مع مسؤولة في القصر الجمهوري السوري، وعميلة مجندة باسم رمزي **أثينا (ATHENA)**، في خرق صريح لقواعد وكالة الاستخبارات ولعدد من القوانين الفدرالية. لكنّ مريم كانت تعتلي صدره، رأسها للخلف، وأصابعهما متشابكة، فتلاشى كل تفكير.

نامت قبله بقليل، مع أول خيوط الفجر.

أما **سام**، فبقي مستيقظًا. فكّر في عميلته وهي تتجه لنقطة اللقاء، تجمع معلومات، تمشي في شوارع دمشق مطبّقة أساليب المراقبة. رأى في الأرض حمالة صدرها الملقاة وقد التوت على نفسها، وقال في سرّه:
ما الذي فعلته بحق الجحيم؟

اقتربت مريم وهي نائمة، تتنفس بعمق وطمأنينة.

الفصل الخامس عشر

كانا يتحركان في أرجاء **المنزل الآمن** يجمعان الملابس، يرتبان غرفة النوم، ويكشطان بقايا المعكرونة المتجلطة من الأواني. لم يتحدثا عن تلك الليلة التي جمعتهما، كانت طبيعية، مرحة، عادية بطريقةٍ غريبة. أعدّ **سام** البيض والخبز المحمّص، واحتسيا القهوة على الشرفة وهما يراقبان الأمواج تتحطم على الصخور بينما كانت الحرارة تتسلّق التلال.

راجع سام خرائط **بروكتر** لدمشق على جهازه اللوحي بينما كانت **مريم** تستحم. خرجت إلى غرفة المعيشة تمسح شعرها المبلل بمنشفة وسألته عن الوقت الذي سيذهبان فيه إلى **نيس**. ابتسمت وهي تلفّ المنشفة حول شعرها، فقال:
– "لدينا ما يعادل عشرة أيام من العمل لإنجازه في يومين، هيا، استعدي يا حبيبتي."

لم يدرك أنه قال حبيبتي — الكلمة خرجت عفوية، لكنها لم تمرّ دون أن تلاحظها. ابتسمت للحظة ثم ذهبت لتبدّل ملابسها.

قضيا الصباح يحتسيان القهوة بينما يخترقان معًا الجزء النظري من تدريب "كشف المراقبة". كانت مريم تلميذةً لامعة: يقظة، فضولية، متحمسة للتعلّم. أما القهوة، فقد نظرت إليها بازدراء وقالت وهي تتجرّع رشفة صغيرة:
– "إنها قطران أسود يا سام، هذا شراب للمتوحشين!"

علّمها كل شيء: الإعداد الأساسي، الحركات، كيفية ملاحظة التكرارات، وكيفية دمج "اكتشاف المراقبة" ضمن نمط الحياة. لكنه كان يعلم – من أيام التدريب في "المزرعة" – أن الدروس النظرية لا تكفي، فلا بدّ من التطبيق الميداني.

كانت قريبةً منه حتى أنه استطاع أن يشمّ رائحة شعرها ويرى ملامح جسدها من تحت القميص الملتصق...

توقف، *أيها الأحمق، هذه مهمتها لدمشق*، ركّز.

– "بعض الأفكار سنضطر لتجربتها في الميدان، هناك في نيس."

أومأت مريم وهي تتأمل الخرائط بعينين تشتعلان استعدادًا.

قال:

– "حان وقت التحرك."

رنّ هاتفه بينما كانت تحزم حقيبتها وتبدّل حذاءها إلى حذاءٍ رياضي في غرفتها. لم يتعرف على الرقم.

– "مرحبًا؟"

– "إنها بروكتر."

– "رئيستي، ما الأمر؟"

– "وصلت لتوي إلى نيس. أمر طارئ، لا تظن أنني لا أثق بك، فقط أريد لقاء فتاتنا قبل أن تختفي في دمشق. تقول برقيتك إن تدريب المراقبة اليوم؟ ضُمّني معكم، أيها المدرب."

***

كان **سام** قد صمّم عدّة جولات تتقاطع في **المدينة القديمة من نيس**، متاهة من الأزقة الوسيطة تشبه تضاريس العاصمة السورية؛ محلات الجيلاتو والسياح ذوو القبعات الأنيقة والمباني الملونة مثلوا بديلًا عن دمار دمشق وميليشياتها وفوضاها. كان **الباندِيتوز** و**بروكتر** يلعبون دور الخصوم.

دمشق ستكون جحيمًا، ولذا قرروا أن يكونوا هنا شياطين. استخدموا كل ما لديهم من أدوات متقدمة: سماعات أذن مشفرة تبدو كأنها **AirPods**، دراجات **فيسبا** مستأجرة، تنكّرات متعددة (شوارب، بطون اصطناعية، ملابس جديدة، مكياج)، وطائرة درون صغيرة شبه صامتة – ممنوعة من الطيران في فرنسا، لكن من يهتم – مزوّدة بكاميرات عالية الدقة وحرارية، وكاميرات مجهرية مخفية في

النظارات والحقائب والقبعات، موصولة برابط مشفّر يبثّ كل شيء إلى الشاحنة المجهزة التي تديرها **بروكتر**.

جلس **سام** و**مريم** في مقهى على أطراف المدينة الغربية، يراجعان خريطة سياحية ويحددان المسار.
رسموه طويلًا ومرهقًا، تمامًا كما ستكون دمشق.
ولم يخبرها **سام** عن الطائرة المسيّرة، إذ شعر أن الأمر شرير قليلًا.

***

لاحظت **مريم** أثناء التخطيط أنها تحب هذا العمل، رغم خوفها من العودة إلى وطنها. بعد عشرين دقيقة رصدت أحد المراقبين متنكرًا في هيئة متسوّل – لاحظت أن حذاءه نظيف وجديد – ثم نجحت في دفع متعقّبين آخرين داخل قطار في طريقها إلى القلعة. كانت تملك غريزة المهنة، ربما نتيجةً لتلك الشكوك السورية المتجذّرة في العيش تحت المراقبة الدائمة. عاد إليها الإحساس بالوخز أسفل عمودها الفقري.

تابعت جولات المراقبة، ثلاث محطات وعدة منعطفات، ثم قررت أن تهدّئ الإيقاع. مرّت أمام كنيسة باروكية صفراء تلمع تحت الشمس، وقررت أن تتوقف عند مطعمٍ إيطالي في ساحته الخلفية.

فتحت امرأةٌ مسنّة النافذة لتعلّق الغسيل، فرفعت مريم رأسها ورأت بريقًا معدنيًا في السماء. ثم ذلك الإحساس مجددًا، خفقانٌ سريع في صدرها. *إن كان ما تراه صحيحًا، فالطائرة تُستخدم لتوجيه الفرق على الأرض.*

خرجت من الباب الخلفي للمطعم، وعلى الرصيف الحار شعرت فورًا بعودة المراقبين. نفذت مجموعة من المنعطفات السريعة قرب الكاتدرائية وقدّرت أن أمامها ثلاثين ثانية من "الفجوة"، كما وصفها **سام**: لحظة حرية من المراقبة.

دخلت كشكًا سياحيًا واشترت نقدًا قميصًا ضخمًا كتب عليه (NICE IS NICE)، وقبعة بيسبول (I ❤ NICE)، ووشاحًا أصفر رخيصًا. وضعتهم في حقيبتها وعدّت إلى الشارع بعد أن أنهت العدّ حتى خمسةٍ وعشرين.

اندمجت وسط حشدٍ كثيف قرب المكتبة، ثم انسلت إلى حي جانبي هادئ تملؤه مطاعم خاوية. كانت تتحرك بثقة، تعرف متى تُسرع ومتى تُبطئ، حتى وصلت إلى النقطة التي خططت فيها للتخلّص من الطائرة التي صارت متأكدة أنها تلاحقها.

دخلت زقاقًا ضيقًا تتقاطع فوقه مظلات المطاعم وتحجب السماء. ارتدت القبعة والقميص البشع ولفّت الوشاح حول عنقها. عندما خرجت من الجهة الأخرى اختفى الوخز. تابعت سيرها نحو "المنزل الآمن" الجديد – مقهى يدعى **رينيه سوكا** – واستغلّت تضاريس المدينة: انعطافات، توقفات، مناورة مثالية خلف الزوايا... لا أحد يتبعها.

جلست في مقهى يبعد ثلاث شوارع عن وجهتها الأصلية. كانت الآن *سوداء* – كما يقول رجال المخابرات – أي غير مرصودة.

قالت في نفسها: *أنا سوداء. لقد اختفى كل أثر لي.*

طلبت كأس نبيذ وجلست.

عثر عليها **سام** و**بروكتر** بعد خمسين دقيقة وهي لا تزال ترتدي القميص المضحك وتبتسم بانتصار.

قالت مبتسمة:

– "مرّ واحد وخمسون دقيقة. احجزا الطاولة، سأبدّل هذه المهزلة."

مرّت بجانبه، واعتقد سام للحظة أنه يريد أن يقبّلها.

***

عاد الفريق إلى **المنزل الآمن** لتقييم اليوم. دخلت **بروكتر** وهي تجرّ حقيبتها قائلة إنها ستنام على أي سرير متاح أو حتى على أريكة قابلة للنفخ: "لستُ صعبة الإرضاء."

جلب **البانديتوز** الطعام. صاح **إلياس**:

– "انه دليفري بيتزا هَت!"

لكنهم كانوا يمزحون؛ وجدوا مطعمًا صقليًا محترمًا. جلسوا جميعًا يشاهدون الفيديو

ويقيّمون أداء مريم. قالت **بروكتر**:
– "يومٌ مذهل يا مريم، وغدًا نعيده حتى تنزف قدماك!"

رفعت مريم حاجبها ثم ضحكت.

أشارت بروكتر لـ **سام** ليلحق بها إلى المطبخ بينما يشرح الباندِيتوز لمريم كيف تجعل مراقبتها البصرية أقل وضوحًا عند الالتفاف. قالت بروكتر وهي تفتح جهازها اللوحي:
– "لدينا خطة الاتصالات. سنستخدم موقعًا على طريق الجري خاصتها. هذا هو المكان."

أظهرت له صورة لمفترق طرق تحيط به جدران متداعية وأكوام قمامة، موقع منعزل ومتوافق مع نمط حياتها.
تابعت:
– "سنستخدم علبةً كما في التدريب. الإشارة تكون الستائر نصف مرفوعة في شقتها إن وضعت شيئًا في الموقع. نترك علامات طبشور خارج المبنى، ثم نحاول تزويدها لاحقًا بجهاز تواصل."

قال سام:
– "جيد، سأدرّبها عليه."

ثم سألته عن تقييمه العام. أجاب وهو يصبّ القهوة:
– "أداؤها ممتاز، حركتها ذكية، غريزتها قوية. إنها موهوبة بالفطرة."

قالت بروكتر:
– "لعلها تنقل هذه المهارة إلى دمشق."

سأله بعدها:
– "أي أخبار عن الاتصال بعلي؟"
– "لا شيء. السوريون ينكرون معرفتهم بمكان فال، ويتظاهرون بالرغبة في مساعدتنا ضد الإرهابيين الذين اختطفوها."

ضربت بروكتر آلة القهوة غاضبة، ثم قالت وهي تراقب مريم في الغرفة الأخرى:

– "حتى الرئيس غضب في آخر اجتماع حول الملف السوري. الجميع سئم من ألاعيبهم."

قال سام بخفوت:

– "كلما طال احتجاز فال، زادت احتمالية أنهم ينتزعون منها معلومات. علينا أن نتحرك."

– "أعلم... وإن مسّها عليّ بسوء، سنقطع خصيتيه."

***

كانت الأيام التالية ثمينة، فقضاء وقتٍ مع عميلةٍ ذات موقع رفيع كهذه نادر. أغرقها **سام** و**بروكتر** بالأسئلة القادمة من لانغلي: كيف يعمل مكتبها؟ ما موقف الرئيس من الحرب؟ وما نوايا كبار العسكريين؟

كانت الأجواء خفيفة، ووجدت مريم نفسها تضحك من نكات بروكتر البذيئة عن الرئيس وحيويته الجسدية. في تلك الليلة نام الجميع باكرًا.

قبل أن تدخل غرفتها، قبلت مريم جبين سام وقالت:

– "أحب هذا الفريق، سام. أشعر أن الأمور تسير كما يجب."

***

اليوم التالي كان قاسيًا، حارًا ومرهقًا. قالت بروكتر بعد ساعات من التدريب:

– "لكن الفتاة تشعر بالشارع حقًا."

وفي نهاية اليوم، احتضنت مريم قائلة:

– "سننجز عملًا عظيمًا معًا."

ثم غادرت عائدةً إلى سوريا.

حاولت **مريم** للمرة الأخيرة الاتصال بـ **فاطمة** دون جدوى، فاتصلت بـ **بثينة**. قالت الأخيرة:

– "عودي إلى الوطن يا مريم، فاطمة اتخذت قرارها البارحة."

أدركا أنها الليلة الأخيرة. قاد **سام** و**مريم** السيارة على طريق **كورنيش مويان**، بحجة شرح تفاصيل المراقبة بالسيارات، لكن الحقيقة أنه أراد أن يكون وحده معها، يشك أن بروكتر زرعت أجهزة تنصت في المنزل.

قادا السيارة باتجاه **موناكو**، والنجوم تتلألأ بخجل فوق الضباب. أوقف السيارة عند منحدر يطل على البحر.

جلسا صامتين لبعض الوقت.

قالت أخيرًا:

- "عمي داوود؟"
- "ما رأيك به؟"
- "لن يعمل مع الـCIA، لكنه قد يخبرني بأمور لا يجب أن يقولها. قد يظن أن المعلومات ستذهب لمكانٍ آخر، ولن يسأل."
- "ذكرتِ أن لديه تظلّمات؟"
- "نعم، بسبب **رزان**. غاضب من معاملتها، مثل كثيرين، لا يؤيد القتل العشوائي، ولا يريد استخدام الغاز. إنه وطني، تفهّم سابقًا ضرورة الردع ضد إسرائيل، لكنه يرفض استعماله ضد السوريين."

قالت وهي تضع يدها على فخذه بنظرةٍ تنبض سخرية:

- "في سوريا لا نتحدث بصراحة، لا أحد يعلم من يستمع.

لذا حين أسأله سأقول إن القصر هو من يسأل، فيتحدث بصراحة."

قال:

- "كوني حذرة."

أدارت عينيها بعيدًا.

ثم سألها:

- "ما الذي قد يقدّمه؟"
- "هو المسؤول عن المخزون في العاصمة، يعلم إن كانت هناك نية لاستخدام السارين في دمشق، ويعرف الأوضاع الأمنية في المواقع."
- "أي معلومةٍ من هذا النوع ستكون ثمينة."

لكن **مريم** أوقفته بتقبيله. ثم انجرفا إلى المقعد الخلفي، اندمجا بجسدين مثقلين بالعاطفة، حتى انتهى كل شيء وهما يلهثان معًا في صمتٍ متعب.

هكذا تُتخذ القرارات الثقيلة، فكرت مريم وهي تستعيد أنفاسها.

لم أفعل شيئًا.

ليس بعد الآن.

الجزء الثالث

القنابل

الفصل السادس عشر

وصلت الأخبار إلى **الطابق السابع في لانغلي** عن طريق أحد اللصوص السوريين الذي سرّب وثائق حساسة بعد أن التُقطت لها صور مقابل مكافأة مالية سخية يتقاضاها شهريًا. وخلال إحاطة للمدير، قال **برادلي** إن التقارير التي وصلته موثوقة ومباشرة المصدر، وإن الوثيقة والصورة المرفقة بها تكادان تكونان أصليتين تمامًا. عندها استدعى المدير **بروكتر** إلى لانغلي للتشاور.

على مدى الساعات الأربع والعشرين التالية، شرع فريق أمني صغير في تنظيف ملفات **ڤال أوينز** الطبية وسجلات وصفاتها الدوائية. كما استجوبوا أطباء نفسيين من وكالة الاستخبارات المركزية، بينما تولّى فريق من الأطباء والشرعيين فحص الصورة الوحيدة المتاحة بدقّة. وفي نهاية المطاف، تضافرت الأكاذيب الواردة في الوثيقة مع الحقيقة التي كشفتها الصورة لتُفضي إلى اجتماعٍ طارئ بعد الظهر مع المدير.

أُدرج محضر الاجتماع — بعد أن جرى تلميعه — ضمن قسمٍ خاص يخضع لتقييدٍ شديد في التعامل ولا يحق إخراجه بموجب قانون حرية المعلومات. ولو اطّلع عليه أحد، لوجد أنّه بين الدقيقتين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من النقاش، قاطعت رئيسة محطة دمشق **آرتيميس أ. بروكتر** الدكتورة بان لتستوضح درجة يقينها في حكمها الطبي، قبل أن تنطلق في حديثٍ طويل وغير منقطع، اتّسم بقدرٍ من الفجاجة، عن الوسائل المناسبة للانتقام.

***

كان **سام** في مكتب الخدمات الطبية — حيث أطباء الوكالة — يجري فحوصات الدم استعدادًا لجولته القادمة في دمشق، حين لمح خصلة شعرٍ أسود تظهر من وراء

باب المختبر. فتحت **بروكتر** الباب، ودخلت متجاوزةً الطبيب الذي آثر الصمت الحكيم بعد أن تفرّس في ملامح رئيسته. لم يكن سام يعلم أنها في المدينة أصلًا.

قالت وهي تنظر إليه بثبات:
- "لنخرج قليلًا، الهواء هنا خانق. انزع تلك الإبر ولنتمشَّى."

غادرا مبنى المقرّ الأصلي واتّجها نحو المسارات الضيقة الممتدة قرب **تشين بريدج**. كان بعد الظهر رطبًا خانقًا، وشعر سام بعرقٍ يتجمع على ظهره وساقيه مع كل خطوة. أمّا **بروكتر** فلم يبدُ على وجهها أثرٌ واحد للعرق، رغم أنها كانت ترتدي تنورة تويدية وقميصًا خمري اللون، في معجزةٍ من السيطرة الانفعالية والجسدية. وعندما بلغا الممرّات، كان قميص سام الأبيض قد ابتلّ تمامًا.

زادت **بروكتر** من سرعتها دون أن تنبس بكلمة، بينما بدأ سام يجد صعوبة في مجاراتها، مع أن ساقيها كانتا أقصر من ساقيه بنحو قدم كاملة. مرّ عدّاءٌ بجانبهما وهو يلهث. تابعا السير صامتين حتى اختفى الرجل عند المنعطف. أخذ سام يتنقل بين ظلٍّ وآخر باحثًا عن بقعةٍ تقيه حرارة الشمس، بينما شقّت بروكتر طريقها بخطٍّ مستقيم تحت وهجها، وجهها جافّ بلون الطباشير، حتى بلغا منطقة نائية من المسار.

توقفت فجأة وقالت بحدة:
- "فال ماتت. وصل الخبر صباح أمس. علي حسن قتلها أثناء استجوابها."

ثم بصقت على الأرض.

مشى **سام** مبتعدًا حتى جلس على مقعدٍ خشبي. راقب أوراق الأشجار وهي تتماوج في نسيم العصر، ومسح جبينه الساخن بكفّه المتعرّقة. لسببٍ غريب، علِق ذهنه في التفاصيل الصغيرة، في الأشياء التي لا معنى لها. وفجأة خطر في باله **مريم**، تمنّى لو كانت إلى جانبه، لو شعر بجلدها على جلده. رأى عدّاءً آخر يمرّ، فرفع أكمامه وسوّى ربطة عنقه بغباءٍ عفوي.

نظرت **بروكتر** حولها. لم يكن هناك أحد. رمقته بعينين جامدتين، وجهه مبلّل بالعرق، ثم أخرجت رباطًا مطاطيًا من جيبها، جمعت شعرها الأسود المجعّد في ذيلٍ

غير متقن. بعدها أخرجت ورقتين مطويتين من جيب التنورة ومدّتهما نحوه. تساقطت قطرات من عرقه على الورق وهو يفرده، فرأى صورة.

لقد عرف الموت من قبل. رآه طفلًا بين ظلال غابات الصنوبر في الشمال، ورآه رجلًا في وحل بغداد ورمال الأنبار. نظر إلى الورقة فالتقى بعيني **ڤال** المطفأتين.

قالت **بروكتر** بصوتٍ مبحوح يقطر غضبًا:

– "لقد سلخوا فروة رأسها. أطباء الوكالة وخبراء الصور لاحظوا شقًا رفيعًا في الصورة، رغم مستحضرات التجميل. لقد سلخوها ثم خيطوا الجلد من جديد قبل التقاط الصورة."

قاوم **سام** اندفاع الغثيان في حلقه، طوى الصورة وأعادها إليها. مرّ عدّاءٌ آخر بالقرب منهما، ثم جلست **بروكتر** بجانبه على المقعد.

قالت وهي تشير إلى الورقة الثانية:

– "اقرأ الأخرى."

فتحها، فقرأ الترجمة الإنجليزية:

15 نيسان

من: العميد علي حسن، مدير مكتب الأمن في القصر الجمهوري

إلى: فخامة الرئيس بشار الأسد؛ والفريق رستم حسن، قائد الحرس الجمهوري

الموضوع: ضابط وكالة الاستخبارات المركزية في الحجز

ضابط الوكالة ڤاليري أوينز، العاملة تحت غطاء سكرتير ثانٍ في السفارة الأمريكية، توفيت بسكتة قلبية أثناء مقابلة روتينية.

الأدوية والمهدئات المضبوطة في مقر إقامتها تشير إلى معاناتها من ارتفاع الكوليسترول والضغط النفسي ونوبات الهلع.

يبدي مكتب الأمن أسفه لوفاة الآنسة أوينز في هذا التوقيت المؤسف.

طوى **سام** الورقة وأعادها إليها. فقالت **بروكتر** وهي تعيدها إلى جيبها:

– "أطباء الوكالة راجعوا سجلات ڤال، لذا نحن نعلم أن قصة الأدوية هراء. علي

اخترعها ليُخفي جريمته. المدير يعتزم الضغط على البيت الأبيض لإصدار تفويضٍ بالقتل، لكني لا أظن أننا سنحصل عليه بسهولة. الأمور كهذه معقّدة وتستغرق وقتاً. ومع ذلك، لديّ مشكلة شخصية جدًا مع فكرة أن يُقتل ضباط الوكالة دون ردّ."

كان **سام** يعرف أنّ أي عملية انتقامية تتطلب **تفويضًا سريًا بالعمل القتالي** يحمل صلاحية تنفيذ القتل. مثل هذه التفويضات تحتاج إلى تبريرٍ استخباراتي قوي، وتخضع لمراجعة مكتب المستشار القانوني بوزارة العدل، فضلًا عن مكتب المستشار العام داخل الوكالة نفسها. وكل ذلك معقّد بسبب أمرٍ تنفيذي صدر في عهد ريغان يحظر الاغتيالات كليًا.

قالت:

- "أريد خطة جاهزة عندما يأتي الأمر. خارج السجلات. ستعود إلى سوريا، وتعيد فرقة **الباندِيتوز** معك إلى دمشق. أريدك أن تديرهم لتضع خطة لتصفية علي، تحسّبًا لما قد يُطلب منا."

تابعت التحديق أمامها دون أن ترفّ لها عين.

مرّ عدّاءٌ آخر، فنهض **سام** وقال بهدوء:

- "سأبتعد قليلًا لأصفّي ذهني قبل السفر إلى دمشق."

قالت:

- "فكرة جيدة."

كان يعلم أن أي انفعالٍ ظاهر قد يقلل حماستها لمشاركته في العملية، لذا أبقى كلماته بسيطة ومباشرة:

- "سيكون شرفًا لي أن أشارك في المطاردة بدمشق. أشكرك على ثقتك بي."

أومأت برأسها وقالت ببرودٍ مختصر:

- "مرحبًا بك في العرض."

***

كان أمام **سام** أسبوعٌ قبل مغادرته إلى دمشق، فاختار أن يهرب إلى صحراء أخرى لينسى.

كانت **لاس فيغاس** في ذروة جنونها: أضواء الشريط، النخيل المائل، الخمر المنتشر على الأرصفة، والوسخ المتراكم في كل زاوية.

كان مخمورًا قليلًا، وفي سلسلة انتصارات متواصلة.

لو كان رجلًا آخر بماضٍ آخر، لتساءل كيف سينفق مبلغ **٢٢,٧٥٠ دولارًا** المكدّسة أمامه في أبراجٍ فوق طاولة البوكر الخضراء في قاعة **بيلاجيو**.

لكنّه كان يعرف اختياراته، ولن يحتفظ من الغنيمة سوى بورقةٍ واحدة من فئة المئة دولار لتغطية وجبة العشاء لشخصين بعد اللعب.

تحوّلت رحلاته إلى فيغاس إلى طقسٍ تطهيري بعد كل مهمة أو عملية قذرة. لقد خدم — لسوء حظه المهني — في مدنٍ لا ترحب بالمقامرة: **القاهرة، الرياض، بغداد**. صحيح أنه كان يُهزم خصومه في ألعاب السفارة أو مقر المحطة، لكنها كانت مواجهاتٍ باردة، استسلاماتٍ بطيئة لا تحمل روح المبارزة التي يحبها. كانت الأوراق بالنسبة له حربَ السلام، ومهارة التجسس البديلة التي يُقامر فيها بالمال بدلًا من أرواح العملاء.

كان يرتدي سترة رمادية قديمة يعتبرها "تجلب الحظ". جلس محدقًا في خصمه الوحيد المتبقي، بريطاني سمين في بدلة أنيقة، هو الوحيد الذي أجاب على رفعه للمراهنة. كان **سام** يخادع، إذ لم يملك سوى عشر وثمانية، لكنه شعر بفرصة.

سعل البريطاني، كاشفًا عن توتره.

نزلت الأوراق الثلاث الأولى: اثنان من البستوني، أربعة من القلوب، وملكة من البستوني.

تراجع سام عن المراهنة. راهن البريطاني بخمسمئة دولار. تذكّر سام أن أقصى رهانٍ سابق له كان مئتين فقط، ومجموع رصيده حينها كان قريبًا من الآن. **ليست زيادة طيشٍ إذًا.** لو كانت عنده الملكة لراهن بمبلغٍ أقل ليغويني بالاستمرار. يريد إخراجي من الجولة. ربما يملك **آس–ملك**؟ أو **زوج جاكات**؟ أو **عشرات**؟ ربما يسعى إلى **سحب فلاش**.

زاد سام الرهان بخمسمئة أخرى. فقبل البريطاني.

جاءت الورقة الرابعة: تسعة من الألماس.

ابتسم البريطاني بخفة وهو يعبث برقائق اللعب. رأى **سام** هذا المشهد مئات المرات: ابتسامة مائية لرجلٍ يقنع نفسه بشيء. اختفى السعال.

راهن البريطاني بسبعمئة وخمسين دولارًا. نظر إليه سام مليًّا. القميص يلتصق ببطنه التي تتحرك مع أنفاسه الثقيلة. **إن هاجمته الآن وتمسّك باللعب، فسيكون يدفع ثمن محاولة سحب الفلاش.**

رفع سام الرهان ألف دولار إضافية.

اختفت الابتسامة. أعاد البريطاني النظر إلى أوراقه، ثم أطلق تنهيدة الاستسلام، وألقى بها نحو الموزع الذي جمع الرهان ودفعه إلى سام.

قال البريطاني وهو يلتقط كأس الويسكي:

– "ماذا كانت أوراقك، لو سمحت؟"

قال **سام** وهو يبتسم بخفة:

– "ملكات."

أومأ البريطاني بإعجابٍ وقال:

– "اللعنة... لعبٌ ممتاز."

شعر سام بيدٍ تربّت على كتفه وصوتٍ يقول:

– "وقت البوفيه؟ العشاء ينتهي عند العاشرة."

مرّر يده على سطح الطاولة، داعب رقائق اللعب بأصابعه، رفعها قليلاً، واستنشق بعمقٍ رائحة الطاولة — تلك الرائحة المألوفة القديمة، مزيج العرق والورق والرهان — رائحة حياةٍ لم يعرف غيرها.

***

سار سام نحو شباك الصراف في كازينو بيلاجيو بصحبة المقيم الدائم هناك، ورفيق بوفيه منتصف الليل، وعميل الـCIA غير الرسمي **ماكس هيوستون**. كان

هيوستون هو من قدّم سام إلى الوكالة. علاقته بالـCIA لم تكن رسمية، بل عشوائية وظلية؛ إذ كان يكتشف المواهب في فيغاس ويوجهها إلى مجنّدي لانغلي. لم يكن يتقاضى أجرًا، وقد قال لسام ذات ليلة بعد نصف دزينة من كؤوس الفودكا بالصودا إنه يؤدي واجبه الوطني فحسب، ضاربًا الشيوعيين والروس وأتباع تنظيم القاعدة من "راكبي الجمال".

قال بعين نصف مفتوحة والأخرى ترتجف كضوء مصباح:
- "الوكالة تحتاج الأفضل، لا أولئك المتأنقين من خريجي الجامعات العريقة. تحتاج رجالًا ونساءً يعرفون كيف تعمل العقول يا سام."

بعد ستة أشهر من لقائه بهيوستون، كان **سام** قد التحق بدورة *فنون الميدان السرّية* في "المزرعة"، وهي أول اختبار يُمنح للضباط الجدد لقياس مدى صلابتهم للقيام بالمهمة.

قال هيوستون وهو يحتسي فودكته بينما كان سام يمرّر صينية الرقاقات المعدنية عبر الفتحة إلى الصرّاف الجلدي الوجه خلف الزجاج:
- "صيد موفق الليلة؟"

- "نعم، كما في الأيام الخوالي."

- "رجل طيب."

قال سام للصرّاف:
- "هل يمكنك تقسيم المبلغ إلى شيكين وفاتورة واحدة؟"

ضحك هيوستون.

أجاب الصرّاف وهو يقطب حاجبيه:
- "بالطبع."

ناول سام رخصة قيادته وقال:
- "شيك بمبلغ عشرة آلاف دولار باسم سام جوزف، هذا أنا. وورقة من فئة مئة دولار واحدة. ثم شيك آخر بالباقي باسم **كلارا غريس جوزف**."

تهكم هيوستون وهو ينهي فودكته:

- "وماذا تفعل بكلارا بالمال؟"

- "قبل القاهرة اشترت سيارة."

- "وبغداد؟"

- "لم يكن هناك شيك قبل بغداد."

ابتسم هيوستون وقال:

- "أعرف."

أخرج سام من جيب بنطاله ظرفًا عليه عنوان مكتوب مسبقًا:

كلارا غريس جوزف

١٥ طريق بيغ رايس

شيرمانز كورنر، مينيسوتا ٥٥٣٩٥

وضع فيه الشيك بمبلغ **٢٤,٤٨٠ دولارًا**، وطلب من الصرّاف قلمًا وورقة كتب عليها:

من أجل أي شيء. أحبك يا أمي.

ثم وضع الملاحظة في الظرف وأغلقه.

قال هيوستون وهو يهز رأسه:

- "إنها أم محظوظة، رغم أنك حطّمت قلبها. والآن إلى البوفيه. وأذكّرك كالعادة أنك لم تسحب ما يكفي لتغطية عاداتي في الشرب."

***

جلس سام أمام صحن مليء بالمأكولات البحرية مقابل هيوستون، الذي كان قد بدأ بفودكته الجديدة بالفعل وطلب واحدة أخرى لسام.

قال هيوستون وهو يرفع كأسه:

- "أقدّر دائمًا تلاميذي القدامى عندما يخبرونني بأنهم في المدينة."

رفع سام كأسه أيضًا. كانت الأجواء صاخبة حولهما؛ صحون تتطاير من المطبخ، مجموعة رجال أعمال صينيين ثملين يضحكون في الزاوية، وهيوستون يرفع كأسه نحو ثلاث فتيات مررن أمامهم بتنّورات قصيرة جدًا وشعر أشقر مصبوغ يكاد يختفي لونه.

ثم نظر إليه وسأله بقلق حين لاحظ صمته:

- "هل هناك ما يزعجك؟"

- "نعم، فقدنا أحدهم."

زمجر هيوستون ورفع كأسه:

- "ولا يمكنك قول المزيد، أليس كذلك؟"

- "للأسف لا."

قطع قطعة من لحم الضأن وسأل:

- "هل أشركك برادلي في الأمر؟"

- "نعم."

- "أنت مُصلِحه، يا سام. لذلك يضعك دائمًا في قلب الحدث."

أخفى سام امتعاضه برفع الكأس إلى فمه. كان يكره أن يسمع نفسه يوصف بـ"المُصلِح" لدى برادلي، لأنه كان كذلك فعلًا.

تدحرج أحد رجال الأعمال الصينيين من مقعده وسط نوبات ضحك زملائه الثملين، فقال هيوستون لتغيير الموضوع:

- "هل تشتاق لهذا المكان؟"

أجاب سام وهو ينظر إلى الرجل الذي يحاول التشبث بحافة الطاولة:

- "أشتاق فقط إلى وجهك البشوش يا ماكس."

بعد جولتين إضافيتين من الفودكا، وجولة أخرى من البوفيه، وكأس من الويسكي الاسكتلندي الكثيف الذي كان هيوستون يعتبره الختام الوحيد المناسب

لأي سهرة—اسمه لم يتذكره سام قط—أشار هيوستون بكأسه الفارغ نحو شاشة التلفاز فوق محطة تقطيع اللحم.

التفت سام فقرأ على شريط الأخبار في قناة CNN:

مقتل مسؤول أمريكي في دمشق.

ثم ظهرت الترجمة السفلية:

أعلنت مصادر أمنية رفيعة لشبكة CNN أن ڤاليري أوينز، دبلوماسية أمريكية، قد توفيت في دمشق. ولم تُصدر الحكومة السورية بيانًا رسميًا بعد.

***

أنهى سام أربع زجاجات من الويسكي المصغّر في ثلاجته الصغيرة، ووقف أمام نافذة غرفته يطل على شارع "الستريب" المضيء، على نوافير بيلاجيو، وعلى برج إيفل المصغّر، والجبال الغارقة في الظلال البعيدة.

كانت نوافير بيلاجيو البيضاء تندفع نحو السماء كألسنة لهب من الضوء.

لهذا غادرتَ، قال في نفسه. *هذه المدينة ترقص بلا اكتراث، بينما الحرب تدور في مكان آخر.*

تساءل عمّا كانت **مريم** ستظن بشأن هذا المكان، وشعر بوخزة حنين إلى فرنسا، قبل أن تختفي مريم مجددًا في دمشق، وقبل أن يرى تلك الصورة لـ **ڤال**.

فتح الزجاجة الخامسة وابتلعها بسرعة.

تسريبات الإعلام اللعينة. **ڤال** خدمت في الخفاء وكان من حقها أن تُدفن كذلك، لا أن يُنشر وجهها من ألبوم تخرّجها على الشاشات.

استلقى على السرير ينتظر النوم، لكن مكانه جاء شريطٌ ذهنيّ من صور **ڤال** وضحكتها المجنونة في بغداد.

وحين بزغ الصباح، أعد قهوته بصمت، يشاهد النافورة وقد خمد ضياؤها في فجر فيغاس الرمادي. أدار زجاجة "جاك دانيالز" الفارغة في يده.

تذكّر كلماتها الأخيرة:

"مشروب حين نعود إلى الوطن بعد أسابيع."

***

ماتت ڤال أوينز قبل المراسم السنوية لتكريم الرفاق، لذا وجد النقّاشون وقتًا لينحتوا النجم الرابع والثلاثين بعد المئة على جدار الرخام، على بُعد ست بوصات فقط من النجم الثالث والثلاثين بعد المئة.

الخطّاط الذي يدوّن الحصاد البشري في "كتاب الشرف" المجلّد بجلد الماعز، والمثبت في صندوق زجاجي بارز من الجدار، أضاف نجمة سوداء مماثلة، دون اسم.

فقد كانت **ڤال** تحت غطاء دبلوماسي وقت موتها، ودورها في الوكالة بقي سرًّا.

امتلأت بهو المقرّ الرئيسي بالضباط، والصحفيين المصرّح لهم، وعائلات القتلى، وكل من استطاع أن يندسّ في المكان.

لم يذكر المدير اسمها خلال المراسم.

الجماهير التي لا تملك بطاقات زرقاء أو تصاريح *سري للغاية* ازدحمت في القاعة.

وقف **سام** في الخلف، يتأمل الوجوه الجالسة. لمح في الصف الأول امرأةً بشعرٍ رماديّ أشعث تبكي بحرقة بينما يصف المدير فقدان "ضابط ميدان في إحدى دول الشرق الأوسط".

كانت أم فال، **جوانا**. فوالدها كان قد مات.

لم يفكر سام كثيرًا من قبل في ضباط الوكالة الذين قُتلوا أثناء الخدمة؛ فمعظمهم من قسم الأنشطة الخاصة، فرع العمليات البرية، يموتون في مناطق حرب أقرب إلى القتال منها إلى جمع المعلومات.

لكن هذه المرة كانت مختلفة.

نظر إلى النجم المنقوش وشعر وكأن **ڤال** قد مُحيت من الوجود، ولم يبقَ منها سوى أثر في الجدار.

انتهى المدير من كلمته الشاحبة، وبدأ الحضور بالمغادرة. شق سام طريقه بين الصفوف نحو جوانا أوينز.
كانت وجنتاها حمراوين وعيناها تائهتين بوجع أم فقدت وحيدتها.
عانقها بقوة وقال:
- "عرفتها في بغداد، كانت كأخت لي. أنا آسف جدًا."

بكت جوانا.
ابتعد قليلًا وهو يريد أن يقول إن الوكالة ستنتقم لابنتها، لكنه لم يعلم إن كانت تعلم أصلًا أن ابنتها قد قُتلت، أو إن كانت لانغلي ستسعى حقًا للثأر.

نظر في عينيها وقال مجددًا:
- "أنا آسف جدًا."

ثم ابتعد وهو يشعر بالذنب يخنقه، وشق طريقه عبر الزحام خارج القاعة.

***

سافر سام إلى دمشق بتذكرة "الدرجة الاقتصادية" التي اشترتها *إدارة الانتشار العالمي* بموجب لائحة الوكالة رقم ٤١-٢، والتي تنص على أن الرحلات التي تتجاوز **ثلاث عشرة ساعة** فقط هي التي تستحق مقعدًا في درجة أعلى.
جادل المسؤولة العجوز هناك قائلًا إن النوم في مقعد مريح سيجنّبه الإرهاق، لكنها لم تقتنع؛ فمدة الرحلة كانت **اثنتي عشرة ساعة وسبعًا وأربعين دقيقة**.

توقف في **فيينا** لأن "الخطوط النمساوية" من القلائل الذين ما زالوا يحطّون في دمشق.
كاد يغفو حين أعلن القبطان عن بدء الهبوط الحاد إلى مطار دمشق الدولي، وطلب من الركاب أن يتمسكوا جيدًا.
لم يشرح السبب، لكن سام علمه: كان الهبوط السريع لتقليل الارتفاع هدفه النجاة من أي صاروخ قد يطلقه المتمرّدون.

من نافذته رأى أعمدة الدخان تتصاعد من الضواحي المشتعلة، وامتداد البنايات الحجرية يغطي الصحراء.

كانت المدينة القديمة تتلألأ بمآذنها وبقعها الخضراء، جميلة من الجو، حتى كادت تنسيه الخطر الذي يترصّد **مريم** هناك، أو صرخة **ڤال** الأخيرة حين فرّ من دمشق في زيارته السابقة.

اصطكت العجلات بالأرض، وتحدّث القبطان بترحيب فاتر. نظر سام حوله، فلم يجد وجهًا واحدًا يبدو سعيدًا بالوصول.

***

نزل من الطائرة فوجد **المرافق القنصلي** في انتظاره عند البوابة، كما نصّت البرقية التي أكدت نقله الدائم إلى دمشق.
صافحه الرجل مسرعًا، واقتاده نحو الجوازات ثم إلى منطقة الأمتعة، حيث كانت **بروكتر** بانتظاره.
كانت ترتدي نظارات طيار وسترة زيتونية سميكة لا تلائم حرّ النهار.
وفي حضور الموظف المحلي، لم يتبادلا أي كلمة.

سحب سام حقيبته الوحيدة من بين أكوام الحقائب المتكدّسة على أرض المطار، فالسير الناقل كان معطلًا، والركاب يتزاحمون كلاجئين ينتظرون أكياس الطحين في بغداد.
مرّا بالجمارك بخفة، ثم خرجا إلى ضوء الشمس القاسي.

وكما يفعل جميع السائقين الماهرين في العالم العربي، كان المرافق قد ركن سيارته **بشكل مخالف**: لاند كروزر بيضاء أمام بوابة المطار مباشرة.
لوّحت بروكتر له لينصرف إلى سيارة أخرى، وأمسكت بالمقود بنفسها.
فتح سام الصندوق الخلفي ليلقي الحقيبة، فلاحظ وجود **مجرفة**، ثم سمع كلماتها الأولى:
– "اختطف المتمرّدون بعض عناصر الحرس الجمهوري هذا الصباح على طريق المطار، لذا أتيت لأحميك. لا أريدك ميتًا في يومك الأول."

بعد خمس دقائق وصلا إلى أول نقطة تفتيش. أظهرا جوازيهما الدبلوماسيين الأسودين فمرّا دون تفتيش.

قالت بروكتر وهي تقود:
– "سننتقل من الحرب إلى السلم خلال عشرين دقيقة تقريبًا."

راقب سام أشجار النخيل ولافتات الدعاية السياسية والمباني الرمادية التي بدت مهجورة منذ نهاية العالم.

أشارت بروكتر بيدها نحو الصحراء على جانبي الطريق قائلة:
– "المتمرّدون بدأوا يهاجمون الجنود والميليشيات هنا، أحيانًا يخطفونهم، وأحيانًا يرمون قاذفًا على السيارة هكذا، فششش!"

ثم لمّحت بيدها إلى الزجاج الأمامي وأضافت:
– "قبل أن تتجول في هذه المدينة، تصالح مع ربك."

مرّا بخمس نقاط تفتيش أخرى في ضاحية **جرمانا** المتوترة.
كلها مرّت بسلام، لكنها أبقت نبضه متسارعًا. قالت بروكتر بعد الخامسة وهي تغلق النافذة:
– "لا تدري متى يقرر أحد هؤلاء الصبية أن يتسلى بنا."

حلّقت ثلاث مروحيات هجومية فوق المنطقة، ورأى سام المباني المحطّمة والواجهات المهدّمة والسواد يغطي الجدران.
قالت بروكتر:
– "إنه مثل أفغانستان هناك، ولكن دون روح الدعابة."

وحين دخلا **وسط دمشق**، تغيّر المشهد.
المحال مفتوحة، المقاهي تعجّ بالناس، والمباني سليمة.
ركنت بروكتر السيارة فوق الرصيف قرب السفارة وقالت:
– "سأريك المكان."

تركا الحقيبة في الصندوق ودخلا من البوابة الغربية عبر أجهزة التفتيش وتحت نظر حرس المارينز.
قالت وهي تقوده عبر الردهات:
– "الطابق الثاني للدبلوماسيين الكبار: السفير، نائب رئيس البعثة، الأقسام

السياسية والاقتصادية. هناك قاعة آمنة نستخدمها أحيانًا. الثالث للمارينز والفنيين.
وهذا المكان الذي نتحصّن فيه لو صار الوضع مثل طهران عام ٧٩."

ثم أشارت إلى ممر متقشر الجدران مضاء بأنوار متقطعة، وقالت:
– "الطابق السفلي... هنا نحن. مرحبًا بك في محطة دمشق."

أدخلت الرمز، وفتح الباب المعدني الثقيل بصوت أزيز.
كان المكان صغيرًا، مضاءً بمصابيح باردة، يضم أقل من عشرة مكاتب فارغة تقريبًا، كما لو أن طاعونًا مرّ من هنا.
الكاميرات تراقب الممر، والأوراق تُفرم كل مساء، والأقراص الصلبة تُفكك وتُخزّن في خزائن معدنية.

قادته بروكتر إلى مكتبه، حيث يرفرف علم المعارضة وصورة بشار الأسد أمام فتحة التهوية.

أول ما لفت انتباهه في مكتبها **البندقية**.
كان قد سمع عنها من قبل: بندقية "موسبرغ" قتالية تستند إلى الحائط بجانب سلة المهملات، وإلى جانبها لافتة كتب عليها:
"اسحب في حال أزمة رهائن."

دخل المكتب الصغير الذي يشبه الزنزانة: بلا نافذة، ضيق، لا يضم سوى طاولة ومكتب صغير مغطى بأغلفة دهنية وفتات خبز.
خلعت بروكتر سترتها ورمتها أرضًا، وكان على ظهرها وشمٌ لسبع نجوم مصطفّة وكلمات:
"تكريمًا لهم."

ثم قالت، وهي تمسك قلمًا أحمر أمام اللوح الأبيض:
– "أريد أن نبدأ فورًا في خطة عملية أثينا."

تنهّد سام، وقد أنهكه السفر، لكن هذا كان أسلوبها دائمًا—
طاقة لا تنفد، كالأرنب الكهربائي.

حدّقت في الساعة، ثم أشارت إلى الباب قائلة:

- "حان وقت خروجي لأتأمل."



الفصل السابع عشر

وصل الملف الأسبوعي لمعلومات **الـSVR** [23]إلى مكتب **علي** يوم الأربعاء، كما يحدث كل أسبوع. كان ذلك أحد ثمار الاتفاق الذي عقد بين **الأسد** و**بوتين** مقابل الدعم الروسي ضد المتمردين. كانت المعلومات الجديدة الواردة من جهاز الاستخبارات الخارجية الروسي أفضل بكثير من الهراء الذي اعتاد الـSVR تقديمه قبل اندلاع الاضطرابات، في الأيام الوردية حين لم تكن **سوريا** قلب الحرب بالوكالة بين **واشنطن** و**موسكو**.

بينما كان **علي** يقلّب الأوراق، علم أن الأمريكيين – رغم الاعتقالات الأخيرة – قد جندوا مصدرًا جديدًا. قرأ تقريرًا مثيرًا للاهتمام بعنوان: **"شخصيات القصر الرئاسي السوري وديناميكيات القوة"**. كان التقرير دقيقًا جدًا.

وخُتم بفقرة قصيرة من إعداد قسم الشرق الأوسط في الـSVR، مكتوبة بعربية ركيكة:

"تفيد مصادر الـSVR أيضًا بوجود شائعات عن عميل جديد لوكالة الـCIA يحتل موقعًا رفيعًا في سوريا. حصل المصدر على المعلومات أثناء أحاديث غير رسمية. يتابع الـSVR الأمر لتقديم مزيد من التفاصيل."

لم يذكر الروس هوية مصدرهم، لكن **علي** افترض أن لديهم عميلًا داخل **الـCIA** أو **الموساد الإسرائيلي**، إذ احتوى المسح الرقمي للتقرير الأصلي الصادر عن

[23] **إس ڤي آر (SVR)** : اختصار لـ "خدمة المخابرات الخارجية" الروسية، وهي وكالة الاستخبارات الرئيسية في روسيا المسؤولة عن العمليات الخارجية.

الـCIA على شريط علوي كتب عليه: **TS//HCS//OC REL ISR**، وكانت الأخيرة تعني أنه مصرح بمشاركته مع الإسرائيليين.

اتصل **علي** بـ**كنعان** وطلب تقارير السفارة الأمريكية. فالمخابرات تراقب المبنى وتقدم تقارير يومية تسجل دخول وخروج كل أمريكي.

انتظر وهو يُنهي سيجارته، ثم اتصل بـ**ليلى** بلا سبب محدد.

كانت **ليلى** تشرح له أن الكهرباء مقطوعة – وهو أمر بات متكررًا حتى في حيّه الراقي – حين دخل **كنعان** ومعه الأوراق، فوضعها على المكتب. أنهى **علي** المكالمة ووعدها بالاتصال لاحقًا.

بدأ يقرأ. كانت هناك صور وتعليقات عن كل مسؤول أمريكي، وبعض الأسماء مصنّفة على أنها "يُشتبه بانتمائهم للـCIA" أو "مؤكد انتماؤهم للـCIA". تجاوز العدد عشرين اسمًا. ثم وقعت عيناه على اسم لم يعرفه من قبل: **السكرتير الثاني صامويل جوزيف**. لم يتعرف أيضًا على وجهه، لكنه شاهده في صورٍ باهتة وهو يدخل مبنى السفارة في الساعة السابعة وستٍ وخمسين دقيقة صباحًا، ويغادر في الحادية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقة – على الأرجح لتناول الغداء – ثم يعود بعد الظهر ويغادر عند السادسة وثمانٍ وأربعين دقيقة مساءً. كان التقرير يصنفه "يُشتبه بانتمائه للـCIA" ويشير إلى أنه في دمشق منذ يومين فقط.

استدعى **علي كنعان** وطلب منه أن يفتش في أقسام السجلات لدى مختلف أجهزة المخابرات لمعرفة أي شيء عن هذا الـ"صامويل". أغلق **علي** التقارير وتحول إلى كومة أوراق أخرى على مكتبه.

كان يرتدي الزي غير الرسمي لعناصر المخابرات السورية: قميصًا أبيض بسيطًا بأزرار، وبنطالًا أسود فضفاضًا، وحذاءً جلديًا أسود مهترئًا. مظهر باهت، عملي، ورخيص — زيّ محقق عالمي. كان الزران العلويان من قميصه مفتوحين بسبب الحرّ. *صيف آخر من الحرب قادم، وليس الأخير بالتأكيد.*

أدار كرسيه نحو النافذة وتطلع إلى السماء الشرقية، حيث كانت أشعة الشمس الضبابية تضيء ضواحي المدينة المتمردة. تصفح تقريرًا عن عمليات **الحرس**

الجمهوري في دوما؛ كان رجال **رستم** قد أغلقوا الحي بالكامل الليلة الماضية، ظنًّا منهم أنهم أخيرًا أحكموا سدّ الأنفاق الأخيرة. كانت الإستراتيجية واضحة: العقاب الجماعي. يحاصرون المنطقة المتمردة ويتركون أهلها يعانون حتى يكرهوا المتمردين الذين جرّوا عليهم بطش النظام، حتى ينقلبوا عليهم.

ثم وصل إلى الصور: ضحايا بأسماء، ومعلومات موجزة، وأسباب وفاة. بعض الصور لم تحتوِ سوى أجزاء من الجثث، أما البقية فربما ضاعت وسط الرصاص والمدافع والقنابل البدائية التي تُلقى – بلا دقة – من أسطول الطائرات السوفيتية العجوز. كان الجميع هزالًا، وكثير منهم أطفال. وضع التقرير جانبًا. تسلل ذهنه إلى أبنائه، ثم إلى حديثه مع **ليلى** حين بدأ كل شيء.

***

كان **أبريل ٢٠١١**، أول ربيع في **سوريا** الجديدة المتداعية، بعد أربعة أسابيع فقط من اندلاع الاحتجاجات. تركا التوأمين لدى والدة **ليلى**، وخرجا بسلة مليئة بالمقبلات والنبيذ السوري إلى مرتفع منعزل في **قاسيون** يطل على المدينة. شعر **علي** بالغضب في الهواء، وأدرك يومها أن كل شيء ينهار. قال ذلك لـ**ليلى**.

المخابرات تطلق النار على الأبرياء، والمظاهرات تتسع، والمجرمون والجهاديون يختبئون في الظلال، والاختطافات والتعذيب تزداد، والمتمردون يرسمون × بالطلاء الأحمر على أبواب **العلويين** علامة على الموت القادم. كانت الفوضى ما تزال جنينًا، لكنه رآها تنمو. كان يتتبع ملامحها ليفهم إن كان سينجو منها.

تحدثا طويلًا عن الخيارات – كما كان يفعل الجميع آنذاك – الرحيل، البقاء ودعم الرئيس، الانضمام إلى المتظاهرين، أو خفض الرأس وانتظار العاصفة.

كلها خيارات سيئة.

لكن القرار كان واضحًا: لا يملكان المال ولا النفوذ لاصطحاب العائلة الممتدة لو فرّا، وموقع **علي** في النظام يعني أن أي وجهة محتملة قد تعتبره مجرم حرب. كان

الرحيل حكمًا بالموت على أقاربه وربما عليه. أما الانشقاق فأسوأ، فالحكومة ستعتقل العائلة وتصادر الممتلكات وتعذب وتقتل بعضهم "لإعطاء درس".

سألته **ليلى** بعد كأسها الثالث من النبيذ:
"ما رأيك في **الأسد**؟ هل تؤيد الحكومة؟"

لم تكن قد سألته من قبل، ولم يسبق له أن أجاب.

قرر أن يقول الحقيقة، وهو يعلم أنه لن يكررها أبدًا:

"الأسد سيقتل من يعترض طريقه للخروج، ونحن جميعًا مربطون إلى عرشه. سيأخذ أرواحنا معه."

كان ذلك جوابًا كافيًا، لأنه ترك خيارًا واحدًا: البقاء والصمت.

شعر أنه جبان. وما زال يشعر بذلك.

***

دخل **كنعان** المكتب وهو يلوّح بملف في يده. وضع نسخة أمام **علي** وقال:
"وجدت شيئًا مثيرًا من أحد ضباطنا في باريس، اسمه **مهند البكري**. أحد الكتبة في السجلات يعرفه، مشهور بالإفراط في التوثيق. يكتب تقارير متابعة دورية عن طاقم السفارة هناك. وهم بالطبع يكرهونه."

"طبيعي."

"لكن في هذه المرة، دقّته المفرطة أفادتنا، لأنه كتب تقريرًا قبل أسابيع قليلة يذكر فيه هذا الـ **صامويل جوزيف**."

خفق قلب **علي** بشدة. أحس للحظة أنه محقق حقيقي، لا شريكًا في جريمة جماعية.

قال **كنعان**:
"يصف التقرير تفاعلًا بين **صامويل جوزيف** ومسؤولة من القصر الرئاسي تدعى **مريم حداد**."

قطّب **علي** حاجبيه وأشعل سيجارة.
"حداد؟"

"نعم، عائلة مسيحية دمشقية قديمة."

"الجميع يعرفهم. وماذا يقول التقرير؟"

"يبدو أن **مريم** و**صامويل** تحدثا في مناسبة دبلوماسية في باريس. حاول **البكري** تحذيرها من التحدث مع الأمريكيين، لكنها وبّخته. يصف اللقاء بأنه 'ودّي ودافئ وفيه إيحاءات عاطفية'."

ضحك **علي**:
"ربما وجدته دبلوماسيًا أمريكيًا جذابًا لا أكثر، وأرادت أن تملأ الوقت بالمحادثة. ولماذا لا توبّخ البكري؟ فهي من عائلة محترمة، ولها الحق أن تضع ضابط مخابرات صغيرًا عند حدّه."

أخرج **كنعان** صورة من حقيبته ودفعها نحوه.
"كما ترى، هي فعلاً جميلة... من السهل فهم سبب غيرة البكري."

نظر **علي** إلى صورة بطاقتها الشخصية. شعرها الطويل الداكن متشابك الأطراف كخيوط شعر **ليلى**.

"فلنتحدث إلى **مريم**."

"طبعًا، سأنسق ذلك يا سيدي."

رن هاتف المكتب قبل أن يخرج **كنعان**. للأسف، تعرف **علي** إلى الرقم فورًا.
"مرحبًا، أخي الكبير."

قال **رستم**: "أخي الصغير، لدي غرض غدًا، وأردت أن أسألك عن تفصيل في شهادة **مروان غزالي**."

عند سماع اسم الجاسوس الميت، شعر **علي** بثقل **رستم** من جديد فوق جسده في غرفة التحقيق. سعل.

"ما التفصيل؟"

"في أحد تقاريرك كتبت أن **غزالي** قال إنه زوّد الـCIA بقائمة موظفين من **مركز الدراسات والبحوث العلمية**، محتملين كـ'مصادر فرعية'[24] غير مدركين لذلك."

"صحيح."

"هل كان العقيد **داوود حداد** من ضمنهم؟"

"لا، لم يكن في القائمة."

أغلق **رستم** الخط دون كلمة.

وضع **علي** السماعة على المكتب. كان صداع نقص الكافيين قد تحوّل إلى ألم نابض، وكل ما أراده هو أن ينشغل في تحقيقٍ ما... أي شيء يبعده عن **رستم**، **باسل**، **مروان غزالي**، و**ڤاليري أوينز**.

صرف **كنعان** وطلب من مساعده الشاي، ثم اتكأ إلى الخلف وضغط بإبهاميه على صدغيه ليخفف الألم.

تساءل إن كان وصول **صامويل جوزيف** مرتبطًا بالمصدر الجديد للـCIA. فهو يعرف أن محطات الوكالة تغيّر موظفيها كثيرًا، وقد يكون مجرد تبديل روتيني. لكن... ماذا لو كانا مرتبطين؟

لم يكن يعلم بعد كيف تدخل **مريم** في الصورة، لكن شيئًا ما كان يهمس في أعماق عقله التحقيقي: *هناك خيط هنا... فككه.*

[24] **المصدر الفرعي (sub-source):** شخص يزود العميل أو المصدر الرئيسي بالمعلومات، دون أن يكون على اتصال مباشر بوكالة الاستخبارات نفسها.

الفصل الثامن عشر

اندفعت سيارة **رستم** المصفحة من طراز «ليكزس» مراوغة بين الحواجز الخرسانية خارج المطار، ثم انطلقت إلى مهبط الطائرات. كانت هناك عدة سيارات رسمية، من بينها سيارة **باسل**، مصطفّة على شكل مثلث قرب طائرة مقاتلة روسية الصنع من طراز *MiG-29*، كانت تتزود بالوقود على المدرج، وأضواء السيارات تسطع في ظلام الفجر الباكر. اقتربت شاحنة نقل ضخمة من بين السيارات والطائرة، فأشار **رستم** إلى سائقه أن يتوقف. كانت ناقلات الجند المصفحة تتموضع على أطراف المطار لتأمين محيطه، فيما كان مروحية تحوم في السماء.

نزل **رستم** من السيارة، وأومأ إلى **باسل**، ثم اتجه نحو العقيد **داوود حدّاد** وأحد فنّييه، وكانا يقفان عند مقدمة شاحنة «تويوتا» بيضاء بالية، فوقها حاسوب محمول. الطلاء المتقشّر على الباب كان يحمل علامة *SSRC*.

تبادل الرجال المصافحة بينما كانت شاحنة رفع القنابل تتقدّم باتجاه الطائرة.

قال **رستم** وهو يصافح العقيد:
"شكرًا لترتيب الفريق بهذه السرعة، أيها العقيد. المسألة شديدة الحساسية، ويسرّني أنك تشرف عليها بنفسك."

أجاب **داوود**:
"بالطبع، سيّدي القائد."

مرّت شاحنة الرفع بجانبهم، فلاحظ **رستم** نظرة **داوود** المتفحّصة للطلاء الأخضر على منتصف القنبلة، العلامة السوفييتية الدالّة على الذخائر الكيميائية. اقترب **باسل** من **داوود**، الذي ابتعد خطوة بابتسامة متحفظة.

قال **رستم**:

"سنحتاج إلى رجالكم لتحميل المكوّنات داخل هذه القنابل، وأحد فنيّيكم لتفسير نتائج الاختبار. لقد ثبّتنا حساسات في الموقع."

أومأ **داوود** وقال:

"لن نجري الاختبار في ميدان التجارب المعتاد؟"

هز **رستم** رأسه.

"لا. في مكان آخر اليوم. موقع جديد."

جمع **داوود** فريقه وشرح لهم التعليمات. حملت الرافعة البراميل إلى جانب شاحنة الرفع، وكان المشغّل قد فتح حجرات الذخيرة، فبدأ الفريق بتعبئتها بعناية، يقيسون تدفّق كل مكوّن عبر حساسات مربوطة بأنابيب مطاطية مفرغة من الهواء. بعد خمس عشرة دقيقة، رفع **داوود** إبهامه علامة النجاح، بينما كانت شاحنة الرفع تنسحب مبتعدة عن الطائرة. كان الطيّار في قمرة القيادة يجري فحوصاته الأخيرة قبل الإقلاع.

قال أحد المساعدين لـ **رستم**:

"الرياح خفيفة جدًّا في الموقع، سيّدي القائد."

فأومأ **رستم** وقال:

"حمّل داوود وفريقه معنا، لننطلق."

***

بعد ثلاثين دقيقة، كانت قافلة **رستم** – مؤلفة من سيارته الرسمية وثلاث عربات من الحرس الجمهوري وناقلتي جند مصفحتين – قد توقفت على مرتفع يطلّ على قرية **إفرة** ، جنوب دمشق. بدت القرية على تلّ مقابل، تجمعًا من الأكواخ الحجرية تقطعه طريق وحيدة، ومسجد عند طرفه الجنوبي. رأى **رستم** أضواء الطائرة القاذفة تظهر شمال القرية في الأفق. كان الليل لا يزال مخيّمًا، والنور الوحيد في **إفرة** يتصاعد من كوخ صغير تشتعل نار على سطحه.

لم يكن **رستم** راغبًا في إشراك مسؤول آخر من *SSRC* في سرّه، لكنه احتاج إلى خبرة فرع ٤٥٠ في هذا اليوم، والعقيد **داوود حدّاد** كان معروفًا بولائه.

ركل **رستم** الحصى بحذائه، وترجّل من السيارة ليتمدد قليلًا.
"أحضروا حدّاد إليّ."

أسرع العقيد نحوه.
"سيّدي القائد؟"

فرش القبطان خريطة على مقدمة الـ«ليكزس»، كانت مرقطة بنقاط حمراء.
قال **رستم**:
"وضعنا حساسات في نمط شبكي في أرجاء القرية، وبعضها في شبكة الأنفاق القديمة التي استخدمها الإرهابيون. نريد أن نرى مدى انتشارها تحت الأرض. أخبرني الآن، أين نسقط القنابل؟"

راح **داوود** يحكّ مؤخرة عنقه، ينقل نظره بين الخريطة والقرية، وسأل أحد فنّييه عن اتجاه الرياح وسرعتها. ثم أشار إلى نقطة على الخريطة تبعد بضع مئات من الأمتار جنوب القرية.
"مع هذه الرياح الجنوبية الخفيفة، أنصح بإسقاط الذخائر هنا. ستحملها الرياح فوق القرية."

أومأ **رستم** وناول مساعده جهاز الاتصال اللاسلكي. كانت الطائرة تحلّق الآن فوقهم. ضغط الزرّ وقرأ الإحداثيات من الخريطة.

دوت الانفجارات في بستان زيتون عند الطرف الجنوبي للتلّ. ارتفعت أربع أعمدة من الدخان إلى السماء، ثم اندمجت لتكوّن سحابة واحدة ابتلعت قرية **إفرة**. كانت البلدة خالية وصامتة. راقب **رستم** المشهد من خلال منظار، مركّزًا نظره على بيت واحد عند ظل المسجد.

كان بعض الرجال يلعبون الورق فوق المدرّعات، بينما وقف **داوود** مع الفني يحدّقان في شاشة الحاسوب. جال أحد الضباط بين المركبات يعرض سجائر. بعض

الجنود غفا في مقاعد ناقلات الجند الممزقة. كان **باسل** يشحذ عصًا بسكينه، محدّقًا في المنزل ذاته. لقد أشرف بنفسه على عملية إخلاء القرية، وكانت دموية.

قال **رستم**:
"ينبغي أن نأخذ حدّاد معنا."

أومأ **باسل** دون أن يرفع عينيه عن البيت.

تبدّد الدخان مع طلوع الشمس.

بعد عشرين دقيقة، اقترب **رستم** من **داوود** والفني ليسأل عن التقرير الأوّلي.
كان يعرف أن غاز *السارين* يبلغ أشد فتكه حين يُستنشق على شكل رذاذ.
الحساسات التي أمر بنصبها في **إفرة** كانت تراقب مدى بقاء الغاز في الهواء ونطاق تلوثه. في بعض مناطق الاختبار سيكون التركيز كافيًا لإبادة الجميع، وفي أخرى سيسبب المرض فحسب.

قال **داوود** بصوت متوتر:
"الانتشار ممتاز، سيّدي القائد. أرى مستويات قاتلة في معظم القطاعات، باستثناء صف الحساسات في الطرف الشمالي، حيث التركيز يسبب أعراضًا شديدة، لا مميتة. كانت الرياح ساكنة، مما ساعد على تركّز الغاز."
كان يعلم في قرارة نفسه أن هناك ما ليس على ما يرام.

وضع **رستم** يده على كتف **داوود**. حان الوقت.
"ما رأيك أن نتفقد البلدة يا عقيد؟ بعض رجالي لم يروها منذ عملية التطهير، ويتشوقون للعودة."
ابتسم له.

سأل **داوود**:
"لتجميع الحساسات، سيّدي القائد؟"

ضحك **باسل** ضحكة جافة.

***

كان كل أثر للسارين قد تلاشى – كما شرح **داوود** مرتين بإلحاح، مما أزعج **رستم** – لكن القائد كان يكنّ احترامًا عميقًا لذلك الغاز، فأمر المجموعة الصغيرة بارتداء بزّاتهم الواقية. دخلوا أول بيت في القرية. كانت الكراسي البلاستيكية مقلوبة قرب موقد الحطب، وأغلفة الرصاص الفارغ متناثرة قرب النافذة. بضع قطع من الثياب – قميص أبيض، حذاء طفل صغير، كوفيّة، صدريات مموّهة – كانت مرمية هنا وهناك، ترسم خريطة التحوّل من منزل إلى معقل للمتمردين.

رأى **رستم** فتحة خشبية في الأرضية، كانت مسمّرة من الخارج. أشار لرجاله أن يفتحوه. أخذوا يعملون عليه بالعتلات والسكاكين حتى اقتلعوه. رماه أحد الضباط جانبًا ونزل في الظلام عبر سلّم خشبي، تبعه **باسل**.

ابتسم **رستم** من وراء قناعٍ يتصاعد عليه البخار، وربّت على كتف **داوود** الشاحب.

"دورك يا عقيد."

نظر **داوود** نحو الباب، ثم إلى حذاء الطفل الصغير، وأومأ بخضوع، نازلًا السلم ببطء. تبعه **رستم**، وعيناه تتأقلمان مع العتمة في القبو، على عمق عشرين قدمًا تحت الكوخ.

كان **داوود** يواجه الجدار، قناعه على الأرض، جسده منحنيًا يتقيأ جفافًا.

ربت **رستم** على ظهره وقال ساخرًا:

"كأنك رسامٌ أعمى، يرى عمله للمرة الأولى. ما رأيك؟"

سلّط **باسل** ضوء مصباحه على الجثث، ثم ثبّت الشعاع على رجل في السبعين. رأى **رستم** الزبد حول فمه والاحمرار حول عينيه. ربت على وجنتيه ببلادة. ثم تقدّم **باسل** في النفق نحو فتى مراهق.

"هذا حاول أن يعضّ يديه كي يفلت، سيّدي القائد."

سأل **رستم**:

"هل ماتوا جميعًا؟"

"يبدو كذلك."

أمسك **رستم** كتف **داوود** وأشار أمامه نحو صف الجثث الممتد – كانوا سبعةً وخمسين جسدًا، أحصوهم بعد عملية التطهير.

"كانوا سيفعلون بنا الشيء نفسه لو أُتيح لهم، حتى النساء. لا تنسَ ذلك، أيها العقيد."

حدّق **داوود** في الممر الطويل بلا كلمة.

قال **رستم** بصوت خافت:

"أعتمد على كتمانك. أنت جندي مخلص."

سار معه أعمق في النفق حتى توقّفا عند جثة فتاة صغيرة، عيناها مغمضتان وفمها مفتوح.

قال بابتسامة باهتة:

"حتى ابنتك، لو كانت هنا، ما كانت لتعرف متى تصمت."

الفصل التاسع عشر

في عطلة نهاية الأسبوع الأولى له في **دمشق**، تجوّل **سام** في أحياء المدينة القديمة ليرى المعالم السياحية المعتادة: *الجامع الأموي*، *سوق الحميدية*، *شارع شهير يسمى الشارع المستقيم*، *كنيسة حنانيا*، وغيرها من المواقع التي يزورها السياح عادة. التقط الصور، واشترى تذكارات وحُليًّا تحمل صورة **الأسد** ليهديها لإخوته. ابتسم بغباء عند نقاط التفتيش، وهو يسلّم جوازه الدبلوماسي الأسود ويشرح، بلهجة ودودة، كم هو ممتن لوجوده في دمشق. بقي في قلب المدينة، وسلوكه بدا طبيعيًا تمامًا لأي دبلوماسي أمريكي جديد. وهكذا كان.

لكن هذه الجولات لم تكن سوى تمهيد لسلسلة من إجراءات المراقبة المضادّة *SDRs*التي خطط لها منذ مغادرته فرنسا. كان يتفحص وجود المراقبة الثابتة، والكاميرات، ويرسم في ذهنه تضاريس المدينة وإيقاعها. كان يشعر بأن العيون تلاحقه في كل مكان.

جلس يشرب القهوة المرة في مقهى متهالك في **كفر سوسة** بينما ارتفع صوت الأذان من مكبرات المساجد. وعندما انتهت الصلاة، خرج متوجهًا نحو متجر مجوهرات كان ينوي شراء هدية لوالدته منه. في طريقه مرّ أمام مبنى كُتب عليه: **الجمهورية العربية السورية – وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي**.

تابع سيره إلى أن لمح مبنى آخر تطل نوافذه على الشارع. سجّل العنوان ورقم الهاتف لشركة التأجير، كما لاحظ رجل المخابرات الذي كان يلاحقه بسيارته ملتصقًا بمؤخرته. أكمل سيره حتى وصل إلى متجر المجوهرات، حيث أمضى ساعة يتفقد المعروضات: فضة، ذهب منقوش، وأم اللؤلؤ. اختار في النهاية خاتمًا فضيًا كبيرًا، مصنوعًا في **حلب**، على شكل زهرة.

أما رجل المخابرات المسكين الذي كان يراقبه من الخارج، فقد بدا عليه الملل الشديد من مهمة المراقبة تلك.

***

كان **البانديتوز** أيضًا قد وصلوا إلى دمشق.

في دوره كضابط اتصالات في السفارة الأمريكية (السكرتير الثاني)، اتصل **سام** بـ **رامي** من مكتبه، وسأله إن كان هو وإخوته مستعدين للحديث مع السفير حول بيئة الأعمال في سوريا.
قال له:
"نقدّر وجهة نظركم حول الاقتصاد، نظرًا لحجم مصالحكم التجارية الواسعة".

أجرى الإخوة المكالمات اللازمة للحصول على الموافقات لعقد الاجتماع في السفارة الأمريكية: وزارة الداخلية، الاستخبارات العسكرية، المخابرات العامة، الأمن السياسي، مخابرات القوات الجوية، وحتى القصر الجمهوري. وجميعهم وافقوا.
أرسلت الاستخبارات العسكرية عبر الفاكس نقاط الحديث المقترحة لاستخدامها مع الأمريكيين، لكن **رامي** مزّقها دون تردد.

استقبل **سام** الإخوة عند مدخل السفارة، وقادهم عبر ممرات المبنى إلى داخل منشأة الاتصالات المؤمنة *SCIF*[25] التابعة لوزارة الخارجية في الطابق العلوي.

لكنهم لم يلتقوا بالسفير، بل جلسوا مع **سام** و**بروكتر** لساعتين كاملتين.
ناقشوا كل شيء: تجهيز بيت آمن، ترتيبات إعادة فتح فيلتهم الدمشقية، وخلق مبرّر تجاري لعودتهم إلى البلاد.

---

[25] **(SCIF – Sensitive Compartmented Information Facility)** : اختصار لـ "مرفق المعلومات الحساسة والمجزأة"، وهي غرفة أو منطقة مؤمَّنة بالكامل وعازلة للتنصت، تُستخدم حصراً لمناقشة معلومات استخباراتية شديدة السرية.

قال **يوسف** وهو يعبث بقطعة همبرغر من مقصف السفارة:

"يا جماعة، لا أحد سيسأل أي سؤال طالما ندفع المبالغ المطلوبة. هناك قائمة طويلة من الرشاوى، لكن بعد دفعها لن يهمهم سبب عودتنا. هناك الكثير من أبناء النظام يقضون وقتهم في بيروت مثلنا".

كان من المقرر أن تضخ وكالة المخابرات المركزية نصف مليون دولار في حساب أمانات **الបانديتوز** لتغطية النفقات الأولية. دفع **سام** بورقة فيها عنوان المبنى الذي كان قد استطلع موقعه، نحو **يوسف**، الذي قرأها وأعادها له.

قال **يوسف**:

"سنتكفل بالأمر".

أضاف **سام**:

"لكننا ما زلنا بحاجة إلى المحاسبة التفصيلية العليا، كما في السابق".

كان هذا موضوعًا محرجًا دائمًا، إذ كانت إدارة التمويل أحيانًا تدقق في الحسابات العملياتية وتطرح أسئلة فضولية.

ضحك **إلياس** وقال:

"كان يجب أن نعمل مع الـDGSE، الفرنسيون لا يسألون عن الأوراق أصلًا".

قال **سام** وهو يبتسم:

"فقط لا تكتبوا الرشاوى على الورق".

***

ذهب جزء من أموال **البانديتوز** لتأمين بيت آمن جديد (صنف تمويلي في سجلات الوكالة: *السكن*). تولّى **رامي**، باسم شركة وهمية، دفع إيجار ستة أشهر لمكتب ضيق في الطابق التاسع. كان **سام** قد حدد الموقع المطلوب بدقة، بما في ذلك زاوية الرؤية، لكنه لم يذكر الهدف بعد.

استغرقت عملية المراقبة المضادّة للموقع الجديد عشر ساعات كاملة. استقبله **رامي** عند الباب بابتسامة وقال مازحًا:
"بدأنا نظن أنك لن تأتي. تركنا لك شاورما باردة".

كان المكتب تحفة من الرتابة البيروقراطية: مكاتب من خشب مضغوط، كراسٍ جلدية رخيصة، هواتف مكتبية مفصولة من نوع *Avaya*، وسجّاد رمادي باهت. مكان يمكن أن يوجد في أي مدينة في العالم. لكنه كان في **كفر سوسة**، على بُعد شارع واحد من **مكتب الأمن**.

أراه **يوسف** الغرفتين الضيقتين، ثم قاده إلى قاعة الاجتماعات. رائحة مواد التنظيف والطلاء الجديد ملأت الهواء، وضوء مصباح فلوري يطنّ فوقهم. أرهق الضوء عيني **سام**.

قال **رامي**:
"الإنترنت والهواتف سيتصلان يوم الثلاثاء".

أجابه **سام**:
"جيد. سأرسل أحدهم لفحص المكان الأربعاء".
كان فنّي من المحطة قد زارهم بالأمس للفحص الأوّلي.

سكب **سام** لنفسه كأسًا من النبيذ الأبيض الفاتر، وفتح لفافة الشاورما التي تشبّعت بالزيت حتى صارت شبه شفافة. جلسوا حول الطاولة. أعاد **إلياس** ملء كأسه وربّت على كتف **سام** وهو يمر خلفه.

قال دون حماس:
"من الجيد أن نكون في دمشق من جديد".

رفع **سام** كأسه وقال:
"إلى عملنا معًا".

قال **يوسف**:
"وإلى أن نخرج جميعًا من هذه الحرب أحياء ونشيخ بسلام".

تصافحت الكؤوس وشربوا.

قال **سام** بعد لحظة صمت:
"دعونا نتحدث عن المشهد".
كان يعلم أن لديه نحو خمس عشرة دقيقة فقط.

نهض **إلياس** وأشار نحو الغرفتين. تبعه **سام** وإخوته. دخل **إلياس** و**سام** الغرفة الأقرب إلى قاعة الاجتماعات. النافذة المربعة في منتصف الجدار كانت تمنحهم خط رؤية مباشر إلى المدخل الرئيسي لـ **مكتب الأمن**.

قال **إلياس** وهو يشرح:
"يبدو أن له مدخلين فقط. هذا، وآخر أصغر في الجهة الغربية. كان المبنى تابعًا لوزارة الزراعة سابقًا. لكن واضح أنه لم يعد كذلك".

كان المدخل يبعد حوالي مئتي ياردة في نهاية الشارع. رأى **سام** المتاريس الخرسانية وكوخ الحراسة والبوابة المعدنية اليدوية التشغيل. ثلاثة حراس يحملون بنادق *AK-47* يقفون متكاسلين أمامها. وخلفهم جدار إسمنتي يحيط بالمبنى بأكمله.

نظر **سام** إلى الشارع أسفلهم. السيارات مصطفة فوق الأرصفة، ورجال المخابرات ينسابون بينها متجهين إلى البوابة، يبرزون بطاقاتهم قبل دخولهم الساحة الداخلية. تابع بعينيه حركة السيارات والضباط وهم يتبادلون المواقع، ورأى أحدهم يصطدم بصندوق سيارة وهو يمرّ بجانبه.

عادوا إلى قاعة الاجتماعات وجلسوا مجددًا. أخرج **سام** صورة **علي** من جيب حقيبته ووضعها على الطاولة. خطر له أنه اعتاد عادةً التخطيط لتجنيد المسؤولين الأجانب، لا لقتلهم. لكن قرار العملية السرّية القاضية بتصفية **علي حسن** غيّر كل شيء.

قال بهدوء:
"هذه المسألة تبقى في هذه الغرفة فقط، لا وسطاء. أحتاج منكم مراقبة هذا الرجل –

اللواء **علي حسن** –وتسجيل أوقات دخوله وخروجه من المبنى، كالعادة. صور ممهورة بالوقت، والممرّ الذي يسلكه عند القدوم والمغادرة".

سأل **رامي** وهو ينظر إلى الصورة:
"من هذا؟"

"يدير مكتب الأمن التابع للقصر. رجل خطير".

"أتريدنا أن نتابعه في الشارع أيضًا؟"

"ليس بعد. الآن فقط من هذا المكتب".

ابتسم **إلياس** وهو يراقب **سام** يفكر في الخطط.
"ليتني أعرف ما الذي يدور في رأسك الآن، يا رجل".

قال **سام** بابتسامة غامضة:
"صدقني، لا تريد أن تعرف".

الفصل العشرون

كانت وحدة الذاكرة USB الصغيرة المغروسة في حذاء **سام** الرياضي قد وصلت ضمن حقيبة دبلوماسية برتقالية. صُممت تلك الوحدة في مديرية العلوم والتقنية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بتكلفة باهظة على دافعي الضرائب الأمريكيين، وكانت تحتوي على خمسين تيرابايت من السعة التخزينية، وتحمل برنامجًا خبيثًا قادرًا على نسخ محتويات أي حاسوب خلال عشر ثوانٍ فقط. لم يكن ذلك زمنًا طويلًا، لكنه سيبدو كالأبدية بالنسبة إلى **مريم**. لقد وافقت على الفكرة في فرنسا، وكان كلاهما يعرف أنها جزء من الصفقة؛ لقد تعاقدت مع الـCIA، غير أن **سام** كان يشعر بالاشمئزاز رغم ذلك، فمشاعره نحوها أرهقته وجعلته أقل شبهًا بضابط استخبارات وأكثر شبهًا بعاشق يستغل حبيبته.

وخزته وحدة الذاكرة في كعبه بينما كان يركض متجاوزًا مطعمًا صاعدًا نحو إحدى شرفات **قاسيون**.

توقف وتمطّى قليلًا، مستغلًا الفرصة ليتأكد من عدم وجود مراقبة أثناء تأمل المشهد. كانت الأمسية لطيفة بالنسبة لصيف دمشق، والنسيم الخفيف يحرّك أشجار الصنوبر، فيما كانت أنوار وسط المدينة تشتعل استعدادًا لليلٍ جديد، في حين بقيت الضواحي غارقة في العتمة.

في بداية جولته، قرب شقته، كان أحد عناصر المخابرات قد التصق بسيارته كالظل. أزعجه الأمر بشدة، إذ لا شيء أكثر إزعاجًا من أن يلاحقك أحد باستمرار. أما الآن، وقد اقترب من موقع الإخفاء، فكان يغشاه سواد داخلي ثقيل.

***

قال **علي** وهو يصرف فريق المراقبة:
"كم مرة يتمرن صامويل جوزيف عادة؟"

أجابه **كنعان**:
"مرتين، وربما ثلاث مرات أسبوعيًّا، يبدو طبيعيًّا جدًا في ذلك."

حدّق **علي** في الخريطة أمامه. كان الفريق الوحيد قد تتبّعه ساعة كاملة وهو يركض في أرجاء دمشق. مضيعة للوقت. أشعل سيجارة، يتساءل إن كان "صامويل" طريقًا مسدودًا.
ثم عاد ذاك الهمس القديم في رأسه –ذلك الذي قاده منذ سنوات للإيقاع بذلك القاتل المتسلسل *سفاح الساحل*– وقال له من جديد: *لا، تمسّك بهذا الأمريكي.*
سحب نَفَسًا طويلًا من سيجارته، أطفأها في المنفضة، واتصل بـ**ليلى** ليطمئن على صوتها.

***

كان **سام** يشعر بالعزلة. راقب محيطه والتلال من حوله دون أن يحرّك رأسه. لا شيء. الطريق أمامه صاعدٌ بحدة ثم ينعطف يمينًا. بدأ بالركض صعودًا. كانت ساقاه ورئتاه تشتعلان. العرق البارد ينساب على جبينه.
وحين انبسط المسار أخيرًا، خرج من بين الأشجار ورأى الجدار الحجري الذي سيكون موقع الإخفاء على بعد عشرين ياردة. بدا مطابقًا تمامًا للصورة التي عرضتها عليه **بروكتر** في فرنسا.

أسرع نحو المكان، وألقى نظرة خلفه ليتأكد أنه ما زال وحيدًا. اقترب من كومة قمامة، وعينه على العلبة المعدنية غير الموسومة. انحنى، رفع الغطاء، أخرج وحدة الذاكرة من حذائه ووضعها داخل العلبة.
شدّ رباط حذائه من جديد، ثم تابع الركض نزولًا في المسار.

***

أما **مريم**، فقد صحبتها الرهبة منذ مغادرتها فرنسا.
نامت إلى جوارها في السرير، ورأتها في عيني **رزان**، وشعرت بوخزها في عنقها كلما

تجوّلت ـفي أزقّة المدينة القديمة. كانت تنتظر المخابرات، تنتظر عودة قتَلة **جميل عطية**. طبّقت ما علّمها **سام** ـفي "نيس" لتراقب المراقبين، وحملت ـفي حقيبتها سكين صيد، تمارس أمام المرآة كيف تستلّه وتغرزُه وتقطعُ العنق والصدر والوجه.

ومع ذلك، أحست بخفةٍ تعود إلى صدرها، لأنها اختارت جانبًا ـفي المعركة واستعادت السيطرة على مصيرها. الخوف، على نحوٍ غريب، صار دليلًا على صواب قرارها بالتجسس.

لقد وضعتها مهنتها ـفي مواجهة حكومةٍ قاتلة، ومع ذلك ظلّ الخوف مقيمًا لأن العدو ما زال واقفًا. لم تنتصر بعد، وربما لن تنتصر أبدًا.

الآن، ـفي مكتبها، فركت **مريم** كفّيها المتعرقتين ـفي قماش الأريكة، وتفقدت وجهها لتتأكد أنها لا تتصبب عرقًا، ثم دسّت وحدة الذاكرة ـفي جيب ملفّها الخاص، أغلقته، ووضعت فوقه ملف **بثينة**. نظرت إلى الساعة: دقيقتان على الموعد.

خرجت إلى الممر متجهة نحو مكتب **بثينة** بخطوات محسوبة لا سريعة ولا مترددة. لاحظت أن يديها ثابتتان، لكن قلبها كان يخفق كطبل حرب.

طلبت الاجتماع مساءً، ـفي الوقت الذي اعتادت فيه **بثينة** استقبال مكالمات **رستم**. أحيانًا لأسباب عمل، وأحيانًا لأسباب أكثر حميمية، لكنها دائمًا كانت مكالماتٍ تُلهيها بضع دقائق.

وفي مرات كانت تطرد **مريم** من المكتب، وأحيانًا تلجأ إلى حمّامها الفخم لتتحدث هناك، وأحيانًا نادرة تبقى وتكمل المكالمة أمامها. كانت **مريم** تأمل أن لا تكون تلك الليلة من هذه المرات الأخيرة.

لوّحت **بثينة** لمريم بالدخول، فجلست أمامها. ارتدت نظارتها ذات الإطار السلحفاتي من "شانيل" وجلست إلى الطاولة. دفعت **مريم** الملف الأعلى نحوها وبدأت بعرض آخر التقارير حول الانقسامات ـفي المجلس الوطني، وهي أخبار تافهة لكنها ممتعة لأذواق **بثينة** التدميرية.

قالت بابتسامة:

"يبدو أننا لسنا بحاجة ليفعلوا شيئًا يا مريم، فهم يدمرون أنفسهم بأنفسهم."

ما إن أنهت **مريم** كلامها حتى رنّ هاتف **بثينة**.
كان التغير الطفيف في نبرة صوتها كافيًا لتعرف أن المتصل هو **رستم**.
استأذنت وغادرت إلى الحمّام، وأغلقت الباب خلفها.

وقفت **مريم** بجانب الطاولة، وعالمها كله انحصر في وحدة الذاكرة تلك وقطرة العرق التي انزلقت على ظهرها.
تذكّرت ما قاله لها **سام** في "إيز":
"العملية نفسها قصيرة، يا مريم. الإعداد وحده هو الصعب. فريق العلوم والتقنية يعملون على هذه الأدوات لسنوات، تكلف الملايين، وراءها عشرات الأشخاص من محللين وتقنيين ومشغّلين، وكل شيء يعتمد على شخصٍ مثلك يملك الشجاعة ليضع هذه القطعة في حاسوبٍ محظور. عشر ثوانٍ فقط، لكنها تساوي العالم بأسره."

أخرجت وحدة الذاكرة من ملفها، ورفعت ملف **بثينة**. جلست عند المكتب، وضعت أوراقًا فوق الطاولة كذريعة لتبدو كأنها تهمّ بتركها للقراءة لاحقًا.
فتحت الغطاء البلاستيكي، وتأملت الجهاز الصغير كأن الزمن توقّف.
ضميرها يتصارع مع الحقائق التي تنكشف أمامها.
لقد خنتُ وطني... لكن هل الأمر كذلك فعلًا؟
ربما الآن وقت التراجع... أحطمها وأرميها في القمامة.

لكن عقلها لم يمنح تلك الأفكار فرصة الاكتمال، إذ أدخلت وحدة الذاكرة في الحاسوب، وجلست، وبدأت بترتيب الأوراق.

وفي تلك اللحظة، انفتح الباب فجأة، ودخل **جميل عطية**.

الفصل الحادي والعشرون

سخن جلد **مريم** كأنها دارت فوق نار، لكنها لم تقل شيئًا، بل نظرت إلى **جميل عطية** وابتسمت ابتسامة واسعة ناصعة البياض.

تجمّدت نظرات **عطية** عليها، ثم انزلقت إلى المكتب، قبل أن يمسح بعينيه الغرفة باحثًا عن **بثينة**. ومن حافة رؤيتها الضبابية، التقطت **مريم** وميض وحدة الذاكرة وهي تومض باللون الأخضر، لكنها لم تستطع انتزاعها من الحاسوب بينما هو يراقبها. ابتسم ابتسامة تهديد، ونقر لسانه بأسى مصطنع، ثم دخل المكتب وأغلق الباب خلفه.

قال ساخرًا:
"تألفتِ على مقعد المديرة يا مريم؟"

أجابته بهدوء مصطنع:
"كنت فقط أرتّب بعض الوثائق."

منذ حادثة **فيلفرانش** وظلال **عطية** تلقي رعبها على حياتها. كانت تظن أنه أرادها قربانًا في صراعه مع **بثينة** على رضا القصر، لكنها لم تفهم يومًا سبب استهدافه لها تحديدًا. والآن، في دمشق، عاشت مترقبة، ترقب الزوايا، تنتظر تلك القشعريرة التي تعلن اقتراب رجاله. ولم يأتِ شيء. وكما قال **سام**: ذلك هو الجنون بعينه، ألا تكون متأكدًا أبدًا. فالسكينة نفسها قد تكون فخًا.

كان أصلعَ قويَّ البنية، غير أن وجهه وشاربه قد تراخيا مثل شمعٍ ذائب.
قالت **بثينة** يومًا مفسّرة:

"تبدو ملامحه هكذا من كثرة الجنس. لا يمكنك أن تضاجع مراهقات في الثالثة عشرة وتبقى وجهًا مقبولًا."

الآن كان ينظر إلى باب الحمّام، حيث كانت **بثينة** تتحدث عبر الهاتف بنبرة هامسة متكسّرة تنضح بالحميمية. تسللت الهمهمات من تحت الباب، وارتسمت على وجهه ابتسامة شامتة.

قال بنبرة آمرة:
"هل يمكنك استدعاؤها؟ أحتاجها في مكتبي الآن."

ترددت **مريم**. لم يكن بوسعها نزع وحدة الذاكرة بينما يراقبها، ولا أن تعصيه. لكن لو ذهبت **بثينة** فعلًا إلى مكتبه، فقد تحظى **مريم** بفرصة لالتقاط الوحدة والانصراف. كانت حرارة جسدها تتصاعد كسيلٍ يجري في عمودها الفقري، حمدت الله أنها ترتدي ثوبًا أسود، بينما رؤيتها تغشى بضباب خفيف، غير أنها أدركت أنها تبتسم بهدوء وتتحرك بسلاسة تامة.

طرقت الباب قائلة:
"بثينة، جميل عطية هنا لأجلك، يقول إن الأمر عاجل."

طرقت ثانية، بقوة أكبر.
توقفت الهمسات، وسمعت صوتًا متوترًا يختم المكالمة.
انفتح الباب، وظهرت **بثينة** بخدّين محمرّين وعينين متوحشتين.

قالت من بين أسنانها:
"جميل، لأي شرف أستحق هذه الزيارة؟"

كان **عطية** يبتسم ابتسامة ساخرة، وعيناه تتجاوزانها نحو داخل الحمّام.
قال ببرود:
"مكتبي. الآن."

رمق **مريم** بابتسامة خبيثة، ثم استدار وغادر.
تحركت **بثينة** بجنون صامت نحو مكتبها تبحث عن شيء ما. لامست يدها اليمنى

وحدة الذاكرة، فسمعت **مريم** نفسها تقول دون وعي:
"هل يمكنني المساعدة، بثينة؟"

لم تكن متأكدة أكانت ما تزال واقفة أم لا، لكنها لاحظت أنها ما زالت تبتسم كموظفة مطيعة.

قالت **بثينة** وهي تحدّق بالحاسوب:
"لا حاجة الآن. سأتعامل أنا مع الأمر."

عثرت على الملف الذي أرادته، وغادرت الغرفة مسرعة.

لن تتذكّر **مريم** لاحقاً تسلسل تلك الدقائق وهي تعود إلى بيتها في تلك الليلة.
بقيت منها شذرات:
وقوفها فوق مكتب **بثينة** وانتزاعها وحدة الذاكرة، مكتبها الخاص وهي تدسّ الملف في حقيبتها، السماء المظلمة فوق المدينة وهي تمشي، أصوات القذائف البعيدة كأنها تمهّد لخيانتها، وسقوطها على السرير بثوبها المبلل بالعرق.

ومن بين كل تلك الدفقات من الأدرينالين، طغا عليها إحساس واحد: صدرها صار خفيفاً، بلا ثقل، بلا يد تضغط عليه كما كانت منذ صباها.
لكن يا إلهي، أيٌّ رعبٍ هذا.

***

بعد أيام، ظلت وحدة الذاكرة الصغيرة تشعّ كأنها مادة مشعة.
كانت **مريم** تريد التخلص منها.
فأخفتها في قاع مزهرية بغرفتها، وأرسلت عبر القناة السرية طلب لقاءٍ مباشر في الموقع الذي راجعته مع **سام** في *إيز*.
ترددت في أن تترك الوحدة في موقع الإخفاء الدائم، لكنها خشيت المخاطرة.
لا، لا بد أن تبقى بحوزتها حتى تسلّمها له بنفسها.

الآن كانت تخترق زحام **سوق البزورية**، سوق التوابل، تتأمل البضائع المطحونة كما كانت تفعل وهي طفلة.

توقفت عند كشكها المفضل، وملأت رئتيها بروائح اليانسون والكزبرة والقرفة والهيل والزعتر وعشرات الروائح التي لا اسم لها.
كانت تتذكر أيامها مع **رزان** هنا، والضحك بين الممرات.
أما اليوم، فحقيبتها تضم كيسًا بلاستيكيًا بنيًا فيه قرفة ووحدة ذاكرة مليئة بالملفات المسروقة، وقلبها يخفق بجنون وسط الضوضاء التي كانت يومًا باعثة على الأمان.

ساومت البائع واشترت كيس قرفة مطابقًا تمامًا للذي في حقيبتها.
نظرت إلى الساعة في هاتفها: دقائق قليلة فقط، شارعين آخرين ثم منعطف حادّ يسارًا.

كان السوق المسقوف يحجب الشمس، لكن العرق بدأ يتصبب على ظهرها.
الحرارة والتوتر جعلاها تشعر بالدوار، فبدأت تتخيل عذابها إن رآها رجال المخابرات وهي تقوم بالمبادلة.
سيدفعونها إلى كتابة التقارير، ثم سيجدون الكذب بين السطور.
وهناك تبدأ الرحلة نحو الجحيم:
ضربٌ خفيف، ثم تحقيقات أطول، ثم "فحصٌ" على يد منحرفة مهووسة، حتى تصل إلى قمة التوحش — الكهرباء.
ومهما كانت الطريق، فالنهاية واحدة: المشنقة.

ففي نهاية كل هذا الرعب، تأتي الورقة — أوراق رسمية تُكتب بخطّ مألوف: صادرة عن المخابرات، يوقّعها قاضٍ في محكمة أمن الدولة العليا، وتحمل توقيع **الأسد** وختم النسر القرشي.
ثم تأتي الرحمة الوحيدة: هواءٌ يختفي من تحت القدمين، وفرقعة عنقٍ تنهي كل شيء.
سلام.

مدّت يدها تحت قميصها الأسود، ومسحت أسفل ظهرها بأصابعها. ثم أخرجت هاتفها من جيب بنطالها الجينز وتفقّدت الوقت.

أخرجت **مريم** كيس القرفة من حقيبتها – ذلك الذي يُخفي بداخلِه وحدة الذاكرة الصغيرة – وقرّبته من وجهها. أغمضت عينيها واستنشقت عبير التوابل الحارّة الحلوة، ثم أعادت إغلاق الكيس بعناية. أمسكت به بيدها اليمنى، واستدارت إلى اليسار عائدة نحو سوق البهارات، تلصق كتفها بالجدار وهي تمشي بمحاذاة الزاوية.

كانت الممرات مزدحمة، فاصطدمت بامرأة ترتدي حجابًا حريريًّا ورديًّا، فاعتذرت سريعًا بينما تأكدت من إحكام قبضتها على الكيس .*لا تسقطيه. لا تتوقفي عن السير. ولا تنظري إليه.*

رأت **سام** يظهر على يمينها عند المنعطف، ثم شعرت به يضغط على صدرها كيسًا مطابقًا تمامًا. قبضت عليه بيدها اليسرى في اللحظة نفسها التي أخذ فيها الكيس الأصلي – الذي يحتوي على وحدة الذاكرة – من يدها اليمنى.

استمرت في مشيها بنفس الوتيرة، وانزلقت يدها اليمنى لتتلقّى الكيس الجديد في الموضع نفسه الذي كان فيه القديم.

كل ذلك لم يستغرق ثانية واحدة.

تابعت **مريم** طريقها نحو كشك آخر واشترت حبّ الهيل، مستمتعةً بأن يديها ظلّتا ثابتتين تمامًا وهي تدفع النقود. وعندما همّت بالمغادرة، توقفت لحظة أمام صفوف التوابل الملونة. لم تبدُ الألوان يومًا أكثر إشراقًا... أو أكثر حياة.

الفصل الثاني والعشرون

قالت **بروكتر**:
"كنا جميعًا نعلم أن المعلومات التي جمعتها *أثينا* ستُحدث ضجة، لكنني لم أتوقع أن تُغرقنا. بالمناسبة، كيف حال تلك المحللة؟ اسمها... *إزميرالدا*؟ أليست تلك الفتاة في رواية *أحدب نوتردام*؟ إنها سورية – مكسيكية – أمريكية، كما تعلم."

حدّق **سام** فيها بصمت، متسائلًا إلى أين تمضي بهذا الحديث.

قالت **بروكتر**:
"والدها سوريّ مئة في المئة، لكنه وُلد في الولايات المتحدة، وأمها مكسيكية... من مواليد المكسيك نفسها. الآن أخبرني، هل *إزميرالدا* اسم مكسيكي فعلًا؟"

هزّ **سام** كتفيه وقال:
"لا أدري يا رئيسة. تُحب أن تُنادى بـ *زِيلدا*. لا أعرف إن كان الاسم إسبانيًا، لكنها تتحدث العربية الشامية بشكل لا بأس به."

كانت **زِيلدا زيدان** محور الحديث لأنها وصلت إلى دمشق في مهمة مؤقتة لتحليل المعلومات المستخرجة من حاسوب **بثينة**. غير أن اسمها كان يثير انزعاج **بروكتر** على نحو غريب.

قالت:
"كأنني أقول إنكم يمكن أن تنادوني *تِميس* فقط من الآن فصاعدًا. تِميس! أي هراء هذا."

ثم خفضت إبهاميها دلالةً على السخرية، بينما تجاهلها **سام** مواصلًا الحديث.

قال:

"زِيلدا تجهز معدات عملها الآن. الفنيون أكدوا أن الحاسوب التحليلي وصل صباح اليوم من فورت ميد."

كان الجهاز غير متصل بأي شبكة من شبكات الوكالة، ومهمته التأكد من أن السوريين لم يزرعوا في وحدة الذاكرة أي برمجية خبيثة. كما فحصه فريق الأمن الدبلوماسي بحثًا عن متفجرات أو سموم. الاحتمال ضعيف، لكنه غير مستبعد، فـ"حزب الله" سبق أن زرع عبوات في هواتف كان يعلم أنها ستُصادر، على أمل أن تنفجر في وجه ضابطٍ أثناء محاولة الاستخراج.

قالت **بروكتر** بابتسامة متوترة:

"رائع، وصلت في الوقت المناسب. أمام الفتاة جبل من العمل."

***

في ظهيرة اليوم الأول، لاحظ **سام** كومة سميكة من التقارير المطبوعة على مكتب **زِيلدا**. أعلى التقرير كان يحمل عنوانًا طويلًا:

"تقدير استخباراتي – برامج الأسلحة الكيميائية: دراسات حالة من الاتحاد السوفيتي ومصر والعراق وسوريا."

وتحت الأوراق كان هناك كتاب بعنوان **"سلائف غازات الأعصاب وطرق إنتاجها"**.

لمّا رآها **سام**، قالت مبتسمة:

"كتاب ممتاز. أُعدّ في عهد ريغان. فيه الصيغة الصناعية لإنتاج غاز السارين في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. السوريون يستخدمون وصفة مشابهة جدًا."

وقفت **زِيلدا** تتمطى، فيما فتح **سام** الكتاب وسألها:

"كيف ستبدئين العمل؟"

قالت وهي تشير إلى الحاسوب:

"سأبحث عن كل مركّب كيميائي يمكن أن يكون مادة أولية للسارين، وأفحص جميع

الفواتير والملفات الموجودة في هذا الجهاز. حينها سنضع قائمة بالشركات الوهمية المشبوهة. ومن هناك نبدأ بتتبّع المال وصولًا إلى القصر. وإذا كانت الحسابات مكتملة، فسنعرف الكميات بدقة."

وضعت يديها على خصرها ونفخت فقاعة ضخمة من العلكة، ثم تخلّصت منها وارتدت سماعاتها.

***

استغرق الأمر يومين للحصول على نتيجة. في تلك المدة شربت **زِيلدا** – كما قدّر **سام** – ما يقارب عشرين لترًا من القهوة المُرّة ولم تنم أكثر من أربع ساعات. واللوم في ذلك على **بروكتر**، التي ضغطت عليها بموعدٍ جنونيّ لتسريع العمل.

قالت مازحةً:
"سنُكسبها بدل مهمتها المؤقتة بحقها، كل مئة وثمانية وثلاثين دولارًا منها!"

وحين استدعت **زِيلدا** كليهما بعد ستٍ وثلاثين ساعة من العمل المتواصل، كانت مرهقةً تمامًا، وهذا ما بدا أنه يُرضي الغريزة الإدارية لدى **بروكتر**.

كانت ملابس **زِيلدا** مجعّدة وبقعة لبنٍ تلطخ بنطالها، لكنها كانت تبتسم.

قالت **بروكتر** ساخرة وهي تومئ إلى الجدار:
"انفجار دماغ محللة؟"

كان الجدار المتهالك قد تحول إلى انفجار من قصاصات الملاحظات الملصقة بشكل هرمي، أعلى الهرم كتب عليه "Sarin"، وأسفله بطاقتان لمكوناته الثنائية: **مِثيل فوسفونيل ديفلوريد (DF)** و**كحول الأيزوبروبيل (IA)**، ثم تسلسلٌ من المركّبات الكيميائية المتفرعة أسفلها مثل جدولٍ دوري انفجر في وجهك: **مِثيل فوسفونيل ديكلوريد**، **مِثيل ديكلورو فوسفين**، **حمض الهيدروفلوريك**، وغير ذلك مما لم يستطع **سام** قراءته.

دفعت **بروكتر** كرسيًا وجلست وقالت:
"ابدئي."

وقفت **زِيلدا** أمام الجدار وقالت:

"النتيجة النهائية: أنشأ النظام شبكة لتعزيز مخزون السارين، بإشراف القصر الجمهوري، وغالبًا لاستخدام الحرس الجمهوري. وجدت أدلة على أن **بثينة** ساهمت في شراء معظم المواد الأولية، خصوصًا تلك التي لا يمكن تصنيعها محليًا. يتم شحن أغلبها إلى واجهات تجارية في لبنان وبعضها في تركيا، ثم تُهرّب إلى سوريا."

سألها **سام**:

"وكم الكمية التي حصلوا عليها حتى الآن؟"

فتحت **زِيلدا** جدولًا في **إكسل** وقالت:

"قد نكون نفتقد بعض البيانات، لكن الحسابات تشير إلى نحو ألفي طن متري من المواد الأولية."

قال **سام** بدهشة:

"هذا كثير."

أجابت:

"هو كذلك. القاعدة العامة تقول إن إنتاج السارين الصناعي يحتاج مواد أولية تزن ثمانية أضعاف الناتج النهائي. أي إنهم سيحصلون على نحو مئتين وخمسين طنًا من السارين. كمية تكفي لهجوم هائل. وبناءً على تواريخ الشراء، أظن أنهم بدأوا الإنتاج بالفعل."

قالت **بروكتر** مشيرة إلى **سام**:

"ربما يرسلونها إلى مركز *الدراسات والبحوث العلمية (SSRC)* للتصنيع والتخزين، أليس كذلك يا جاغرز؟"

قالت **زِيلدا** باستغراب:

"جاغرز؟"

ردت **بروكتر** متهكمة:

"*غولدجاغر*. هذا اسمه المستعار. أما زميلنا *ديمان* فاسم رمزه *ويلي تي*. بيكر، وقد طلب تغييره! على أي حال، ممكن أن تكوني محققة، لكن تقارير الإشارات والصور

الإسرائيلية تؤكد أن منشآت المركز هادئة منذ عام تقريبًا، والسوريون يدركون أن لديهم مخزونًا كافيًا لردع أي هجوم إسرائيلي."

كانت **زِيلدا** تنقر بقلمها على الجدار كإيقاعٍ منضبط، ثم قالت:
"إذا كانوا واثقين من ردعهم، فلماذا يشترون ألفي طن إضافية؟"

قال **سام** بصوت منخفض:
"لأنهم يريدون استخدامها ضد الثوار."

أسندت **زِيلدا** ظهرها إلى الجدار، تنظر إلى السقف المرقّع:
"الكثير منها، إذن."

قال **سام**:
"وهم يعلمون أننا سنرصد أي حركة أو خلط أو تجهيز للمخزون الحالي، لذلك ينقلونه خارج المنشآت الرسمية إلى برنامج سري."

بدأت **بروكتر** تهز رأسها موافقة.

قالت **زِيلدا**:
"بالضبط. **رستم حسن** ليس غبيًا. يعلم أننا نراقب مواقع *SSRC* عبر الأقمار الاصطناعية على مدار الساعة. لذلك فصل المشروع تمامًا عن المركز ليتمكنوا من الاستخدام الميداني الفوري."

قالت **بروكتر** بحدة:
"وأين بحق الجحيم كل هذا؟ ألفا طن تعني منشأة صناعية ضخمة في الداخل تنتج السارين بلا توقف."

ابتسمت **زِيلدا** وقالت:
"لقد ارتكبت **بثينة** خطأً في أحد الرسائل الإلكترونية. طلبت من أحد الوسطاء إرسال شحنة إلى *جبلة*، ثم عدلت الموقع إلى منشأة تابعة للحرس الجمهوري. راجعت

الأمر، فوجدت أن وكالة *NGA*[26] أصدرت تقريرًا قبل تسعة أشهر عن منشأة غامضة قرب جبلة. قالت إنها تحت الإنشاء. لم يُنفذ أي تصوير جوي لها. علينا إعادة فحصها."

أشار **سام** إلى صورة **الأسد** على الجدار بإصبعه كأنها مسدس، وضغط الزناد الوهمي.

***

كانت **آرتميس أفروديت بروكتر** تحمل سمعةً معقدة داخل مكتب الاستطلاع الوطني ووكالة الاستخبارات الجغرافية.
حدثت قبل سنوات في كابول واقعة غير سارة حين دفعت خلال مشادة محللين اثنين من مختبر صور الأقمار إلى أسفل الدرج أثناء عملية لطائرة مسيرة من نوع بريد*اتور* ضد طالبان الباكستانية.
كانت تقول دائمًا: "حادث عرضي... مؤسف."

لكن تلك الحادثة جعلت التفاوض مع الوكالتين أمرًا عسيرًا.
فاستعانت بصديقها **إد برادلي** لتليين الموقف.

قالت له:
"إد، هل يمكنك إقناع هؤلاء العباقرة بأن يعطوني قمرًا واحدًا فحسب؟"

***

اتصل **برادلي** بضابط الارتباط في مكتب *الاستطلاع الوطني* التابع للوكالة، وزوّده بإحداثيات منشأة *جبلة*.
ألقى الضابط نظرة على خريطة المدارات المتاحة في البثّ الحي – مشهد مصنّف

---

[26] **(NGA - National Geospatial-Intelligence Agency)** وكالة استخبارات أمريكية، مسؤولة عن جمع وتحليل المعلومات الاستخباراتية من خلال صور الأقمار الصناعية والخرائط والبيانات الجغرافية المكانية.

بدرجة سرية لن يراه أحفاده يومًا – ثم قرر أن منصة القمر **Misty-3**[27] ربما تكون مناسبة، وأبلغ مدير المهمة بالإحداثيات.

في اجتماع الصباح، قال مدير المهمة وهو يشم قهوته من فنجانٍ على شكل منطاد القمر ومكتوب عليه *"ابتسم، أنت أمام الكاميرا"*:
"اللعنة، لسنا نملك عددًا لا نهائيًا من هذه الطيور."

وبحلول المساء، وبعد فنجانه السادس، أشرف بنفسه على تشغيل دافعات الأيونات لتعديل مدار القمر، ليعبر فوق *جبلة* في السادسة وثلاثٍ وأربعين دقيقة صباحًا بالتوقيت المحلي.

حلّق **Misty** في الموعد تمامًا، والتقط سبع صور بانورامية للمنشأة بكاميرته ذات التسعة أقدام.
أُرسلت الصور إلى واشنطن عبر قناة مشفّرة، وكشفت عن ثلاث مستودعات ضخمة، وعدد من الشاحنات والسيارات المتوقفة، بينها سيارات تحمل شعار الحرس الجمهوري، إضافة إلى ثكنة صغيرة في وادٍ جبلي.
لكن المفاجأة الكبرى كانت شاحنة بشريطتها واضحة تمامًا.

أُحيلت الصور إلى قسم تحليل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في *NGA*، حيث كان محلل يستمع إلى *تشا*يكوفسكي ويكتب تقريرًا بعنوان:
"١٥ يونيو: نشاط في مجمع جبلة يشير إلى ارتباط بالحرس الجمهوري ومركز الدراسات والبحوث العلمية."

كان دقيقًا إلى حدّ الهوس، حتى إنه أدخل رقم لوحة الشاحنة في عدة قواعد بيانات.
واتضح في النهاية أن الشاحنة مملوكة للفرع ٤٥٠ من *SSRC*:
قسم أمن ونقل الأسلحة الكيميائية.

---

[27] **(Misty-3 satellite):** هو قمر صناعي حقيقي وجزء من برنامج "ميستي" السري للغاية التابع لمكتب الاستطلاع الوطني الأمريكي (NRO) .صُممت هذه الفئة من الأقمار لتكون أقمار تجسس "شبحية"، أي يصعب للغاية رصدها وتعقبها

الفصل الثالث والعشرون

مع تصاعد القصف واهتزاز قبضة النظام على العاصمة، أخذ الدمشقيون يلزمون بيوتهم أكثر فأكثر. النظرات باتت حذرة، وأرصفة المقاهي خلت من روّادها، والأحياء أغلقت على نفسها في حذرٍ وترقّب، والمطاعم أُغلقت بلا نظام. الكهرباء صارت متقطّعة، والظلام انتشر كالطاعون حتى في الأحياء الثرية.

لذا، حين طلب العم داوود أن يلتقي مريم ورزان، لم يذهبوا إلى مطعم، بل سارتا على الأقدام أربع شوارع إلى شقته لتناول وجبة منزلية من "داوود باشا". كانوا يجتمعون سابقًا في غرفة الطعام حين كانت الخالة منى على قيد الحياة، لكن أحدًا لم يعد يطيق النظر إلى المقعد الذي كانت تجلس فيه منذ انتقال العائلة إلى الشقة في الثمانينيات. أزاح داوود الكرسي، لكن ذلك زاد الأمر سوءًا. وهكذا، من دون أن يصرّح أحد بسبب التغيير، صاروا يأكلون متحلقين حول طاولة صغيرة في المطبخ.

سأل داوود عن تقييم الطبيب لحالة عين رزان، وعن الكتب التي تقرؤها، وعن أصدقائها. كان يحاول أن يكون أبًا صالحًا، لكنها لم تُبدِ أي اهتمام. جلست تعبث بكرات اللحم في طبقها، والكأس أمامها لم تمسّه، وعينها السليمة تحدّق في الثلاجة خلف أبيها. شعرت مريم برغبة في صفعها: يا لكِ من عاقّة جاحدة! امنحي والدك قليلًا من الرحمة، كلّنا نخدم الحكومة التي تحتقرينها، وهو فعل ما فعل لتعيشي أنتِ. خافت أن تنفلت أفكارها بصوتٍ مسموع، فابتلعت رشفة كبيرة من النبيذ اللبناني.

سأل داوود:

– "متى تظنين أنك ستعودين إلى عملك؟"

أجابت وهي تحدّق في طبقها:

- "لا أدري."

ثم وضعت شوكتها واستأذنت لبضع دقائق.

ابتسم داوود لمريم بعينين منهكتين. كانت تحدّق فيه، شاعرة أن هذه الليلة قد تكون لحظة الحسم. كانت تتذكّر ما قاله سام حين درّبها: *أنتِ لا تطلبين منه أن يتجسس لحساب السي آي إيه، بل أن يتجاوز خطًا معك أنتِ فقط، أن يشاركك شيئًا يعلم أنه يجب ألا يقوله. يجوز أن يشكّ أنك تعملين في الاستخبارات، لكن لا تذكري ذلك أبدًا.*

بدت على داوود علامات التعب؛ ظهره منحنٍ، وبطنه المنتفخ جعله يبدو أثقل بخمسة عشر رطلًا مما كان عليه في حفلة خطوبة ابنته. شعره الكستنائي أصبح خفيفاً ومتطايرًا، ووجهه بدا كوجه عالمٍ بائس أدرك أن تجربته فشلت. بالنسبة إليها، بدا ببساطة... حزيناً.

عادت رزان إلى المائدة بوجنتين محمرّتين وعينين جامحتين، مستعدة للقتال. بدا أنها اتخذت قرارًا في الحمّام، وجاءت تواجه أباها. صارت مريم مجرّد شاهدة على المشهد.

قالت رزان:

- "أريد أن أتحدث إليك كأب، لا كموظّف في مركز البحوث العلمية."

أومأ، ووجهه يقول إنه لا يريد أن يسمع.

قالت بثباتٍ مصطنع:

- "أريد أن أعمل مجددًا مع لجان التنسيق."

وكأنها تعلن عن وظيفةٍ جديدة في بنك، لا عن انضمامٍ إلى صفوف المعارضين للأسد.

استقام ظهر داوود واشتدّ فكه:

- "رزان، بالله عليكِ، لا..."

قاطعته بحدة:

- "توقف يا أبي ودعني أكمل. لا أستطيع الجلوس مكتوفة الأيدي وأنا أرى بلدنا يُدمَّر. المتظاهرون ضعفاء، نعم، لكنهم على حق. أريد أن أكون في الجانب الصحيح... الجانب الأخلاقي، جانب الله."

مرّر يديه في شعره الخفيف ودفع كرسيه إلى الخلف، يحدّق بها بغضب.

قال بصوتٍ مرتجف:

- "الله ليس في سوريا الآن يا رزان، إن لم تلاحظي. لقد تُركنا للفوضى. لا حلّ إلا أن ننحني للعاصفة حتى تمرّ. وإن كنتِ تصرّين على إدخال الله في هذا، فأي خيرٍ سيأتي من الانضمام إلى المعارضة؟ أتريدين أن تجلبي لنا إلههم الجهادي المتعطّش للدماء ليقتلنا جميعًا؟"

ثم أشار إلى عينها، وبدأت دموعه تنهمر. شعرت مريم بالخجل وهي تراه يتهاوى أمامها في المطبخ.

قال وهو يهمس:

- "لقد فقدت أمكِ من قبل... لا تتركيني وحدي في هذا الجحيم يا رزان. لا أستطيع أن أفقدك أنتِ أيضًا."

لكن لم يبقَ وقتٌ لمزيدٍ من الكلام، إذ سُمع طَرقٌ على الباب.

تجمّدت مريم، كأنها ترى جسدها من خارجها. ذلك الطَرق... يعرفه السوريون جيدًا. نظرات داوود ورزان أكّدت الظن. فكّرت مريم في حاسوب بثينة. *لم أصل بعيدًا، يا للهول. نهاية قصيرة حتى لجاسوسة.* تذكّرت سؤالها لسام: كم يعيش عادةً الجواسيس؟ فأجابها: *علي حسب...*

نهض داوود ليفتح الباب. كان هناك عنصران من المخابرات السياسية. أحدهما بطنه ضخم ووجهه متدلٍ بشاربٍ غليظ وأنفٍ يشبه القرنبيط، والآخر قصير نحيل بأنفٍ مرفوع وعينين خائفتين لا تفارقان الأرض. وكما اعتادت منذ طفولتها، أطلقت مريم عليهما لقبين في ذهنها لتهدّئ خوفها: *القرنبيط والفأر.*

خفق قلبها لحظة، لكنه هدأ قليلًا حين طلب "القرنبيط" رؤية رزان والتحقق من الهويات. جمع "الفأر" البطاقات، بينما شرح زميله أنهم لن يطيلوا الزيارة، فقط بعض الأسئلة بخصوص اعتقالها السابق. أخرجوا بطاقاتهم الرسمية أيضًا — تصرف مهذّب على غير عادة عناصر المخابرات الذين يقتحمون البيوت عادةً بلا مقدمات. القرنبيط عقيد، والفأر ملازم.

قال داوود متبرمًا:

– "ألا يمكن تأجيل هذا؟"

لكن القرنبيط أجاب ببرود:

– "العميد قدسية أمر بإجراء محادثة خاصة مع الآنسة رزان، متابعة لا أكثر. لا بدّ أنك تدرك خصوصية ظروف الإفراج عنها."

مجرد ذكر اسم *قدسية*، مدير المخابرات السياسية، أنهى الجدال.

قالت رزان بسخرية:

– "الأسبوع الماضي كانت المخابرات العسكرية، والذي قبله الأمن العام... إلى متى؟"

ردّ العقيد بصرامة:

– "لقد ارتكبتِ جرائم يعاقب عليها القانون..."

قاطعه داوود:

– "كفى، كفى أيها العقيد، لا داعي لهذا. رزان، تحدّثي معهم، كم ستستغرقون؟"

قال العقيد:

– "عشر دقائق، خمس عشرة بالكثير."

***

دخن داوود ومريم سجائر على شرفته. كان ما يزال يعتني بحديقته الصغيرة كما كانت تحبّها منى: ياسمين أبيض متفتح، ورد دمشقي، وكركديه يحيط بالأبواب

الزجاجية. تذكّرت مريم أيام الطفولة حين كانت تزرع الياسمين مع خالتها، ورزان تركض حولهما، وداوود يضحك مع أبيها من المطبخ.

لم يكن هناك ضحكٌ الآن.
كانت تعرف أن اللقاء الدائر في المطبخ بين "القرنبيط" و"الفأر" ورزان ليس عنيفًا، بل مهينًا. لا ضرب ولا صراخ؛ ذلك حدث سابقًا. الآن فقط تذكير بأنها مملوكة.
سيسألونها عما تفعل، ومن تواصل معها من لجان التنسيق، وكيف تسير زيارات الطبيب، ثم سيكتبون تقريرًا لن يقرأه أحد. سينتهي في درجٍ مظلم، لكن سيبقى الخوف يسكنها سنوات.

بعد اثنتي عشرة دقيقة خرج الرجلان. شكر "القرنبيط" رزان على تعاونها واعتذر من داوود بلطف، وألقى نظرة على مريم قبل أن يغادر مع "الفأر".

سألتها مريم:
- "هل كانا مؤدبين؟"
قالت وهي متعبة:
- "نعم، لكني لم أعد أحتمل هذا الحديث. أبي، هل أستطيع أن أنام هنا الليلة؟"
- "طبعًا يا حبيبتي، لكن ألا تريدين إكمال العشاء؟"
- "لست جائعة."

عانقته وعانقت مريم، ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

قال داوود:
- "أحتاج إلى كأس ويسكي."

***

صبّ جرعة سخية من *بلو ليبل* – زجاجة تعرف مريم أنها هدية أبيها له – وخرج بها إلى الشرفة. كان المكان يطل على شققٍ مقابلة وعلى ضجيج باب توما في الليالي، لكن الآن ساد الصمت والظلام. ابتلع نصف الكأس دفعة واحدة.

تذكرت قوله في الحفلة: *النظام نكث عهده. انظري إلى رزان، لا خلاص لنا.*

نظرت إليه، بطنه المنتفخ، وجهه الشاحب، وشرارة ألمٍ في عينيه. حكّ عنقه حيث انفتح جرح صغير. أكمل كأسه، وأغلق عينيه ليستنشق عبير الورد.

ظنّت مريم أنها ستحتاج لأن تضغط عليه لتستدرجه، لكن بدا أن سؤالًا واحدًا يكفي.

قالت بهدوء:

- "ما بك، يا عمي؟"

أجاب وهو مغمض العينين:

- "أجرينا اختبارًا."

- "ألا تفعلون ذلك دائمًا؟"

- "بلى... لكن هذا كان على بشر."

وضعت كأسها ببطء، ويداها باردتان. فتح عينيه، وخدش الجرح في عنقه.

قال بصوتٍ خافت:

- "وقد نجح."

ثم صبّ كأسًا أخرى وأضاف:

- "إنهم يجهزون غاز السارين للحرب."

***

زحفت مريم إلى السرير بجوار رزان بعد ساعتين، لكنها لم تستطع النوم. أحسّت بحرارة جسدها بجانبها، وبأنفاسها الهادئة تحت الغطاء. استدارت نحوها، رأت الضمادة، والمناديل المحشوة تحت الوسادة.

لقد سألت أسئلة كثيرة، أكثر مما ينبغي. لكن داوود تجاوز كل الخطوط. كلماته كانت غير معقولة، تشلّ التفكير.

في الصباح، تسللت باكرًا إلى شقتها. جلست في الخزانة وكتبت رسالة قصيرة، طوتها كما علّمها سام في باريس. وضعتها في علبة معدنية صغيرة وأخفتها في حذائها الرياضي، ثم ارتدت سروالًا رماديًا وقميصًا أبيض طويل الأكمام، وخرجت إلى الجبل.

وحين عادت، وجدت رزان في المطبخ تشرب القهوة وتقرأ مجلة. كانت قد خرجت باكرًا أيضًا من بيت والدها.

قالت مريم:

- "هل تريدين الحديث عن ليلة أمس؟"

- "ليس حقًا."

- "كما تشائين."

ثم عادت إلى غرفتها، تكمل تمارين الكراف ماغا، تتصبب عرقًا، وتغلق الستائر إلى منتصفها.

الفصل الرابع والعشرون

قدّم **مكتب محطة دمشق** تقارير مريم إلى **قسم الشرق الأدنى** لمعالجتها الفورية وإرسالها ضمن حركة البرقيات الداخلية.
كانت نائبة رئيس قسم تقارير سوريا في **لانغلي**، *لويز بولات*، هي من أصدرت التقرير، وهي تتمتم في غضب:
- "أولئك السوريون... جزارون، متوحشون، ووحوش بكل معنى الكلمة."

وكغيرها في محطة دمشق، تساءلت بولات إن كان هذا الانتهاك الفاضح لما يُعرف بخط الرئيس الأحمر سيدفع **البيت الأبيض** إلى الرد.
كانت تشك في ذلك، لكنها قالت لنفسها: *وما أدراي أنا؟ على الأقل سيُحتسب لي وقت إضافي مدفوع الأجر... جائزة الأداء الاستثنائي لن تضر، حتى لو استبدل أولئك البيروقراطيون في قسم المالية مكافآتنا النقدية ببطاقات هدايا لمطاعم تافهة.*

بحلول المساء، كانت قد وضعت التقرير في ملف قراءة المدير الليلي.
قرأه المدير، سبّ النظام السوري، ثم اتصل **بمستشار الأمن القومي**، الذي فعل الشيء ذاته، وقال إنه سيعقد اجتماع **مجموعة العمل السورية** في البيت الأبيض تلك الليلة لمناقشة مسألة **العمليات القتالية ضد علي حسن** وتخطيط النظام لاستخدام الأسلحة الكيميائية.

كان المدير متأخرًا عن عشاء مع السفير السعودي، فاختصر الأمر قائلاً إن **إد برادلي** سيمثّل الوكالة في الاجتماع المصغّر.
وفي **قاعة الموقف** (**Situation Room**)، جلس برادلي ثلاث ساعات يستمع إلى جدل عقيم حول ما إذا كان ينبغي تنفيذ الخط الأحمر للرئيس أم لا.

وفي النهاية، قدّم مستشار الأمن القومي للرئيس ثلاثة خيارات:

1. تدمير النظام.

2. قصف منشأة *جبلة*.

3. إرسال رسالة سرّية حازمة.

قال الرئيس وهو يختار الخيار الثالث:

– "اجعلها نظيفة، إد. صفي فقط ذلك الجنرال... بلا ضحايا أبرياء."

***

في اليوم التالي، استدعت **بروكتر** سام إلى مكتبها لحضور مؤتمر مرئي مع **برادلي**، الذي بدا أنه لم ينم بعد، يجلس في منزله الملقّب بـ *الصندوق*، وعلى الأرجح قد شرب بضع زجاجات بيرة.

ظهر وجهه المرقّط على الشاشة.

قال برادلي وهو يلوّح:

– "مرحبًا يا رفاق. سأكون موجزًا. الليلة الماضية، فكّر الرئيس جديًا في قصف دمشق ردًا على تجربة السارين التي أبلغت عنها «أثينا». لكنه قرّر عدم القصف، ومع ذلك يريد أن نبعث إلى السوريين برسالة واضحة: لا تعبثوا معنا. مكتب المستشار القانوني في وزارة العدل يرى أنه يمكننا اعتبار مقتل **ڤال** و«كومودو»، إضافةً إلى عمليات علي حسن في دمشق، تهديدًا مستمرًا للأمن القومي الأمريكي ومصالحنا الخارجية. ولهذا السبب، أنا الآن أمسك في يدي ورقة موقّعة من الرئيس قبل خمسٍ وأربعين دقيقة، تُقرّر أن العملية الرامية إلى تصفية العميد علي حسن هي، وأقتبس من المادة خمسين من القانون الأمريكي، «ضرورة لدعم أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة». هذه ليست عملية اغتيال، بل دفاع وطني عن النفس."

قالت بروكتر بسخرية وهي تعدّل ياقة سترتها الصوفية:

– "يا للروعة. قانونية أنيقة تشبه ثوب نوم. لهذا يحب الجميع المحامين."

سأل سام بهدوء:

– "وما الشروط؟"

وأضافت بروكتر:

- "وكم منها مذكور رسميًا على الورق؟"

قال برادلي:

- "سأفترض من نبرتك يا بروكتر أنك تسألين ما إذا كان يمكننا إدارتها كما تُدار عمليات الطائرات المسيّرة في أفغانستان وباكستان. الجواب: لا. الهدف هو علي فقط. لا إصابات جانبية. هذا هو الشرط الوحيد المكتوب."

قال سام:

- "وهل هناك شروط غير مكتوبة؟"

أجاب برادلي وهو يحدّق مباشرة في الكاميرا، وكأنه يخترق عيني سام عبر الشاشة:

- "نعم، شرط واحد مني، ووافق عليه الرئيس. اعتبروه توجيهًا من القائد العام. نحتاج من خبراء التعرف على الوجوه تأكيدًا بصريًا أنه هو علي حسن قبل أن نضغط الزناد. لا نريد أن نقتل الجنرال الخطأ. نحتاج لقطات فيديو مباشرة تؤكد هويته. هذه فرصة نادرة للانتقام لمقتل فال. جميعنا نريد رأس علي حسن، لكن فلنكن أذكياء. لا مجال للتسرّع."

قال سام وقد تسارع نبضه:

- "بالطبع."

كانت **وكالة الاستخبارات** عادةً تغض الطرف حين يُقتل أحد ضباطها. أما الآن، فقد مُنح الضوء الأخضر للثأر. بإمكانه أخيرًا أن يردّ لعلي حسن الخط الذي رسمه على جبين **ڤال** يوم قتلها.

خلعت بروكتر سترتها ووقفت تواجه الشاشة، والنجوم الصغيرة المنقوشة على عضلات كتفيها – نجوم *الشرف* التي تخلّد أسماء قتلى الوكالة – تلمع تحت الضوء. تساءل سام في صمت: *لمن منهم كانت تلك النجوم؟*

قالت بروكتر بلهجة متوترة:

- "هل هذه طريقتك لتُلمح بأن محطتنا لا تقوم بعملها؟"

ردّ برادلي ببرود:

– "لا. هذه طريقتي لأقول صراحةً، بلا تلميحات، إنكم تحت ضغط مباشر. التوقعات عالية وتزداد بفضل إنجازاتكم الأخيرة. هل بابك مغلق؟"

نظرت إلى الباب وقالت:

– "لا، مفتوح على مصراعيه، ومعه باب القسم القنصلي أيضًا. في الواقع، هناك سوري معنا في الغرفة، خارج الكاميرا، يعمل مدوّن ملاحظات. محمود، محمود! تعال وابتسم لإد على الشاشة!"

لوّحت بيدها في الهواء بسخرية.

ضحك برادلي وقال:

– "كنت قد نسيت كم أنت مزعجة يا بروكتر. كان علي أن أرسلك إلى قسم أوروبا لتُرعبي شخصًا آخر. المعاملة التي أتلقّاها الآن تشبه تمامًا ما قدمتِه لطالبان والقاعدة."

ابتسمت وقالت:

– "على الأقل أنت ما زلت حيًا."

***

في قاعة الاجتماعات المحصّنة داخل السفارة الأمريكية في دمشق، كان **يوسف** يضع قدميه على الطاولة ويأكل شريحة بيتزا من صندوق كُتب عليه «*بيتزا سورية أصلية – كافيه كوستا*».

لم يستطع سام حتى النظر إليها.

قال يوسف:

– "أوقف الشريط هنا يا رامي."

توقف العرض، وظهر على الشاشة **علي حسن** وهو يقود سيارته الـ«لكزس» متجاوزًا الحواجز الإسمنتية نحو مبنى **مكتب الأمن**.

كانت المجموعة تراجع تسجيلات المراقبة التي التقطها فريق **البانديتوز**.

قال يوسف مشيرًا إلى الشاشة:

- "هل تريان كم تنخفض السيارة عن الأرض؟ إنها مصفحة، سنحتاج إلى شحنة ثقيلة جدًا."

ثم أشار إلى سجل المراقبة أمامه على الطاولة.

فتح سام الملف، فوجد ملاحظات تُحدّد مواعيد وصول علي ومغادرته. كانت تتبدل يوميًا بفوارق تصل إلى ساعات.

سأل سام:

- "هل يغيّر الطريق أيضًا؟"

أجاب **إلياس** وهو يسحب شريحة أخرى من البيتزا:

- "نعم، للأسف. يأتي من اتجاهات مختلفة. لم نكتشف نمطًا ثابتًا بعد."

قالت بروكتر:

- "هجوم عند البوابة؟ إطلاق نار سريع وهو يُبرز بطاقته؟"

ردّ رامي:

- "عادةً يقف عند البوابة رجل واحد، بينما يوجد بين أربعة وسبعة رجال في الخارج يتجاذبون أطراف الحديث أو يدخنون. ليسوا محترفين، لكن ستحدث معركة نارية حتمًا."

وقفت بروكتر وقالت بحدة:

- "قلت إني سأنتزع خصيتيه، وكنت أعنيها. هل لديكم فكرة عملية؟"

قال يوسف مبتسمًا:

- "فكرة واحدة فقط."

وأخرج من جيبه علبة سجائر «مارلبورو» ووضعها على الطاولة.

قالت بروكتر ساخرة:

- "لا شكرًا، يوسف. التهوية هنا سيئة بما يكفي."

قال ببرود:

– "شاهدي فقط."

سريعًا، تقدّم ـ في الشريط إلى تسجيل بتاريخ الأسبوع الماضي عند الساعة 9:55 مساءً.

ركّزت الكاميرا على علي حسن وهو يخرج من مبنى الأمن ويسير بين السيارات المتوقفة على الرصيف، تمامًا كما رآه سام سابقًا.

قال يوسف:

– "كنت أنا من يصوّر هذا المقطع. راقبا جيدًا."

اقتربت العدسة من وجه علي، فظهر وهو يتوقف بجانب سيارة متوقفة، يسحب من جيبه علبة *مارلبورو* الحمراء، يخرج سيجارة، يشعلها، ثم يتابع السير بخطوات بطيئة كمن شُغِل بأفكاره.

ثم قال يوسف:

– "والآن شاهدوا هذا."

قدّم التسجيل إلى اليوم التالي، الساعة 10:02 مساءً.

يسير علي حسن ـ في المسار نفسه، يدخن السيجارة ذاتها.

قال يوسف:

– "يفعل ذلك كثيرًا. ـ في أحد الأسابيع، سار ـ في هذا المسار أربع مرات."

أمسك سام بالعلبة من فوق الطاولة، قلّبها بين يديه، ثم نظر إلى بروكتر. بادلته النظرة، وهزّت رأسها موافقة.

الفصل الخامس والعشرون

كان **جميل عطية** نظريًا ندًّا لـ **بثينة**، لكن الواقع لم يكن كذلك أبدًا.
ذلك الشيخ كان نائب مدير الاستخبارات العسكرية، وأحد الذين مهّدوا الطريق لوصول **بشار** إلى الرئاسة، والمسؤول عن ملف **إيران**.
كان يملك من النفوذ ما يفوق بثينة أضعافًا.
وفوق ذلك – كان رجلًا.
ولهذا، كان هو من يُملي الأوامر.

لذا لم تُفاجأ بثينة، وإن كانت تكاد تنفجر غضبًا، حين وصلها استدعاء مقتضب جديد للحضور أمام **جميل عطية** لتقديم إحاطة عن جهود **مريم** في تفكيك صفوف المعارضين داخل المجلس الوطني.

قالت بثينة وهي تمسك بجهازها اللوحي:
– "سأتولى أمر ذلك المنحرف في الاجتماع. لكن أريدك أن تحضري معي في حال طلب تفاصيل دقيقة. سنقدّم له التقارير التي أعددتِها في فرنسا. طبعًا هو لا يهتم بالعمل نفسه، بل يخوض حربه الخاصة ضدنا... معركة جديدة في سعيه لتدميرنا."

رفعت **مريم** إصبعها إلى فمها دون وعي، وقد تذكّرت الجثث الثلاث في غرفة فندقها بـ **فيلفرانش**، وكيف كانت أصابعها المرتجفة تعلّق لافتة "الرجاء عدم الإزعاج" قبل أن تُغلق الباب خلفها.

منذ عملية التسليم تلك، بدأت عادة غريبة ترافقها: كانت تقضم الجلد المحيط بأظافرها دون أن تشعر في البداية، ثم تنتبه بعد الإصبع الثاني أو الثالث.
لكن بثينة – الغارقة في ذاتها – لم تلاحظ شيئًا.

وضعت مريم يديها على مكتب بثينة، فلاحظت قطرة دم صغيرة تتكوّر عند قاعدة ظفر إبهامها الأيمن. رنّ هاتف بثينة، فخرجت إلى دورة المياه لتجيب، فيما راحت مريم تعبث بالأوراق فوق المكتب، تفكر في مدى سوء إجراءات بثينة الأمنية أثناء حديثها مع **رستم**.
كانت قد بدأت بقضم إصبعها الأوسط حين أدركت ذلك، فعضّت شفتها في ضيق.

عادت بثينة من دورة المياه وقالت:
- "هيا بنا إلى ذلك العجوز المقزّز."

عدّلت مريم تنورتها الزرقاء الداكنة، والتقطت التقارير لتتبعها.

كان **عطية** جالسًا خلف مكتبه يقرأ ملفًا دون أن يرفع نظره. كان اليوم يرتدي بدلة سوداء فاخرة مخططة بخطوط بيضاء كثيفة، تمنحه مظهر أحد رجال العصابات.

جلست بثينة ومريم عند الطاولة. أنهى عطية القراءة ورفع بصره، رشفة من الشاي، دون أن يكلّف نفسه عناء تقديمه لهما.
لكنه شرب ملامح مريم بنظراته – دون أن يخفي ذلك.

قالت بثينة بحدّة:
- "إنها أكبر من ذوقك قليلًا، جميل."

لم يُجبها حتى، بل التفت إلى مريم قائلًا:
- "نسيت أن أسألك في لقائنا الأخير... كيف كانت فرنسا؟"

لاحظت في صوته حافة غضب مكتوم، كأن العاصفة على وشك الانفجار.
ارتجفت حاجباه لحظة، ثم رفعهما وابتسم قائلًا بسخرية:
- "رحلة حافلة بالأحداث؟"

أجابت مريم بثبات:
- "الاجتماعات مع **فاطمة** لم تثمر بعد، لكن كما تلاحظ في هذه التقارير، اتخذنا خطوات نشطة لتغيير موقفها."

دفعت الأوراق نحوه.

لوّح بيده باستهانة وقال:
- "أعلم أن أم فاطمة قد اعتُقلت. لست بحاجة إلى تقاريرك. ما أريد معرفته هو لماذا يفشل مكتبك، بثينة، مرة بعد أخرى. فاطمة ما تزال في المجلس، تنعم بالراحة في أوروبا وتستهزئ بنا."

رمقت بثينة فتّاحة الرسائل الموضوعة على المكتب بنظرة طويلة، ثم خفّضت عينيها ومسحت الغبار عن بنطالها بحركة متصنّعة. كانت تعرف أن معركتها مع عطية تحتاج إلى أعصاب باردة.
قالت ببرود:
- "مكتبي يسافر لخنق المعارضة، أما أنت فتسافر إلى تايلاند لخنق أجساد المراهقات. لكلٍّ أولوياته."

قهقه عطية، لكن عينيه ظلّتا معلّقتين على مريم.
شبكت أصابعها في حجرها لتمنع نفسها من قضمها، ثم رمقت هي الأخرى فتّاحة الرسائل. سيكون سلاحًا ملائمًا للثأر من حادثة الفندق في **نيس**.

قال عطية ببرود:
- "ما زلتِ تستخدمين الأساليب نفسها، بثينة. ولن تنجح. إن لم تحلي هذه المشكلة، فسأسحب الملف منك، وسأنجح حيث فشلتِ أنتِ ومريم."

رفع تقارير مريم ونظر إلى صدرها مبتسمًا:
- "سأقرأ هذه يا مريم، وبعدها ربما تمنحينني إحاطة... لائقة."
كان لفظه لكلمة *لائقة* يحمل دلالة لم يُخفها.

تجعد جبين بثينة رغم البوتوكس، بدت وكأنها ستنفجر بالكلام، لكنها التزمت الصمت، ونهضت دون كلمة وغادرت الغرفة.
حاولت مريم اللحاق بها، لكن يدًا ثقيلة أمسكت كتفها، وأنفاسًا ساخنة لامست عنقها.

قال عطية بصوت خفيض:

– "يسرّني أنك عدتِ من رحلتك الفرنسية بسلام. كان سيكون من المؤسف أن نفقدك. لكن افهمي شيئًا... الأمر ليس شخصيًا. بثينة هي من أعلنت الحرب."

ألقت التقارير أرضًا، وانتزعت كتفها من قبضته بخطوة مضطربة بسبب الكعب العالي.

ظهر الذهول في عينيه.

قال:

– "كوني حذرة يا مريم، فهناك الكثير مما يُخشى. سأستدعيك لتقريرٍ كامل بعد أن أقرأ الملفات."

نظر إلى الأوراق المتناثرة وضحك، ثم أغلق باب مكتبه.

***

جمعت مريم الأوراق بسرعة وسارت نحو مكتب بثينة، محافظة على تواصل نظرها مع صورة الرئيس المعلّقة على الجدار وهي تمرّ.

كانت بثينة قد عادت إلى مكتبها، تكتب بعصبية وعيونها مثبتة على الشاشة. لم تدرك مريم أنها لاحظت دخولها إلا حين قالت دون أن ترفع رأسها:

– "أظن أن الاجتماع سار على نحوٍ ممتاز، أليس كذلك؟"

تقدمت مريم نحو الطاولة، فرأت بثينة تقلّب في الأوراق وهي تتمتم، ثم قالت:

– "ها هو."

ألقت أمام مريم تقريرًا عن رصدٍ إيراني لرحلة **فاطمة**.

قالت بثينة بنبرة حادة:

– "عطية يريد إبلاغ الرئيس أننا فشلنا. يظن أن ذلك سيمنحه نفوذًا، وهو على حق. انظري هنا... فاطمة ستكون في منزل عائلتها في **توسكانا** أيام السادس من يوليو فصاعدًا. ستذهبين إليها بنفسك. وستعيدينها خاضعة، صامتة، ملفوفة بشريط من

خنوع. سنجعل **علي** يعتقل مزيدًا من أقاربها ليلين موقفها. هذه المرة يا مريم، ستنجحين."

قالت مريم:
– "بالطبع يا بثينة، سأتعامل معها."

رفعت إصبعها إلى فمها... لكنها أمسكت نفسها، وأسقطت يدها مضمومة كقبضة.

***

في طريق عودتها إلى المنزل، كانت مريم تقضم بعض البسكويت المملّح الذي اشترته لتهدئة معدتها.
كانت كلمات عطية تتردد في ذهنها، ومعها فكرة محرّمة: *ماذا لو انضم سام إليّ في إيطاليا؟*
سيساعدها على التفكير، سيهدّئ اضطرابها.

عبرت الشارع ودخلت سوق **الحميدية** المزدحم.
ناداها بعض الباعة يعرضون فساتين أو نظارات شمسية، لكنها كانت في مكان آخر...

كانت في **إيز**، فوق **سام**، تتذوق نشوتها بينما كان الهراوة تشقّ رأس المهاجم ذي القميص الوردي لفريق بينك *فلويد*.
كانت في المقعد الخلفي للسيارة، ترشده بجسدها، حين تناثرت دماء الرجل الثاني على مرآة الغرفة.
كانت بجانبه في السرير، أناملها ترسم عضلات صدره، حين تهشّم رأس المهاجم الثالث على الملاءات النظيفة.

تعثرت بحجر مرتفع في الرصيف، فتوقفت تبحث في حقيبتها عن قطعة بسكويت أخرى.
أخرجت واحدة، أمسكتها بين شفتيها، وتأكدت بلمسة سريعة من وجود العلامة السرّية في حقيبتها. قبضت عليها للحظة اطمئنان، ثم أعادت الحقيبة إلى كتفها

وأغمضت عينيها لتستحضر صورة الشعار الذي تدربا عليه على مناديل المقهى في **إيز**.

قال **سام** يومها، والمناديل تتطاير في نسيم المتوسط:
– "هذه هي إشارة الطوارئ. سيتفقدها أحد كل يوم. إذا رأيناها، نتحرك فورًا لتفقد نقطة اللقاء."

توقفت مريم عند زقاق يبعد ثلاث كتل سكنية عن شقتها.
سألته يومها:
– "وماذا لو رآني أحد؟"

فأجابها بابتسامة باردة:
– "لا تسمحي بذلك."

نظرت حولها لتتأكد من خلو المكان، ثم دخلت الزقاق ووضعت العلامة على الجدار.

الفصل السادس والعشرون

قرأ **سام** و**بروكتر** رسالة **مريم** في مقر المحطة.

قالت بروكتر وهي تزفر:

- "يا للهول... لقاء وجهاً لوجه مع عميلة جديدة وسط هذا المذبح؟ أكره هذا النوع من المهمات."

قال سام:

- "وأنا لا يعجبني الأمر أيضاً."

ثم أعاد قراءة الرسالة:

بثينة وأنا التقينا بعطية. صراع نفوذ داخل القصر مستمر. عطية يستغل فشلي مع فاطمة ليضغط على بثينة. تم توجيه تهديد جسدي لي في نهاية الاجتماع، مع تلميحات بهجوم محتمل في فرنسا. قال عطية: «كوني يقِظة، فالكثير مما يُخشى قادم». بثينة ترسلني إلى مونتالشينو، إيطاليا، في السادس من يوليو للقاء جديد مع فاطمة. سيكون لدي وقت للقاء شخصي.

كانت النقطة بعد الكلمة الأولى في الرسالة دليلًا على أن مريم لم تُجبر على كتابتها تحت التهديد.

كانت بروكتر تقرأ من فوق كتف سام، ثم قالت مرة أخرى وهي تهز رأسها:

- "يا له من وضعٍ سيئ، يا «جاغرز»."

قال سام بهدوء متوتر:

- "لكننا في الواقع لا نملك خيارًا آخر، أليس كذلك؟ لقد حاولوا بالفعل اختطافها في فرنسا."

سألته بروكتر:

- "هل لديك فكرة عن طريقة لإنقاذها من هذا المأزق؟"

راح سام ينقر بقلمه على الطاولة وقال:

- "لماذا تحتفظين بتلك البندقية موسبرغ هنا يا رئيسة؟ المخزن ليس بعيدًا."

أجابته بابتسامة ساخرة:

- "وجود السلاح بجانبي يبعث في نوعًا من الطمأنينة."

عاد ينقر بالقلم ثم كتب على المفكرة كلمة **أثينا**. لم يكن يملك خطة واضحة، فقط تذكّر فكرة كان **برادلي** قد ذكرها له ذات ليلة في محطة القاهرة وهما يحتسيان الجعة. كانت فكرة مجنونة، لكن برادلي أقسم أنها أنقذت حياة عميله.

ولِمَ لا؟ - فكر سام - *ربما تستحق المحاولة. عليه أن يحميها بأي ثمن.*

قال بعد لحظة صمت:

- "حسنًا، خطر لي شيء مجنون. أتذكر أن برادلي حكى لي عن عملية نفّذها في الجزائر لحماية عميل في موقف مشابه."

رفعت بروكتر حاجبها:

- "حقًا؟ لا تمزح؟"

قال سام وهو يبتسم:

- "لكن للإنصاف، الخطة تتضمن كاميرا مجهرية... وقلادة."

ضحكت بروكتر بصوت خافت:

- "يا سلام... عادةً ما تدفع ضعف السعر مقابل مثل هذه الصفقة."

أُعجبت بروكتر بالفكرة، فأشعلت الدنيا رسائل واعتراضات عبر القنوات الرسمية، حتى أن عبارة «*بيروقراطية تفوح منها رائحة الكلاب الميتة*» وردت في إحدى البرقيات التي وصلت إلى معظم قيادة قسم الشرق الأدنى وإدارة العلوم والتكنولوجيا.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، كانا جالسين في مكتبها بعد منتصف الليل. بدا على وجه الفنيّ من **مكتب الخدمات التقنية في الوكالة** الإرهاق الشديد وهو يظهر على شاشة الاتصال الآمن **SVTC**، رافعًا قلادة من الياقوت مطابقة تمامًا لتلك التي ظهرت في صورة التقطها عملاء **البانديتوز** في باريس قبل تجنيد مريم. تذكّر سام كيف كانت تتلألأ تلك القلادة وهي ترتشف كأس نبيذ على شرفة في «إين». كانت يومها القطعة الوحيدة التي ترتديها.

قالت بروكتر، وهي تشرب من علبة بيرة كوورز لايت – على الأرجح مهرّبة إلى سوريا بمعونة أحد رجال الأمن الدبلوماسي – وأشارت إلى الشاشة:
– "أشبه ما يكون بقناة تسوّق تلفزيونية، أليس كذلك يا جاغرز؟ كم تبقى من الدقائق للطلب؟"

أخذ الفنيّ الأمر بخفة ظل وأجاب وهو يمرّر يده على القلادة:
– "عشرون دقيقة فقط، ويمكن أن تصبح القلادة ملككِ مقابل عشر دفعات من تسعة عشر وتسعين!"

ضحك سام، فيما تمتمت بروكتر بشيء غير واضح. واصل الفني استعراض القلادة وقال:
– "اسمحوا لي أن أشرح آلية عملها."

عرض زر التشغيل الوحيد، وبيّن كيف يمكن للعميلة تشغيل الكاميرا أو إيقافها باستخدام إبرة أو دبوس شعر. وأوضح أنها مقاومة للماء، ويمكن إلقاؤها في أي مكان دون ضرر. ثم أضاف:
– "وضعها داخل كيس بلاستيكي سيكون أفضل."

رفعت بروكتر حاجبها بتوجّس، وقبل أن تنطق، سارع الفني قائلاً:
– "تسجّل ثلاثين ساعة من الفيديو، تقريبًا معجزة صغيرة، وتعمل ببطارية تعتمد على مادة السترونتيوم."

قالت بروكتر رافعة يدها:
– "تمهّل. عميلتنا امرأة، وسترتدي هذه القلادة ملاصقة لجلدها هنا."

وأشارت إلى صدرها لتوضيح المقصود، ثم أضافت:

- "هل علينا أن نقلق من سرطان الثدي بسبب بطارية مشعّة شيطانية؟"

بدت على وجه الفنيّ علامات الذهول، لم يعلم إن كان عليه أن يضحك أم يبكي، فقد شحب وجهه كأنما امتصّه الفراغ.

قال بصوت مرتجف:

- "لا لا، لا خطر إطلاقًا على العميلة، البطارية آمنة تمامًا."

تدخّل سام ليسأل:

- "كم من الوقت تحتاجون لإيصالها؟"

قال الفنيّ وقد بدا مرتاحًا لأن المكالمة توشك أن تنتهي:

- "سنرسلها عبر الحقيبة الدبلوماسية الليلة نفسها."

أنهت بروكتر الاتصال فورًا.

***

كان **سام** أول الواصلين إلى **المنزل الآمن** الكائن في زقاق هادئ داخل الحيّ المسيحي من دمشق. كان مرهقًا إلى أقصى حد، إذ استغرقت دورة كشف التتبع اثنتي عشرة ساعة متواصلة، رغم أنه تيقّن منذ الساعة السادسة أنه «أسود» بالفعل.

كان المنزل صغيرًا لكنه مجهّز: مطبخ بثلاجة ومخزن مليئين، وغرفة جلوس بأثاث حديث، وجدران عارية. خلفها غرفة نوم وحمام. كان أحد فنيّي المحطة قد فحص المكان بحثًا عن أجهزة تنصت صباح ذلك اليوم.

أعدّ سام القهوة وأخرج أطباق المقبلات من الثلاجة. وبينما يفتش الأدراج ويستعرض محتويات المخزن والمجمّد، غمره شعور بالذنب.

في أنحاء سوريا كان الناس يتضوّرون جوعًا، والتضخم بلغ الجنون، فيما يعيش هو داخل فقاعة دمشق المركزية. تقارير الاستخبارات تحدّثت عن سكان **دوما** الذين

صاروا يأكلون العشب للبقاء. كان القادة المتمردون يحتكرون القوت، فيما سمّى النظام سياسته: «*اركع أو مت جوعًا*».

أخرج زجاجة زيت زيتون (كان لترها قبل الحرب يكلّف مئتي ليرة سورية، أما الآن فبلغ أحد عشر مئة) ووضعها على الطاولة.
تأمل المائدة أمامه: زيتون، مقدوس، تبولة، ويالنجي بأوراق العنب المحشوة.
ثم شغّل المدفأة ووضع أربع أسياخ من كباب الغنم لتسخينها، وأخرج من البرّاد طبق «كوسا محشي» بلحمٍ وأرزّ منكهين بالكراوية والبهارات.

صبّ فنجاناً من القهوة، جلس في غرفة الجلوس، والقلق يتسلل إليه كدخان بارد. لم يبقَ سوى نصف ساعة على وصولها.
هل اجتازت مريم مسار كشف المراقبة بنجاح؟ هل أحد يراقبها الآن في دمشق؟

لم يرها منذ لقائهما الخاطف في سوق البهارات. تساءل: هل تغيّرت؟ هل سيتمالك نفسه حين يراها؟ هل تقصف واشنطن الموقع غدًا ويغادر المحطة ويُغلق هذا الباب إلى الأبد؟

كانت **دمشق** على حافة الجنون، كمن يقف على شرفة بناية ويفكر بالقفز. الانفجارات اليومية، صفوف الخبز، انقطاع الكهرباء، رفوف المتاجر الفارغة. تذكّر الصحفيين وموظفي الأمم المتحدة العالقين في **فندق الفورسيزنز**، كأنهم في بيروت الحرب أو مقديشو القديمة: مدينة محطمة يلجأ فيها الأجانب إلى بركة السباحة الوحيدة الآمنة، لا رغبة في الترف، بل لأن الخروج منها خطر قاتل.

لم تعد دمشق آمنة. لا له، ولا لرفاقه في المحطة، ولا لها هي... مريم.
تجرّأ ليتخيّلها خارجة من سوريا، في حياة أخرى. ما بدأ كجاذبية جسدية أصبح شيئًا أعمق، دون أن يخبو البريق بينهما. كانت ذكية، ساخرة، جريئة، مليئة بالأمل.
هو يعرف شعوره تمامًا... لكنه لا يستطيع الاعتراف به، حتى لنفسه.

نهض ليملأ فنجانه بالقهوة مجددًا، واتكأ على الطاولة. عندها سمع صوت الباب يُفتح.
دخلت **مريم**. كانت ترتدي بنطال جينز داكنًا، وسترة زرقاء ضيّقة عند الخصر،

وقميصًا رماديًا ناعمًا. تقدمت نحوه، فاحتضنها فورًا. أراحت رأسها على كتفه وهمست:
- "مرحبًا، حبيبي... اشتقت إليك كثيرًا."

كان في بدلته وقميصه الأبيض، وبدا المشهد كأنهما زوجان يلتقيان بعد يوم عمل طويل. قبّلها، وأغمض عينيه مستنشقًا رائحة اللافندر.

قال بهدوء:
- "كم من الوقت لديكِ؟"

أجابت:
- "ساعتان."

كان ينوي البدء بمناقشة عملية عطية، لكنّ الحديث تبخر سريعًا، إذ كانت شفتاها قد التقتا بشفتيه من جديد في المطبخ، ويداها تنزلقان في شعره وهو يقودها نحو غرفة النوم...

***

بعد ذلك، نظر إلى أثر ملابسهم المبعثرة على الأرض: حذاؤها قرب الأريكة، ثم بنطالها، سرواله، قميصها الرمادي، حمالة صدر سوداء، قميصه الأبيض، قطع الدانتيل السوداء، ثم سرواله الداخلي. سلسلة متتابعة نحو الفراش، كخريطة للنشوة.

نهضا وتوجها إلى الحمام الصغير لإعادة ترتيب مظهريهما. وقف هو أمام المرآة يصلح شعره، فيما دفعته بمزاح خفيف وهي تعبث بحليّها.
بدت وجنتاها وقد استعادت لونهما الطبيعي، وشعرها مرفوع بعناية، وشفاهها أعيد تلوينها. اقترب منها، فشمّ امتزاج العرق الخفيف باللافندر.

قالت بصوت منخفض:
- "أردت هذا لأنني لم أكن متأكدة إن كنا سنُمنح فرصة ثانية. ربما لن نحظى بها أبدًا. هنا، كل شيء قد ينتهي في لحظة. ربما ترحل أنت، وأبقى أنا، ويشيخ كلٌّ منا

على حدة. أعرف أن هناك قواعد، وسألتزم بها، لكن... هناك شيء بيننا، ويعني لي الكثير."

وضع يديه على خصرها وقال:
– "وأنا أيضًا يا مريم... يعني لي الكثير. أنا أهتم لأمرك."

كان يحبها، لكنه كره نفسه لأنه لم يستطع – ولن يستطيع – أن يقولها صراحة.

قبّلته بخفة، ثم تراجعت وقالت مبتسمة:
– "أعرف ما تشعر به. وأنا كذلك."

***

تناولا طعامهما في غرفة الجلوس بينما كانت تروي له تفاصيل لقائها بعطية كلمةً كلمة. وعندما انتهت، شرح لها خطته وأراها القلادة.

ابتسمت وقالت بمكر:
– "كيف نسختها بهذه الدقة؟ الأمر غريب نوعًا ما... بل مخيف."

سعل محرجًا وقال:
– "صور من باريس."

لحسن الحظ لم تُكمل استجوابه. جرّبت القلادة، ثم تناول علبة معدنية صغيرة لتتدرّب على وضع القلادة داخلها كما ستفعل لاحقًا في الجبل بعد تصوير مكتب عطية.

سألها وهو يملأ صحنيهما مجددًا:
– "هل تظنين أن أحدًا يتعقّبك؟"

هزّت رأسها بثقة:
– "كنت حذرة. لا أعتقد أن أحدًا يتبعني. الآن..."

لكنها لم تكمل، إذ دوّى انفجار مروّع. سقطت قذيفة هاون على سطح المبنى المقابل. ارتجّ البيت الآمن وتمايلت جدرانه.
وضعت مريم الطبق على الطاولة وتقدمت نحو النافذة تُبعد الستائر برفق.

اقترب سام بدافع غريزي، رغم أن تدريبه كان يصرخ في رأسه بأن هذه أسوأ نقطة يمكن الوقوف عندها.
كانت النوافذ في الطابق العلوي من المبنى المقابل قد تحطمت، وتناثرت قطع الحجر والجبس والزجاج في الشارع. عوت صفارات الإنذار في الأفق.

ثم تبعتها سلسلة انفجارات متتابعة، قذائف أخرى تضرب أبنية قريبة. اهتزت الجدران مع كل ضربة.

تراجعت مريم عن النافذة وقالت ببرود العادة:
- "إنهم يحبون قصف الحيّ المسيحي كلما سنحت لهم الفرصة. هنا كثير من مقارّ المخابرات... فإن أخطأوا الهدف، قتلوا بضعة مسيحيين على سبيل المكافأة."

مسح سام بعينيه المكان بحثًا عن أبعد نقطة عن النوافذ. لم يكن بوسعهما المغادرة الآن؛ الشرطة والإسعاف والمخابرات ستملأ الشوارع قريبًا.

عادا إلى غرفة النوم. وقفت مريم بجوار السرير، تمرر يدها على الشرشف المجعّد وقالت بنبرة دافئة:
- "هل سنكون وحدنا في إيطاليا، حبيبي؟"

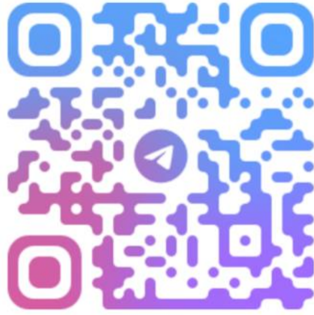
قال وهو يزفر:
- "ستنضم إلينا بروكتر، وسيتولى الفريق ذاته مراقبتك ليتأكد من أن عطية لن يحاول شيئًا وأنتِ خارج سوريا."

قالت بابتسامة مائلة:
- "هممم... يبدو أننا سنكون محاطين بجمهور."

جلس على حافة السرير، يمرر أصابعه بين شعره. كان غارقًا تمامًا، ولا مخرج أمامه.

لو علمت بروكتر، لطُرد فورًا. وإن ابتعد عن مريم... هل يستطيع؟

دفعته برفق ليستلقي، وجلست فوقه وهي تبتسم. خارج الغرفة، كانت صفارات الإنذار تمزّق ليل دمشق.



الفصل السابع والعشرون

امتنانه لرحمِ زوجتِهِ العقيمِ كانَ فكرةً غريبةً، وهو يُقلّبُ نظرَهُ في صفوفِ الموتى الملفوفينَ في أكفانٍ بيضاءَ، كأنهم مئةُ شرنقةٍ قطنيةٍ.
غريبةٌ، نعم، ولكنها ليست نادرة. فقد صارَ هذا الامتنانُ رفيقًا دائمًا لأبي قاسم منذ بدأ يقاتلُ ضدّ تحصيناتِ الأسد في حلب.

الجمعة الماضية: الصبيُّ الذي كان يجلبُ الماءَ إلى الخندق، قُتِلَ بقذيفةٍ.
السبت: الفتاةُ الصفراءُ المريضةُ بالتيفوس ماتت في شقةِ أمِّها المهدَّمة، التي كانت تُستخدمُ عُشًّا لقنّاص.
الأحد: فتى في السادسةِ عشرةَ من عمره أطلَّ برأسه من خلفِ زاويةِ شارع، أطلقَ رصاصَ كلاشينكوفه بجنون، لم يُصِب شيئًا، ورصاصةٌ اخترقت حنجرتَه.
الاثنين: برميلٌ متفجّرٌ سقطَ على المستشفى الميداني، فقتلَ طفلًا في العاشرةِ مصابًا باللوكيميا، وفتاتينِ كانتا في الشارع.

والآن، في هذه القريةِ التي تُدعى الحولة، على بُعدِ ساعاتٍ من أنقاضِ حلب، عادَ ذلكَ الامتنانُ إليهِ، فيما أحدُ الشيوخِ يشرحُ لهُ ما حدثَ والدموعُ تخنقُ صوتَه.
وقفَ أبو قاسم يتأمّلُ صفوفَ الموتى، رؤوسُهم متّجهةٌ إلى مكة، حتى وقعَ بصرُه على جسدِ طفلٍ صغيرٍ ملفوفٍ بالكفن، وقد بدا رأسُه مفقودًا.
ضمَّ زوجتَه سارية إلى صدره، ووضعَ يده على بطنها، وشكرَ الله على رحمِها العقيم، كما يفعلُ دائمًا حين يرى الأطفالَ الموتى.
شكرَهُ لأنَّ "أبا قاسم" ليسَ سوى كنيةٍ، اسمِ حربٍ، لا أبٌ حقيقيّ، ولا طفلَ كانَ أو سيكون.

الشيخُ لم يلاحظ. كانَ في هستيريا من البكاء.
قال له أبو قاسم بهدوءٍ إنه سيقدّرُ تقريرًا مفصّلًا، فهل يمكنهُ أن يستجمعَ نفسَه قليلًا؟
قال الرجلُ وهو يمسحُ دموعَه:
– "نعم، نعم يا قائد، بالطبع... سأُحضِرُ الشاي وأعود."

أدارَ أبو قاسم بصرَه نحوَ الأحراش بعيدًا عن صفوفِ الجثث، بينما سارية تمدّدت ونزعت حجابها، تستغلُّ غيابَ الشيخ لتعيدَ ترتيبَ شعرِها الطويل، الذي كان أسودَ لامعًا، فأصبحَ الآن مقلّمًا بخيوطٍ رماديةٍ وبيضاء.
بطنُها الذي كانَ يطلُّ قليلًا فوقَ بنطالِها صارَ عضليًا مشدودًا، ووجهُها الذي كان ناعمًا صارَ محفورًا بتجاعيدِ الحرب.
ثدياها انكمشا من الجوع، ومشيتُها مائلةٌ قليلًا إلى الأمام، كمن اعتادَ انحناءةَ القنّاص.

ومع ذلك، بقيت جميلة. ابتسامتها العريضة لم تختفِ، شعرُها الكثيفُ ما زالَ ينبضُ بالحياة، وعيناها تحملانِ بريقًا لم يخمد.
أما هو، فلامسَ وجهَه النحيلَ الشاحب، وتذكّرَ شعرَه الخفيفَ وأطرافَه العظمية، ويده اليسرى التي لم يبقَ فيها سوى أربعةِ أصابع.
خسر خمسةَ وعشرينَ رطلًا منذ دخل الحرب.

كان عليهما أن يواصلا الطريق.
وصلا إلى الحولة بعد أربعةِ أيامٍ من الالتفافِ عبرَ المتاهات: طرقٍ فرعيةٍ، ونقاطِ تفتيشٍ حكوميةٍ وثورية.
في حواجز النظام، استخدما بطاقاتِ هويةٍ مزوّرةٍ من قتلى علويينَ، متنكرَينِ كرسلٍ عسكريين، وكانت سارية ترتدي سترة مموهةً وتتحدثُ مع الجنود بثقةٍ.
أما في حواجزِ المعارضة، فكانت تغيّرُ مظهرَها كلّ مرةٍ؛ تارةً تنتقبُ، وتارةً تكتفي بالحجاب، ولم تكن تتكلمُ أبدًا.
كانتْ تُخفي غضبَها بعد كلّ حاجز، فكم من جنديٍّ قتلتْهُ بيدها وهي مضطرةٌ لتخضعَ لهؤلاءِ الفتيانِ الذين بالكاد يعرفونَ الحرب؟
كان عددُ قتلاها المؤكّد مئةً واثنينَ وأربعينَ.

بندقيتُها الروسيةُ (SV-98) حصلتْ عليها بعد أن قتلتْ صاحبَها، فتركتْ بندقيةَ دراغونوف القديمةَ التي غنِمتها من ضابطٍ آخر على جبهةِ حلب.
كانت تخفي البندقيةَ في قاعِ صندوقِ السيارة، فهي ستحتاجها في دمشق.

عاد الشيخُ يحملُ الشاي الذي لم يشربه أحد.
قال:
- "لدينا مئةٌ واثنانِ من القتلى حتى الآن، كلهم أمس. وهناك خمسةٌ أو ستةٌ سيموتونَ اليوم، الطبيبُ لا يبشّرُ بخير. أكثرُ من خمسينَ منهم من عشيرةٍ واحدة... عشيرتي فقدتُ منها ثمانيةَ عشر."

لم يقل أبو قاسم شيئًا. كانَ يحتاجُ أن يتكلمَ الرجلُ أكثر.
فهمَ الشيخُ المقصودَ، اعتذرَ، ثم تابع:
- "الرجالُ خرجوا في مظاهرةٍ صباحًا، فبدأ القصفُ واستمرَّ ساعتينِ أو ثلاثًا، ولم يستطيعوا العودةَ إلى بيوتهم. بعضُهم حاولَ، فقُتلوا.
في المساء، توقّفَ القصف، واجتمعَ عسكريونَ ومخابراتٌ وشبّيحةٌ عندَ محطةِ المياه، ومن هناك هاجمونا. الشبّيحة[28] جاءوا من القرى العلوية."

وأشارَ بيده المرتجفة نحوَ تلك القرى، وصوتهُ يرتعشُ بالغضب:
- "كان معهم بنادق، لكن أيضًا سكاكينُ ومناجلُ وخُطافاتُ لحم! بدأوا بالذبح... سبعةٌ وأربعون طفلًا، كثيرٌ منهم رُضّع. أُطلقَ عليهم، نُحِروا، أو ذُبحوا. أربعٌ وثلاثونَ امرأةً كذلك!"

كان يصرخُ الآن، يشيرُ إلى الخارجِ حيثُ الأكفانُ مصطفّةٌ.
ورأى أبو قاسم أن بعضَها ليسَ أكفانًا أصلًا، بل ملاءاتِ أسرّةٍ عاديةٍ بعدما نفدَ القماش.

التقطَ أبو قاسم صورًا للموتى أثناءَ تغسيلِهم وتجهيزِهم للدفن، وأرسلها لقائدِه.
ثم انطلقَ مع سارية في الشاحنة نحوَ دوما، المدينةِ التي حرّرتها المعارضةُ لكنها كانت تختنقُ تحتَ الحصار.

---

[28] **الشبيحة (Shabiha)**: ميليشيات مسلحة غير نظامية موالية للنظام السوري .استُخدمت كأداة رئيسية لقمع الاحتجاجات وتنفيذ أعمال عنف وترهيب خارج نطاق القانون.

لم يتحدثا عن المجزرةِ ـفي الطريق.
رأيا مثلَها كثيرًا ـفي حلب، ولم يبقَ ما يُقال.

***

دخلا دوما ليلًا عبرَ أحدِ الأنفاقِ المخصصةِ للمشاة.

استقبلهما زهران علوش، زعيمُ دوما، ـفي مقرٍّ تحتَ الأرض، أسفلَ متجرِ إلكترونياتٍ مهجورٍ، تغمرُهُ رائحةُ المجاري.
الأرضُ مغطاةٌ بسجادٍ قديمٍ متصلّبٍ من القذارة، والرطوبةُ تتقاطرُ من السقف، والأسلاكُ والأنابيبُ تلتفُّ على الجدران.
في صفٍّ من الطاولاتِ المعدنيةِ جلسَت شاشاتٌ تعرضُ شبكةَ الأنفاقِ، وقنواتِ الجزيرةِ وبعضَ القنواتِ السعودية.

كانت الغرفةُ تعجُّ بالحركةِ عادةً، لكنها أُفرغت من الجميع لأجل الاجتماع.

رغمَ أنَّ أهلَ دوما صاروا يأكلونَ الحشائشَ وجلودَ الأحذية، فقد أعدَّ علوش لضيفه مائدةً فيها خبزٌ ودجاج.
حدّقَ أبو قاسم ـفي الأسياخِ المتلألئةِ ولم يشعر بنفسهِ وهو يبلعُ ريقَه. لم يتذكّر آخرَ مرةٍ أكلَ فيها لحمًا لا يأتي من جرذٍ.
تمنّى لو تستطيعُ سارية مشاركتَه الطعام، لكن علوش لم يكن يسمحُ للنساءِ بالجلوسِ على مائدةِ الحرب.

أشارَ إليه علوش بالجلوس، فأكلا بصمتٍ وسرعة.
وحين امتلأت معدةُ أبي قاسم، تنفّسَ بعمقٍ، ثم قال:
– "لدينا عرضٌ لك."

ابتسمَ علوش وهو يحكُّ ساقَه:
– "قال الأميرُ ذلك، لكن ما معنى العرض؟ كتائبُنا قادرةٌ على تنفيذ أيّ مهمةٍ ـفي دمشق. لا أفهمُ لمَ أُرسلتَ أنت. أعطني المعلومات، ورجالي سيتولّونَ الأمر."

قال أبو قاسم بهدوءٍ:

– "مصادري قدّمت لي معلوماتٍ تحتاجُ إلى مهاراتٍ خاصة."

انحنى علوش للأمام، وأشارَ إليه بإصبعه:

– "عندي قادةٌ قادرون على تنفيذِ مهامٍّ داخلَ المدينة."

قال أبو قاسم بابتسامةٍ خافتة:

– "حينَ يكون لديك قنّاصةٌ بعددِ مئةٍ واثنتينِ وأربعينَ إصابةً مؤكدة، لن يضطرَّ الأميرُ لإرسالِ رجاله. أو صانعُ قنابلَ بخبرةٍ... كهذه."

ثم نظرَ إلى يدِهِ ذاتِ التسعةِ أصابع.

ضحكَ علوش وقال ساخرًا:

– "آه، نسيتُ، الموتُ الأسود!"

التفتَ حولهُ بابتسامةٍ وهو يذكرُ لقبَ سارية الذي اكتسبته من حجابِها الأسود وهي تقتلُ جنودَ النظام.

تجاهله أبو قاسم، فطلبَ علوش الشاي. جلسا صامتينِ حتى جاءَ الفتى بالشاي الساخن.

قال علوش وهو يرتشفُ رشفةً صغيرةً:

– "حسنًا، ما هو العرضُ إذًا؟"

قال أبو قاسم:

– "قبل أن أشرحَ، دعني أوضحُ ما نحتاجُه. أحضرنا البندقيةَ وبعضَ الذخيرة، لكننا نرغبُ بالمزيد. نحتاجُ أيضًا أسلحةً خفيفةً للأمنِ الذاتي، كلاشينكوفاتٍ عاديةٍ تكفي، لكن بعدةِ صناديقِ ذخيرة.

أما القنبلة، فأحتاجُ إلى دخولِ مصنعِ المتفجراتِ عندكم والعملِ فيه يومين."

رفعَ علوش حاجبَيه وتراجعَ في كرسيه:

– "هذا كلّ شيء؟"

قال أبو قاسم:

– "ليس بعد. أريدُ أيضًا بعضَ المنشقينَ عن الحرس الجمهوريّ."

قال علوش متحفّزًا:

– "ولِمَ؟"

قال:

– "لأنهم أفضلُ رجالك."

قال علوش وهو يبتسمُ ببرودٍ:

– "أعلمُ ذلك، ولهذا لا أريدُ أن أعطيكَ إياهم."

أخرجَ أبو قاسم رسالةً من جيبه ووضعها على الطاولة:

– "طلبٌ شخصيٌّ من الأميرِ من أجل هؤلاء."

نظرَ علوش إلى الورقةِ وأعادها دونَ أن يقرأها.

قال:

– "الأميرُ وأنا كنا إخوةً في صيدنايا، لا حاجةَ للقراءة. لكن قل لي، ما المقابلُ لكلّ هذه الطلبات؟"

قال أبو قاسم بثقة:

– "تأخذُ أنت الفضلَ في العملية. تظهرُ على الشاشاتِ بعدها. تستخدمُها لجمعِ مزيدٍ من المالِ من الخليج."

لم يلتقط علوش الطُّعم، بل سألَ بنبرةٍ ثقيلة:

– "وما هي العمليةُ أصلًا؟"

ابتسمَ أبو قاسم.

الفصل الثامن والعشرون

جلست **بولينا جاكسون** إلى طاولة عملها، تضع سماعات الرأس وتستمع في تكرارٍ لا نهائي إلى أغنية **"I Tried"** لفرقة *Bone Thugs-N-Harmony*.
كانت أيام المجد قد مضت منذ زمن، لكنها وُلدت في كليفلاند، ولا تزال تعشق هذا النوع من الموسيقى.

بينما تتردد الأغنية للمرة العشرين في اليوم ذاته، كانت بولينا تركز كل انتباهها وهي تشكِّل صفيحةً من مادة **السيمتيكس**[29] باستخدام أنبوبٍ فولاذي حكومي الصنع يشبه إلى حدٍّ ما نشّابة فاخرة.
لم يكن هذا القالب مخصصًا للتجربة اليوم، ومع ذلك تمتمت لنفسها بصوتٍ خافت:
"لا تفسديه يا بولينا... يجب أن يكون مثالياً حين يأتي أولئك المتأنقون من لانغلي."

علّقت فوق طاولتها صورة لعلي حسن وهو يمشي في أحد شوارع دمشق، سيجارةٌ تتدلّى من بين شفتيه، التقطها أحد رجال الاستخبارات هناك.
لقد بنوا نسخة مطابقة من الشارع للتدريب، كما فعلوا قبل الغارة التي نفذتها قوات البحرية الأمريكية لقتل بن لادن.
في تلك المرة، لم يكن لها دور فعلي، كانت فقط تسرق نظراتٍ خاطفة إلى فرق النخبة وهي تتدرّب.
أما الآن، فالعرض عرضها وحدها.

كان القرار الرئاسي الذي وقّعه الرئيس بنفسه واضحًا: **لا مجال للخطأ**.
ولذا فرض رجال "قسم العمليات الخاصة" في وكالة الاستخبارات المركزية مجموعة

---

[29] **السيمتكس (Semtex)** : نوع من المتفجرات البلاستيكية القوية جداً، يتميز بقوامه الشبيه بالمعجون مما يسهل تشكيله وإخفاءه، ويُستخدم بشكل شائع في صنع القنابل والعبوات الناسفة.

صارمة من المواصفات الفنية للقنبلة، تحفظتها بولينا عن ظهر قلب.
فهي، في النهاية، قد صنعت واختبرت إحدى وثلاثين قنبلة من هذا النوع اللعين.
ألفت التصميم حتى أعطته اسمًا ساخرًا: **"القرص الطائر"**.

صُممت القنبلة لتناسب الحيّز الداخلي لمكبّر صوتٍ في مقعد الراكب الأمامي لسيارة "ميتسوبيشي باجيرو".
وعند التفجير، يجب أن تنفجر الطاقة نحو الخارج في نطاقٍ ضيّقٍ ومدروس، بحيث تُوجّه موجة الانفجار وتقلّل من الأضرار الجانبية.

لم تكن التجارب الأولى مبشّرة.
كانت الانفجارات عنيفةً أكثر مما ينبغي، حتى أن رئيسها رودني تمتم غاضبًا وهو يشير إلى الجدار الإسمنتي الوهمي في الميدان التجريبي:
– "بولينا، شظاياك تخترق الجدار وتقتل الأطفال في الجهة الأخرى! ينبغي للقنبلة تلامس الجدار لمسة خفيفة... قبلة، مثل ما تقبّلين أخاك."

فقلّلت بولينا كمية السيمتيكس حتى صارت أقل من ربع رطل.

وقفت تتأمل القرص البرتقالي الذي شكّلته بعناية، ثم حملته وتقدمت نحو سيارة الباجيرو المركونة خلف طاولتها في الحظيرة.
فتحت باب الراكب الأمامي وتفحّصت إن كان "القرص الطائر" يناسب الفراغ مكان مكبّر الصوت.
فعلًا، استقر في موضعه بدقة.
كان الشكل المصمَّم سيوجّه موجة الانفجار إلى الخارج بشكلٍ محكوم، يقلّل احتمال إصابة المدنيين.

عادت إلى طاولتها والموسيقى لا تزال تصدح في أذنيها، وبدأت توصل الدارات الإلكترونية التي تربط **مستشعر الأشعة تحت الحمراء (PIR)** بهاتفٍ يعمل عبر الأقمار الصناعية.
كانت الخطة أن يتصل عملاء الـCIA بالهاتف لتفعيل الدارة،

وعندما يمر علي حسن أمام المستشعر، تُغلق الدارة ويمرّ التيار من البطارية إلى **الكبسولة الناسفة** المزروعة في السيميتيكس، فتحدث الانفجار.

قال *رودني* في أول يومٍ للمشروع، مرتديًا نظارته السميكة كزجاجات الكولا، وهو يقرأ من مذكرة العمليات:
– "الفريق في سوريا يقترح أن يتحقق المسؤولون في لانغلي من هوية الهدف، ثم يقوم الراصد في دمشق بتفعيل المستشعر البصري حين يرى الهدف، ويبقيه تحت المراقبة حتى يعبر خط الأشعة، ثم يُفجِّر الشحنة."

كان التقرير قد صاغه ضابط ميداني ذو اسم غريب، *غولدجاغر*.. نعم، هذا هو.
ثم قال رودني وهو يخلع نظارته:
– "يبدو الأمر بسيطًا بما فيه الكفاية."

بعد أن أنهت بولينا توصيل المستشعر والهاتف ببطارية تسعة فولت، ربطت الدارة بكبسولةٍ تركية الصنع، ووضعتها على طاولتها لتفحص عملها، فيما حشَت فمها بقطعة من تبغ "غريز".
ثم لفت الجهاز كله بشريطٍ كهربائي، وبصقت في كوب قهوة فارغ، قبل أن تضع هاتف *الثريا*[30] والمستشعر في باب السيارة بجانب القرص الطائر.
لن توصل الكبسولة بالسيميتيكس إلا بعد وضع السيارة في ميدان الاختبار.

أغلقت المقصورة بلطف وهمست في نفسها:
"هذه أفضل قنبلة صنعتها إلى الآن."

قادت السيارة عبر أبواب الحظيرة، متجاوزةً بقايا سيارة الباجيرو الأولى – التي لم تكن أفضل أعمالها – حتى وصلت إلى ساحة الاختبار، حيث كانت ثلاث سيارات أخرى مصطفة.
وبما أن السيميتيكس متفجرٌ مستقرّ، فقد تجنبت الحفر الصغيرة في الطريق، فالحيطة لا تضر.

---

[30] **هاتف الثريا :(Thuraya phone)** هو هاتف فضائي (يعمل عبر الأقمار الصناعية)، يتيح إجراء الاتصالات من أي مكانفي العالم تقريباً، خاصة في المناطق النائية أو التي دُمرت فيها شبكات الاتصالات التقليدية.

أوقفت الموسيقى، نظرت إلى ساعتها، وفركت أذنيها.
كان من المقرر أن يصل "الرجل الأنيق" من لانغلي بعد ساعات قليلة لحضور التجربة.
تساءلت في نفسها:
"أين الرجل المسؤول عن الجثث؟"

***

في الوقت نفسه، لو علم *أبو قاسم* بما تفعله بولينا، لشعر بالغيرة الشديدة من حرفيتها، خصوصًا من سهولة حصولها على السيمتيكس.
فبينما كانت هي تصنع قرصها الطائر في مختبرٍ مجهّز، كان هو يرتدي مئزرًا متسخًا في ورشةٍ تحت الأرض، متذمرًا من السعر الباهظ الذي دفعه مقابل كيلوَين من المادة نفسها.

على عكس بولينا والـCIA، لم يكن لأبي قاسم ثأرٌ خاصٌّ مع علي حسن، لا أكثر من أي وحشٍ آخر في النظام.
كان اختياره له هدفًا تكتيكيًا بحتًا: جنرال مهم، وسينقضُّ على رأسه سهمٌ قاتل.
ولديه مصدرٌ في الداخل يمكنه زرع القنبلة في أحد اجتماعاته.

تفحّص أبو قاسم صور عربة الشاي، وركل بنفاد صبر النموذج البلاستيكي الهزيل الذي سرقوه من أحد المخازن في دوما.
راجع الرفوف، وفتح درجًا مليئًا بالكبسولات الناسفة.
كان عليه أن يصنع قنبلة صغيرة يمكن وضعها داخل صندوقٍ في أسفل عربة الشاي.

اختار كبسولة من نوع رقم 8، أسطوانية الشكل بحجم قلم كبير، تحتوي على خليطٍ من **فولمينات الزئبق وكلورات البوتاسيوم**.
سيستخدم هاتفًا محمولًا مدفوعًا مسبقًا ليكون الزناد.
ابتسم وهو يقلب الكبسولة بين أصابعه.
في حلب، لم يكن يملك هذا الترف.

في الأيام الأولى، حاول أن يصنع الفولمينات بنفسه، فانفجرت به، وأخذت إصبعه البنصر اليسرى معها.

قطع غلاف السيمتيكس البرتقالي، والتقط أنبوب ألمنيوم من الأرض، رفيعًا بما يكفي ليتفتت عند الانفجار.

قاس بطرف عينه الطول المناسب لعربة الشاي، ثم علّم عليه بقلم أسود وبدأ ينشره بمنشارٍ يدوي.

شكّل السيمتيكس كأنه طينٌ، دحرجه داخل الأنبوب، وتأكد أن القطر مثاليّ.

فتح علبة من **كرات الحديد** الصغيرة التي أرسلها له رجال *علوش*، وغرسها واحدةً تلو الأخرى في المادة حتى تحوّل لونها البرتقالي إلى بريقٍ معدني فضي.

مسح يديه المبللتين بالعرق على مئزره، وتخيّل إحدى تلك الكرات تخترق جمجمة علي حسن.

ثم سحب سلك نحاس، وبطارية تسعة فولت، وهاتفي "نوكيا" قديمين.

تحقق من شحنهما، واتصل بأحدهما الآخر، فاشتغلا.

وضع علامة حمراء على الهاتف الذي سيدمجه في القنبلة، وخزّن رقمه في الهاتف الآخر الذي ميّزه بعلامة خضراء.

كتب الرقم أيضًا على شريطٍ لاصق وألصقه خلف الهاتف الأخضر، ثم نزع بطارية الهاتف الأحمر احتياطًا.

بدأ بتوصيل الأسلاك لخلق الدارة الكهربائية:

عند الاتصال بالهاتف، سيمر التيار عبر الدارة إلى الكبسولة الناسفة، فتشتعل المادة وتنفجر.

انطفأت المراوح مع ومضات انقطاع الكهرباء، وبدأ العرق يتساقط على الطاولة.

أنهى الأسلاك، ثبّت الهاتف والبطارية بالكبسولة، ثم ألصقهم بأنبوب السيمتيكس باستخدام شرائط "فيلكرو".

تراجع خطوة إلى الوراء، يتأمل عمله.

كان وزنها لا يتجاوز خمسة كيلوغرامات، ويمكن إخفاؤها داخل صندوقٍ كرتوني كبير مملوء بالشاي والسكر.

اهتزّت الجدران بصوت انفجارات من الأعلى، ربما براميل متفجرة.
رفع بصره إلى السقف ثم إلى القنبلة أمامه.
ابتسم في سكون.
كانت واحدةً من أبسط إبداعاته، بفضل السيمتيكس الذي سرقه رجال علوش من مخازن النظام.

لكنه تمنّى لو استطاع أن يجرّبها.

***

قاد *رودني* الرجلَ الجديد *إد برادلي* إلى طاولة بولينا لتعريفه بها قبل الاختبار.
قالت مبتسمة وهي تمد يدها اليمنى:
– "تشرفت بلقائك، سيدي الرئيس."

قدّرت في نفسه أنه لم يُبدِ أي انزعاج من أصابعها المفقودة أو جلدها المتصلّب.

قال رودني:
– "نحن بصدد إعداد كل شيء للتجربة، سيدي."

غادر الثلاثة الحظيرة إلى الميدان التجريبي الذي أعيد فيه بناء شارعٍ دمشقي كامل.
كانت بولينا ترتدي نظارتها الشمسية وقبعة فريق كليفلاند للبيسبول، وانضمت إليهم في منصة المراقبة المحمية بلوحٍ سميك من الزجاج الشفاف.
كانت الشمس تمطرهم بحرارتها الحارقة في تموز.

قاد الفني *لايل* سيارة الباجيرو إلى الرصيف الوهمي وأوقفها.

سأل برادلي وهو يضيق عينيه:
– "هل سنجري اختبارًا على اللحم البشري؟"

أجابه رودني:

- "نعم، سيدي."

تمتم برادلي وهو يضع نظارته الشمسية ويرفع كمّيه:

- "دائمًا ما يكون الأمر غريبًا بعض الشيء..."

فأدقّ مؤشّر لتأثير الانفجار هو **العظام واللحم البشري الحقيقي**.
لا فئران تجارب هنا، بل أجساد موتى.
كانت فرق بولينا قادرة على الحصول على عددٍ قليل من الجثث عند الحاجة إلى اختبارٍ مهم كهذا.

خرج أربعة فنيين من الحظيرة يدفعون الجثث على عجلات، وكأنهم يجرّونها على قوائم من حوامل المحاليل الطبية.
وضع *لايل* الجثة التي تمثل "علي" على بعد عشرة أمتار خلف السيارة، وربطها بحبلٍ طويل ليتم سحبه أثناء التجربة لتقليد خطوات رجلٍ يمشي.
ثم رصّ الجثث الثلاث الأخرى حوله في مواقع المارة الأبرياء.

عندما وقّعت بولينا استمارات الاستلام، علمت أن الجثة التي تلعب دور علي حسن تعود لرجلٍ في الستين من عمره يُدعى **داريل**، مات بسكتةٍ قلبية.
شعرت نحوه بشيءٍ من الأسف.

ثبت "لايل" على كل جثة أجهزةَ استشعارٍ صغيرة، صُمِّمت لقياس ما يُعرف بعامل "K" للانفجار، أي الضغط بالكيلو باسكال الذي يكفي لتمزيق الفراغات الهوائية في جسم الإنسان، مثل الرئتين أو طبلة الأذن.
ثم فرد فوق الجدار الإسمنتي النموذجي ما بدا كأنه ملاءة كبيرة، لكنها في الحقيقة كانت نوعًا من الورق الخالي من الكربون، مطليًّا بصبغة مجهرية تنبعث عند تعرضها للضغط، لتُظهر أماكن استقرار الشظايا.
أما "لايل" والفنيون الآخرون، فقد ثبّتوا أوراقًا مشابهة على ألواح بيضاء أقاموها في دائرة تحيط بسيارة الباجيرو والجثث الاصطناعية.

قال "برادلي":

- "كم يستغرق الانتقال من الاتصال إلى التفجير؟"

أجابته "بولينا":

- "اختبرنا المكالمات باستخدام أقمار صناعية مختلفة لتمرير الإشارة. نصف ثانية في جميع الحالات. يخرج عليّ من مكتبه، فريق دمشق يُفعّل الجهاز من المنزل الآمن، لانغلي تتأكد من هوية الهدف، ثم حين يعبر عليّ خط السيارة... ينفجر. لدينا وقت كافٍ لإلغاء العملية إن ظهر مدنيون في الطريق."

هزّ "برادلي" رأسه موافقًا وقال:

- "هل هناك أي مكوّن في هذا الجهاز أمريكي الصنع؟"

هزّت "جاكسون" رأسها نفيًا:

- "كلها أجنبية. إذا تم التحقيق، سيبدو الأمر كأن إرهابيًّا صنعها. لم نستخدم أي قطعة أمريكية في هذا المشروع."

ابتسم "برادلي".

- "الجهاز داخل مكبّر الباب؟"

- "صحيح."

التفت إلى النموذج التجريبي وقال:

- "أروني إياه."

رفع "لايل" إبهامه إشارة إلى الجاهزية، وركض صاعدًا إلى برج المراقبة. فتح حاسوبه المحمول الموصول بالمجسّات، وتفحّص الشاشة قليلًا.

- "كل شيء جاهز."

أجرت "جاكسون" اتصالًا هاتفيًا عبر الأقمار الصناعية لتفعيل الجهاز، ثم أشارت إلى "لايل"، الذي بدأ بسحب الحبل.

تحرّكت جثة "علي" على الرصيف مسحوبة بعصا المصل الوريدي.

ثم دوّى صوت مكتوم عندما اخترقت الجثة الحاجزَ بالأشعة تحت الحمراء.

اهتزّت الباجيرو قليلًا، ثم اختفى رأس "داريل" وتحولت كتفاه وصدره إلى شرائط من اللحم. مالت عصا المصل جانبًا، وسقط "داريل" نحو الجدار.

قال "لايل":
– "K23 على البقية."

وأضاف موضحًا:
– "ثلاثةٌ وعشرون كيلو باسكال، يعني أنهم في أمان أكثر من جندي اقتحام أثناء المداهمة. تأثير لطيف للغاية."

غادر الفريق برج المراقبة، وجالوا في موقع التجربة لدقائق لمعاينة الأضرار. كانت آثار الشظايا على الجثث الأخرى شبه معدومة. قدّر "لايل" من قراءات الضغط الزائد أنه حتى لو وُجد مارة في تلك المواقع، فأسوأ ما قد يصيبهم هو تمزق في طبلة الأذن.

واصل "برادلي" تفقد الموقع عشر دقائق إضافية، يتبعه "رودني". أما "بولينا"، فاستأذنت عائدة إلى برودة المكيّف في الحظيرة. وضعت كمية جديدة من تبغ "غريز" بين شفتيها لتسترخي، وجلست ترفع قدميها على الطاولة أمام صورة "علي حسن". فتحت أحد الأدراج وأخرجت صورة ضابط المخابرات الميتة — تلك الفتاة البيضاء المسكينة التي بدأت كل هذا حين خُطفت وقُتلت في بلدٍ منسيّ.
علّقت "بولينا" الصورة فوق صورة "علي حسن"، وبصقت في فنجان قهوتها.

***

لم يكن لدى **أبي قاسم** الموارد التي تملكها حكومة الولايات المتحدة لتصنيع قنابله، لكنه حقّق نصرًا صغيرًا واحدًا: تمكّن من وضع سلاحه في موضعه أولًا.

كان "أبو قاسم" و"سارية" وفريقه من أربعة منشقين عن الحرس الجمهوري — استعان بهم "علوش" — قد دخلوا قلب دمشق في مؤخرة شاحنة نقل، إلى جانب صناديق ذخيرة، وبنادق كلاشنيكوف، وبندقية القنص الخاصة بـ"سارية"، وصندوق خشبي كان يجعل قلبه يرتجف عند كل مطبّ.

كان المنزل الآمن أشبه بمخيمٍ للاجئين: أسِرّة مؤقتة، وسلال قمامة ممتلئة حتى الحافة، ورائحة عرق خانقة.
في الداخل، كانوا ينتظرون قدوم رجلين. جلست "سارية" في غرفة النوم تنظّف حركة صاعق البندقية، وتتجنب مخالطة المنشقين.

سمع "أبو قاسم" الطرق على الباب. التقط كلاشنيكوفه ووجّهه نحوه، فهبّ المنشقّون من فرشهم وصوّبوا أسلحتهم بدورهم.
تكرر الطرق ثلاث مرات. كانت الإشارة المتفق عليها.

فتح "أبو قاسم" الباب، فرأى شيخاً طاعناً في السنّ ورجلًا شابًا معصوب العينين.
رمق الشيخُ الداخلَين الآخرين وبدا مطمئنًا:
– "اهدؤوا، يا إخوة."

كان الشيخ هو **عمر**، عميل أبي قاسم في دمشق، المسؤول عن شبكة مصادره داخل النظام. هو من وفّر لهم هذا البيت الآمن، وهو من اكتشف موعد اجتماع علي حسن ومكانه، وهو أيضًا من جنّد هذا الشاب.

أدخلهم أبو قاسم وأغلق الباب. خرجت "سارية" من الغرفة.
صافح الشاب، فوجد كفّه رطبة وضعيفة.
– "ما اسمك؟"
– "جبريل."
– "شرفٌ لنا يا جبريل. اجلس، فلدينا الكثير لنناقشه."

جلسوا على وسائد في غرفة المعيشة، وبدأ "أبو قاسم" يشرح كل خطوة من الخطة. أشار إلى الصندوق الخشبي قائلاً:
– "ستضعه على الرفّ السفلي من عربة الشاي."

هزّ جبريل رأسه بصمت، وقد ارتجف قليلًا عندما فتح "أبو قاسم" الصندوق.
– "كل ما عليك فعله قبل الاجتماع أمران فقط: ضع البطارية في الهاتف، ثم شغّله. البطارية مشحونة كليًّا، وستصمد خمس عشرة ساعة على الأقل. لكن لتكون في

مأمن، لا تشغّله قبل أقل من عشر ساعات من بدء الاجتماع. هل تفهم أنك لن تضعه في المكان إلا بعد أن يجتمعوا كلهم؟"
- "نعم، أيها القائد."
- "ما زال الاجتماع مقررًا في الثامن عشر من يوليو؟"
- "نعم."

أخرج أبو قاسم تقريرًا استخباراتيًّا من جيبه وسلّمه إليه.
- "هل تتوقع أن يحضر هؤلاء جميعًا؟"

تفحّص جبريل القائمة وقال:
- "وزير الدفاع نادرًا ما يحضر، ربما لا يأتي. والقائمة تفتقد اسم أخ علي، رستم، قائد الحرس الجمهوري."

قفز النبض في شريان أبي قاسم.
- "أأنت واثق؟"
- "نعم. صار يحضر كل الاجتماعات الآن. يُقال إن عليًّا لم يكن يدعوه، لكن رستم تدخّل لدى الرئيس ليضمن مكانه. الأخوان يكرهان بعضهما، ولهذا يحرص رستم على الحضور لإغاظة أخيه."

ابتسم أبو قاسم وقال هامسًا:
- "أخبار ممتازة."

ثم سأل:
- "كيف كان التفتيش عند مدخل المبنى؟"
- "ضئيل للغاية. لا كلاب كشف، وأجهزة الكشف غالبًا لا تعمل. أحمل صناديق بهذا الحجم كل أسبوع فيها مستلزمات الشاي، ولن يفتشوني."

أومأ أبو قاسم، ووضع الصندوق في علبة كرتونية.

قال عمر:
- "قاسم، حتى لو نجحنا، سيُعيّنون آخرين مكانهم. هذا وحده لن يُسقط النظام."

أجاب أبو قاسم وهو يغلق الصندوق:
- "لم أضع هذه القنبلة لإسقاطهم."
ثم دفع الصندوق نحو جبريل.
- "الغاية بسيطة... أن يتألموا."

***

في تلك الليلة، حمل **جبريل** الصندوق إلى شقته في الطابق الثالث. لم يكن الصندوق ثقيلًا، والمكيّف يعمل بأقصى طاقته، لكنه رغم ذلك كان يتصبّب عرقًا وهو يصعد الدرج.
في الداخل، وضع فوق الصندوق بضع عبوات شاي وسكر ليخفيه، ثم أغلق خزانته. أعاد فتحها بعد لحظات، حدّق في الصندوق طويلًا، وتخيل نفسه يرميه ويفرّ إلى تركيا كما فعل أخوه. لكن صورة والده المكسور الأطراف عادت إلى ذهنه.
- "ما هذه الدوائر الصغيرة يا أبي؟" سأل ذات يوم. حاولت أمه إسكاته، لكن أباه ابتسم ابتسامة باهتة وقال:
- "مرض صيدنايا يا بُني."

ابتسم جبريل ابتسامة حزينة وهو يشعل سيجارة ليهدأ، ثم أغلق الخزانة بإحكام.

***

وصل **الظرف البرتقالي الدبلوماسي** الذي يحمل قنبلة بولينا جاكسون إلى محطة عمّان، برفقة ميكانيكيّ أمريكي غليظ يُدعى "ييتس"، لم يكن يعرف ما داخل باب سيارة الباجيرو، ولا يريد أن يعرف.

في جراج السفارة الفارغ، فكّ "ييتس" باب الراكب الأمامي من سيارة ميتسوبيشي باجيرو موديل 2012، ثم أخرج بطارية السيارة وفصل الفيوزات الخاصة بالنوافذ والأقفال.
فتح الباب، وطرق المفصلات بمطرقة، وسحب الغطاء الذي يحمي الأسلاك، وقطعها

بعناية، تاركًا طولًا كافيًا لتوصيلها بالباب الجديد. فكّ المفصلات وألقى الباب القديم على الأرض الخرسانية بلا اكتراث. هذه السيارة لن تعود أبدًا من سوريا.

خرج في استراحة قصيرة ليدخّن في حرارة الصحراء اللافحة. كانت أشبه بقلعة محروقة بالشمس. رمى السيجارة قبل أن تصل الفلتر — فالجوّ حارّ لدرجة تمنع حتى التدخين. عاد والعرق يبلل قميصه.

أخرج الباب الجديد من الظرف البرتقالي، حمله للحظة، فشعر بوزنه. ثم قارن بينه وبين القديم. الطلاء متطابق، الوزن نفسه. مهما كان داخل هذا الباب، فهو ليس مدرّعًا، هذا أكيد.

عاد إلى عمله، وصل الأسلاك، وتأكد من توصيل السلك المميز بشريط أصفر إلى نظام كهرباء الباب، كما ذُكر في التعليمات. أثناء عمله لاحظ غياب توصيلات نظام الصوت، وكاد يتفحصه بدافع العادة، ثم تراجع. إذا أرسلوا بابًا كهذا من لانغلي إلى عمّان خصيصًا، فالأفضل ألا يعرف.

كانت المفكات تنزلق في يده المبللة بالعرق، فمسح كفّيه على بنطاله أكثر من مرة.

حين انتهى، أعاد البطارية إلى مكانها، ونظر إلى ساعته: خمسٌ وأربعون دقيقة، مع استراحة التدخين. ليس سيئًا أبدًا مقابل ليلة مجانية في الفورسيزونز.

جمع أدواته، ثم أغلق باب السيارة برفق شديد ليتأكد من إحكامه.

***

كان **رامي** يعرف جيدًا ألا يسأل "سام" عمّا في السيارة التي قادها لتوّه من عمّان إلى دمشق.

جلبها إلى معرض عائلته، أزال لوحاتها كما أُمر، ووضع بجانبها باجيرو أخرى مطابقة تمامًا. تفحّصهما بعين خبيرة. الحمد لله، متطابقتان.

جلس في مكتبه يدخّن ويأكل البيتزا بانتظار الفنيّ.

وصل الرجل عند العاشرة مساءً — قصير القامة، عابس الملامح، جبينه دائم التجهم. اسمه **طارق**، أحد عملاء محطة دمشق. خضع لاختبار كشف الكذب، موثوق، وميكانيكي بارع لا يطرح الأسئلة... مزيج نادر في دمشق.

أشار رامي إلى السيارة القادمة من الأردن:

– "ذلك الباب... إلى تلك السيارة."

أومأ طارق، وأعاد العملية نفسها التي قام بها "ييتس" في عمّان. أنهى العمل في ساعة وغادر.

نظر رامي إلى الباجيرو: لوحات سورية، تسجيل سوري، وبابٌ من وكالة الاستخبارات.

قادها بحذر إلى طرف المعرض، متجنبًا أي مطبّ، ثم وضع على زجاجها الأمامي لافتة صغيرة كتب عليها:

"بيعت."

ثم أرسل إشارة إلى "سام".

الفصل التاسع والعشرون

العبوة الآن في يد الله. جلس أبو قاسم وسارية في غرفة النوم داخل البيت الآمن، يخططان لموت رجلٍ آخر، بينما يتأملان تقارير الاستخبارات التي جمعها شبكتهما في دمشق.

كانت تلك المعلومات قد اشتُريت بثمنٍ باهظ، وبمالٍ قليل. ثلاثة من المتطوعين الذين نقلوا الأخبار اختفوا في أقبية صيدنايا، وأحدهم على الأقل لقي حتفه تحت التعذيب – كما أكّد أحد جواسيس الأمير داخل السجن.

لكن معظم تلك المعلومات لم تكن سوى ملاحظاتٍ متناثرة بلا انتظام، كتبها جهاز استخباراتٍ بدائي: سجلٌّ لنشاط علي حسن من يوم الاثنين إلى الأربعاء، ثم فراغ يمتدّ لأسابيع. أما التقرير الذي وصف الاجتماع الذي قدّم فيه جبريل الشاي، فكان لافتًا بدقّته. كذلك الخريطة التي رسمت طريق رياض شاليش، رئيس فرع ٤٥٠ في مركز الدراسات والبحوث العلمية، أثناء عبوره المدينة في الغد. ولهذا أحضروا سارية وبندقيتها إلى دمشق.

ألقت سارية بالأوراق على الأرض وقالت:

– «انتهيت من الدراسة. نحن جاهزان. بقدر ما يمكن أن نكون جاهزين.»

بدأ أبو قاسم يقول شيئًا، ثم سكت حين رأى ظلَّ الصمت يكسو وجهها. كانت لحظات ما قبل القتل تجعلها ساكنةً دائمًا. فحين ينتهي التخطيط، تسكت، ولا ترغب حتى في سماع صوته.

كان هو – على العكس – كثير الكلام قبل العمليات، يحاول بالكلمات تهدئة توتره، وهو ما كانت لا تطيقه. قالت له ذات مرة:

– «تتحوّل حاجاتي إلى غرائز بدائية قبل الصيد: أريد أن آكل، أن أنام، أن أضاجع

زوجي، وأن أصلّي. القتل لا بدّ أن يتم، لكن حين أعرف ما عليّ فعله، لا أريد أن أتكلم بعد ذلك.»

قتلَ أبو قاسم عشراتٍ – وربما مئاتٍ – من الرجال والنساء والأطفال بعبواته الناسفة، لكنه لم يستطع يومًا أن يتذكر وجوههم، وكان يجد في ذلك عزاءً. أما سارية ، فكانت تنظر في عيون ضحاياها المئة واثنين وأربعين قبل أن تلفظ أرواحهم. تلك الحميمية كانت تمنحها يقيناً بأن من قتلتهم يستحقون الموت: كانوا من الحرس الجمهوري أو الشبيحة أو المرتزقة الفرس.
كانت تقول:
– «إن لم أقتلهم أنا، فمن؟»
وكان هو يعلم أن ذلك يمنحها سلامًا داخليًا عميقاً. وهكذا جلست الآن، في صمتٍ مهيب.

جلب خبزًا يابسًا وعدسًا من المطبخ، وأكلا على الفراش متقابلين.
فكّر أن إيمانه أضعف من إيمانها. فلا بد أن يكون كذلك، لأنه لا يعرف إن كان سيرى وجهها بعد هذه الليلة في الدنيا أو في الآخرة. راحت الأفكار تتيه في رأسه عن حياةٍ أخرى، يشيخان فيها معًا، وأطفالهما يملأون البيت صراخاً وضحكاً.
ومع ذلك – ها هو هنا.
حياته أخذت مدارها: رجل أعمال، فمطلوب، فقياديّ متمرّد، فقاتلٌ مأجور، فقاتلٌ جماعي.
تساءل في نفسه: كيف سيحكم الله عليه؟
وتذكّر حلب... بدايات الانتفاضة، قبل أن تصبح حربًا. قبل المجازر، قبل القنابل، قبل أن يفقد روحه.

***

في حلب، كانت النظرة الأولى إلى المتظاهرين نظرةَ ازدراء. لم يكونوا فقط خونة، بل فقراء أيضًا.
طلاب جامعاتٍ، وفلاحون من الريف المتديّن، بلحى طويلة وأثوابٍ قذرة وروائح لا

تُحتمل. خمسون عامًا من الذلّ والسلب على يد آل الأسد جعلت في صدورهم دينًا للانتقام.

لم يكن أحدٌ من عائلة أبي قاسم يشبههم. كان أبوه – صاحب معمل نسيج ناجح – يقول بازدراء:
– «هؤلاء الحمقى سيخربون علينا تجارتنا.»
وكان على حقّ، لكنه لم يكن يعلم أن ابنه سيكون هو من يُشعل النار.

في البداية، بقيت العائلات السنيّة الثرية على الحياد. كان أبو قاسم يعمل مع والده ويسافر إلى تركيا كثيرًا، وهناك كانت له عشيقة وخمرٌ وسجائر. أمّا سارية ، فبقيت في حلب، لا ترتدي الحجاب، لا تصلّي، وكان يكرهها في سرّه، زواجًا مفروضًا ورحمًا عاقرًا.

ثم جاءته الدعوة إلى الثورة على يد نادٍ من نوادي المخابرات، لا من الثوار. لم يُضرب هو، بل أحد أصدقائه في الجامعة. رأى جثته بعد أيام، منتفخة، مزرقة، لا تُعرف ملامحها.
في الجمعة التالية خرج في المظاهرة الأولى. كان المشهد احتفالًا: أناشيد، لافتات، فرحٌ بالحرية. أكثر من عشرة آلاف يهتفون. عندها صدّق أن الأسد سيسقط كما سقط مبارك وبن علي. وفي الأسبوع التالي، اصطحب سارية ، ووجدا في تلك الثورة معنى للحياة لم يعرفاه من قبل. انضمّا سرًّا إلى «اللجان التنسيقيّة».

لكن أحد المخبرين وشى به. وجاءت المخابرات.
دخلوا معمل والده وهم يحتفلون بتكريم موظفٍ قديم. اقتحم الضابط المكان وطالب بلقاء خاص مع الأب والابن.
احمرّ وجه الأب غضبًا. وفجأة، رمى أحد العمال مطرقة فأصابت الضابط في رأسه فمات.
اشتعل الجحيم. أطلقت المخابرات النار، فقُتلت امرأة تنظّف الأرض. ثم سقط ستة من عناصر الأمن وثلاثة وثلاثون عاملًا. أُخرج الأب من مكتبه وأُلقي من الطابق الثاني، ثم أُحرق المصنع بمن فيه.

هرب أبو قاسم و سارية تلك الليلة إلى ريف حلب، حيث وجد الأمير– زميله القديم الذي خرج من السجن حديثًا.

***

في معسكر الأمير اكتُشفت موهبة سارية صدفةً في ميدان الرماية.
قال الأمير:
– «بدل أن تنجبي أطفالًا للعالم، أُرسلتِ لتحصدي أطفال الكفّار.»
ومنذ ذلك اليوم أصبحت «حصّادة الموت الأسود».
عادا إلى حلب بعد شهر، يقاتلان تحت راية الجهاد. وهناك، في حرب الخنادق، أسّس أبو قاسم مشاغل المتفجرات، فقد إصبعه، ونجا من البراميل، وأكل لحم الجرذان، وشهد الطاعون، حتى لم يبقَ فيه رجاء.

***

وضع الطبق الفارغ جانبًا ومسح يديه بالفراش. نظرت سارية إلى الباب المغلق ثم إلى الشراشف.
ابتسم بخفوت، وخلع سرواله، ثم خلعت هي سروالها والتحما بصمتٍ كثيف، يخنقان أنينهما بأفواه بعضهما.
نامت بعدها عارية فوق الأغطية تهرب من حرّ الليل، أما هو فظلّ يراقب صدرها يصعد ويهبط حتى بزغ الفجر، حامدًا الله على رحمها العقيم، فليس لهما أن يورّثا هذا الجحيم لطفلٍ بريء.

***

استيقظ على همسها وهي تتلو السور التي تصف أول معركةٍ خاضها جيش الإسلام، تقرأ بنغمةٍ مرتعشة:
– «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.»
قال أبو قاسم بصوتٍ خافت:
– «الله أكبر... الله أكبر.»

مدّ يده على بطنها فشدّت أصابعه.
تابعت تلاوتها:
- «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.»
قال مجددًا:
- «الله أكبر... الله أكبر.»
ثم ختمت:
- «ذُوقُوا فَإِنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ.»
قبّل جبينها، فقبّلت خدّه، ووقفت لتلبس قميصها.

***

كانا بحاجةٍ إلى شقةٍ يختبئان فيها، ومع ذلك أحسّ أبو قاسم بوخزة ندمٍ وهو يشاهد الرجل العجوز يسقط.
طرق فهد الباب بزيّه العسكري، ففتح الشيخ بابَه مبتسمًا:
- «أهلاً بزميلٍ في السلاح، تفضّل.»
لكن فهد صوب المسدس إلى رأسه وقال ببرود:
- «اصمت وإلا متَّ.»
ابتسم الرجل بخفوتٍ كأنما توقّعها، وأشار لهم بالدخول. دخل أبو قاسم و سارية خلفه وأُغلق الباب.
صاح الشيخ:
- «افعلها سريعًا، يا بني. لا مال عندي ولا أسرار.»
قال أبو قاسم وهو يفتّش بنظره المكان:
- «أأنت وحدك؟»
أجاب الشيخ وهو يمسح شعره الأشيب:
- «نعم، وحدي. كنت في المخابرات الجوية ثلاثين عامًا. ارتكبت نصيبي من الجرائم، والآن جاء دوري.»
زقزق العصفور في القفص. أطلق أبو قاسم النار. سقط الرجل ورأسه مثقوب.

***

جلست سارية إلى جواره خلف الطاولة، البندقية الروسية متكئة على حافة النافذة تطل على الشارع المزدحم. نزعت حجابها لتتنفس.

راقب أبو قاسم الطريق عبر منظاره، والريح تلسع الزجاج بذرات الرمل. قالت:

– «الرياح متقلبة.»

رنّ هاتفه.

– «قائد، لقد خرج من المبنى. السيارة تطابق المواصفات.»

– «تم. عشرون دقيقة.»

نظرت إلى مقياس الريح وقالت:

– «عشرة كيلومترات في الساعة هنا، وستة عند نقطة الإصابة.»

حسبت الانحراف والهبوط، ثم نظّفت مزلاق البندقية وأعدّتها.

ثم غطّت رأسها بالحجاب مجددًا، وهمست بدعائها للضحايا المئة واثنين وأربعين، واستعدّت لأن تُضيف إليهم الرقم مئة وثلاثة وأربعين.

رنّ الهاتف مرة أخرى:

– «القائد، مرّوا من موقعي، أربعة في السيارة. لا أميّز الهدف.»

تمتم غاضبًا.

قالت سارية:

– «سنحتاج طلقتين لضمان اليقين. واحدة في المقعد الأمامي، والثانية تخترق المقاعد إلى الخلف.»

أطلّت بالمنظار: سيارة «لكزس» سوداء، لوحتها صفراء الرقم «٩٧٦٠١١٢».

قال:

– «إنها هي.»

بدأ تنفسها يهدأ استعدادًا للطلقة. شهيقٌ عميق، زفيرٌ تام، وثبات.

دعت الله أن تهدأ الريح.

فهدأت.

توقفت السيارة عند التقاطع.

ضغطت الزناد.

***

سمع داوود حدّاد تهشّم الزجاج، ثم دفء الدم يغمر وجهه وعنقه. صرخ، لا يرى شيئًا، والضغط يكاد يفجر أذنه، وصوت البوق يملأ الكون.

حاول أن يفتح الباب فلم يقدر. الزجاج يتساقط عليه، والسائق يهوى بين المقعدين.

تذكّر ابنته الصغيرة «رزان» في فستانها الأصفر. لم يتذكر ملامح «منى».

***

سحبت سارية المزلاق وأخرجت الطلقة الثالثة، وحمدت الله على الحصاد.

جمعت البندقية وأجزاءها في الجراب، ونزعت حجابها.

قالت:

- «مئة وخمس وأربعون.»

أومأ أبو قاسم برأسه، وقبل أن يغلق الباب عاد بخطوات بطيئة، أغلق عيني الشيخ القتيل، بينما كانت صفارات سيارات الأمن تقترب من بعيد.

الفصل الثلاثون

كان العم داوود في حالةٍ مستقرة حين وصلت مريم إلى **مستشفى تشرين العسكري** لزيارته.
كان له غرفة معقّمة خاصة، غارقة في ضوءٍ صناعيٍّ قاسٍ. نافذتها الوحيدة تُطلّ على زقاقٍ يعجّ بالقطط الشاردة. جلست رزان على كرسيٍّ قابلٍ للطيّ بجانب السرير، تقرأ رواية بينما كان داوود نائمًا. أما الممرضة، فكانت تعبث بالمحلول الوريدي وتبتسم لمريم وهي تقف عند الباب.

كانت رزان أول من اتصلت بها لتخبرها بالخبر، وكان صوتها مرتجفًا إلى حدٍّ جعل مريم بالكاد تفهم ما حدث. جاء الاتصال الثاني بعد أن تأكد الأطباء من أن إصابات داوود ليست خطيرة.

قالت مريم وهي تدخل الغرفة:
– "كيف حاله؟"

نهضت رزان واحتضنتها بقوة.
– "بخير، فقط متعب. أزالوا آخر شظايا الزجاج بعد الظهر. يقولون إنه كان محظوظًا... لا رصاص."

حاولت أن تبتسم، لكن وجهها خانها.

جلست مريم على كرسيٍّ بجانبها، تراقب صدر عمّها وهو يعلو ويهبط مع كل نفس. سحبت الكرسي حتى صارت بجانب رزان، وأسندت رأسها إلى كتفها.
قالت بصوتٍ خافت:
– "هل عرفوا من المسؤول؟"

أجابت رزان:

- "لا أدري."

قالت مريم وهي ترفع رأسها قليلاً:

- "هل اعتذرتِ له يا رزان؟ أعني... على صمتك معه."

تجمّعت دمعة في عين رزان السليمة، وأبعدت رأس مريم عن كتفها لتجلس مستقيمة، تشهق بخفة.

قالت بصوتٍ متعب:

- "ليس الآن، أرجوكِ يا مريم."

أومأت مريم، ووقفت تتأمل النافذة المتسخة. في الخارج كانت هناك حاوية نفايات، وقطط تتقافز فوق الإسفلت المتشقق، ثم قططٌ أخرى. وحين التفتت، رأت عيني داوود مفتوحتين.

كان رأسه وعنقه ويداه ملفوفة بالضمادات حتى بدا كالمومياء. ومع ذلك، ابتسم وقال بصوتٍ مبحوح:

- "مريم."

اقتربت منه، وقبّلت البقعة الوحيدة غير المغطاة على جبينه، ثم سحبت كرسيها وجلست إلى يمينه، بينما أمسكت رزان بيده اليسرى.

قال داوود بصوتٍ متقطع بين أنفاسٍ متعبة:

- "يقولون إنني سأكون بخير. العمليات نجحت... كان الكثير من الزجاج... أما شاليش..."

توقف فجأة، وحدّق في وهج الأضواء الفلورية في السقف.

كانت مريم قد سمعت بعض التفاصيل من داخل القصر بعد مكالمات رزان المذعورة: كان داوود، ورئيسه **رياض شاليش**، ومسؤول آخر من مركز الدراسات والبحوث العلمية، في طريقهم إلى **مكتب الأمن** لحضور اجتماع، حين تعرضت سيارتهم الرسمية لنيران قنّاص. وكان داوود الناجي الوحيد.

وبمقتل شاليش، صار عمها المرشّح الأبرز لتولّي قيادة **الفرع ٤٥٠**.
كانت تعلم أن **سام** ووكالة المخابرات المركزية سيرحّبان بهذا التطور كفرصةٍ لمعرفة المزيد عن المركز.
لكنها وهي تنظر إلى عمها الحبيب ملفوفاً بالضمادات، شعرت أن فكرة الترقية تلك تجلب معها خزيًا لاذعًا.

قالت بهدوء:
– "كيف تشعر يا عمّي؟"

ابتسم قليلاً وقال:
– "بخير. أعطوني دواءً ممتازًا."

وأشار بذقنه نحو كيس المحلول، ثم أغمض عينيه.

سألته مريم:
– "هل لديهم خيطٌ يقود إلى الفاعلين؟"

فتح داوود عينيه ببطء، وبحث بعينيه عن رزان.
– "المتمرّدون، طبعًا... المعارضة."

شعرت مريم بحرارة وجه رزان عند سماع الكلمة، بما تحمله من تلميحٍ بأن أصدقاءها في اللجان التنسيقية يتحمّلون جزءًا من المسؤولية.
لكن داوود كان يعلم، كما تعلم مريم، أن جماعات الاحتجاج لم تفعل هذا به.

تجهمت رزان ولم تقل شيئًا، مكتفيةً بتشديد قبضتها على يده.
نظرت إليها مريم بامتنانٍ لصمتها، ثم سألت:
– "أيّ متمرّدين؟"

قال داوود:
– "لا يعرفون على وجه اليقين. لكننا التقطنا مؤخرًا حديثًا عن أن ميليشيا **زهران علوش** في دوما أرسلت فرقًا إلى وسط المدينة لاغتيال مسؤولي الحكومة ونشر الفوضى."

أغمض عينيه من جديد، وأطلق أنفاسًا متقطعة خشنة.

دوما.
الكلمة وحدها نقلت مريم إلى تلك الليلة مع **أم أبيها**.
والآن، وهي تنظر إلى عمّها الحبيب، أدركت أن الهوّة بينهما قد اتّسعت حتى استحال ردمها.

ذلك هو الشيطان الكامن في جوهر هذه الحرب:
أناس طيبون عاشوا متآلفين لسنوات، أصبحوا الآن يذبح بعضهم بعضًا.

تذكّرت العجوز وزوجها اللذين رعياها مع رزان في دوما دون أن يكونا ملزمين بذلك.
والآن، فرقة اغتيال من دوما كادت تقتل عمها في الشارع، رغم أنه...

توقفت، وتذكّرت زيارته للنفق.
ثم عادت صورة **فاطمة** إلى ذهنها، ومعها الوجع القديم، لأنها كانت تعلم أنها هي الأخرى متورطة في خضم ذلك الدوران الجهنمي للعنف.

كان الأمر سيتطلّب ملايين من المثاليين أمثال رزان كي يكسروا القوى التي جمعت العائلات والطوائف والإثنيات في مواجهة بعضهم بعضًا.
نظرت مريم إلى رقعة عين رزان ووجه عمها الملفوف بالضمادات، واشتدّ بها البكاء.

قبّلت جبين عمها، واحتضنت رزان بقوة، وبكتا معًا بينما غفا داوود مجددًا.
ضمّتها مريم، وتركت الدموع تنساب على ظهرها، ولم تسمع سوى شهقاتهما المتقطعة وصوت جهاز القلب المنتظم في زاوية الغرفة.

***

في المنزل، كانت **مريم** تقف أمام دولابها، ممسكة بدبوس شعر.
فتحت درج المجوهرات وأخرجت العقد الذي أهداها إيّاه **سام** في بيت الأمان، وحدّقت في الياقوتة الزرقاء.
وجدت الفتحة الصغيرة خلفها، كما أرشدها، وأدخلت الدبوس حتى سمعت نقرة

خافتة.
ثم وضعت العقد حول عنقها، وأغمضت عينيها، تتنفّس بعمق حتى انتفخت رئتاها بالهواء.

ارتدت فستاناً أسود بسيطاً بأكمامٍ تصل إلى منتصف الساعد، يُخفي تفاصيل جسدها، بينما استقر العقد على القماش علي رقبتها.

كان **عطية** قد نفّذ تهديده بعقد اجتماع متابعة، وهي لم تكن راغبة ـ في أن تقع عيناه على العقد، لكنها كانت تدرك أنه سيفعل.
خرجت من شقتها، تتفقد كالعادة رموز الطبشور السرّية على الجدران، ولم تجد شيئًا هذا الصباح.
تابعت سيرها نحو المكتب، تُعيد ـ في ذهنها حركات المراقبة التي تعلمتها ـ في فرنسا، متسائلةً إن كانوا يتعقّبونها، ومتى سيقرر عطية، مرةً أخرى، أن وقت موتها قد حان.

***

حين اقتربت من **مكتبه**، قاومت الرعب بخيالٍ بارد: صورة هذا البيدوفيلي وهو يموت على يدها، دماغه يتناثر بضربةٍ من هراوتها.
لكنها كانت تعرف أن موته الحقيقي، إن نجحت هي وسام، سيكون بعيدًا عن الأعين... ـ في أقبية الأمن الرطبة، قبل أن يُسلَّم إلى المشنقة لتنهي الأمر.

الآن، اجتماعٌ منفرد مع عطية لمراجعة عملها ضد المجلس الوطني.
فرصتها لتصوير المكتب بأكمله عبر كاميرا العقد، كما قال سام.

كان عطية يرتدي بدلة سوداء فاخرة، ربطة عنقٍ خضراء فاقعة — لونٌ كان سام ليصفه بأنه "فظّ مبتذل".
كادت تبتسم.

أشار لها بالدخول، وعيناه مثبتتان على صدرها.
لكنها لم تتأثر. ابتسمت، مدركةً أن انشغاله ذاك يمنح الكاميرا زوايا مثالية لوجهه ومكتبه وموضع جلوسه.

كان المكتب بسيطًا على نحوٍ مدهش، لا أماكن كثيرة يمكن إخفاء شيءٍ فيها: مكتب بلا أدراج، أريكة رقيقة الوسائد، طاولة وثلاثة كراسٍ، ورفّ كتب بدا واعدًا.

لاحظت حقيبة جلدية سوداء أنيقة عند قدميه.
أشار لها بالجلوس على أحد الكراسي، ثم جلس مقابلها عند الطاولة، وأمسك بأحد الملفات يقلّب صفحاته بصمت.

بدأت بالكلام، لكنه أشار بيده لتصمت، واستمر يقرأ.
في ذهنها، تخيّلته مطروحًا على الأرض، تركله في وجهه بعد أن ركلته في موضعٍ مؤلم، ثم تخنقه بالعقد — أغلى سلك خنق في العالم.
ابتسمت بلطف وهي تراقب الغرفة، وحرّكت جسدها قليلًا لتلتقط الكاميرا الجانب الأيمن من مكتبه حيث علبة سيجارٍ خشبية صغيرة، لكن ما أرادته حقًّا كان لقطة واضحة للحقيبة السوداء.

أسقطت قلمها عمدًا على الأرض.
انحنت لتلتقطه، مائلةً بعقدها نحو الحقيبة للحظةٍ وجيزة، ثم عادت إلى مقعدها.
كانت تشعر بنظراته تلاحق جسدها، فاستدارت بهدوء وجلست.

كان يحدق فيها، ثم وضع الأوراق جانبًا، واتكأ إلى الخلف، يفرك عينيه بتعبٍ مصطنع.

قال:
– "ما زلت حائرًا يا مريم... لا أستطيع فهم كيف قتلتِ الثلاثة جميعًا. وأين الجثث؟ لا أثر لهم. تبخروا. مذهل حقًا."

صفّر بخفةٍ وصفق بيديه معجبًا.

واصلت ابتسامتها المصطنعة، تتساءل إن كان عليها أن تنكر.
لكنها آثرت الصمت، رغم أن كل خلية في جسدها كانت تصرخ: *اهربي... الآن.*

تابع وهو يتأملها:

– "لم يكونوا الأفضل مهارةً، لكنهم كانوا ثلاثة، ومع ذلك... أتصور أن عنصر المفاجأة كان لصالحهم. ربما كان معك أحدٌ في فيلفرانش؟"

تخيّلت أن تقول: *كنت مع عشيقي من الـCIA، قتلناهم سويًا، ثم تخلص الأمريكيون من الجثث.*

لكنها أغلقت دفترها وقالت بهدوء:

– "لا أدري عمّا تتحدث."

وقفت لتغادر، مستفيدةً من الزاوية الأخيرة التي تكشف الحقيبة الجلدية، لكنه أمسك بذراعها.

نظرت إلى يده، ورأت بوضوح نقطة الأعصاب بين الإبهام والسبابة — ضربةٌ واحدة هناك كانت كفيلة بتحريرها.

لكنها بقيت ساكنة.

قال بصوتٍ بارد:

– "لديّ عيون في كل مكان يا مريم... كل مكان. وسيُكشف كل شيء في النهاية. بلّغي بثينة أيضًا... قولي لها ذلك منّي."

ثم أطلق ذراعها وصفعها على مؤخرتها وهي تستدير.

تطلّب الأمر منها جهدًا خارقًا لتمنع نفسها من تحطيم وجهه، واكتفت بأن ركّزت على العقد، تلتقط به آخر لقطاتٍ واسعة للمكتب وهي تغادر.

وفي ذهنها، كانت ترى الكاميرا ذاتها بعد زمنٍ ما، وهي تسجّل جسد **عطية** المعلّق على المشنقة، وقدماها تتأرجحان في نسيم صيفيٍّ متأخر.

الفصل الحادي والثلاثين

احتسى براين هانلي قهوته من «دانكن دوناتس» جرعةً واحدة، وتقلّص وجهه وهو يرى الرسالة تصل إلى صندوق بريده في برنامج «لوتس نوتس». تبا لـ«لوتس نوتس»! أهو عام 1995 من جديد؟
كان فريق الـFDT، التابع لوكالة الاستخبارات المركزية والمسؤول عن تمرير المعلومات إلى أجهزة الاستخبارات الأجنبية، مصدر صداعٍ مستمر في الأيام الأخيرة، إذ كان يعيد تحرير التقارير والملخصات الاستخباراتية التي ستُسلَّم إلى جهاز «الموساد» الإسرائيلي ضمن اللقاء الدوري لتبادل المعلومات حول سوريا. كانت الختمة المطلوبة بعبارة «REL ISR» إجراءً ضرورياً، لكنها في الوقت نفسه حاجزاً مثيراً للإحباط، رغم أن الإسرائيليين هم أقرب شركاء قسم الشرق الأدنى في الوكالة.

ومع ذلك، شعر هانلي بالارتياح حين رأى أن موظفي الـFDT أخيراً قد أنهوا مماطلتهم، ووافقوا على تمرير صورٍ مطبوعة لأنشطة «مركز الدراسات والبحوث العلمية» في جبلة، إضافة إلى تقريرٍ مثير حول تجربةٍ محدودة باستخدام غاز السارين. كان تقارير الموساد عن سوريا عادةً ممتازة — بل أفضل من تقارير الـCIA نفسها في بعض الأحيان — لكن الإسرائيليين فقدوا مؤخراً بعضاً من أفضل مصادرهم في التنصّت الإلكتروني. سيُعجبهم هذا بالتأكيد.

طبع هانلي صور جبلة بالألوان، وعدّ ذلك لمسة أنيقة، ثم وضع النسخ في حقيبته السوداء المقفلة، وقضى بقية الصباح يطالع مقالاتٍ عن مباراة «كل النجوم» في دوري البيسبول، قبل أن يقود سيارته إلى مبنى تابع للوكالة في «تايسونز كورنر»، لا يُميّزه سوى الحراس المسلحين بالبنادق وهم يتحققون من الشارات الزرقاء عند المدخل. كانت الـCIA تفضّل إبقاء الإسرائيليين بعيداً عن المقر

الرئيسي؛ فقد وقعت قبل أعوام حادثة مزعجة عندما تسلل ضابط ارتباطٍ من الموساد في المقر يوماً كاملاً دون إشراف.

قاد داني دايان، نائب رئيس محطة الموساد في واشنطن، الوفد الإسرائيلي ذلك الأسبوع. جلس دايان يصغي بانتباه بينما كان ضباط الـCIA يثرثرون، يراجع المواد المطبوعة بين قضمةٍ وأخرى من كعكةٍ ضخمة اشتراها من «كورنر بيكري». وبعد أكثر من ستين اجتماعاً مشابهاً مع الأمريكيين، صار يتساءل ما إذا كان هذا المخبز مملوكاً للوكالة نفسها. لا بأس، فكّر وهو يقضم لقمة جديدة؛ كان يرى أن رجال ونساء لانغلي يعملون حالياً على ملفاتٍ مثيرة.

بعد انتهاء العرض، وفي طريقه إلى موقف السيارات، استوقف دايان الشاب الأمريكي.

قال دايان:

– عمل رائع هذا الشهر. أبلغ تحياتي للفريق في دمشق.

أجاب هانلي وقد بدا عليه الارتباك:

– سيسعد جوزيف بسماع ذلك، إنه يتولى القضية الأهم هناك.

ثم احمرّ وجهه وهو يدرك أنه تسرّع بالكشف عن تلك المعلومة. أومأ دايان وابتسم نصف ابتسامة بينما كان الشاب يهرع إلى سيارته «تويوتا بريوس» وينطلق مسرعاً.

في شقته تلك الليلة، شرب دايان ثلاث كؤوس من النبيذ بينما كان يدون ملاحظاتٍ ويلتقط صوراً لوثائق الـCIA بكاميرا مجهرية صغيرة. أخرج الفيلم ووضع اللفافة الدقيقة في كيسٍ محكم، كما يفعل تجّار المخدرات، ثم طوى ملاحظاته ووضعها في كيسٍ مماثل. كانت الوكالة قد زودته بحقيبة جلدية تحتوي على حجرة سرية، لكنه كان يكره ثقلها المزعج، فحشر الأكياس في ملابسه الداخلية. وضع قبعة فريق «واشنطن ناشيونالز» وغادر متوجهاً إلى متنزه «روك كريك».

كانت «يكاترينا» في انتظاره على مقعدهما المعتاد. ابتسم لها، فعبست وهي ترى ما فعله. أخرج الأكياس من ملابسه ودسّها في حجرها وجلس بجانبها.

قالت:

– عاداتك في القمار هي ما ورّطك في موسكو يا داني، فلماذا تصرّ على المقامرة بحياتك هنا أيضاً؟

رفض أن ينجرّ إلى الجدال، خشية أن يفوته ما تبقى من مباراة «الناتز (فريق واشنطن المحلي للبيسبول)».

قال بهدوء:

– ستجدين هناك تقارير مثيرة مطبوعة، تتعلق بسوريا... المركز العلمي، والأسلحة الكيميائية. ذهبٌ خالص.

قالت «يكاترينا» وهي تشير إلى الجنرال «فولكوف»، رئيس قسم الشرق الأوسط في جهاز الـSVR وضابط الحالة المسئول دايان في موسكو:

– سيسرّ الجنرال فولكوف بذلك.

كان الاسرائيلي دايان جاسوسا للروس .

هزّ دايان رأسه قائلاً:

– ثمة أمر آخر. بعد الاجتماع، تحدثت مع أحد الضباط الصغار لديهم. يبدو أن شخصاً يُدعى جوزيف هو من يدير القضية التي صدرت عنها تلك التقارير. إنه في دمشق.

سألته:

– جوزيف ماذا؟

أجاب:

– لست متأكداً، لكن أظن أن هذا هو اسم عائلته. سيعثر قسم التتبع عليه بالتأكيد.

ثم شدّ القبعة على رأسه، ونهض، وغادر المكان.

الفصل الثاني والثلاثون

أزاح **رستم** تقارير الـSVR جانبًا، ومسح شاربه بيده بينما أنهى شرب شايه. واتباعًا لبروتوكولات الأمان الصارمة الخاصة به في التعامل مع الوثائق، وضع صور الأقمار الصناعية المسروقة من وكالة الـCIA لمجمّعه في **جبلة**، مع بقية تقارير الـSVR، داخل الخزنة.

كيف اكتشف الأمريكيون ذلك؟ لم يغادر أحد مجمع جبلة منذ شهور. لقد أنتجوا مئتي طن من غاز السارين، والآن عليهم الإخلاء. من الذي أبلغ الـCIA؟ جاسوس آخر داخل **مركز الدراسات والبحوث العلمية (SSRC)** مثل مروان غزالي؟ يبدو أن شقيقه الصغير لا يستطيع أداء عمله كما ينبغي.

ظنّ أنه سيطر على غضبه، فوضع يده على مقبض الباب ليغادر مكتبه ويلتحق بـ**بثينة** على الغداء. ثم تذكّر **شاليش**. كان متورطًا بعمق في العملية الكيميائية، ويمكن استبداله في نهاية الأمر، لكنه مع ذلك كان يؤدي دورًا لا بد منه. كان رستم بحاجة إلى خبرة فرع 450 في غاز السارين لتنفيذ هجومه، وكان شاليش هو من يدير هذا الملف، وها هو الآن قُتل برصاصة قنّاص في وسط دمشق. فمن يرقّيه مكانه الآن؟

توقف رستم وأخذ نفسًا طويلًا بطيئًا، وأدرك خلاله أنه لم يكن مستعدًا بعد لمواجهة العالم الخارجي. كانت أيامه الأخيرة سيئة حقًّا.

***

لم يتذكّر رستم متى أمسك بسكين فتح الرسائل به، لكن حين أفاق وعاد اليه وعيه ، كان يغرسه عميقًا في وسادة الأريكة. وبحلول الوقت الذي دخل فيه مساعده

متسائلًا:

- "ما الأمر يا قائد؟"

كان قد مزّق وسادتين وثلاثة مخدّات، وتناثرت حشواتها في الهواء، بينما قائد **الحرس الجمهوري السوري** راكع على الأرض يشرّح وسادة حريرية مزيّفة.

شتم رستم وهو يلهث، إذ لم يكن يدرك أنه كان يصرخ. همس للمساعد:

- "ما الذي كنت أقوله؟"

قال المساعد متردداً:

- "القصة نفسها، سيدي... حماة."

نهض رستم، والتقط قطعة من الحشوة عن قميصه الكتّاني، ولوّح للمساعد أن يغادر. كانت **بثينة** تقول إنه يروي تلك القصة أحياناً وهو نائم، تماماً كما أخبرهم الطبيب النفسي أن **باسل** كان يفعل.

انسحب رستم إلى فيلّته الجبلية قرب الحدود اللبنانية لقضاء أيام أكثر برودة وبعض اللهو مع بثينة. خرج إلى التراس المحاط بأشجار اللوز فوق **بلودان**، المنتجع الجبلي الخاص بنخبة سوريا. مكان لم يكن ليحلم في طفولته بأكثر من العمل فيه نادلًا، وها هو اليوم سيّده.

رأى **بثينة** تستلقي تحت الشمس، وإلى جانبها دلو فيه زجاجة نبيذ أبيض نصف فارغة. كانت ترتدي نظارات شمسية ضخمة من "شانيل"، تبتسم له وهي تتشمّس. ما زال يسمع خفقان قلبه بعنف، وتساءل إن كان لقاءٌ جسديٌّ معها سيهدئه قليلًا. لكن هاتفه رنّ. نظر إلى الشاشة بمزيج غريب من الانزعاج والغضب والقلق. كان المتصل هو **الرئيس**.

***

أثبتت تقارير الـSVR صحة حدس **علي** بخصوص الأمريكي **صامويل جوزيف**. كان يمتلك معلومات ملموسة، إن استُخدمت بذكاء فستقود حتمًا إلى القبض على جاسوس. أعاد قراءة تعليق الـSVR مرة أخرى للتأكد:

"أحد عناصر الـSVR استدرج اسم ضابط عمليات الـCIA المسؤول عن ملف سوريا والمتعلق بموقع جبلة واستخدام الأسلحة الكيميائية المزعوم في إفرة. المصدر الفرعي وصفه باسم (جوزيف). تتبّعات الـSVR تشير إلى أن الضابط المقصود قد يكون مسؤول الاتصالات في السفارة الأمريكية بدمشق، صامويل جوزيف."

ثم تذكّر اختبار السارين ومجمّع جبلة. أشعل علي سيجارة ووقف عند النافذة. لم يكن أخوه مجرد متوحّش، بل مختلّ عقليًّا أيضًا، ولم يكن يملك وسيلة لمحاربته. لقد خسر أمام رستم في كل معركة منذ أربعين عامًا، وكان يعلم متى يُهزَم. أياً يكن هذا البرنامج، فقد نال موافقة الرئيس. لكن الغاز؟! وبكمياتٍ هائلة كهذه؟ ماذا كانوا يخططون له؟

كلما هاجم النظام، ردّ المتمرّدون بضراوة. لم يرَ مخرجًا من الحرب، ولا طريقاً إلى نصرٍ فيها. ولم يكن هناك شبكة أمان في حال الهزيمة. لذلك قرر التركيز على التحقيق، الشيء الوحيد الذي يمكنه السيطرة عليه.

أخرج من درج مكتبه المذكرة التي كتبها بشأن تحقيق صامويل جوزيف. كان قد صاغها في نوبة إلهام بعد وصول تقارير الـSVR. أراد أن يضعها بين يدي **الأسد** ليحصل على الأفضلية على رستم. وجّهها إلى **فخامة الرئيس بشار الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية**، وأرسل نسخة منها إلى رستم أيضًا. كانوا سيناقشونها في القصر بعد ثلاثين دقيقة.

أعاد علي قراءة المذكرة. ظن أنها قد تنجح، ثم خطر له سؤال عن جدواها، لكنه طرد الفكرة من رأسه.

فتح **كنعان** الباب وقال:
– "هل أقدّم لك مزيدًا من القهوة قبل أن نذهب؟"

ابتسم علي وهو يضع نسخاً إضافية في حقيبته.
– "ولماذا تسأل؟"

- "تبدو مرهقًا."
- "ستبدو أنت كذلك لو كان رستم أخاك."

***

في دمشق قصران. الأول **قصر الشعب**، بناء ضخم من الحجر الرملي على جبل المزة يطل على المدينة كقلعة إقطاعية. نادرًا ما يزوره الرئيس إلا عند الحاجة لالتقاط الصور الرسمية مع الزوّار الأجانب.

الثاني هو **قصر المالكي**، المقر العائلي للأسد، يقع في حيٍّ تحيط به الأشجار وسط دمشق. أشبه ببيت كبير أكثر منه قصرًا. الغرف أنيقة لكنها بسيطة، وبعيدة عن الفخامة. ألعاب أطفاله مبعثرة على الأرض. وعلى خلاف **صدام حسين** و**آل سعود**، لا يستعرض **بشار الأسد**— كوالده— ثراءه بالقصور الكثيرة أو المراحيض الذهبية أو الحمّامات الرومانية المزيّفة أو اللوحات المثيرة التي تغطي الجدران. حتى وسط الحرب، ترى أسرة الأسد نفسها تجسيدًا لإرادة الشعب، وينبغي عليها الحفاظ على مظهرٍ متواضع.

وصل علي أولًا، وأُدخل إلى غرفة الجلوس في قصر المالكي وقدّم له الشاي. الاجتماع سيُعقد في مكتب الرئيس الشخصي البسيط، بين أرائك جلدية متشققة، وتلفزيونات صامتة، وجهاز مشي، وأكوام من الملفات والأوراق. أنهى كوبه حين خرج سكرتير الرئيس من المكتب قائلًا:
- "فخامة الرئيس بانتظارك، لكننا ما زلنا ننتظر القائد. يمكنك الصعود، سيدي اللواء."

طرق علي الباب مرتين، فجاءه صوت رقيق بلكنة لثغاء خفيفة:
- "تفضل، تفضل."

كان **بشار الأسد**، رئيس الجمهورية العربية السورية، يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق زرقاء معدنية لامعة، تلك التي يختارها عادة عند مقابلاته مع القنوات الأوروبية. جلس أمام جهاز الـMac حين دخل علي. ثلاث أرائك جلدية شكّلت حرف (U) حول

طاولة مطعّمة بالصدف تتناثر فوقها مجلات، وخلف الأريكة مكتب تكدست عليه ملفات وأوراق صحف، وتلفاز يعرض قناة الجزيرة على الحائط.

كان الأسد طويل القامة نحيف البنية، لكن في مظهره شيء غريب، كأن أعضاء جسده جُمعت من أشخاص مختلفين. علم علي من تقارير الاستخبارات أن بعض شعارات الثوّار تسخر منه بلقب **"الزرافة"**. عنق طويل، فك ضعيف، شارب خفيف، وأذنان أقرب إلى الجان منهما إلى البشر. لكن كل تلك النقائص—مظهره، لثغته، خلفيته الطبية الأكاديمية (فقد تدرّب في لندن كطبيب عيون)—كانت تصب في مصلحته، لأنها تجعل خصومه يستهينون به، وذلك خطأ فادح دائمًا. فالرئيس، مثلهم جميعًا، قاتل.

جلس علي على الأريكة، وجلس الأسد بجانبه. كانت نسخة من المذكرة، مليئة بعلامات التصحيح الحمراء، على الطاولة أمامهما.

قال الأسد:

- "عمل ملهم، علي."

سأله عن **ليلى** والتوأمين، فردّ علي بالسؤال عن **أسماء** وأطفال الرئيس. لم يسأله عن العشيقات، رغم علمه بهن، فالرئيس—رغم مظهره الغريب، أو ربما بسببه—كان يستخدم العلاقات النسائية لإظهار فحولته أمام النخبة السورية. وكان علي يحرص دائمًا على إبعاد ليلى عن مجال رؤيته.

نظر الرئيس إلى ساعته الذهبية.

دخل **رستم** مرتديًا بزته العسكرية الكاملة، تتلألأ على كتفيه النياشين السوداء وتعلو رأسه القبعة الحمراء الخاصة بالحرس الجمهوري. انقبض فكّ علي حين رأى **باسل** يدخل خلفه، أيضًا بزيّه العسكري. هؤلاء القتلة المنظّمون بدا عليهم الوقار مؤقتًا في تلك اللحظة، بقمصانهم المكوية وأيديهم التي تصافح الرئيس بأدب، كأنهم ليسوا من ذبحوا في الثمانينيات حين نال باسل لقب **الكومانتشي**.

كان الرئيس يشاهد تقريرًا من الجزيرة عن تمويل السعودية للفصائل السورية، فشتم آل سعود، وأغلق التلفاز، وأشار لهم بالجلوس.

قال:

- "لدينا اختراق أمني. يجب القبض على العميل بسرعة. علي، ما الخطة؟"

قال علي وهو يفتح ملفه:

- "بالطبع يا سيادة الرئيس، هل قرأ الجميع المذكرة؟"

تمتم رستم باستياء، فعرف علي أنه غاضب لأنه لم يُدعَ للمشاركة في صياغتها. هزّ باسل رأسه نافيًا، ولعق شاربه.

تابع علي متجاهلًا باسل:

- "وضعت ثلاث مسارات للقبض على الخائن، ينبغي تنفيذها بالتوازي لتحقيق أقصى فاعلية."

أسند الأسد مرفقه إلى الطاولة، وسند ذقنه على يده بينما يتفحص المذكرة مجددًا، ثم بدأ يسأل:

- "في المسار الأول، تعتقد أن عميلك يستطيع الحصول على جهاز من الـCIA؟"

- "ممكن. وقد يتمكن أيضًا من جمع معلومات عن عملياتهم في دمشق. أظن أن صامويل جوزيف سيلتقط الطُعم المناسب إن وُضع أمامه."

- "وهل الإيرانيون واثقون من قدرتهم على استغلال الجهاز؟"

- "نعم، سيدي الرئيس، بشرط أن تزودهم الـCIA بجهاز حقيقي متصل بالقمر الصناعي، لا موقع إلكتروني كما في حالة غزالي."

توقف قليلًا وقال بجمود:

- "الإيرانيون واثقون من قدرتهم على استغلاله."

سأل الأسد:

- "هل اخترت من ستديره ضد هذا الـ"صامويل جوزيف"؟"

- "لدينا عدة أسماء، أحدهم التقى به سابقًا. أعتقد أننا نستطيع التحرك بسرعة، وليس لدينا ما نخسره بالمحاولة."

دخل السكرتير حاملاً صينية عليها فطائر وأكواب شاي بخارها يتصاعد، وضعها وغادر.

قال رستم بعد رشفة:

– "الأسلوب جميل، لكنه معقّد، والنتيجة غير مضمونة. وهذا الشاي... حلو أكثر من اللازم، كالعادة في القصر."

ضحك الأسد بضحكته الرفيعة.

تابع علي:

– "المسار الثاني أن نزوّد كل من يعرف بأمر جبلة بمعلومة مختلفة ومهمة تكفي لأن تُنقل إلى الأمريكيين. يجب أن تتصل ببرنامجنا الكيميائي، لأن تقارير الـSVR وتعليمات الـCIA على الوثائق توحي أن مصدرهم إسرائيلي وأن محور التبادل هو الأسلحة الكيميائية. بعد ذلك نراقب ما يعود إلينا."

رفع رستم كوبه وشم البخار قائلًا:

– "صحيح أن قائمة المشتبهين ضاقت بعد اكتشاف الموقع. لكن الشاي حلو زيادة، كما قلت."

قهقه الأسد مجددًا، بينما واصل علي:

– "نعرف ثلاث نقاط عن مصدرهم:

أولًا، يعرف بوجود مشروع سري تابع للحرس الجمهوري داخل مركز الدراسات والبحوث العلمية.

ثانيًا، يعرف بتجربة السلاح الكيميائي في إفرة.

ثالثًا، يعرف موقع منشأة جبلة. من يمتلك هذه المعلومات؟"

قال رستم:

– "ربما أربعة أحياء فقط: شاليش، لكنه قُتل. قائد منشأة جبلة ونائبه. جميل عطية، ومدير المركز. الشائعات قد تكون تسرّبت عبر القصر أو المركز أو الحرس، لكن معرفة الموقع تحديدًا تحصر الدائرة كثيرًا."

سأل الأسد:

– "هل أنت واثق من إحكام السيطرة على جبلة؟"

– "واثق تمامًا، إنها أشبه بمعسكر اعتقال."

قال علي بابتسامة باردة:

– "نسيت اسمًا يا أخي الكبير."

حدّق فيه رستم ساخرًا:

– "من؟"

– "بثينة. لديّ طيور صغيرة في هذه الحكومة، وأعرف أنك استخدمتها كواجهة لشراء بعض المواد. ومن يدري ما الذي اطلعت عليه أثناء مهامها... الرسمية أو غير الرسمية."

ابتسم الأسد، مستمتعًا بالمشهد الأخوي العدائي.

لوّح رستم بيده في الهواء غاضبًا وقال:

– "حسنًا، نختبرها إذن."

قال الأسد وهو يشير بيده لإنهاء النقاش:

– "جيد. القادة في جبلة، عطية، مدير المركز، بثينة."

ثم التفت إلى علي وسأله:

– "ما الذي تقترح أن نمرره لهم؟"

مرّر **علي** أصابعه فوق شاربه قائلًا:

– "موقع منشأةٍ أخرى. سنقول إن هناك مركزًا احتياطيًا. الأمريكيون سيرغبون في هذه المعلومة، ولا يلزم أن تصمد القصة إلا بالقدر الكافي حتى تُنقل المعلومة إلى الـCIA. يجب أن يكون مكانًا يمكننا أن نعلم إن حدث فيه شيء، وبذلك نحصل على مسارين لعودة المعلومات إلينا: الأول من خلال تقارير جهاز الـSVR، والثاني إذا قصف الأمريكيون المكان."

قال **رستم** وهو يضغط على فنجان الشاي حتى ابيضّت مفاصله:

– "مستودعات الإمداد."

فأجاب **الأسد**:

– "نعم، ممتاز. مخازن كبيرة بما يكفي لإخفاء معدات إنتاج، ومناسبة لأغراض التخزين."

توقف علي لحظة وهو يتأمل يدي أخيه المتشنجتين، فخطر له خاطر لا يُقاوم، فرصة ليردّ له شيئًا من غيظه القديم:

– "وأنت تعلم يا أخي الكبير أنك من سيتولى إيصال هذه المعلومات لكل شخص. فأنا، بطبيعة الحال، لا علم لي بالبرنامج."

قال **رستم** من بين أسنانه:

– "بالطبع."

تابع **علي** بابتسامة باهتة:

– "وسأكون ممتنًّا لو كتبتَ أسماء المشتبه بهم مقرونةً بمواقع المنشآت التي زودتهم بها، حتى أتحقق من تناسق كل شيء."

لمعت عينا رستم ببرقٍ غاضب، ثم تناول الورقة وكتب بسرعة، ودفعها نحو علي. لمح الأخير آخر اسمين وموقعين قبل أن يضع الورقة في جيبه، عازمًا على فحصها لاحقًا:

جميل عطية – خان أبو الشامات

بثينة نجار – وادي بردى

قال علي بهدوء:

– "شكرًا، يا أخي الكبير."

قال الأسد:

– "ممتاز. الآن، ما هو النهج الثالث؟"

أجاب علي:

– "نحن نعرف ضابط الـCIA الذي يدير الجاسوس. سنخدعه في الميدان بإقناعه بأنه تخلّص من المراقبة، بينما يكون محاطًا بها في الحقيقة. هو الذي سيقودنا إلى عميله."

سأل الأسد:

– "وأتوقع أن عميلك قد يتمكن أيضًا من معرفة متى يستعد لعملية جديدة؟"

قال علي:

- "هذا ممكن يا سيادة الرئيس، لكنه غير مؤكد. فالـCIA عادةً ما تفصل بين المعلومات التي تصل إلى عملائها. لكننا سنحاول."

وأشار **رستم** الآن إلى المذكرة أمام علي، ضاغطًا بإصبعه على الورق للتأكيد:

- "هل أنت متأكد من ضرورة الفريق الروسي؟"

- "نعم، لقد عملوا ضد الأمريكيين لعقود طويلة."

لوّح الأسد بيده مستبعدًا رستم دون أن ينظر إليه:

- "سأتصل ببوتين بعد الظهر. أوافق على هذا."

همس **باسل** شيئًا في أذن رستم بصوتٍ خفيضٍ غامض، ثم التفت الأخير قائلاً:

- "سيدي الرئيس، الخطة شاملة للغاية، لكن لماذا لا نعتقل ضابط الـCIA ونستجوبه حتى يعترف بالاسم؟"

اتكأ الأسد إلى الوراء مبتسمًا، ونظر إلى وجه علي ليرى ردة فعله. كان الرئيس يستمتع بمشاهدة نزاعات مرؤوسيه؛ فذلك يجعله مركز الدائرة، بينما يتناحر من حوله الأطراف. ارتشف مزيدًا من الشاي ثم قال:

- "ما رأيك يا علي؟"

وكان يعرف مسبقًا الإجابة.

رفع علي يده إلى ندبٍ على عنقه وهو يشعر بابتسامة أخيه الساخرة تتسع. ذلك الجرح دائمًا ما يعرف متى يكون في حضرة من خلّفه.

لقد فشل **رستم** في قتل **علي** مرتين.

عندما كان رستم في الثامنة، أدرك أن أمه ماتت أثناء ولادة علي، فكبر علي كراهية الطفل الذي خطف منه أمه وأخذ اهتمام والده وزوجته الجديدة. ذات يوم، قاد علي الصغير - الذي بدأ لتوه في المشي - نحو الدرج ودفعه للأسفل. كذب على والديه وقال إن علي تعثر من تلقاء نفسه.

لم يتذكر علي شيئًا من ذلك، لكنه علم لاحقًا من فم رستم نفسه ليلة محاولته الثانية، الليلة التي قُتل فيها والده وزوجته. كانت تلك نتيجة قرار اتخذه علي وهو في العاشرة: أن يُلحّ على والده ليأخذه في جولة على الجرار الزراعي الذي أحبه كثيرًا.

كانت عائلة **حسن** تمتلك متاجر بقالة وشركة توزيع. افتتحوا فرعًا جديدًا في **حمص** – ثالث أكبر مدن البلاد – التي كانت تمور آنذاك بالاضطرابات. كان العام ١٩٨٠، والإخوان المسلمون يثورون ضد حكم الأسد. قال والده إن الإخوان يريدون أمرين: تطبيق الشريعة، وإبادة العلويين أو حشرهم في الجبال.

في تلك الأيام كان وجود العلويين في حمص جديدًا. وكان والده يردد دائمًا أن نجاح العلويين – *دهاؤنا يا بُني* – هو ما أخرجهم من القرى الفقيرة إلى المدن المزدهرة. لكن الإخوان قاوموا هذا المد، وقتلوا اثنين من عماله في وضح النهار. بعد الحادث افتتح المركز الجديد، وجاءت العائلة من **اللاذقية** للإقامة المؤقتة في شقة بحمص لمتابعة العمل. وكان الجد قد نزل من الساحل ليقيم معهم أيضًا.

تجوّل الأخوان بين الممرات ذات الجدران الجديدة التي تفوح منها روائح الطلاء. كانت البضاعة تملأ المكان: مواد غذائية، قطع غيار، أثاث، أدوات زراعية، وفي وسط القاعة ذلك الجرار السوفييتي الأزرق المخضر الذي كان عشق علي، يجلس فيه يوميًا. وعده والده أن يأخذه في جولة قبل أن يُباع أو قبل عودتهم إلى اللاذقية.

وحين جاء وقت الرحيل ولم يُبع الجرار بعد، رأى علي رستم يحمّل الحقائب فهرع إلى والده باكيًا لأنه لم يفِ بوعده. أراد والده تهدئته، فنظر إلى زوجته وقال إنهم سيبقون الليلة ليحضروا حفلة المحافظ – رغم أن زوجته كانت تكره تلك المناسبات – وغدًا سيأخذ علي جولة على الجرار قبل المغادرة.

غادر والده وزوجته في سيارة **مرسيدس سوداء** ذات زجاج داكن. لم يكن علي يعلم أن ذلك سيكون الوداع الأخير.

نجا السائق، وحكى للقائد العجوز ما جرى: عند عودتهم، اعترض طريقهم رجل بزيٍّ عسكريٍّ يحمل إشارة التوقف. بدا كضابط شرطة وأخبرهم بوجود إطلاق نار قريب، وطلب بطاقاتهم ليتحقق منها. ثم صمت جهازه اللاسلكي قليلًا، وبعد لحظات

دوّت رصاصاتٌ متتابعة اخترقت الأبواب الخلفية. أُخرج السائق من السيارة مذهولًا، ثم أُجلس على الأرض، وأُخرج الوالد وزوجته من المقعد الخلفي، وأُسنِدَت جثتاهما إلى السيارة. أدخل المسلحون بطاقتيهما في أفواههما المفتوحة، وقد كُتب عليهما اسم القرية العلوية التي ينتميان إليها، ليكون المشهد رسالة دموية واضحة.

قال "القائد" للسائق قبل أن يغادر:

- "انقل الرسالة. أخبر الجميع بكل شيء."

في المطبخ، جلس السائق يبكي وهو يروي القصة. وفي تلك اللحظة، خطف رستم سكينًا من الدرج واقتحم الغرفة حيث كان علي يبكي على سريره. جلس فوقه وغرس السكين في عنقه محاولًا أن يذبحه، فقاومه علي ودفع السكين بعيدًا، فانزلقت إلى فكّ رستم وشقّت وجنته. سال لعابه وهو يصرخ:

- "كان ينبغي أن تموت يومها على الدرج! ستموت الآن! أنا الانتقام لأمي وأبي وزوجتيهما!"

ثم سقط عنه فجأة؛ كان الجد قد دخل وضربه بقبضتيه حتى غاب عن الوعي.

في تلك الليلة، حمل الجد عليًّا إلى طبيبٍ ليخيط جرحه، ويداه ما تزالان مغطاتين بدماء حفيده الآخر، وقميصه الأبيض صار أحمر قانيًا.

لم يتحدث الأخان عن تلك الليلة قط، ولن يفعلا. فما الذي يمكن قوله؟ قُتل والداهما، وساهم عليٌّ دون قصد في تلك المأساة، ومات رستم معهم في روحه، ليولد شخصٌ آخر: خصم علي، ومعذبه الأبدي.

رفع علي فنجان الشاي ووضعه بهدوء أمامه، ثم التفت إلى الرئيس قائلًا:

- "إن اعتقال الضابط الأمريكي واستجوابه سيكون مغامرةً خطيرة بنتائج غير مضمونة. لقد اختفى ضابط من الـCIA من قبل في سوريا، ولا أظنهم سيتسامحون مع فقدان آخر. سيعرفون أننا احتجزناه، وسيمارس الأمريكيون ضغطًا فوريًّا لإطلاق سراحه. سيكون أمامنا وقت محدود لاستخلاص الاسم، وقد نفشل. وأتوقع - بالتعاون مع الصهاينة - أن يحاول الأمريكيون عندها القضاء على كل من في هذه

الغرفة، باستثنائك يا سيادة الرئيس. لذلك أرى أن ننفذ الخطة التي في مذكرتي قبل أن نغامر بتلك المخاطرة."

تنقّلت نظرات الأسد بين الأخوين، ثم قال علي وهو يغامر بالاستمرار:
- "إذا كانت المعلومات التي سربها الجاسوس صحيحة، فهي بالغة الحساسية. إن سمحت لي بالسؤال، ما هو الجدول الزمني للجزء العملي من العملية المذكورة في تقرير الـCIA؟ كم لدينا من وقت؟"

التفت الأسد إلى رستم:
- "كم تحتاج من الوقت؟"

قال رستم ببرود:
- "شهر سيكون مثاليًّا. توقف الإنتاج في جبلة بعد انكشافها، وما تبقى مسألة لوجستية. لكنني لا أفهم، يا سيادة الرئيس، لماذا لا نخطف الأمريكي وننتزع منه الاسم عنوة؟"

تدخّل علي قائلًا:
- "سيكون ذلك خارج الحدود المسموح بها."

ثم ندم على كلماته فور خروجها.

زمجر رستم وصاح غاضبًا:
- "خارج الحدود؟ هل جُننت؟ الـCIA تسلّح الإرهابيين الذين يقتلون جنودي كل يوم! أنت تجلس في مكتبك وتلعب دور الشرطي بينما رجالي يُذبحون! زوجتك وتوأماك يعيشان بأمان لأنني لا ألعب حسب القواعد! أنا أقتل هؤلاء المتوحشين متى استطعت وأينما وجدتهم! أقتل شيوخهم وأطفالهم ومواشيهم، ومن ينجُ منهم يأكل العشب ليعيش! أرمي عليهم البراميل المتفجرة، وأقصفهم بالصواريخ، وسأغزوهم بالغاز! إن حكومتنا ما تزال قائمة لأنني أفعل ما يلزم للبقاء!"

ظل **باسل** بلا تعبير، يحدّق في رأس علي كما لو كان يقيّم ذبيحة.

صرخ الأسد:

– "كفى! علي، أمامك شهر لتجد الجاسوس. إن لم نكشفه خلاله، نعتقل الأمريكي. أوافق على بقية ما ورد في مذكرتك."

وقف الرئيس، معلناً نهاية الاجتماع.

قال علي متردداً:

– "سيدي الرئيس، هل يمكنني طلب تفاصيل إضافية عن العملية؟ سيساعدني ذلك في تتبع الجاسوس."

تشنّج فك رستم غضبًا.

تابع علي:

– "لقد أعلن الأمريكيون أن استخدام الغاز ستكون له عواقب. ولا أحد يدري ما يعنيه هذا فعلاً. بل أظن أن الرئيس الأمريكي نفسه لا يعرف. وإن كان تقرير الـSVR دقيقاً، فقد تجاوزنا هذا الخط الأحمر بالفعل دون عواقب، ولكن..."

ابتسم رستم زافرًا من أنفه، وأومأ الأسد له بالكلام.

قال رستم وهو يضغط على الكلمة الأولى:

– "يا أخي الصغير... سنشنّ هجومًا مضادًّا على المتمردين. سنقصف قراهم وأحيائهم وأنفاقهم بالغاز. سننهي الحرب خلال بضعة أشهر. ستكون هذه **خلاصنا**."

عند سماع الكلمة الأخيرة، تهاوت جدران القصر في ذاكرة علي كأنها رماد، فعاد شابًّا في اللاذقية، محققاً في الشرطة، وليلى تحمل التوأمين في بطنها.

رن الهاتف حينها، وذهب ليرى المشهد: ثلاثة صلبان مصنوعة من أعمدة الهاتف، عليها ثلاثة علويين مصلوبين، أيديهم وأرجلهم مثقوبة بمسامير سكك الحديد، ودماؤهم تسيل عند القاعدة. وعندما قبض على القاتل، قال له إنه يريد أن يُشعل سوريا كلها، أن يجعل الساحات مذابح والمباني توابيت مشتعلة، ليُحِلّ نهاية العالم.

"ذاك سيكون خلاصنا"، قال.

قطع صوت الأسد استغراقه في الذكرى وهو يقول بوجهٍ عابس:

- "وعلي، خطتك للإيقاع بالجاسوس بارعة جداً، لكن كن حذرًا، خصوصًا في عمليتك ضد الأمريكي. هناك احتمال لارتداد الأثر وخداعٍ متبادل، وأنت تدرك ذلك جيدًا. سأتصل ببوتين وأطلب رجاله."

قال علي بانحناءة احترام:

- "بالتأكيد يا سيادة الرئيس."

خرج رستم غاضبًا يتبعه باسل، الذي ألقى نظرة أخيرة باردة على علي كأنها تمحيص أخير. رفع علي يده إلى عنقه، يتحسس الندبة التي تنبض. وقبل أن يدخل سيارته، أشعل سيجارة **مارلبورو**، ولاحظ برضا أن يديه لم تكونا ترتجفان.

الفصل الثالث والثلاثون

كانت **بُثينة** تصغر **رستم** بعشر سنوات، وكانت مثله مشحونة بسلاسة السلطة التي تُسكّن الأرواح وتُغريها. كانت معارك النظام الداخلية — تلك المصارعة الرومانية المستمرة — هي الموضوع الأثير بينهما، ومثار شهوتهما الأشد. عادةً ما كانا يستمتعان بالحديث عن أعدائهما، غير أنّ **رستم** تلك الليلة كان يشعر بالخزي من أن يذكر حتى لقائه بـ **علي** والرئيس، فترك **بُثينة** تندفع في هجومها على **جميل عطية**، وهي تشرح له خطتها لخنق الرجل العجوز بقبضتها الحديدية.
عرض **رستم** أن يُكلّف **باسل** بمراقبة عطية، عسى أن يُكشف له مزيد من فضائحه. لكنّ **بُثينة** انزعجت من اقتراحه؛ إذ أرادت أن تُسقط عطية بنفسها، دون أن تُعرّض نفسها لأي خطر. قالت بازدراء:
– "ساديّان يتحسّسان بعضهما في الظلام، أحدهما متحرّش بالأطفال، والآخر يُلقّب بجامع فروات الرؤوس؟ لا يا حبيبي، لا شكرًا لك. أبقِ باسلك مربوطًا بسلسلة. سأتعامل أنا مع عطية."

ثم تبع حديثها الطويل الغاضب ما أيقظ فيه رغبةً كاسحة، وحين قامت لتفتح زجاجة النبيذ الثانية، كان قد حملها بغتةً ورماها على السرير. كانت تلك الليلة انشغالًا لذيذًا يُنسيه مرارة انتصار **علي** في القصر صباح ذلك اليوم.

لم يكن **رستم** رجلًا متأملًا، لكن حتى هو، في فتور الصباح، حين حدّق في بطنه المترهّل ولمس الشعر المتناثر في أذنيه، تساءل كيف يمكن لـ **بُثينة** أن تحتمل هذا الإهمال في جسده. حكّ صدره الكثيف الشعر ونظر إلى جسدها المشدود، بطنها لا يزال مسطّحًا ووجهها مشدودًا متورّدًا بسمرة دافئة. كان هو من دفع تكاليف جراحاتها التجميلية، وقد بدت صفقةً رابحة.

نهض من السرير وارتدى رداءه ودخل مكتبه. كانت الغرفة الفسيحة بمثابة قصر صغير، يعلوها مكتب ضخم من خشب الجوز صُنع من بقايا **ناعورةٍ** قديمة كانت تدور على **نهر العاصي** في **حماة**. جلس وبدأ يراجع تقارير الحرس التابعين للمخابرات عند السفارة الأمريكية. وحين انتهى من قراءة الصفحات الأولى، أسند ظهره إلى المقعد ورفع بصره إلى سطح المكتب وهو يحتسي الشاي.
كان منقوشاً على ساق الخشب اليمنى أنه من ناعورة بُنيت سنة **1361**م لتزويد **الجامع الكبير** بالماء. وعلى مقربة من النقش، تجويف صغير يذكّره بشتاء عام **1982** العنيف، إبّان الحرب الأهلية الماضية، حين كان ملازمًا شابًا. في ذلك اليوم، تحصّن فصيل من **الإخوان المسلمين** في شقة خلف الناعورة مباشرة، وقد حصد قنصهم عشرة جنود قبل أن يأمر القائد — شقيق الرئيس الراحل — **رستم** وفصيله باقتحام المبنى. قاتلوا حتى الظهيرة، مترًا بعد متر، حتى تبادلت المجموعتان النيران عبر خشب الناعورة، فتطايرت شظاياها في الهواء.

وحين بلغوا الشقة، كان **رستم** قد قتل سبعة عشر من الإخوان. داخلها أضاف ستة آخرين، بينهم نساء وأطفال ظلّوا — على نحو لا يُفسَّر — متشبثين بالمقاتلين. وبعد أن سيطروا على المكان، جلس هو و**باسل** يدخّنان السجائر وسط أكوام الفوارغ المعدنية قبل أن يجمعا بقايا خشب الناعورة. ثم جزّا فروة رأسٍ عن كلٍّ من رفاقهم الاثنين والثلاثين الذين سقطوا، يقطعان ويعبّئان حتى منتصف الليل. تلك الليلة استعاد **رستم** أخًا بديلًا في **باسل**، عوضًا عن أخٍ آخر كان قد قتل أباه وأمه كلاهما.

مدّ يده اليمنى على سطح المكتب، يمرّر أصابعه على الخشب ببطء، حتى عثر أخيرًا على الاسم المطلوب في الصفحة الخامسة من التقرير — الصفحة التي تضم صور جميع الموظفين الأمريكيين العاملين في السفارة.

التقط الهاتف وقال لأحد مساعديه:
– "هاتِ لي **باسل**."

وسرعان ما سمع صوت **باسل** المبحوح — حشرجة رجلٍ تمزّق حنجرته بشظايا قذيفة في **حماة** قبل ثلاثة أيام من جمعهما خشب الناعورة.

قال **رستم**:

– "أريد من رجال الميليشيا بعض العمل. ليس الحرس الجمهوري، بل لجان الدفاع الشعبية. نُبقي الأمر غير رسمي. أريد إيصال رسالة إلى الأمريكيين: حشدٌ يثير الفوضى عند سفارتهم لساعاتٍ قليلة. بلا عنف."

أصدر **باسل** صوت تأكيدٍ خشنًا.

تذكّر **رستم** نظراته حين كان يسلخ فروة أحد الإخوان وهو حيّ، فشدّد عليه بصرامة:

– "لا أريد قتلى أمريكيين يا **باسل**. لا حوادث. فهمت؟"

– "نعم، سيدي القائد."

– "استخدم أفضل رجالك."

– "متى؟"

– "في أسرع وقت ممكن."

***

كان **سام** يدخل إلى مكتب **بروكتر** حين تلقّى أحد ضباط أمن السفارة اتصالًا يخبر **رئيسة المحطة** بوجود مظاهرةٍ في الخارج. بضع مئاتٍ من الأشخاص يلوّحون بأعلام **الأسد** وصوره كما لو كانوا متعبّدين في طقسٍ مقدّس.

قالت **بروكتر** عبر اللاسلكي:

– "هل قلت حافلات؟ ماذا يفعل أولئك الأوغاد من المخابرات السورية عند البوابة؟ لا شيء؟ توقّعت ذلك. حسنًا، أنا صاعدة."

خرجت من مكتبها وبدأت تصرخ بالأوامر:

– "نحن الآن في المرحلة الأولى من التدمير! أمامنا دقيقتان فقط لتمزيق كل الوثائق الورقية!"

كانت **المرحلة الأولى** محسوبة على الزمن اللازم لاختراق المبنى من قبل مجموعةٍ معادية والوصول إلى المحطة. قدّر **سام** أن الأمر سيستغرق ثلاث دقائق، لكن **بروكتر** لم تكن تعرف التهاون.

أمرت بتشغيل آلات التمزيق المعزّزة بالأحماض، القادرة على طحن الأقراص الصلبة وخمسين صفحة من الوثائق السرّية في لقمةٍ واحدة. ركض أحد الفنيين يحمل كومةً من الكتيبات التقنية المطبوعة — بلا سبب واضح — وبدأ يُطعمها الآلات كمن يغذّي كسارة خشب.

قالت **بروكتر** وهي تراقبهم:
– "لم نصل بعد إلى المرحلة الثانية — تدمير الوسائط الإلكترونية — لكن أزيلوا كل الأقراص الصلبة وضعوها في الخزانة احتياطًا."

كانت المحطة تحتفظ بترسانة صغيرة من بنادق **M4** وشوتغن تكتيكية ومسدسات **بيريتا** لاستخدامها في ما سمّته **بروكتر** "المرحلة الثالثة من التدمير" — الإخلاء والدفاع عن النفس. قالت وهي تتجه نحو الدرج:
– "سأصعد للأعلى وأعود حالًا... لا أحد يلمس الأسلحة اللعينة!"

سألتها **زيلدا**:
– "ألا تأخذين سلاحًا يا رئيسة؟"
ابتسمت **بروكتر** بسخرية وقالت:
– "آه يا زيلدا... يا طيبة القلب!" ثم أرسلت إليها قبلة في الهواء وغادرت بخطى حازمة.

أخرج **سام** و**زيلدا** الأقراص الصلبة ووضعاها في الخزانة، ثم أشار لها نحو الباب، فأومأت.
أغلق **سام** باب القبو خلفهما، وصعدا إلى الطابق الثاني في مبنى السفارة. هناك بدأت الأصوات تصلهم — هتافات وصراخ وهياج الجموع.

كانت **زيلدا** شاحبة الوجه. اقترب منها **سام** وهمس:
– "لا أسلحة في وضع كهذا. لو قُتل أحد، لجنّ الحشد. وحتى مع السلاح، سنُغلب في النهاية. لا نريد تكرار أزمة طهران أخرى."

في الطابق الثاني، أدخلا الشفرة وفتحا الباب. المكاتب خاوية، والجميع متكدّس عند النوافذ يتطلّعون إلى الساحة.

كانت الجموع ترشق باحة السفارة بالقمامة. طماطم لطّخت الزجاج، فارتدّ أحد موظفي الخارجية مذعورًا. تبعتها رؤوس خسّ بنية اللون، ثم أمطرت الخضروات والثمار العطنة النوافذ كزخٍّ من حجارة، فانتشرت رائحة العفن في القاعة.

تجمّد **السفير** أمام النافذة، وقد بدا عليه الانزعاج؛ إذ كان قد أغضب النظام مؤخرًا بزيارته غير المصرّح بها إلى **حماة** لينضم إلى أحد الاحتجاجات. وكان، مثل **سام** و**بروكتر**، يتقن العربية، لذا فهم أن الحشود تهتف واصفةً إياه بـ"الكلب".
ابتسمت **بروكتر** بازدراء.

قال أحد ضباط الأمن الدبلوماسي مشيرًا إلى السور المحيط بالسفارة:
– "هذا سور مقاوم للتسلّق، من أحدث الطرازات."
ردّت **بروكتر** بتهكّم:
– "ممتاز! يقاوم التسلق فقط؟ هذا كافٍ!" وهي تحاول رؤية الشارع من خلال الزجاج الملطّخ.

رأى **سام** رجلين يبدآن في تسلّق السور. اندفع بعض مشاة البحرية [31] نحوهم يحاولون ثنيهم، لكنهما واصلا الصعود، ثم تبعه آخران. لاحظ **سام** أن أحدهم يحمل علمًا سوريًّا. اقتربت منه **زيلدا** وسألته بقلق:
– "لن يدخلوا المبنى... أليس كذلك؟"
هزّ رأسه وقال:
– "لا أظن. انظري إلى العلم؛ يريدون فقط إنزال علمنا ورفع علمهم. لو كانوا ينوون الاقتحام لأرسلوا عددًا أكبر."

دخل الأربعة إلى الباحة وبدأوا يلوّحون بحركاتٍ بذيئة نحو الأمريكيين عند النوافذ. قالت **بروكتر** ساخرة:
– "سوركم المقاوم للتسلّق لم يُبدِ مقاومةً تُذكر."

لم يحاول آخرون الصعود، فانسحب الجنود إلى الداخل. بعدها قُذفت **عتلة حديدية** فوق السور، تلقّاها أحد الرجال وبدأوا تسلّق مبنى القنصلية نفسه.

---

[31] **مشاة البحرية** (المارينز) :يتولى أفراد من مشاة البحرية الأمريكية مهمة توفير الأمن الداخلي للسفارات والقنصليات الأمريكية حول العالم، وهم مسؤولون عن حماية الموظفين والمباني والمعلومات السرية داخل المجمع الدبلوماسي.

وصل أحدهم إلى السطح، تسلّق سارية العلم، وأنزل العلم الأمريكي ليحلّ محلّه علم **الجمهورية العربية السورية**. رفع العلم الأمريكي عاليًا في الهواء وسط تصفيق الحشود، ثم دسّه في سرواله.

قال أحد موظفي الشؤون السياسية بقلق:

- "الرجل الذي معه العتلة الآن فوق السطح."

كان موقعه يمكّنه من النظر إلى الأمريكيين عبر فناءٍ ضيق، فأخذ يوجّه إليهم إشاراتٍ فاحشة، ثم بدأ بتحطيم مكيف الهواء، متوقفًا بين حين وآخر ليصيح نحو الجماهير في الشارع.

توقّف دوران المراوح فجأة.

قالت **بروكتر** غاضبة وهي تمسح العرق عن جبينها:

- "ذلك الشبيح الحقير... والحرارة الآن مئة وخمس درجات!"

الجزء الرابع

مُطارَد

الفصل الرابع والثلاثون

راقب **علي** تموّجَ الحرارة فوق إسفلت مدرج مطار المزة العسكري، الواقع في الأطراف الغربية من دمشق. كان يدخّن سيجارة "مارلبورو"، غير أنّ الحرّ قد أزال عنها أيّ متعةٍ تُذكر. نظر إلى ساعته؛ كان سوارها مبللًا بالعرق. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف، وكان من المفترض أن تصل **الفرقة الروسية** في أي لحظة.

خلع **كنعان** سترته وربطها على كتفه قائلاً:
– "ربما ننتظر في الداخل، سيدي؟"

هزّ **علي** رأسه ومسح الأفق بعينيه.
– "لا، سنستقبلهم بأنفسنا."

أنزل نظارته الشمسية قليلًا عن أنفه ليتّضح له المشهد حين لمعت في السماء شرارة معدنية صغيرة. أطفأ سيجارته بينما كانت الطائرة الضخمة تخترق الغيوم، وأشعل أخرى وهو يقول:
– "ها هم قد وصلوا."

كانت الطائرة تحمل اثني عشر ضابطًا من جهاز **الاستخبارات الخارجية الروسية (SVR)** ومن **جهاز الأمن الفيدرالي (FSB)**، وهو جهاز الأمن الداخلي الروسي. جميعهم خَبِروا التعامل ضد وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، سواء في موسكو أو في واشنطن. وكان هؤلاء الروس –بقيادة اللواء **فولكوف** من الـSVR– سيتعاونون مع **علي** لتعقّب ضابط الـCIA **صامويل جوزيف** والإيقاع به.

رفع **علي** يده ليحجب الشمس عن وجهه فيما كانت مراوح الطائرة تتباطأ حتى توقفت تمامًا وبدأ باب الشحن الخلفي بالانفتاح.

كان **فولكوف** –الذي عرفه علي من ملفات المخابرات– أوّل من نزل المنحدر نحو الحرّ الخانق، يتبعه رجاله وهم يسحبون صناديق ضخمة من جوف الطائرة. كان يرتدي نظارات طيار وسترة جلدية بنية اللون. مسح **علي** كفّه المتعرّق ببنطاله بسرعة حين رآه يقترب، ثم مدّ يده لمصافحته وقال بالإنجليزية:
– "مرحبًا بك في سوريا، سيادة اللواء."

ابتسم **فولكوف** قائلًا:
– "إنه لمن دواعي سروري أن أكون هنا في مهمة بهذه الأهمية."

ثم أشار إلى رجاله الذين كانوا يدفعون الصناديق والعُدَد إلى الخارج. ضحك وقال مازحًا:
– "نصف الحمولة فقط فودكا!"

ضحك **علي** بدوره.

نزلت من الطائرة أول شاحنة مراقبة، ثم تبعتها صناديق أخرى، فشاحنتان إضافيتان محمّلتان بمعدات الرصد والتتبع.

قال **فولكوف** وهو يتلذّذ بإنجليزيته الركيكة المليئة بالألفاظ الفظة:
– "سنُفسد حياة هذا الأمريكي تمامًا!"

وأضاف بفخر:
– "قضيت فترتين في واشنطن أعمل ضدهم، وهذه ستكون مهمة مشرفة حقًا."

قال **علي** مبتسمًا وقد أعجبه الرجل على الفور:
– "سنتعقّبه معًا."

ثم سأل **كنعان** بالعربية وهو ينظر إلى الشاحنات المتتابعة:
– "وأين سنضع كل هذه المعدات يا سيدي؟"

***

تحمّل **كنعان** خسارة مكاتبه القديمة أفضل مما كان **علي** يتوقع. فمع حلول المساء، كان الخبراء الروس قد استقرّوا تمامًا وبدأوا العمل بلا إبطاء.

أنشؤوا مركز قيادة مكتملًا بالخرائط وشاشات الفيديو والصوت الحيّة وصور **صامويل جوزيف** ومعاونيه المعروفين أو المشتبه بهم في الـCIA.

قال **علي** ضاحكًا وهو يشير إلى صناديق الفودكا وصور الأمريكي المعلقة في كل زاوية:
– "يبدو أننا سنسكر ونقتل الأمريكي!"

فأجابه **فولكوف** بجدٍّ مدهش:
– " ليست فكرة سيئة، يا علي، ليست سيئة أبدًا."

تعاونت المجموعتان على رسم طرق **صامويل** المعروفة في دمشق، وسار الروس مع **علي** ورجاله في تلك الشوارع ليفهموا كيف كان يفكّر ضابط الـCIA حين يتحرك.
وبينما فضّل رجاله الأكمام القصيرة، ظلّ **فولكوف** يرتدي سترته الجلدية رغم حرّ الصيف اللاهب.

راقبوا مكالمات **صامويل** الهاتفية واتصالاته عبر "سكايب"، وتسلّل أحد رجال **كنعان** إلى شقته لزرع أجهزة تنصّت فيها. ذكر التقرير أن الشقة شبه فارغة إلا من ثلاجة مليئة بزجاجات **Coors Light** المهربة.

نظّموا أنفسهم في سبع فرق: أربع روسية وثلاث سورية، قادرة على العمل بالسيارات أو سيرًا على الأقدام أو من مواقع ثابتة.
قام الروس بتدريبهم على أساليب عمليات الـCIA في "المناطق المحظورة"، شارحين كيف يتصرّف الأمريكيون في موسكو، وكيف يتحركون في الشوارع، وكيف تُنفّذ إجراءات "الكشف والمراقبة المضادة".
قال أحدهم:
– "تستمر العملية الواحدة حتى خمس عشرة ساعة أحيانًا، يا لواء، مجهدة حتى للمراقب نفسه!"

عرض الروس تسجيلات حقيقية من موسكو، وأدخلوا السوريين في تدريبات المحاكاة التي يتلقاها مجندو الـSVR والـFSB الجدد. وكان **كنعان** يدون الملاحظات بحماس الطالب المتفوق.

أجروا تمارين ميدانية. أدّى أحد ضباط الـSVR دور **صامويل** في سيناريوهات الملاحقة، فكان يحاول خداعهم والتملّص منهم بين أحياء دمشق، بادعاء أنه "أسود" كما يقول مصطلح وكالة الاستخبارات المركزية.
في البداية كان يتفوّق عليهم، لكنهم سرعان ما أتقنوا تتبّعه، يضعون التقديرات الصحيحة، ويراقبونه في منزل آمن وهم يتابعون بثّ الفيديو لرصد أي عميل يظهر بعد انتهاء الاجتماع الوهمي.

صاروا يتتبعون **صامويل** طوال اليوم بلا انقطاع. كان **فولكوف** يعرف كيف يراقب الهدف مع الحفاظ على المسافة بينه وبين الفرق. وكان يتمتّع بحسّ مدهش في اختيار نقاط المراقبة الثابتة، ودقّته لا تفتر أبدًا – رغم أنه كان يشرب الفودكا كأنها ماء.

وأثناء جلسات السجائر والفودكا –وكان **علي** يحاول أن يتعوّد على طعمها أو على الأقل على تحمّلها– روى **علي** لـ**فولكوف** خطته التي اقترحها على **الأسد** للإيقاع بـ**صامويل جوزيف** وكشف جاسوس آخر.

قال **فولكوف** بإعجاب:
– "فكرة ملهمة يا علي... خطرة، لكنها ملهمة."

ورفع كأسه:
– "نخب ذلك."

***

كان **علي** يحدّق في صورة **الأسد** المعلّقة فوق الباب حين قطع طرقٌ خفيف ذلك الصمت المهيب. كان الوقت متأخرًا، لكنه ما إن رأى **كنعان** يدخل حتى أدرك أن الرجل يحمل أخبارًا سيئة. أشار له بالجلوس وقدّم له سيجارة.

قال بهدوء:

- "تكلّم، فالوقت متأخر."

جلس **كنعان** وأشعل السيجارة.

- "نضع ثقةً كبيرة فيها يا سيدي، ربما أكبر مما ينبغي."

رفع **علي** حاجبه:

- "هل لديك مخاوف؟"

- "نطلب منها الكثير أيضًا."

- "سوف تُكافأ، أوضحتُ هذا. ولسنا نريد أن يطول الأمر، فهي ليست ضابطة استخبارات مدرّبة، ولا أنوي تشغيلها أكثر من شهر. متى حصلنا على الجهاز، تنتهي مهمتها."

رمق صورة **الأسد** مجددًا وأطفأ سيجارته.

- "هل قالت شيئًا؟ هل حدث أمر ما؟"

نفث **كنعان** سحابة دخان كثيفة فوق رأسه وقال:

- "لم يحدث شيء، لكني أعتقد أنه علينا أن نتأكد أكثر من أننا نسيطر عليها تمامًا."

وقف **علي** ووضع يديه على مسند الكرسي، ثم انحنى قليلًا ليُريح ظهره. تقدّم نحو رفّ الكتب، فتح أحد كتب الزراعة التي تركها الساكن السابق، ومسح الغبار عن غلافه بإصبعه. كان يثق بحدس **كنعان**. أعاد الكتاب إلى مكانه وسأله:

- "هل لديك اقتراح؟"

أومأ **كنعان** برأسه وقال:

- "الأساليب المعتادة يا سيدي. لقد اعتقلنا خمسة من أقارب **فاطمة وائل** لمساعدة **بثينة نجّار** في عملها ضد المعارضة، ويجب أن نفعل الشيء نفسه هنا. لن نؤذي أحدًا بالطبع، لكننا نريد فقط أن نرسل الرسالة: نحن المسيطرون."

ثم أضاف وهو يطفئ سيجارته:

- "ابن عمها، مثلًا، طالب علنًا بتنحّي الرئيس."

أصدر **علي** صوتًا خافتًا من أنفه وقال:

– "جهّز الأوراق اللازمة."

ثم أشعل سيجارة جديدة، والدخان بدأ يملأ الغرفة مجددًا.

الفصل الخامس والثلاثون

كانت **مريم** تحرّك يدها بالحركة المألوفة التي علّمت نفسها إياها منذ مراهقتها، بينما كان خيالها يسبح على شواطئ **الريفييرا الفرنسية**، تتخيّل نفسها وهي تقود **سام** نحوها. ومع تصاعد الموجة اللذيذة التي غمرت جسدها، شدّت بقبضتها حتى لمحت ظفرًا مدمّى في يدها اليمنى، فانتزعتها تلك الرؤية بقسوة من أحلامها لتعيدها إلى **دمشق** قبل أن تفرّغ جسدها من توتّره. كانت تحبس أنفاسها دون أن تشعر، فشهقت فجأة والتقطت أنفاسها، ثم تمتمت بلعنة وهي تُشعل الضوء وتجلس لتتفقّد إصبعها.

جلست على حافة السرير، ونظرت إلى ستائر نافذتها وهي مغلقة تمامًا – لا إشارة هذه الليلة – فحلّ الغثيان محلّ المتعة. كان كلّ شيء فوق طاقتها. كانت بحاجة ماسّة لذلك التنفيس اللعين. إنّها ممزّقة بين اتجاهات كثيرة: عملها مع وكالة **CIA**، وضغطها على **فاطمة وائل**، وحاجتها لحماية نفسها من **جميل عطية** و**علي حسن**. وحده العمل مع **سام** كان يمنحها إحساسًا بالحرية، أمّا البقية فكانت تجعلها تشعر كأنها شريرة.

ارتدت ثيابها واتصلت بـ**رزان**:

– "هل ستأتين، حبيبتي؟"

سمعت في الخلفية أصوات الأجهزة الطبية في غرفة عمّهما **داوود** في المستشفى. كانت مريم ستغادر إلى **إيطاليا** في الصباح، وكانت بحاجة إلى قريبتها قبل الرحيل. لم تكن **رزان** تغادر المستشفى كثيرًا، لكن مريم علمت أنها هي الأخرى تحتاج إلى استراحة. أرادت أن تقضيا المساء سويًّا؛ تشربان أكثر مما يجب، وتدخّنان، وتنامان على الأريكة وهما تشاهدان فيلمًا أمريكيًا.

قالت رزان:

- "سأكون عندك خلال عشرين دقيقة، حبيبتي."

حين وصلت، كانت تحمل زجاجة **فودكا بلفيدير** بدل النوع الرخيص الذي كانتا تشربانه في أيام الجامعة.

قالت وهي تمرّ بجانب مريم نحو الشقة:

- "نحن بحاجة إلى هذا، يا فتاة."

في المطبخ، شربتا كأسين متتاليين، ثم خرجتا إلى الشرفة الضيقة تدخّنان، والزجاجة معهما. تركتا الكؤوس في الداخل.

قالت مريم وهي تتكئ على الدرابزين:

- "هل كان العم بخير اليوم؟"

- "نعم، أفضل كل يوم."

ثم أضافت رزان:

- "الأطباء يظنّون أنه سيخرج خلال أيام. هل سمعتِ عن الترقية؟"

أظلم وجهها.

لقد تمّ اختيار العم **داوود** لقيادة الفرع (٤٥٠)، خلفاً لرئيسه المقتول **شاليش**.

قالت مريم:

- "نعم، سمعت."

كانت وكالة **CIA** و**سام** سيُبتهجان بذلك، لكن **رزان** كرهت الخبر. أما **مريم** فكلّ ما أرادته أن يخرج عمّها من المستشفى.

قالت **رزان** لتغيّر الحديث:

- "وسفرك الى إيطاليا؟"

- "سفرية عمل تخص القصر."

سحبت **رزان** نفسًا من سيجارتها وهي تعبث بلا وعي برقعة العين التي كانت تغطي عينها. عادةً ما تنسى **مريم** وجودها، لكن أحيانًا يصعب تجاهلها.

سألتها:

– "كيف تشعرين الآن؟"

أجابت **رزان** بسخرية مرّة:

– "بخير، ما عدا أن عيني لم تعد تعمل."

شدّت **مريم** على الدرابزين. بدأت الفودكا تؤتي مفعولها أخيرًا. أخذت رشفة مباشرة من الزجاجة وناولتها لرزان، التي شربت بدورها ثم أعادتها إليها. وبينما أخذت **مريم** رشفة أخرى، أدركت أنها رغم حبّها القديم لقريبتها، فإنها للمرة الأولى تفهمها تمامًا. لقد كانت **رزان** حرة بدورها. وفي تلك اللحظة، أرادت مريم أن تصارحها بكل شيء.

قالت:

– "تعلمين أني أحبك، أليس كذلك؟ أحبك أكثر من القصر نفسه."

ابتسمت **رزان** قائلة:

– "نحن أختان، بالطبع أعلم."

سألتها مريم فجأة:

– "هل تواصلتِ مجددًا مع لجان المتمرّدين يا رزان؟"

ابتسمت **رزان** ابتسامة ماكرة وأخذت رشفة أخرى من الفودكا.

– "وإن فعلت؟"

قبّلتها **مريم** على خدّها وهمست في أذنها:

– "عندها سأقول إني أحبك أكثر."

فتحت **رزان** فمها بدهشة، لكن **مريم** وضعت يدها عليه وقبّلت جبينها قائلة:

– "لديّ شيء لك."

كان فستاناً أسود بأكمام متموّجة اشترته من **باريس** ولم تجد اللحظة المناسبة لتقدّمه لها. الليلة كانت اللحظة المناسبة.

في الداخل، خلعت **رزان** ثيابها وارتدت الفستان، ومرّرت يديها على أطرافه بينما كانت **مريم** تغلق السحاب من الخلف. استدارت **رزان** حول نفسها مبتسمة:
- "إنه رائع، حبيبتي. أعشقه."

أخذت **مريم** رشفة أخرى من الفودكا، ثم ناولت الزجاجة لـ**رزان**، التي راقبت يديها وهي تمسكها. وقفتا متقابلتين في غرفة المعيشة لحظةً ثقيلة.

قالت **رزان** وهي ترفع عينيها نحوها:
- "تعلمين أني أحبك أكثر من لجان المتمرّدين، أليس كذلك يا أختي؟"

أومأت **مريم** برأسها.

- "هل تعلمين هذا حقًا يا أختي؟"

انزلقت دمعة على خدّ **مريم**، فمسحتها وقالت بصوت متهدّج:
- "أعلم يا حبيبتي، أعلم."

تناولت **رزان** رشفة أخرى ووضعت الزجاجة على الطاولة، ثم اقتربت من **مريم** وأمسكت بيدها اليمنى تمرّر إصبعها برفق على جرحٍ قديم فيها.

قالت:
- "إذن، أخبريني... لماذا تفعلين هذا؟"

كانت الفودكا قد بدأت تسيطر على **مريم**، واضطرت لتقاوم الرغبة في أن تبوح بكل شيء. ظلت صامتة، تحدّق في أصابع **رزان** وهي تمرّ على يدها برقة. سقطت دمعة أخرى.

قالت **رزان** وهي تلتقط الزجاجة مجددًا:
- "ربما بعض الفودكا الإضافية تساعد؟"

رفعت الزجاجة، شربت منها، ثم بدأت تمدّها نحو **مريم**.

لكن حينها دوّى **طرقٌ عنيف** على الباب.

ذلك الطرق. عرفته **مريم** فورًا، وكذلك **رزان** التي أسقطت الزجاجة على الأرض وتراجعت خطوة إلى الخلف وهي تهمس:

– "يا إلهي... يا إلهي..."

تسمّرت **مريم** تنظر إلى الباب متمنّية أن يكون ما يحدث حلمًا. أن يظهر أحدهم ليقول:

"عذرًا يا آنسة حداد، لقد أخطأنا الشقة. سوء فهمٍ فادح."

إلا أن الطرق تكرّر.

– "مكتب الأمن! افتحي فورًا!"

تمتمت **رزان** بخوفٍ وهي تتراجع:

– "يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي..."

فتحت **مريم** الباب، فوجدت أمامها **علي حسن** ومعه نائبه **كنعان** – ذاك الذي اتصل بها أول مرة بعد عودتها من فرنسا ليسألها عن **سام**، قبل أن يبدأوا بضغطها والسيطرة عليها حتى امتلكوها تمامًا. لاحظت أن أعينهما تتجاوزها نحو **رزان** في الداخل.

قال **علي** بتهذيبٍ بارد:

– "مساء الخير يا آنسة حداد، هل يمكننا الدخول؟"

سمحت لهما بالدخول. بدا **علي** هادئًا، بينما ثبت **كنعان** نظره على **رزان** التي كانت تتراجع أكثر فأكثر. أخرج **علي** ورقة من جيبه وبدأ يقرأ بصوتٍ رسمي. فهمت **مريم** الكلمات الأولى:

"بمرسومٍ رئاسيٍّ وبموجب الصلاحيات المخوّلة بقانون الطوارئ لعام١٩٦٣ ، تُدان رزان حداد بإضعاف الشعور الوطني..."

ثم لم تعد تسمع شيئًا بعد ذلك، سوى **صرخةٍ**، وصوت احتكاك ساقي قريبتها النحيلتين بالقماش الحريري للفستان وهي تهرع نحو باب الشرفة.

كانت **رزان** تحاول فتح الباب، أصابعها المرتجفة لا تطاوعها بسبب الخوف والخمر، وفهمت **مريم** عندها ما كانت تحاول أن تفعله. بدأ الباب ينفتح، فانطلقت **مريم** نحوها وهي تصرخ باسمها كما فعلت في المظاهرة من قبل – لكن هذه المرة، كان إنقاذها يعني تسليمها إلى **المخابرات** بدلًا من إنقاذها منهم.

سمعت حركة **علي** و**كنعان** خلفها، لكنها كانت أسرع بخطوة، وانطلقت عبر باب الشرفة خلف **رزان** مباشرة.

تمزّق الفستان حين رفعت **رزان** ساقها اليمنى فوق السور وهمّت بالقفز، غير أن **مريم** أمسكتها من كتفها وجذبتها بقوة إلى الداخل. سقطتا معًا، ظهر **رزان** على صدر **مريم**، حتى اصطدم رأس **مريم** بالسجادة قرب الباب.

لم ترَ بوضوح، لكنها شعرت بـ**رزان** تحاول أن تفلت من قبضتها، فضمّتها بقوة أكبر.

صرخت **رزان** باكية:

– "أرجوكِ يا مريم، أرجوكِ، لا أستطيع أن أذهب معهم! دعيني أقفز، سيكون الأمر سريعًا، لن أشعر بشيء!"

حاولت أن تفلت، لكن **مريم** تمسكت بها.

قالت **رزان** بصوتٍ مبحوحٍ يائس:

– "يمكننا أن نفعلها معًا... أرجوكِ، حبيبتي، لا تجبريني على الذهاب معهم."

كانت **مريم** تبكي وهي تشعر بملمس الحرير على ذراعيها وهي تضمّها. هدأت **رزان** شيئًا فشيئًا حتى ارتخت في حضنها، وصار نفسها بطيئًا. رفعت نظرها إلى السماء وقالت بصوتٍ مخمورٍ حالم:

– "السماء صافية الليلة يا أختي... أستطيع أن أرى بعض النجوم فعلًا."

اقترب **علي** بخطوات هادئة، ورفع **رزان** عن الأرض، ثم كبّلها رجاله بالأصفاد وبدأوا بإعادة تلاوة الاتهامات الرسمية. بقيت **رزان** صامتة، بينما قادها **كنعان** خارج الشقة.

أما **علي** فبقي لحظةً يراقب **مريم** الجالسة على الأرض تحدّق فيه بنظرة حقدٍ قاتل.

قالت بصوتٍ متهدّج مملوء بالغضب:

– "لماذا، سيادة اللواء؟"

لم يُجبها **علي**، بل استدار نحو الباب، وفي طريقه عدّل زجاجة الفودكا التي كانت مقلوبة على الطاولة وقال بهدوء:

– "أنجزي عملك في إيطاليا، وستكون قريبتك بخير... مصيرها الآن بين يديك."

الفصل السادس والثلاثون

لم تكن **نوبات الغضب التي تصدر عن رؤساء محطات الـCIA** أمرًا نادرًا. فبعض القدامى منهم كانوا يرونها ضرورية للحفاظ على الانضباط العملياتي في المحطة.
تحدث تلك الانفجارات عادةً في مكتب الرئيس — وهو مكان آمن لها على الأقل — تشتعل بسرعة ثم تخمد.
رئيس **سام** في بغداد كان قد وجّه لكمةً إلى رأس أحد ضباط القضايا أثناء اجتماع، فقط لأنه أخطأ في قائمة التوزيع لأحد البرقيات.
أما في القاهرة، فـ**برادلي** كان يوبّخ الضباط أحيانًا لأتفه الأسباب.
كان **سام** يعتبر **إد برادلي** بمثابة أبٍ له تقريبًا، لكنه مع ذلك وبّخه بشدّة أمام جميع أفراد المحطة بسبب صياغته الرديئة لبعض برقيات التقييم.

كانت **آرتميس أفروديت بروكتر** تنتمي إلى المدرسة ذاتها من القسوة والانفجارات.

قالت **زيلدا** مترددة وهي تقف أمامها:
– "المجمّع في جبلة..."

توقفت وسعلت، مدركةً أن ما ستقوله لن يلقى ترحيبًا.
– "المجمّع في جبلة تم إخلاؤه."

رفعت **بروكتر** كوبًا كان يستخدم كمبسم للأقلام، ثم رمت به في الحائط فتناثر شظايا.
صرخت بغضب:
– "يا للجحيم! أولئك الحمقى في واشنطن تلاعبوا بالأمر أسابيع كاملة! وقّعوا القرار

اللعين ولم يفعلوا شيئًا بخصوص السارين. كان ينبغي أن يُسقِطوا عليه بعض قنابل الـJDAM[32] حين كانت الفرصة سانحة!"

بحثت عن قطعة حلوى في درج مكتبها فلم تجد شيئًا، فأغلقته بعنف وتمتمت:
– "تبًّا."

كان **سام** يراقب المشهد من طاولة الرئيس، فرأى **زيلدا** تلتقط شظايا الكوب عن تنورتها وبلوزتها بوجه خالٍ من التعبير.
أدهشه أنها بدت معتادةً على تلك النوبات، أو ربما فقدت الإحساس بها تمامًا.

نظر **سام** إلى التقرير أمامه.
تحت العنوان، ورد تعليق المحلّلة بأن المشاهد من مواقف التحميل المزدحمة، ووفرة الرافعات، والفوضى العامة في ساحة انتظار كبار الشخصيات تشير إلى أن **الحرس الجمهوري ومركز الدراسات والبحوث العلمية (SSRC)** قد أخلوا منشأة جبلة ونقلوا معهم غاز السارين.
واختُتم التقرير بجملة: *"لا يمكننا تقدير المكان الذي نُقل إليه."*

ألقى **سام** التقرير على الطاولة، وتجاوز شظايا الكوب وجلس.
كانت رائحة الفاكهة المتعفنة لا تزال عالقة في الجو، كما في أنحاء مجمّع السفارة كله. فقد أصلح المقاولون الضرر البسيط وأزالوا الكتابات الجدارية، لكن الرائحة بقيت.
سدّ **سام** أنفه واستنشق من فمه بعمق قائلًا:
– "الإخلاء تم بسرعةٍ كبيرة، يا رئيسة."

ردّت **بروكتر**:
– "أعلم ذلك. برأيك كم شخصًا في واشنطن لمس هذا التقرير؟ عشرة آلاف؟ على الأرجح. عشرة آلاف مشتبهٍ بهم بحقّ! والآن علينا أن نأتي بمعلوماتٍ قابلةٍ للتنفيذ، معلومات حقيقية — كما يقولون — يمكن للرئيس أن يُسقِط قنابل بناءً عليها. رائع!"

---

[32] **قنابل جدام (JDAM)** :هي ليست قنابل بحد ذاتها، بل هي حزمة توجيه تُركب على القنابل التقليدية غير الموجهة لتحويلها إلى ذخائر "ذكية" دقيقة التوجيه .تعتمد هذه الحزمة على نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) لتوجيه القنبلة إلى هدفها بدقة عالية وفي مختلف الظروف الجوية.

ذكّرها **سام** بأن عليهم التحدث مع **برادلي** ورئيسة قسم مكافحة التجسس **سامانثا كريزبو** بشأن نظام الاتصال السري الخاص بالعميلة **أثينا**.

قالت متنهّدة:

– "اجتماع؟ اللعنة."

***

بدأت جلسة الاتصال المرئي الآمن (**SVTC**) بكلمة افتتاحية من **بروكتر**، فيما أضاءت الشاشة لتُظهر مكتب **برادلي** في **لانغلي**.

قالت وهي تلوّح بذراعيها بعصبية:

– "الاجتماعات، يا إد، اللعنة، لدينا الكثير من الاجتماعات اللعينة! هذا البلد يحترق من الداخل، وأنا غارقة في اجتماعات تافهة ورسائل إلكترونية من مساعدتك تسألني متى أستطيع الاجتماع لمزيد من الاجتماعات! كيف يُفترض بي أن أدير العمليات هنا وسط كل هذه الاجتماعات القبلية اللعينة؟!"

صرخ **برادلي** عبر الشاشة:

– "هذا إجراءٌ تشغيليٌّ قياسي، يا آرتميس!"

ردّت بحدّة:

– "قياسي لمن؟ يا إد، لقد أصبحت كأنني زعيمة قبيلة سيوكس — هل الكلمة صحيحة لزعيمة؟ — من كثرة هذه المؤتمرات!"

عضّ **سام** باطن فمه كي لا يضحك، بينما خفضت **زيلدا** نظرها إلى أرض المكتب.

أما **سامانثا كريزبو**، رئيسة مكافحة التجسس، فقد فتحت فمها من الصدمة، وما زال نصفه مفتوحًا حين أجابها **برادلي** بحدة:

– "اصمتي يا آرتميس! إذا كنا سنمنح **أثينا** نظام اتصالات سرّيًا متطورًا، فعلينا التأكد من موافقة مكافحة التجسس أولًا. لا نوزّع مثل هذه الأنظمة عشوائيًا، خصوصًا مع وجود قائمة انتظار طويلة للوصول إلى المنصة."

تدخّلت **كريزبو** بنبرة عملية:

- "هل يمكن أن نبدأ بمراجعة المعلومات التي تؤكّد تقاريرها الأخيرة بدلًا من تمزيق بعضنا؟ لقد قرأت تقييمات العميلة، وكل شيء يبدو سليمًا."

قالت **بروكتر** وقد استعادت توازنها:

- "نعم يا سيدتي. زيلدا هنا قامت بتمشيط قواعد البيانات بحثًا عن معلوماتٍ داعمة. لدينا دلائل قوية."

سعلت **زيلدا** ورتبت أوراقها قبل أن تقول:

- "إضافةً إلى منشأة جبلة، هناك أربعة تقارير من إشارات الاتصالات (SIGINT) تؤكّد صحة معلومات **أثينا**. وكالة الأمن القومي NSA تابعت هواتف عددٍ من الوسطاء الذين كُشفوا خلال عملية **بثينة**، وثلاثة من هذه التقارير تُظهر نفس المعاملات التي وُجدت على حاسوب بثينة."

ثم أخذت رشفة ماء من كوب يحمل رسمًا كاريكاتوريًا لبشار الأسد، بينما نظر **سام** إلى شظايا الكوب الآخر المكسور على الأرض.

قالت **كريزبو**:

- "مفهوم. أرى أن القضية تستوفي المعايير. تتوافق مع ما اعتمدناه في الأقسام الأخرى."

قال **برادلي** أخيرًا:

- "حسنًا، أيها الفريق، سأقوم بتقديمكم على غيركم في قائمة الانتظار لنمنح **أثينا** هذا النظام. التقارير التي قدمتها حتى الآن مثيرة للإعجاب، ومع هذا التوثيق الداعم فهي تستحقه. سنرسله بالبريد الدبلوماسي إلى محطة روما. سلّموه لها في توسكاني."

الفصل السابع والثلاثون

ظنّت **مريم** أنّ عيني **فاطمة** قد انطفأ بريقهما، رغم أنّ شمس توسكانا كانت تتلألأ عبر نوافذ فيلتها الفخمة. تبدّد الصمود الذي كان يميزها، وحلّ مكانه كرهٌ دفين لمريم نفسها.

كان **علي** قد اعتقل والدة فاطمة، وعمًّا، وخالًا، وابنَي عمٍّ اثنين. جلست **مريم** تشير بإصبعها إلى أسفل القائمة — إلى القريب التالي الذي سيُعتقل — وهي تكتم الألم الحارق الذي يلازمها في كل لقاء مع هذه المرأة.

قالت بصوتٍ هادئ يخفي التهديد:
– "الجميع يُعاملون معاملةً حسنة يا فاطمة، أؤكد لك ذلك. لكننا سنواصل النزول في القائمة حتى تذعني. وإذا وصلنا إلى آخرها ولم تتعاوني... فلن أستطيع أن أعدك بأنّهم سيُعاملون جيدًا."

دفعت مريم الورقة عبر الطاولة نحو تلك المرأة النارية الطباع التي لم تقدّم شايًا ولا ترحيبًا، وكانت الآن تشدّ على مسند أريكتها المخملية بقبضةٍ متوترة.

قالت فاطمة ببرودٍ جارح:
– "والثمن لا يزال نفسه؟"

– "نعم."

– "وستُفرجون عنهم حين أقول الأكاذيب التي تريدونها وأعود إلى الوطن؟"

– "نعم."

تأملت مريم عينيها لترى كيف ستتفاعل مع ما ستقوله بعدها.
- "وسيبقون أحرارًا ما دمتِ صامتة."

فركت فاطمة عينيها، ثم نظرت عبر النافذة بنظرةٍ حسبتها مريم حنيناً إلى الهروب، كما لو كانت تفكّر في القفز منها. جلست صامتة للحظة، غارقةً في أفكارها، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ مثقل:
- "سأفعلها يا مريم. لكنك الآن مع الشيطان، أليس كذلك؟ لقد فقدتِ كل شيءٍ آخر."

لم تُبدِ مريم أي ردّة فعل على وجهها، لكنها شعرت بوقع الإدانة في أعماق معدتها، لأنها كانت تعرف أنها — على الأقل جزئيًا — محقّة. قالت بهدوء:
- "بمجرد أن تستقيلي من المجلس الوطني، وتطبعِي بيانات التراجع، وتعودي إلى الوطن، سيُفرج عنهم. هذا وعد القصر."

أومأت فاطمة برأسها إيماءةً جليدية.

وحين نهضت مريم لتغادر، تبعتها فاطمة حتى الباب.

قالت مريم وهي تستدير نحوها:
- "من أجلهم، لا تتأخّري."

ثم استدارت ومضت نحو الخارج.

نادتها فاطمة من ورائها بصوتٍ حاد:
- "هناك أمرٌ آخر!"

توقّفت مريم والتفتت خطوةً نحو الباب.
- "نعم؟"

زمّت فاطمة شفتيها وقالت باحتقار:
- "آسفة لأن قنّاصة الثوّار لم يتمكنوا من قتل عمّك. سمعت أنّ الوحش سينجو."

ثم بصقت في وجهها. لطخ اللعاب جبين مريم وسال نحو عينيها.

***

في تلك الليلة، ركضت **مريم** عبر شوارع **مونتالسينو** الصاعدة المرصوفة بالحجارة، متجهةً نحو كنيسةٍ صغيرة قائمة على أعمدةٍ حجرية قديمة. كانت الكنيسة خاليةً ومظلمةً مع غروب الشمس، وأبوابها مفتوحة على مصراعيها. دخلت وجلسَت في أحد المقاعد الخشبية. كانت أعمدة الرخام السميكة تحيط بالمكان، والنوافذ المنحوتة في القبة فوق المذبح تُضيء تماثيل مزخرفة لمَلَكين يراقبان المسيح والعذراء.

كانت عائلة **حدّاد** مسيحية، لكنها لم تكن ترتاد الكنائس. آخر مرة دخلت فيها واحدة كانت قبل ستّ سنوات، في معمودية ابن أختها. جلست الآن في الصمت، ووضعت رأسها بين يديها.

أغمضت عينيها لتستحضر مشهدًا أقلّ نورانية.

رأت نفسها محاطةً بمجموعة من الرجال: **جميل عطية**، ضابط المخابرات الذي ضرب **رزان**، و**علي حسن**، وآخرين. تقدموا جميعًا نحوها دفعةً واحدة. مدت يدها تبحث عن سلاح — عصًا، سكينًا، مسدسًا، أي شيء. قبضت على عصًا، ولوّحت بها في وجه علي حسن، فإذا بـ **فاطمة** تظهر أمامها، رافعةً ذراعيها، تصرخ:
– "أختي، أرجوك، توقّفي، أرجوك، توقّفي..."

حتى تلاشى صوتها تمامًا.

فتحت مريم عينيها في ظلمة الكنيسة الفارغة، وانفجرت بالبكاء. بكت على أسرتها، وعلى نفسها، وعلى **سام**. فكّرت فيه، ثم أسندت رأسها إلى ركبتيها، واحتضنت جسدها المرتجف.

كانت وحدها.
وحيدة تمامًا.

الفصل الثامن والثلاثون

كان **الملجأ الآمن**، الذي يحمل الاسم الرمزي الغريب **تاكويريا**، عبارة عن مجموعة صغيرة من البيوت القروسطية جُدّدت على الطراز الريفي التوسكاني، بأثاثٍ من الماهوغاني، وسجادٍ أحمر، ورسومٍ تخطيطية لمشاهد زراعية تغطي الجدران. كانت هذه البيوت تتربّع على تلةٍ معزولة تحيط بها مزارع الكروم، يعلوها ظلّ قلعة مهجورة يملكها وريثٌ مغمور من نبلاء إيطاليا القدماء، وقد جعلها متاحةً لوكالة **CIA** مقابل تكفّلها بمصاريف صيانتها.

لم يكن ضباط **CIA** في الواقع يقودون سياراتٍ رياضية فاخرة. في الحقيقة، علم **سام** حين كان يتحدث مع امرأةٍ مسنّة من قسم الانتشار العالمي أنّ لوائح الوكالة تنصّ على أنّه لا يمكنه استئجار سوى سيارات من الفئة "الاقتصادية" لدى شركة **Hertz**. غير أنه عندما قاد السيارة المستأجرة عبر الطريق الحصوي المحاط بأشجار السرو ورأى الفيلات والمسبح والقلعة المهجورة، لعن في سرّه **بروكتر**، إذ لم يكن أحد يقود **راف 4** يستطيع تحمّل كلفة الإقامة في مكانٍ كهذا.

كانت بروكتر قد اختارت السيارة، وهي تجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي، بينما جلست في الخلف خبيرة أزياء من مكتب الخدمات التقنية تُدعى **يونا بانكس**، كانت مهمتها تجهيز **مريم** بالأدوات اللازمة للإيقاع بـ **عطية**.

كانت مريم ستنضم إلى سام وبروكتر في المسكن الآمن تلك الليلة لتناول العشاء والمبيت هناك. وكانت وحدة **بانديتوز** تراقبها مراقبةً مضادة منذ وصولها إلى إيطاليا، وقد تأكدوا من أنها غير خاضعة للملاحقة.

قالت بروكتر وهي تنظر عبر النافذة حين أوقف سام السيارة في ساحةٍ صغيرة مغبرة تحيط بها مزارع الكروم وقد بدأت تبرد في ظلال السرو عند الغروب:
– "هذا المكان يذكّرني بأفغانستان... باستثناء الفقر المدقع والرعب، طبعًا."

***

كان **سام** يقرأ في غرفته في المساء المبكر عندما سمع صوت سيارةٍ تسير فوق الحصى في الموقف. كانت في الموعد تمامًا. خرج ليلاقيها عند المدخل.

قال مبتسمًا وهو يفتح باب السيارة — كانت **بي إم دبليو** هاتشباك —
– "مرحبًا."

لكنها لم ترد بابتسامة. كانت نظرتها زجاجيةً شاردة، وشيءُ ما لم يكن على ما يرام.
– "كيف كان لقاؤك مع فاطمة؟" سألها.
– "فظيع. هل يمكننا الحديث عنه لاحقًا؟"
– "بالطبع."

فتح صندوق السيارة وسحب حقيبتها بينما كانت الرياح الباردة تعصف بالتلة، فتهزّ أشجار السرو.

أخذ الحقيبة إلى غرفة مريم وقال لها إنهم سيتناولون العشاء على الشرفة المطلة على المسبح، حيث اكتشفت يونا مطبخًا مجهزًا بالكامل وقد قضت الساعات الماضية تطهو بعد أن تسوّقت من **مونتالسينو**.
قالت مريم بهدوء:
– "يبدو رائعًا. أيمكنني أخذ بضع دقائق لأستعد؟"

خرج سام إلى الشرفة، فوجد المائدة مزدانةً بأطباقٍ من الزيتون المقلي، وخبز الفوكاتشيا الطازج، واللازانيا. كانت بروكتر تصبّ النبيذ بينما تُكمل يونا تجهيز الطاولة. كانت يونا نحيلة، بشرتها شاحبة، وشعرها الأشقر متّسخ ومقصوص بعناية من جهةٍ واحدة، وذراعها اليمنى مغطاة بوشمٍ على شكل خيولٍ متشابكة.

صبّت بروكتر النبيذ، وتكوّنت دوائر رطبة حول قاعدة كل كأس على المفرش الأبيض. وصلت مريم، عانقت بروكتر، وصافحت يونا، ثم جلسن. شرحت يونا بفخر أنّ اللازانيا ليست "قمامة المارينارا" التي تُقدَّم في أمريكا، بل صلصة بولونيز حقيقية ممزوجة بصلصة البشاميل وجبن البارميزان الطازج.
– "ستّ طبقات كاملة!" قالت بزهوّ.

وبينما كانوا يأكلون، سأل سام:
– "كيف حال داوود؟"
– "سيكون بخير،" أجابت مريم. "ما زال في المستشفى، لكن الأطباء يتوقّعون تعافيًا تامًا."
قالت بروكتر بالإنجليزية:
– "أي خيوط عن المنفذين؟"
قالت مريم باستغراب:
– "منفذين؟"
– "من قام بذلك،" أوضح سام.
– "لا شيء محدد، على الأرجح من المتمرّدين، لكن لم يُعتقل أحد."

وضعت شوكتها وقالت:
– "عذرًا، هل يمكننا التحدث عن شيء آخر؟"

أخذ سام على عاتقه مهمة ملء الكؤوس مجددًا، بينما رمقته بروكتر بنظرةٍ غاضبة. وبينما احتسى كأسه الثالث، التفت إلى مريم. منذ **القاهرة**، بل ومنذ طاولات القمار في **لاس فيغاس**، كان يثق بحدسه وقدرته على تغيير استراتيجيته وقت الحاجة. والآن، حين التقت نظراتهما، أدرك أنّ شيئًا ما قد حدث بالفعل.

أومأ سام إلى يونا، التي وضعت على الطاولة كيسًا بلاستيكيًا بداخله حقيبة **فيراغامو** جلدية سوداء ثمينة، كانت قد اشترتها من فلورنسا بنحو خمسة آلاف يورو.

قال سام:

– "راجعنا تسجيل لقائك مع عطية. كان مقززًا، لكنه مفيد أيضًا."

سألت بروكتر:

– "ماذا كنتِ ترتدين حينها؟"

– "أظن فستانًا أسود. لماذا؟"

– "هل كان فستانًا جذابًا؟"

سعلت مريم ومسحت فمها:

– "ربما."

– "توقعت ذلك،" قالت بروكتر بابتسامةٍ خبيثة. "عندما شاهدنا الفيديو، بدا كأنه يدرك وجود الكاميرا، كان يتطلّع إليها أحيانًا. منطقيّ، فمع فستانٍ ضيّقٍ وجسدك، لا بد أنه لاحظها."

احمرّ وجه مريم خجلًا، وغمزت بروكتر بوقاحة، وساد صمتٌ عام، فشربت يونا رشفةً كبيرة من النبيذ لتكسر التوتر.

قال سام متابعًا:

– "استخدمنا الفيديو لصنع صورٍ عالية الدقة للحقيبة هنا في روما."

قالت يونا:

– "كان من السهل تحديد العلامة التجارية والنوع، لكننا درسنا كل مليمتر من سطحها لصنع نسخة مطابقة. في الفيديو يمكن رؤية خدشٍ صغير تحت درز المقبض — أعدنا تشكيله هنا."

كانت الحقيبة بسيطة أنيقة بجيبٍ واحد فقط، مخصصة للوثائق. لم تحتوِ على أي جيوب داخلية. اختبر سام نفسه وهو يستبدل أوراقًا من حقيبة إلى أخرى — احتاج ثانيتين فقط. حسب أن مريم لن تحتاج أكثر من خمس عشرة ثانية وحدها في مكتب عطية لتبديلها. شرح لها الخطة وهي تهز رأسها بشرودٍ زجاجيٍّ فوق طبق لازانيا لم تمسّه.

بعد العشاء، تناولت الحقيبة المغلّفة بالبلاستيك وفحصتها كما لو كانت تتسوق. قالت يونا:

– "وضعنا كل شيء بداخلها وأغلقنا القاع بالخياطة باستخدام مواد أصلية، كي لا يكتشف عطية أي شيء إلا لو دمّر الحقيبة بالكامل. آلية التشغيل تعمل بنابض صغير مدمج داخلها، وأضفنا ميزة واحدة فقط يمكن لفريق مخابرات مدرّب ملاحظتها: خلعنا بعض الغرز حول القفل."

قال سام:
– "بهذه الطريقة، عندما يفرغون الوثائق ويفتشون الحقيبة، سيلاحظون بعض الغرز المفكوكة، فيسحبون البقية ويكتشفون الجهاز والوثائق المزروعة. وسنضمن أيضًا أن تصله رسائل نصية وبريد إلكتروني من مصادر غريبة."

قالت بروكتر وهي تمسح فمها من صلصة البشاميل:
– "المفتاح هنا أن البلاغ الذي ستقدّمينه لا يذكر الحقيبة مطلقًا. يجب أن يبدو بريئًا، لكنه كافٍ لإثارة الشك وبدء التحقيق. بعدها، حين يبدأون في تتبّع الخيوط... يجدون الحقيبة، وينتهي أمره."

أشارت بيدها إشارة الذبح عبر عنقها.

سألت يونا بتوترٍ إن كانت تفتح زجاجة نبيذٍ أخرى، لكن بروكتر لم تلتقط توتر الجو، وأكملت:
– "أنصحك أن تخبري **بثينة** بأنك رأيته يكتب على جهازٍ غريب. هذا وحده كافٍ."

***

اختُتمت الليلة بمهنيةٍ بحتة: مراجعة التفاصيل التشغيلية، وتنظيف المائدة، والتوجه إلى النوم باكرًا. تمدد **سام** في سريره يفكّر في العملية، ومريم يفصله عنها جدارٌ واحد، ولم يجد بعد تفسيرًا لبرودها.

في الصباح، خرجت يونا ومعها كاميرا ذات عدسةٍ طويلة لتزور ديرًا **سيسترسيًا** خارج **سيينا**. وقالت مريم إنها تحتاج إلى الركض.
قال سام:
– "سأنضم إليك."

فأجابته بابتسامةٍ باهتة وقبلةٍ على الخد:
– "وحدي، حبيبي."

راقبها وهي تبتعد، وأدرك أنّ بقايا الذنب بعد **فرنسا** قد اختفت — أو دُفنت عميقًا — مع تقدم القضية وازدياد مشاعره نحوها، إذ امتزج الأمران في كتلةٍ واحدة لا تنفصل. كانت علاقته بـ **مريم** — المحظورة من الوكالة — في نظره شيئًا طبيعيًا، فطريًا، كما يجب أن تكون. لم يفهم جفوتها الآن، ولم يكن لديه أي خطةٍ للتعامل مع عواقبها إن كُشف أمرهما.

جلس يحتسي قهوته على الشرفة المطلة على الريف التوسكاني. وبعد فنجانه الثاني، انضمّت إليه بروكتر مرتديةً سترةً حمراء مفتوحة تكشف طرف حمالةٍ صفراء فاقعة.
قالت مبتسمة:
– "هل عندكم تلال في مينيسوتا؟ أم أنها مجرد حقول ذرة؟"
قال سام:
– "ليست كهذه."

غرد طائرٌ من شجرة سرو قريبة، فرفع فنجانه وأدرك أن بروكتر تحدّق فيه. التفت إليها، وتبادلا نظرةً لثانيةٍ واحدة، ضاقت خلالها عيناها الخضراوان كأنها تنبش أفكاره لتكشف ما يجول في داخله.

قالت فجأة:
– "ما الذي يجري مع فتاتنا؟"
– "هناك شيء غير طبيعي، يا رئيسة."
– "أظن ذلك أيضًا."
– "لكنني لا أعرف السبب."

رنّ هاتف بروكتر، فقالت وهي تنهض:
– "يجب أن أجيب. قابلني بعد نصف ساعة، أليس كذلك؟"
أومأ سام متنفسًا الصعداء.

- "وارتدِ لباس السباحة،" أضافت بابتسامةٍ ماكرة.
- "ماذا؟" سأل متفاجئًا، فأمالت رأسها كعالمةٍ تفحص مخلوقًا غريبًا.
- "إنها حفلة مسبح، يا **جاغرز**."

***

بعد ثلاثين دقيقة، طرق **سام** باب غرفتها. لم يكن قد جلب سروال سباحة إلى إيطاليا، فاكتفى بشورتٍ رياضي قصيرٍ للغاية، بدا مضحكًا ومزعجًا له.

فتحت بروكتر الباب مرتديةً رداءً أبيض ضخمًا يجرّ أطرافه كأنها ساحرة، وسارت بصمت نحو المسبح، فتبِعها سام متردّدًا.

كانت فكرة أن يكون شبه عارٍ ووحده أمامها غير مريحةٍ أبدًا، لا لأنه ظن أنها معجبة به — فهو لم يكن متأكدًا أصلًا إن كانت تهتم بالرجال أو النساء — بل لأنه لم يرغب بالخوض في تفاصيل العملية قبل أن يتحدث مع مريم. ألقى منشفةً على أحد المقاعد وراقبها وهي تعبث بجهاز الصوت حتى استقرت على موسيقى إلكترونية صاخبة.

قالت:

- "موسيقى EDM... ممتازة."

ثم خلعت ردائها. كانت ترتدي بدلة سباحة سوداء من قطعتين، عادية على نحوٍ غريب بالنسبة لملابسها المعتادة.

أشاح سام بوجهه غريزيًا — فلم يتعلموا في التدريب كيف يتعاملون مع "رئيسةٍ نصف عارية" — لكنها مرّت بجانبه بهدوء ونزلت الدرج المؤدي إلى الماء. عندها، أخذ سام زجاجتين من **بيروني** من البار الجانبي وقدّم لها واحدة، فشربت نصفها قبل أن يلمس الماء.

ألقت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها تستمتع بالموسيقى، ولم يرها سام يومًا بهذه الدرجة من الاسترخاء.

قال بعد دقيقة:

– "أحتاج أن أتحدث معها الليلة."

ردّت وهي تمسح الماء عن وجهها:

– "هل لديك مخاوف أمنية؟"

– "لا. لقد زوّدتنا بمعلوماتٍ مؤكدة عن برنامج السارين، وتحققنا منها عبر قنواتٍ متعددة. لا أظن السوريين سيخاطرون بتسريب ذلك إن كانت عميلة مزدوجة. لكن ثمة شيءٌ خاطئ. ملامحها الليلة الماضية لم تكن طبيعية. حدث أمرٌ سيئ. أعرفها. لا أعلم إن كانت لا تحبّ مهمة فاطمة، أو عملية عطية، أو شيئًا آخر... لكنها ليست على ما يرام."

بدت بروكتر وكأنها تودّ أن تسأله شيئًا، لكنها قالت أخيرًا:

– "حسنًا، خذها إلى العشاء الليلة واكتشف ما الأمر. غدًا نراجع الاتصال السري."

***

استمتع **سام** و**مريم** بجمال الطريق وهما يقودان بصمتٍ نحو **سان أنجلو إن كولّي**، بلدةٍ هادئة على تلةٍ شاهقة، بشوارعٍ حجريةٍ ضيقة ومنازل بأسقفٍ قرميدية متشققة، وساحةٍ صغيرة لا تضم سوى مطعمين.

كانت ثلاث عجائز يمشين متشابكات الأيدي في الساحة بينما جلس سام ومريم على شرفة أحد المطعمين. حلّ الغسق، وتخللت همسات الزبائن أنغامٌ خافتة قادمة من قبوٍ قريب، حيث كانت فرقة جازٍ محلية تتدرّب على أنغامها الثقيلة.

كانت ترتدي **جينزًا** وقميصًا أبيض تحت معطفٍ زيتونيّ اللون من نوع **باربور**. كانت قد سرّحت شعرها بتموّجاتٍ خفيفة وتركته منسدلًا، لكن ذلك لم يُخفِ أقراطها الذهبية الدائرية الكبيرة التي كانت تتأرجح في نسمات الهواء.
أما **سام** فكان يرتدي قميصًا رماديًا بأكمامٍ طويلة مع بنطال جينز وحذاء قيادة خفيف، وأدرك أنهما بدَوا مثل أي زوجٍ من الأزواج السياحية الذين ملأوا الساحة.

طلب **سام** طبق **الراغو التوسكاني بلحم الخنزير البري**، بينما طلبت **مريم كاشيو إي بيبي**. فقالت مبتسمة وهي تعيد قائمة الطعام إلى النادلة:
– "تمامًا كما في إيز."

ابتسم لها **سام** وهو يتذكر تلك الليلة الأولى، وصوت أقراطها وهي تتمايل مع حركتهما، وتساءل إن كانت الأقراط التي تضعها الآن هي نفسها تلك.

ترك لها أمر اختيار النبيذ، وبينما غادرت النادلة مسرعة، وضع يده على يدها فوق الطاولة. ابتسمت وقالت:
– "هذا يجعلني سعيدة."

كانت تبدو مرتاحة للمرة الأولى منذ وصولها. تسللت أصوات النحاسيات من فرقةٍ كانت تتدرّب في قبوٍ قريب، تصعد إلى هواء الليل المنعش، بينما صدح طائر صغير من صفّ أشجار السرو على التل. غمس **سام** قطعة خبز في زيت الزيتون، وأخذ يتأمل ملامح **مريم**. لقد رأى تلك النظرة في عيون عملاء آخرين من قبل، وأحيانًا على طاولة القمار عندما يندفع أحدهم أكثر مما يحتمل. رآها أيضًا على وجه **مريم** مرة واحدة فقط، بعد هجوم **فيلفرانش** مباشرة.

صبّت النادلة النبيذ، وشرب الاثنان في صمت، متشابكي الأيدي فوق الطاولة. كان عليه أن يهدئ **مريم**، وأن يقيّم **أثينا**.

قال بصوتٍ خافت:
– "مِمّ تخافين؟"

كان بإمكانه أن يعدد نصف دزينة من الأسباب المنطقية، لكنه آثر الصمت، منتظرًا أن تملأ هي الفراغ.

قالت بعد لحظة:
– "أخاف من أشياء كثيرة."

وحاولت أن تبتسم وهي تشير نحو زوجٍ آخر في عمرهما تقريبًا على الجانب الآخر من الشرفة:

– "انظر إليهما، يتشابكان بالأيدي ويقبّلان بعضهما، بينما أنا هنا أفكر إن كان **عطية** أو **المخابرات** يراقبوننا، أو ماذا سيحدث لو طُردتَ من سوريا، أو ما هو أسوأ. الأوضاع داخل دمشق تبدو هشة، كأننا جميعًا على حافة الهاوية. ماذا سيحدث حينها؟ ماذا سيحدث لعائلتي، لابنة عمي؟ أنا خائفة من..."

توقفت، ومسحت دموعها بمنديل وهي تحاول أن تثبّت فكّها كي لا تنهار.

سألها بصوتٍ مبحوح:
– "خائفة على نفسك؟"

قالت وهي تبكي:
– "أنا خائفة على عائلتي إن أُمسكت، لا على نفسي. عليهم، فقط عليهم."

تحرّك **سام** من مكانه وجلس إلى جانبها، ثم لفّ ذراعه حولها، فأسندت رأسها على كتفه. لم يكن يعلم كم مضى من الوقت وهما على هذا الحال. أشار للنادلة أن تترك الأطباق التي لم تُمسّ. كانت الفرقة قد أنهت عزفها، وغادر بعض العازفين نحو سياراتهم عند أطراف التلّ الخضراء.

سألها بهدوء:
– "هل حدث شيء؟"

هزّت رأسها نفيًا.

قال وهو يهمس في أذنها:
– "سأحميك دائمًا يا مريم، دائمًا. العمل الذي اخترناه خطر، لكنه هو ما جمعنا. وسننهيه معًا في دمشق. أعدك."

ثم قبّل جبينها، فشفتيها، واستشعر نعومة شعرها وهو يمرر أصابعه على عنقها.

قالت بصوتٍ مرتجف:
– "هناك شيء بيننا يمنحني القوة. لا أستطيع أن أُكمل هذا بدُونك يا سام."

وكان هو، في أعماقه، قد بدأ يشعر بالأمر نفسه. لكنه حاول أن يتجاهل إدراكه أنه أصبح غارقًا تمامًا، متمسكًا بثلاثة أفكار متصارعة، جميعها ـ كما أيقن ـ صحيحة في آنٍ واحد:

الأولى، أنه يريد أن يهرب معها تلك الليلة.

الثانية، أن كل ما قالته صادق، لكنها ما زالت تُخفي شيئًا.

الثالثة، أن **مريم** مخلصة، له ولـ **وكالة الاستخبارات المركزية**.

كان الطباخ والنادل قد غادرا، فاقتربت النادلة بخطواتٍ خجولة لتضع الفاتورة على الطاولة دون أن تنظر إلى المرأة العربية الباكية وصديقها الوسيم. ومهما كان الخلاف بينهما، فقد انتهى، لأنهما كانا الآن يتبادلان القُبل. ابتسمت النادلة وقالت في نفسها: *يا لها من قصةٍ مؤثرة.*

دفع **سام** الحساب، وخرجا متشابكي الأيدي يسيران نزولًا نحو السيارة. جلس زوجٌ مسنٌّ أمام منزله يشرب النبيذ على بُعد خطواتٍ منهما، وهو يصرخ بحدة في زوجته بلغةٍ لم يفهمها **سام**، لكنها كانت غاضبة بما يكفي ليدرك أنه يجب أن يبدّل خطته. لمح بطانية تركتها **آيونا** في المقعد الخلفي بعد رحلتها إلى الدير. فقال:

– "هناك كرم عنب في طريق العودة."

فأجابته **مريم** بابتسامةٍ حزينة:

– "رائع، يا حبيبي... فقط قُد."

كانت الرحلة إلى **مزرعة بوسكاريلّو** سريعة رغم الطرق الضيقة المتعرجة. كان **سام** قد تعلّم القيادة في تضاريس خطرة حين أنهى تدريبه في دورة القيادة الدفاعية قبل عقدٍ في المزرعة السرية التابعة للوكالة. لكن التحدي هذه المرة لم يكن خصمًا يصطدم بسيارته، بل امرأة سورية تجلس إلى جواره.

عند وصولهما، أوقف السيارة إلى جانب الطريق. كان هناك خندق ضحل وسياج حجري يفصل بينهما وبين شجر الكرم. فتح الصندوق الخلفي وأخرج البطانية.

تسلّقا السور وسارا بين صفوف الكروم المرتّبة بعناية. وبعد خمسين ياردة، بسط **سام** البطانية. كان القمر متوهجًا كأن الليل يشتعل بنوره. تمدّدا معًا، يتبادلان القُبل، يُلقيان الملابس جانبًا حتى لم يبقَ سوى دفء الجسدين، وصوت أنفاسٍ متلاحمة. همست وهي تضغط شفتيها على أذنه:

– "هل تعدني، حبيبي؟"

مرّر يده في شعرها وقال:

– "أعدكِ يا حبيبتي... أعدك."

شعر بأظافرها تنغرس في كتفيه وهي ترفع رأسها نحو السماء، وعيناها تلمعان بضوء القمر. ذلك البريق الزجاجي أقلقه رغم رعشتها وارتجاف جسدها بين عروق الكرمة القديمة.

***

في صباح اليوم التالي، جلس **سام** و**مريم** و**بروكتر** يتناولون الفطور ويتحدثون عن جهاز الاتصال السري. كانت **مريم** تعبث بقطعة خبز محمّص بينما كان **سام** يشرح طريقة عمل نظام **PLATYPUS**.

قال مبتسمًا:

– "سيعمل تمامًا مثل جهازك اللوحي، لأنه كان واحدًا بالفعل. الفرق الوحيد أنه يتيح لكِ التواصل معنا عبر إرسالٍ فوري يصعب اعتراضه."

سألته:

– "يصعب، أم يستحيل؟"

فتدخّلت **بروكتر** قائلة:

– "لن نخدعكِ ونقول إنه مستحيل. لكن العدو يحتاج أن يعرف ثلاث نقاط بالضبط: مكان الجهاز، والجهة التي يُرسل إليها، وتوقيت الإرسال. دون معرفة الثلاثة معًا، يكون الاعتراض مستحيلًا."

قال **سام**:

– "كلما طالَت الرسالة طال زمن الإرسال، وبالتالي يسهل كشفها، لذا يحدّ النظام من عدد الحروف، ولا يسمح بإرسال رسائل متتالية من نفس الموقع. يمكنكِ إرسال رسائل قصيرة لنا، وسنردّ عليكِ بالطريقة ذاتها. هكذا لسنا بحاجة إلى استخدام مواقع التسليم السرية بعد الآن."

قالت **مريم**:

– "هذا جيد."

أجابها بابتسامةٍ مشجّعة:

– "بالضبط. سأريكِ الآن كيف تتواصلين معنا. سننشئ حركة مسحٍ مميّزة على الشاشة لتكون كلمة السرّ. الآن هي مبرمجة لي، وسأفتحها."

انتقل للجلوس بجانبها، وشعرت **بروكتر** بالجو بينهما يتغيّر، كما شعرت به في شرفة البيت الآمن. أجرت **سام** سلسلة من الحركات المتموجة على الشاشة، فظهرت واجهة تشبه البريد الإلكتروني.

قال:

– "يُنشئ النظام صندوق بريدٍ وهمي خلف جدارٍ ناري. في حال اقترب أحد منكِ ورأى الشاشة. تكتبين الرسالة كما تفعلين في بريدكِ العادي، ثم تضغطين إرسال، فتذهب مباشرةً إلينا." وأشار إلى السماء:

– "إلينا هناك."

وأضافت **بروكتر**:

– "هذه الواجهة لا تُخزَّن دائمًا على الجهاز. إذا حصلت المخابرات عليه، فلن يجدوا شيئًا لأنها ببساطة ليست موجودة داخله."

قال **سام**:

– "بمجرد أن تفعّلي البرنامج وتضغطي إرسال، تُرسل الرسالة فورًا، ثم تعودين لاستخدام الجهاز طبيعيًا، بكل تطبيقاته وأفلامه وأغانيه."

ثم أخرج كرةً سوداء صغيرة تتدلّى منها أسلاك حمراء وخضراء، وقال:

- "بهذه ننقل كل بيانات جهازك القديم إلى الجديد خلال دقائق. بعدها نضع الجهاز الجديد داخل غلافك القديم ونأخذ القديم معنا."

كانت **مريم** تحدّق بالجهاز وقالت دون أن ترفع عينيها:

- "هذا يُقلقني. لستُ متأكدة أني أريده."

كان ذلك ما يسميه **سام** *فوبيا الاتصال السري*. كثير من العملاء شعروا بالخوف من هذه الأجهزة لأنها تذكّرهم بخيانتهم الدائمة. قال في نفسه إن عليه أن يترك المجال لـ **بروكتر** لتقنعها.

فسألتها **بروكتر** برقة:

- "ولماذا يا مريم؟"

قالت:

- "أعرف أن مثل هذه الأنظمة تم اختراقها في أماكن أخرى... في الصين، وفي إيران. والآن هناك عناصر إيرانية في سوريا تساعد المخابرات في مطاردة المعارضة. وجود مثل هذا الجهاز في بيتي يجعلني أشعر بالضعف."

هزّ **سام** رأسه وقال:

- "أتفهمك، لكن لم يحدث قط أن تم اختراق هذا النوع من الأنظمة. ما جرى في إيران كان عبر نظامٍ مؤقت على الإنترنت، رصدوا خلاله المستخدمين الذين دخلوا مواقع معيّنة. أما الصينيون فاستغلوا نفس الثغرة لاختراق جدارٍ ناريّ آخر والوصول إلى عملاء هناك. لكن هذا الجهاز مختلف تمامًا."

قالت بسخريةٍ حزينة:

- "أظن أن هذا ما قيل لعملاء الـCIA في الصين أيضًا."

فتحت **بروكتر** فمها لترد، لكن **مريم** سبقتها قائلة:

- "لا أريد تمرير الكثير من المعلومات عبر هذا الجهاز. أفضل اللقاء وجهًا لوجه عندما يكون هناك ما يستحق النقاش."

قالت **بروكتر** موافقة:

- "وهذا ما نريده أيضًا. سنستخدمه فقط لترتيب اللقاءات وتمرير المعلومات العاجلة."

وبعد صمتٍ قصير، طلبت **مريم** نقل بياناتها إلى الجهاز الجديد. بعد عشر دقائق قالت إنها يجب أن تغادر:

- "عليّ الاتصال بـ**بثينة** خلال نصف ساعة."

دخلت **آيونا** حاملة حقيبة جلدية جديدة داخل كيسها الأصلي من **فيرّاغامو**، وقد أرفقت بها الإيصال وقالت:

- "في حال سأل أحد، قولي إنها تذكار من إيطاليا لشخصٍ تحبينه."

لاحظ **سام** انقباض وجهها، كما حدث خلال العشاء في الليلة السابقة.

عانقت **مريم** الجميع، ثم وضعت الحقيبة الجديدة في حقيبتها وسألت **سام** و**بروكتر** أن يرافقاها إلى السيارة. وفي الموقف، بدا الحزن على ملامحها وهي تقول:

- "أحبكما كلاكما."

ثم أغلقت الباب، وأدارت المحرك، ورحلت.

وقف **سام** و**بروكتر** يراقبان الغبار المتصاعد خلف السيارة وهي تختفي بين أشجار السرو والكروم متجهة نحو الوادي.

قالت **بروكتر** وهي تلتفت إليه:

- "هل حصلتَ على إجابةٍ منها البارحة؟"

أجاب:

- "إنها خائفة، ويبدو أن هناك أمرًا يحدث مع عائلتها."

سألته:

- "هل قالت لك ذلك صراحة؟"

فقال:

- "لم تقل... لكنها قالت بما يكفي.

الفصل التاسع والثلاثون

كان فريق **بانديتوز** قد كرّر الإجراءات نفسها أربع مرات خلال الأيام الأربعة الماضية: قيادة سيارة **الپاجيرو** المحمّلة بالقنبلة إلى الطريق أمام مكتب الأمن، إيقافها عند الرصيف، وتجهيز البيت الآمن بمعدات الفيديو التي ستستخدمها **لانغلي** لتأكيد هوية الهدف بأنه **علي حسن**.

لكن في كل مرة، كان هناك سبب مختلف لإلغاء العملية: عطل في الاتصال المرئي المشفّر، أو تعقّب لسيارة **سام**، أو ببساطة لأن **علي** لم يخرج في نزهته المعتادة (مرتين).

قالت **پروكتر** وهي تراقب **علي** يمرّ بجوار السيارة بصحبة امرأة تدفع عربة طفل:

"سنحاول مجددًا غدًا... مثل كل يوم."

***

قضى **سام** و**پروكتر** ست ساعات في تصميم مسار كشف مراقبة **SDR**. وكان التفويض القاتل ينصّ على أن يشاهد ضابط من **وكالة الاستخبارات المركزية** الهدف بعينيه قبل الضغط على الزناد. كان بإمكان رجال **بانديتوز** دعم العملية، لكن على **سام** أن يديرها من البيت الآمن بمفرده. كان عليه أن "يختفي عن الأنظار".

كانت مكتب **پروكتر** يعجّ بعلب **دايت كولا** وأغلفة العلكة. لم تكن تبدو مرهقة، بل على العكس تمامًا، وكذلك كان **سام** متوتّرًا بشدة. كان يسلّي نفسه بتصويب بندقية **موسبرغ** نحو إحدى العلب بينما كانت **پروكتر** تعيد عرض الخطة بصوت عالٍ. كانا يتناقشان في فكرة أن يختفي **سام** كليًّا، ويتخلّص من أي مراقبة فعّالة كما لو كان في **موسكو** أو في بيئة عمليات "ممنوعة".

قالت **بروكتر**:

"ليس بعد. إن فعلتَ، فسيؤكّدون أنك من الوكالة، وسينتقمون منك... ومن يدري؟ ربما يوسعونك ضربًا للمتعة فقط. الروس كانوا يفعلون ذلك في موسكو حين نحاول الاختفاء بجرأة. أو ربما يمسكون بك ويقتلونك كما فعلوا بـ **فال**. قرأتَ تقارير **SIGINT** عن الفريق الروسي الذي وصل من موسكو؟"

كان قد قرأها. كانت التقرير قائمة ركّاب رحلة شحن بين **موسكو** و**دمشق** وصلت قبل سفره إلى **إيطاليا**، وتشير إلى وجود سبعة ضباط من **FSB** وخمسة من **SVR**. لم يعرف أحد سبب قدومهم.

قال وهو يخفض البندقية قليلًا:

"تشكيلة الفريق الروسي غريبة. كأن أحدًا طلب المساعدة ضدّنا."

أومأت **بروكتر** برأسها:

"انظر، الروس يرسلون أفضل عناصرهم لمراقبتنا في موسكو، لذا ربما كان الطلب رسميًّا، فأرسلوا فريق النخبة. لكن نعم، بالطبع هذا مقلق."

قال **سام** مشيرًا بالبندقية نحو سلة القمامة ومقلّدًا إطلاق النار:

"كأن السوريين يعرفون أننا نصطاد سمكة كبيرة."

***

في صباح اليوم التالي جلس **سام** في مطبخه يحتسي القهوة، مستعرضًا في ذهنه خريطة **SDR**. ملأ فنجانًا ثانيًا واتصل بوالدته عبر **سكايب**، وأخبرها أنه سيخرج للتسوّق وسألها عمّا ترغب فيه. تحدّثا عن الأثاث والمجوهرات، ثم استقرّ رأيها على سجادة. قالت إن الصحف تمتلئ بمقالات تطالب بتدخّل عسكري أمريكي في سوريا، لكنه طمأنها بأنه آمن في **دمشق**. تبادلا عبارات الحب وأغلقا الاتصال.

أغلق الحاسوب، أخذ هاتفه، وتوجّه إلى الحمّام. أرسل رسالة إلى التقني **ستاب** لتأكيد موعد الشرّاب في المدينة القديمة. استحمّ، حلق ذقنه، وتهيّأ للخروج. ارتدى بنطال جينز، وحذاءً أزرق داكنًا، وقميصًا من الكتّان الأبيض المتجعّد، وحمل حقيبة صغيرة على الكتف بداخلها كاميرا رقمية. كانت هذه التفاصيل – الروتين، الحقيبة،

المظهر– كلها مصمّمة لتتماشى مع نمط حياته وتضلل أي فريق مراقبة نشط بجعلهم يعتقدون أنه يستعدّ ليوم عادي في دمشق: تسوّق، لقاء أصدقاء، أو زيارة معالم سياحية.

كانت الشوارع مزدحمة بالمارة، والجنود المدجّجين بالبنادق، والقطط الضالة التي تعبث في الأزقة. دخل متجرًا لشراء الماء وشربه وهو يسير على طول شارع **جواهر لال نهرو** بمحاذاة **حديقة تشرين**. كانت نقاط المراقبة الثابتة التي رصدها مطابقةً لخريطته الذهنية، كما أن عميل المخابرات القصير القامة الذي يتبعه صار مألوفًا. لم يكن يحاول التخفي، يسير خلفه على بعد نحو أربعين ياردة.

أوقف **سام** سيارة أجرة وسط فوضى المرور في **ساحة الأمويين** وطلب التوجّه إلى **العباسيين**.

انطلقت السيارة وسط جحيم السير الدمشقي. السائقون لا يبالون إلا بمقدّمة سياراتهم، يزمجرون بالأبواق بلا انقطاع، يصطدمون ببعضهم أحيانًا، ونادرًا ما يتوقفون لعبور المشاة.

تسلّل **سام** بنظره إلى المرآة الأمامية ورأى المراقب الفردي يخرج جهاز اتصال من جيبه. كان يعلم أنهم لن يتركوه بهذه السهولة. المكالمة كانت بالتأكيد إلى فريق متنقّل سيتولّى متابعته. وكان ذلك واضحًا تمامًا.

كانت خطة **SDR** تجري ضمن قلب دمشق، وقد ابتكر هو و**بروكتر** مسارًا جديدًا أطول من المألوف، يمتدّ لأكثر من عشر ساعات. يبدأ من الحافة الشرقية للمدينة القديمة، ويتقدّم غربًا بشكل متعرّج حتى يصل إلى البيت الآمن في **كفرسوسة** قرب مكتب الأمن.

كانت الساعة الثامنة صباحًا حين نزل من السيارة والتقط بعض الصور. التقطته فرق المراقبة المتنقلة مجددًا: سيارة سوداء وأخرى صفراء أشبه بسيارة أجرة قديمة متوقفة قرب الموقف. سار نحو **العباسيين**. لاحقًا اختفت السيارتان، لكن العميل الفردي عاد يتبعه بخطوات ثابتة. كان عليهم أن يبدّدوا طاقاتهم طوال

اليوم. المفتاح هو إطالة اللعبة حتى تُصبح مملّة حدّ اليأس لفريق المراقبة، فيحوّلوا مواردهم إلى هدف آخر.

أنهى **سام** تدوين ملاحظاته عن المارّة وشعر بالانقباض في صدره.

***

في تلك الأثناء، كان **علي** و**فولكوف** يجلسان في مركز القيادة الروسي. عبق العرق عالق في الهواء، وأعقاب السجائر تملأ المنفضات. أمامهما شاشات تعرض بثًّا حيًّا لوصول الأمريكي إلى أحد المطاعم بفضل سيارة مراقبة متوقفة في الخارج. كان الفريقان السوري والروسي قد وصلا إلى المطعم مع **صامويل جوزيف**.
انحنى **كنعان** واثنان من الروس فوق خريطة مفصّلة للحيّ المسيحي، يتناقشون حول الخطوة التالية للأمريكي.

سأل **فولكوف** وهو يلتفت إلى **علي**:
"ما رأيك يا جنرال؟ هل اليوم هو اليوم المنتظر؟"

***

في تمام الظهر استقبل **ستاب** صديقه بابتسامة أمام **مقهى أبو جورج** العصري، موضحًا له أن المكان يقدّم المشروبات في وقت أبكر من أيّ مكان آخر في دمشق.

كان المقهى شبه خالٍ. صافح **ستاب** النادل وطلب كأسين من **ستيلا**. جلسا بجوار النافذة ليتمكّن **سام** من رؤية الشارع. لم يكن **ستاب** يعلم أن صديقه في مهمة تشغيلية، فتابع حديثه دون توقف. كان يشكو من أن أحدهم يسرق مشروباته من ثلاجة المكتب، حين لمح **سام** المراقب الفردي نفسه يمرّ أمام المقهى، يحدّق إلى الداخل بوضوح، متباهياً كغوريلا يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا أسود رخيصًا.

دوّن ملاحظاته سريعًا: *رجل يرتدي جينزًا أزرق وحذاءً بنّيًا باهتًا وقميص **أديداس** – يبدو متوترًا، احتمال كونه مراقبًا قائم. حافظ على المراقبة.*
ثم لاحظ آخر يرتدي سروالًا رماديًا وقميصًا أسود بسيطًا يضحك في الهاتف: *الرأس والكتفان مسترخيان، الضحكة صادقة، غير محتمل أن يكون مراقبًا. تجاهله.*

واصل تحديث قائمته بينما كان **ستاب** يثرثر. أنهيا مشروبيهما – طلب **ستاب** كأسًا أخرى بينما رفض **سام** – ثم بدأ التقني يقشّر الفستق ويأكله. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف. حان وقت التحرك نحو قلب المدينة القديمة.

***

اعتذر **سام** عن المغادرة قائلاً إن عليه شراء بعض الأغراض لوالدته.
قال **ستاب** وهو يربّت على كتفه:
"لا بأس يا رجل."

سار **سام** غربًا في **الشارع المستقيم**، الطريق الروماني القديم الذي يشطر المدينة القديمة شرقًا وغربًا. اقترب من مجموعة متاجر لبيع الأثاث والسجاد اليدوي. تجوّل نصف ساعة، يلتقط الصور، يرفع نظره نحو طائرة مقاتلة في السماء، ويرسل رسالة نصية لوالدته. كان الشارع شبه خالٍ من المارة.

اختفى المراقب. هل انسحبوا؟ لم يلحظ الحركات الخاطفة التي تفضح فرق المراقبة السرّية: لا التفافات سريعة في الأزقة، لا وجوه مكرّرة من الصباح، لا خطوات متوازنة تلتزم المسافة نفسها. بدا الأمر واعدًا.

دخل متجرًا للسجاد، وتوجّه إلى الغرفة الخلفية المليئة بأكوام السجاد. كانت هناك بقعة خرسانية في المنتصف لعرض البضائع. صاح التاجر الودود **أمين** على صبيٍّ صغير ليُحضِر الشاي، وبدأ يعرض السجاد بحماس.

كانت والدته فعلًا ترغب بسجادة، فاستغلّ ذلك ليقضي نصف ساعة يتفحّص البضائع حتى اختار سجادة **بلوشيّة** حمراء موحلة تتخللها طيور وزخارف زهرية. فاوض **أمين** على السعر، لكن على عجل – فقد حان وقت الرحيل. التقط صورة لسجادة أخرى، وترك الكاميرا الرقمية وحقيبته على إحدى الأكوام، ثم خرج متجهًا غربًا نحو **سوق مدحت باشا**.

بعد عشر دقائق، شعر بالاطمئنان أن المراقبة قد زالت. حان وقت العكس. تظاهر بأنه يبحث عن حقيبته، ثم استدار فجأة عائدًا نحو المتجر. أبقى رأسه متجهًا للأمام بينما كانت عيناه تمسحان المشهد: الحرّ، الناس، الحركة، النبض. شعر بخفةٍ

في صدره. دفع توتره إلى الداخل وأصغى لجسده بحثًا عن الارتعاشة. نبضه يتسارع، ودمه يغلي.

استعاد الكاميرا والحقيبة من **أمين** وتوجّه شرقًا عائدًا نحو **أبو جورج**.

كانت الساعة الرابعة عصرًا. حان وقت "تسلّق الدرج" عبر المدينة – تغييرات متكررة في الاتجاه، انعكاسات، توقفات متعددة. سيستغلّ أزقّة المدينة القديمة المتعرّجة لاختبار فرق المراقبة، بإرباكهم وإجبارهم على إعادة تشكيل طوقهم. حتى الفرق المحترفة ترتكب أخطاء تحت هذا الضغط.

انزلق بين **كاتدرائية مريمية** ومطعم **نارنج** – توقّف لقراءة القائمة المعلّقة والتقط صورة – ثم اتجه إلى صيدلية. لم يكن شراء اللاصق الطبي الكبير لجرحه المخموج جزءًا من الخطة، لكنه احتاجه فعلًا، والتوقف الإضافي لن يضرّ، بل سيساعد على إنهاك خصومه. تنقّل بين الحشود وخرج منها، يبدّل الكثافة البشرية ليدفع المراقبة إلى الظهور. ومع اقترابه من **الجامع الأموي** ازدادت الزحمة، لكنه اختار عبور الطريق الروماني القديم متجهًا إلى **باب الصغير**.

كانت الساعة السابعة مساءً. الهواء مشحون، لا يدري إن كان ذلك بسبب الحرب أم توتّره الداخلي. شعر أنه أصبح "أسودًا" بالكامل – غير مرئي. توقّف عند كشك يبيع تذكارات مؤيدة للأسد، ثم قرقع بطنه فجأة، فأدرك أنه جائع.

***

كان في منتصف تناوله كوبًا من **البوظة** – ذلك المثلّج الشامي المطاطي – ومعه زجاجة ماء حين بدأت لعبة الأعصاب.
ظنّ أنه نفّذ القواعد الميدانية بإتقان. أم تراه أخطأ؟ هل كانت المرأة التي اشترت الآيس كريم هي نفسها التي رآها في متجر المجوهرات؟ وهل تلك الحركة الجانبية الخاطفة أمام الصيدلية كانت حقًّا صبيًا يركل كرة؟
تابع سيره نحو محطة القطار، وقد داهمه الإرهاق وتصلّبت عضلات ساقيه، فشدّ قميصه المبتل على صدره.

تذكّر **بنسون**، الذي كان يرى الأشباح في كل تدريب على المناورات الميدانية، قبل أن يفشل في الاختبارات ويترك الخدمة بعد عشرة أشهر فقط، لينتهي به المطاف وراء مكتبٍ مملّ.

ثق بالقواعد، قال لنفسه. *اقتربت النهاية.*

كان المكان هادئًا، لكن الهواء مشحون بالتوتر. دوّت قذائف هاون في الشرق، فيما أطلقت الشمس آخر قنابلها من الورديّات والحُمُر على الأفق. بلغ الساحة أمام محطة **الحجاز** وتوقف. التقط صورة. ثم لمح حركة خاطفة في الركن الجنوبي الغربي من الساحة. في الصمت الغريب سمع خشخشة – ربما جهاز لاسلكي، أو وطأة قدم على ورق قصدير. ارتجف عموده الفقري، وبدأ يفكّر كيف يمكن لفريقٍ أن يظلّ غير مكشوفٍ طيلة اثنتي عشرة ساعة. جلس على مقعد.

كان يشعر بأنه مُطارَد.

استحضر الكلمة ذكرى قديمة: ضابط يُدعى **ساندرز** كان ذاهبًا للقاء عميلٍ روسيّ في أنقرة. نفّذ إجراءات الأمان، وأجرى اللقاء. في اليوم التالي، أُعيد الروسي إلى بلاده، ووأقفوه أمام جدارٍ في **لوبيانكا** وأطلقوا عليه النار. كشف التحقيق أن **ساندرز** كان مطاردًا من فريق روسي مزدوج – ثابت ومتحرك – تابع لـ **SVR**، كانوا قد اشتبهوا بأنه يدير عملاء روسًا بعد أن سمعوه يتحدث الروسية في مناسبة دبلوماسية قبل ثلاثة أسابيع. كما ظنوا بوجود تسريب في تركيا، فكان هو الخيط الأول.
الروس أحاطوا به من بعيد، دون أن يقتربوا بما يكفي ليفضحوا أنفسهم، لكنه كان دائمًا في مرمى نظرهم. لم يشعر بشيء حتى النهاية.
مديره حينها، **برادلي**، رئيس محطة القاهرة، أجبر جميع ضباطه على قراءة تقرير التحقيق. وكان **سام** يعرف أنه لو كان مكانه لفعل الشيء نفسه، ولذلك أخافه التقرير إلى حد الرعب.

والآن، فريق روسي في دمشق، لا أحد يعرف ماذا يفعلون بالضبط.
تذكّر فقرة من ذلك التقرير كتبها ضابط قديم من قسم روسيا قال فيها: *الطريقة الوحيدة لتتأكد أنك لست داخل فقاعة مراقبة، أن تتحرك بسرعة في اتجاهٍ* عمودي

على مسارك الحالي، فتُجبِر الخصوم على إعادة الانتشار.
هل من الممكن أن كل حركاته السابقة كانت داخل الفقاعة؟

مرّت دراجة نارية عبر الساحة متجهة نحو النهر. لم يرَ وجه السائق، لكن ثياب المرأة خلفه بدت مألوفة. شبح؟

لم يكن مستعدًا ليكون هو السبب في فشل العملية لقتل **علي حسن**. ذلك الحقير قتل **فال**، ولا بد أن يدفع الثمن.
كان عليه أن يتأكد أنه أصبح "أسود" قبل دخول البيت الآمن. لم يعلم إن كان هناك فريق يطوّقه، لكنه وجب أن يعرف. وجب أن يحطّم الفقاعة.
نهض **سام** وبدأ يمشي شمالًا بخطواتٍ سريعة. كان الأذان عند الغروب يتردّد من مآذن المدينة القديمة، لكنه لم يكن يسمعه. غلبت عليه الغريزة الميدانية، جسده يعمل كآلة، يحسّ بالشارع كأنه نبضٌ تحت قدميه.

سار شمالًا على شارع **بور سعيد** وأوقف سيارة أجرة في الاتجاه ذاته.

"إلى أين؟" قال السائق بالإنجليزية.

أخذ **سام** يفكّر في وجهة مناسبة.
"اتجه شمالًا"، أجابه بالعربية.

أغمض عينيه. كان قلبه يخفق بعنف، وعرق يتصبب من جبينه. بدأ يتنفس ببطء. قضى ساعاتٍ يحفظ خرائط المدينة عن ظهر قلب، وبعد دقيقة من التنفس البطيء، ما زال مغمض العينين، استحضرها.
مقبرة دحداح. تقع شمالًا مباشرة، ولا تتسق مع مساره، لكنها موقع سياحي، يمكن تبرير وجوده فيه.

داخل السيارة، طلب من السائق أن ينعطف نحو الدائرة القريبة من مبنى البلدية، ثم يسلك شارع بغداد شرقًا.

كانت المقبرة تحيط بها غابة صنوبرية نحيلة. دخلها **سام** مع غروب الشمس، وسار بين القبور يلتقط صورًا عشوائية في طريقه. مضت اثنتا عشرة ساعة. بدأ الإرهاق يضرب جسده كموجةٍ متكسّرة.

وعند اقترابه من الطرف الآخر للمقبرة، سمع صرير مكابح، ثم همساتٍ متوترة لاثنين من الرجال وامرأة.

حلّق صاروخان فوقه. لم يسمع انفجارهما. لم يرَ أحدًا. لم يشعر بأحد.

اتجه نحو الأصوات. مرت شابة من جواره، لها نفس القامة والبنية كسائقة الدراجة في ساحة الحجاز. حذاؤها الآن مسطّح أسود، لا يشبه جزمة الركوب الجلدية السابقة. ثم تبعها شابّان يمسكان بأيدي بعضهما كأقرباء. رمق **سام** حذاء الأقصر منهما – بنيّ اللون، مهترئ. الحذاء نفسه الذي رآه خارج مقهى **أبو جورج** أثناء لقائه مع **ستاب**. كان متأكدًا.
حينها كان الشاب يرتدي قميص **أديداس**، أما الآن فعليه سترة رمادية وبنطال يطابقها. غمر **سام** تيارٌ من الرجفة والانتباه الحاد.

جلس على مقعدٍ خارج المقبرة. كانت الشمس قد غابت. جلس نصف ساعة يعيد كل شيء في ذهنه، يفحص قراراته، يشكك في كل خطوة، حتى شعر بأنه امتلك ما يكفي ليواجه **بروكتر**.
كان قادرًا أن يشعر بالمطاردين في مكانٍ ما حوله، ربما يتساءلون الآن إن كان قد كشفهم أم ينتظر لقاء عميله.
ظلّ جالسًا، يطيل انتظارهم، يستفزّهم، ويثير غضب قادتهم مع مرور كل دقيقة. لقد أهدروا أكثر من اثنتي عشرة ساعة من يومه، وها هو يحاول أن يردّ لهم الجميل.

***

كان **علي** و**فولكوف** يراقبان بثًا مباشرًا لضابط الـCIA **صامويل جوزيف** وهو يجلس على المقعد خارج المقبرة. شعر **علي** أنهم قد كُشفوا قرب محطة القطار، لكنه أراد أن يتعلم أكثر عن سلوك جوزيف، فظلّ ملتصقًا بالشاشة إلى جانب **فولكوف**.
كره أن يعترف بالأمر، لكنه كان معجبًا به.

أشعل **علي** سيجارةً لـ **فولكوف**، ثم لنفسه. كانا في حالة استنفارٍ كامل منذ الظهيرة.

بناءً على حدسه، أصرّ **علي** على أن **صامويل جوزيف** في مهمة. قال لـ **فولكوف** عندما سأله إن كان اليوم هو "اليوم المنتظر": *اليوم يبدو هادئًا أكثر من اللازم. ثمة شيء غير صحيح.*

فأجابه **فولكوف**: *ولِمَ لا؟ فلنحاصره.*

طوّقاه بسبعة فرقٍ، وحبسوه داخل مساره عبر المدينة القديمة. كانت نقاط المراقبة الثابتة مثالية – حسب رأي **علي** – بفضل تخطيط **فولكوف** الدقيق.

مراقبون موزّعون بمهارة حول الأمريكي، يرسلون تقارير إلى الفرق المتحركة كلما تقدم في خط سيره. لكن أحد الفرق السورية – من رجال **علي** – اقترب منه أكثر مما يجب عند محطة القطار، ثم ارتبك وأظهر نفسه عند المقبرة، بينما الأمريكي اللعين واصل جولته في المدينة بحذرٍ كصقر.

انقطع بث الفيديو.

جلس طاقم غرفة القيادة في **مكتب الأمن** يصغون إلى الاتصالات اللاسلكية وهي تحدّثهم عن سير العملية.

"هنا الفريق الثالث، لقد استقلّ سيارة أجرة، أوقفنا البث المرئي، ونتبعه الآن."

وحين أبلغ الفريق الخامس أن السيارة توقفت عند شقة **صامويل**، حطّم **فولكوف** دباسة المكتب على الأرض.

أومأ **علي** له وغادر إلى مكتبه، وأغلق الباب خلفه.

نظر إلى ساعته: العاشرة والنصف.

لم يرَ **ليلى** والأولاد منذ خمسة أيام.

أشعل سيجارة، وبدأ يكتب التقرير.

الفصل الأربعون

كان الصباح حارًّا ورطبًا.

لكن ما كان أشدّ إزعاجًا من الحرّ، كما فكّر **رامي**، هو أن يظلّ عالقًا في الزحام وهو يقود سيارة ميتسوبيشي *با*جيرو بسماعة مكسورة في جهة الراكب، وبداخلها – كما كان يظن – مخبأٌ خفيّ يحتوي على متفجرات من طراز عسكري. ظلّ يكرّر لنفسه أنه لا يريد أن يعرف.

بعد عشرين دقيقة وجد موقفًا جزئيًّا على الرصيف أسفل الطريق من **مكتب الأمن**، بمحاذاة الطريق الذي كان **علي** يدخّن فيه دائمًا. أوقف السيارة بمحاذاة الجدار الإسمنتي مباشرة، ثم ترجل مبتعدًا عن المكتب وكاميرات المراقبة المثبتة حوله.

***

في الوقت نفسه، كان أخوه **يوسف** جالسًا داخل **المنزل الآمن** يرتّب معدات التصوير. كان عليه أن يشهد حدثين قبل أن يرسل الرسالة إلى **سام**:

أولًا، أن يركن أخوه سيارة *البا*جيرو.

ثانيًا، أن يرى **عليًا** يدخل إلى مكتب الأمن.

جلس ينتظر الحدث الثاني. لقد كان الشهر الماضي، في ذلك البيت الملعون، كفيلاً بسحق روحه.

بعد ساعة، شاهد سيارة **علي** تدخل البوابة، بل وتمكّن من رؤيته على الفيديو وهو يدخل المبنى. أرسل رسالة مشفّرة إلى **سام**: *هنا*.

***

قالت **بروكتر**، وهي تضرب بيدها على كابل جديد من *لانغلي* تطلب تحديثًا عن عملية اغتيال **علي حسن**:

"قواعد المنطقة المحظورة... اعتبارًا من الآن."

قواعد المنطقة المحظورة: أن تختفي كليًّا، تصبح "أسودًا"، ثم تعاود الظهور لاحقًا. وكان **سام** يعرف أنّ عليه أن يفعل ذلك بحزم إن لزم الأمر؛ أن يختفي ببساطة أمام المراقبين. لا شك أن المخابرات ستردّ عاجلًا أم آجلًا، لكن لم يكن أمامه خيار آخر. الضغوط من *واشنطن* ازدادت، والمكتب لا يستطيع أن يظلّ متفرّجًا. كان عليهم أن يطيحوا بعلي.

بعد انتهاء الاجتماع الصباحي في مكتب **بروكتر**، توجه **سام** إلى حاسوبه ليتفقد رسائل **أثينا**. صندوق الوارد لا يزال فارغًا. ضغط على فأرة الحاسوب بعنف وأغلق قاعدة البيانات. مضى أكثر من أسبوع من الصمت. ما الذي يجري؟ هل قبضوا عليها؟

الحكومة المضيفة عادة لا تُخبرك حين تعتقل أحد عملائك. لقد استغرق الأمر أكثر من شهر قبل أن تعرف الـ *CIA* أنّ **ڤال** ماتت في الحجز.

هل قبضوا علي مريم؟

ربما أمسك بها **عطية** ومعها الحقيبة، أو ربما وجدوا البرنامج على *الآيباد*. وربما مات والدها في *حلب*. أو ربما هي فقط تخشى الجهاز.

أغلق حاسوبه، ودخل الحمام، وجلس على مقعد المرحاض، بثيابه كاملة، مطرقًا رأسه بين كفيه. ثم خرج إلى منطقة الهواتف ليتفقد الرسائل القادمة من فريق **بانديتوز** – طقسه اليومي الجديد. فتح هاتفه المحروق[33] ورأى الرسالة: *هنا*.

أجاب **سام**: *انسحب*.

---

[33] **الهاتف المحروق (burner phone)** : هاتف محمول رخيص ومسبق الدفع، يتم شراؤه بدون عقد أو تسجيل بيانات شخصية بهدف استخدامه بشكل مؤقت ومجهول الهوية ثم التخلص منه ("حرقه") لإخفاء أي أثر.

صافحته **بروكتر** قبيل مغادرته، وقالت إنها سترسل برقية *NIACT* – *أي عمل ليلي عاجل* – إلى *لانغلي*. سيستدعون **برادلي**، وبقية كبار الضباط في الطابق السابع، وخبراء التعرف على الوجوه، ومكتب المستشار القانوني العام.

كل شيء، مرة أخرى، يعتمد عليه... أن يختفي في مدينة تتداعى على نفسها حول **محطة دمشق**.

***

عاد **سام** إلى شقته، استحمّ، وارتدى بنطال جينز داكنًا، وقميصًا أزرق مقلمًا، وسترة كتان بلون أزرق باهت – يكرهها. أرسل رسالة إلى **زيلدا** يؤكد فيها موعد الشرّاب عند العاشرة في **الشعلان**، وأشار إلى أنه سيتسوّق قليلًا قبل ذلك.

غادر الشقة حاملاً حقيبته المعلّقة على الكتف، وبداخلها هاتف وعدة تنكرات. لاحظ فورًا وجود شاحنة مراقبة ورجل يدخن على الرصيف محدقًا به. لم يهمّ. هو يحتاج فقط بضع ثوانٍ من الفجوة الزمنية.

اتجه نحو **الأمويين**، ثم شمالًا صوب السفارة، مبتعدًا تدريجيًّا عن رجال المخابرات الذين يتعقبونه. رأى الشارع أمامه، دقّ قلبه بعنف، ثم انعطف يمينًا وهو يبحث بنظره عن موقع ثابت. لا شيء. فجأة بدأ يجري. انعطف يمينًا، ثم يسارًا، وهو يركض بكل قوته.

كان الطريق خاليًا إلا من سيارة واحدة: **BMW سوداء**، محركها يعمل وصندوقها الخلفي مفتوح قليلًا، و**إلياس** خلف المقود. اندفع نحوها، رفع الصندوق، تفقد الزقاق – لا شهود – وقفز إلى الداخل.

بينما كانت السيارة تنعطف بسلاسة، خلع سترته وقميصه، وراح يتلمس في الحقيبة باحثًا عن البطن الاصطناعي وقميص جديد. التوى ذراعه داخل القميص، فاهتزت السيارة فوق مطبّ، وكاد عظم ذراعه ينكسر. ثم دسّ البطن الإسفنجي تحت القميص، ووضع على رأسه شعراً مستعارًا بنّيًا كثيفاً وشاربًا مزعجًا. اصطدمت السيارة بمطبّ آخر، فلعن بخفوت وأعاد ترتيب الشارب.

تمدّد **سام** في الصندوق داعيًا ألا يصادفوا أي حاجز تفتيش مفاجئ. فلو أوقفهم أفراد الميليشيا ووجدوا أمريكيًّا طويل القامة متنكرًا بشعر مستعار وبطن وهمي، فسينتهي أمرهم جميعًا إلى الجحيم.

***

كان **كنعان** هو من تلقّى اتصال العريف اللاهث، وتمكّن بالكاد، وسط أنفاسه المتقطعة وشتائمه، من فهم أنهم فقدوا أثر **صامويل**.

وبعد أن أنهى صراخه عليه، توجّه إلى مكتب **علي** ليبلغه الخبر. تجمّد قلبه حين رأى **الجنرال فولكوف** يحتسي الفودكا في فنجان قهوة، وأدرك أنه سيتعيّن عليه الاعتراف بالفشل أمام هذا الرجل المخيف.

قال **علي** وهو يختنق بالكلمات:
"ماذا تعني فقدناه؟"

وحين شرح **كنعان** الموقف البائس، بدت ملامح **فولكوف** جامدة تمامًا، ما عدا حاجبيه اللذين ارتفعا قليلًا.

قال بهدوء بارد:
"اللعين قد كشفنا."

أومأ **علي**.
"يعرف أننا كدنا نمسك بهم في المرة الماضية. أتظن أنه سيقابل زميله في الشرّاب الليلة كما قالت الرسالة؟"

أخذ **فولكوف** رشفة أخرى من كأسه وحدق في الخريطة، ثم هز كتفيه:
"مرت خمس عشرة دقيقة. أمامه أربع ساعات. وقت كافٍ لعملية... ثم مشروب مع صديقته."

قال **علي**:
"كنعان، أفترض أن الفريق الميداني لا يعرف شكل السيارة؟"

"صحيح، لم يروها مطلقًا."

قال **فولكوف** بابتسامة خفيفة:

"ربما يحالفنا الحظ. قد يلتقطهم حاجز تفتيش."

قال **علي** وهو يفك زرّ قميصه ويشعل سيجارة:

"ربما. وربما أذهب أنا لأقابله في الشرّاب."

قال **فولكوف**:

"فكرة ممتازة. تعلم، حين كان أحدهم يختفي في موسكو، كنا ننتظر ظهوره مجددًا ثم نضربه حتى الموت."

***

كانت السيارة تلتفّ في سلسلة من المنعطفات عائدة إلى المدينة نحو **المنزل الآمن**. وبعد تسعين دقيقة فتح **إلياس** الصندوق الخلفي مبتسمًا لراكبه وهو يعبث بشاربه.

سار **سام** في شوارع **كفرسوسة** المضيئة، ثم إلى **اللوان**، مطبّقًا تقنيات كسر المراقبة، لكنها كانت بلا فائدة. لقد أصبح "أسودًا" بالفعل.

عند الثامنة مساءً، وصل إلى المنزل الآمن فوجده خاليًا؛ فقد غادر **البانديتوز** بالفعل. نصب الكاميرا على حاملها موجّهة نحو سيارة *البا*جيرو المتوقفة أسفل النافذة، وتأكد من أن الاتصال عبر القمر الصناعي المشفّر فعّال. ثم أخرج هاتفه واتصل برقم طويل وغريب جدًا.

جاءه الصوت عبر الخط:

"مرحبًا سام، هل تسمعنا؟"

كان **برادلي**.

"أسمعك. هل لديكم الصورة؟"

"نعم، نرى شارعًا خاليًا وباجيرو وحيدة."

"نسخة مطابقة لما عندي. **بروكتر**، هل أنت معنا؟"

"نعم. محطة دمشق متصلة."

قال **برادلي**:

"لدينا فريق التعرف على الوجوه في غرفة اجتماعات المدير، ومعهم برنامج الذكاء الاصطناعي **MOLLY**[34]، والمحللة البشرية **سوزان كرولي**."
فقال الجميع: "مرحبًا، سوزان."

قال **برادلي**:
"حسنًا، الفريق مستعد. المدير منحني صلاحية التشغيل لهذه العملية. حالما يغادر **علي** المكتب، سيجري كل من **MOLLY** و**سوزان** تحليلًا مستقلًا للهوية. بعد التأكيد، سأفعّل الجهاز وأشغّل مستشعر الأشعة تحت الحمراء. سيحافظ **سام** على المراقبة البصرية للهدف ومنطقة الانفجار طوال الوقت، وسنلغي المهمة فور اقتراب أي مدني. مفهوم؟"

"نعم."

"إذن ننتظر."

جلس **سام** يتابع البث المصوّر، متسائلًا عمّا يفعله **علي** في الداخل، وفي أي غرفة من هذا المكان الملعون انتزعوا فروة **فال**.

***

في الجهة المقابلة من الشارع، كان **علي** يسير خلف **فولكوف** إلى مركز القيادة المؤقت للروس، حيث بدا أن عملية مطاردة **صامويل جوزيف** تتدهور. لا أثر للأمريكي في أي مكان.

كانت خطته تؤتي ثمارها، لكنه بدأ يفقد الوقت. ومع ذلك ما زال يملك فسحةً ضئيلة من الثقة من **الأسد** ليمنح الأمريكي تحذيرًا أخيرًا. بعدها، سينفّذ **رستم** خطته لجلبه للتحقيق. لم يكن **علي** يرغب في أن تتحول القضية إلى عمل همجي، لكنه بدأ يستنفد خياراته. الأمريكيون ينفذون عملياتهم بلا مبالاة، يسخرون منه، بينما يحاول هو أن يلعب اللعبة بأدب.

---

[34] **مولي (MOLLY)** : اسم افتراضي لبرنامج ذكاء اصطناعي (AI) للتعرف البصري، قادر على تحليل اللقطات المصورة لتحديد هوية الأشخاص أو الأهداف تلقائياً.

في كل الأحوال، لم يَرِد أي تحديث بخصوص عملية **رستم** لتسريب المعلومات المضللة حول موقع الإنتاج الاحتياطي إلى **بثينة** والآخرين. وإذا لم تصل تلك البيانات في التقرير التالي لجهاز **SVR**، فستنتهي مهلته وسيلجؤون إلى اعتقال **صامويل جوزيف** وانتزاع الاسم منه بالقوة. ومع تصرفات الشاب المتهورة، بدأ **علي** يميل لتأييد ذلك الرأي... لكن ليس بعد.

احتاج إلى تصفية ذهنه. تناول علبة سجائره وخرج يتمشّى.

***

من **المنزل الآمن**، رأى **سام** هيئة مألوفة تتسلل بين الحواجز الإسمنتية أمام **مكتب الأمن**. وجه الكاميرا نحوها وقرّب الصورة.
"إنه هو... **علي**."

كل ما عليه أن يواصل السير في الجهة اليمنى من الطريق. سجلات المراقبة أكدت أنه يفعل ذلك غالبًا، لكن الاحتمال قائم أن يغيّر عادته. تمتم **سام**:
"هيا أيها اللعين... الجهة اليمنى."

وقف **علي** يتحدث إلى الحراس، يدخن ويضحك. تذكّر **سام** أن لعلي زوجة وتوأمين. شعر بوخزة حزن عابرة، لمسة إنسانية بعيدة. لكنه أجبر نفسه على تذكّر **ڤال** وأمها وحفل التأبين.

***

بينما كان **علي** يواصل المزاح مع الحراس، كان أحد الروس يصغي عبر جهاز اللاسلكي إلى فريق **FSB**[35]، فسمع صياحًا متحمسًا، ثم صرخ في وجه **فولكوف**:
"لقد وجدنا شخصًا يطابق أوصاف **سام**! في كفرسوسة! شقة هناك! قريب جدًا!"

رمى **فولكوف** كوب الستايروفوم الفارغ نحو سلة المهملات فأخطأها تمامًا.
"أرِني، أين؟"

---

[35] **إف إس بي (FSB)** : اختصار لـ "خدمة الأمن الفيدرالية الروسية **Federal'naya sluzhba bezopasnosti** " وهي وكالة الاستخبارات الداخلية ومكافحة التجسس الرئيسية في روسيا.

اقترب الملازم من الخريطة وسأل الفريق الميداني عن العنوان مرة أخرى، ثم أشار بإصبعه.

قال **فولكوف**:

"إنها على بعد شارع واحد فقط."

ثم التفت إلى **كنعان** الذي كان يصرخ في اللاسلكي موجّهًا الفرق السورية للتحرك واعتقال الأمريكي ومن يلتقيه.

قال **فولكوف**:

"أين **علي**؟"

"خرج يتمشّى، في نفس الشارع."

رفع **فولكوف** عينيه إلى السماء، وقال في سخرية:

"هذا المشرقي الرخو... لا بد أن الشمس أذابته. سأذهب لأحضره، وسنواصل سيرًا على الأقدام. مفهوم؟"

أومأ **كنعان**، وأعاد الهاتف إلى فمه صارخاً في فرقه لتسابق الزمن نحو شقة **كفرسوسة**.

***

قال **سام**:

"إنه يتحرّك الآن، في الجهة اليمنى، جهتنا. لقد فعّلت جهاز *Frisbee*."

كان الفريق قد تبنّى هذا الاسم كرمز بينهم.

"أركّز البث الآن للتعرّف على الوجه."

كان **علي** يمشي بخطوات بطيئة لمسافة عشرين ياردة، ثم توقّف ليطفئ سيجارته. كان لا يزال على بُعد مئة ياردة تقريباً من سيارة *البا*جيرو، والرصيف حولها خالٍ تماماً.

في **لانغلي**، كان خبير التعرف على الوجوه يراجع البثّ الحي، مقارِناً إياه بلقطات عملية المراقبة التي نفّذها فريق **بانديتوز**. وفي الوقت نفسه، كانت خوارزمية

تُدعى *MOLLY* تُحلّل البيانات ذاتها. فإذا تطابقت نتيجة *MOLLY* مع رأي **سوزان** بأنّ الهدف هو علي، فستُعطى الإشارة للتنفيذ.

واصل **علي** سيره... ببطء.

سعل **سام** وهو يستحضر في ذهنه مشاهد من حياته:
*مطحنة الدقيق... الكرم التوسكاني مع **مريم**... المراقبة التي كاد الروس أن يكشفوه فيها... ثم فيغاس حين تم إخلاؤه.*
كلها كانت له، بشكلٍ غريب.
تساءل في نفسه *هل هذا* يجعلني *قاتلًا*؟ حتى لو لم يكن هو من سيضغط على الزناد، فهو من سيُفعّل مستشعر الأشعة تحت الحمراء في النهاية.

جاء صوت مجهول عبر القناة:
"لدينا تأكيد هنا في لانغلي. أنا **بول غارتنر**، رئيس قسم الشؤون القانونية. سوزان وMOLLY متفقتان: إنه علي."

قال **برادلي**:
"تم الاستلام. سام، فعّل الجهاز."

أدار **سام** هاتف الأقمار الصناعية، فأضاء مستشعر الحركة بالأشعة تحت الحمراء وانطلق النظام.
قال:
"خمسون ياردة."

***

بينما كان **علي** يتهادى بخطواته، أشعل سيجارة أخرى وابتلع الدخان متسائلاً في أعماقه لماذا يفعل هذا أصلًا. أبعد الفكرة عن ذهنه وتفقد ساعته. كان يريد أن يرى **ليلى** والأولاد، لكن الوقت فات. أغمض عينيه وتمنى للحظة أن يكون الآن يصارع التوأمين بدلاً من أن يلعب دور الشرطي لأخيه الحيوان ولذلك الرئيس السخيف.
توقف، رمى سيجارته، ثم أشعل أخرى ومضى.

***

قال **سام**:

"خمسة وعشرون ياردة."

سأل **بروكتر**:

"هل هذا الرجل مختل عقليًا؟ لأنه يمشي كأنه مصاب بإعاقة."

فقال **برادلي** بنبرة حادة:

"اصمت."

قال **سام**:

"خمسة عشر ياردة. الرصيف ما زال خاليًا. لا أحد سوى علي."

ثم تابع:

"عشر ياردات... خمس..."

قال **برادلي**:

"يجب أن يحدث التفجير خلال ثانيتين."

***

سمع **علي** وقع خطوات ثقيلة خلفه على الرصيف.

صرخ **فولكوف**:

"سيدي اللواء! وجدناه! عد إلى هنا!"

استدار علي، فرأى الروسي يركض نحوه. وبينما استدار، فقد توازنه فتمايل باتجاه الشارع، ثم تدارك نفسه مستندًا إلى مؤخرة سيارة *الباجيرو*. وقف متوترًا وقال:

"ما الذي يحدث؟"

فأجابه الروسي:

"أحد الفرق المتنقلة رآه. هنا في كفر سوسة، في شقة قريبة. كنعان أرسل وحدات للاعتقال. ابدأ بالركض، سنلحق بك."

بدأ **علي** بالجري.

***

كان **سام** قد أوقف تفعيل مستشعر الأشعة حين رأى الرجل يركض نحو علي، وجلس صامتًا يراقب الفوضى تتكشف على الشاشة.

قطع **برادلي** الصمت قائلًا:

"حسنًا، أيها الزملاء، سام عطّل المستشعر. **سوزان**، هل تستطيعين فهم ما قاله ذلك الرجل لعلي؟ لم يبدو لي سوريًا. سام، انسحب فورًا."

جمع **سام** معداته وأعاد لصق شاربه الاصطناعي. لاحظ أنه أدار العملية كلها مرتديًا البطن والباروكة المزيفتين.

قالت **سوزان** عبر الخط:

"الرجل الذي مع علي قال: (لقد وجدناه)."

قال **برادلي**:

"سمعت هذا يا سام؟ لا تتحرك، بطبيعة الحال. لا يوجد دعم لك هناك. انتظر وابق على الخط."

كانت مريم... وجوده هنا... كل شيء معلّق بخيط رفيع يقطعه علي حسن الآن.

لو قبضوا عليه في المنزل الآمن، سيُطرد من سوريا أو يُقتل. لن يتمكن من حماية **مريم**، من لمس بشرتها، من سماع ضحكتها. لن يراها مجددًا.

شتم، وركل الحائط حتى أحدث فيه ثقبًا، ثم جلس في غرفة الاجتماعات يتأمل كيف سيدمّر معدات الفيديو.

***

وصل **علي** و**فولكوف** إلى مبنى حجري أبيض لا يختلف عن سواه في الحي.

تقدما نحو نقيب في مكتب الأمن العام كان يبتسم ابتسامة عريضة.

سأله **علي**:

"كيف عثرتم عليه؟"

قال الرجل:

"كنا محظوظين، رأيناه يدخل. تبعته حتى الدرج وشاهدته يدخل إحدى الشقق."
"هل رأيت أحدًا يدخل معه؟"
"لا."
"خذني إليه."

ركبوا المصعد في صمت، ونبض **علي** يتسارع مع كل طابق.
وصلوا إلى الشقة. حاول الضابط فتح الباب ثم هز رأسه.
طرق **علي** الباب بقوة:
"هنا مكتب الأمن. افتح فورًا!"
صمت.
"لديك ثلاث ثوانٍ لفتح الباب!"
لا إجابة.
أومأ **علي** وسحب سلاحه. ركل الضابط الباب، واندفع علي إلى الداخل.

***

كان **الصالون** فارغًا، وكذلك المطبخ.
دخل علي **غرفة النوم** فرأى امرأة سورية شابة جميلة، عارية وهادئة، تدخن سيجارة على السرير. نهضت بلا خجل لإطفائها، ثم التقطت حمالة صدرها وأشارت برأسها نحو الخزانة.

اتضح لاحقًا أنّ الرجل الذي ظنّ الفريق أنه **سام** لم يكن سوى **كليمان لاكروا** من السفارة الفرنسية، شاب يشبه ضابط الـCIA إلى حدّ لافت، وكان على علاقة بحلاقة سورية تملك شقة في كفر سوسة.
اختبأ **كليمان** في الخزانة عند سماعه الطرقات، بينما جلست صديقته –وهي الأذكى كما في أغلب العلاقات السورية– تدخن بهدوء وهي تنتظر عناصر المخابرات ليكتشفوا أنهم ارتكبوا خطأً فادحًا.

***

انتظر **سام** بصبر حتى اقتحم **علي** الباب. وبعد ثلاثين دقيقة، اتفق **برادلي وبروكتر** على أن يغادر. لم يُتبع، ولم يعرف أين ذهب علي والروسي. ترك معدات الفيديو في مكانها وبدأ بتفكيك تنكره أثناء العودة. وعندما وصل إلى شقته، كان الحقيبة فارغة وعاد شكله الطبيعي.

كان منهكًا، لكنه اضطر للذهاب إلى العشاء مع **زيلدا** حتى لا يثير شكوك السوريين، إذ كانوا يراقبون رسائله النصية بالتأكيد وسيتوقعون حضوره.
رأى الجندي المكلّف بمراقبة مدخل شقته يبدُو مذهولًا حين دخل. *نفس الرجل منذ خمسة أيام*، مسكين، فكر **سام**. كاد يلوّح له لكنه تراجع حتى لا يُعدّ ذلك إهانة مهنية قد تدفعهم لاقتحام شقته تفتيشاً أو عبثًا.

كانت **زيلدا** قد حجزت طاولة في مطعم *Three Tables* في حي الشعلان. الحيّ الذي كان يعجّ بالعائلات والعشّاق والمتنزهين قبل الحرب. الآن خيّم عليه الصمت، والمتاجر الراقية خافتة الحركة.

وصلت **زيلدا** أولًا. جلست متوترة قرب النافذة، والمكان شبه فارغ.

كان **علي حسن** يجلس إلى جوارها.
ابتسم ولوّح لـ **سام** يدعوه إلى الطاولة. وحين اقترب، نهض علي ليصافحه مشيرًا إلى كرسي مقابل لهما.

قال بالإنجليزية:
"صامويل، تفضل بالجلوس."

كانت **زيلدا** قد طلبت النبيذ قبل وصوله على ما يبدو، فحضر النادل بالزجاجة.
ابتسم **علي** وهو يشمّ النبيذ قائلاً:
"نبيذ **دومين دي بارجيلوس**، اختيار ممتاز."
تذوّق رشفة وأومأ للنادل ليملأ الكؤوس.
وأضاف مبتسمًا:
"تعلم؟ هذا النبيذ السوري الوحيد القابل للتصدير. البقية مجرد قمامة تنتجها مزارع

الدولة. يملكه لبنانيان، رغم أنه في اللاذقية قرب موطن أجدادي. سمعت أن المتمردين يقصفونه أحياناً."

لاحظ **سام** آثار العرق على المفرش عندما رفعت **زيلِدا** يديها عن الطاولة.

قال بالعربية وهو يغمز لقاتل **فال**:
"أليس حرام عليك أن تشرب ؟"
لكنه في داخله كان يتمنى أن يغرس خنجره في صدره. شعر أنّ علي مرتاح، مسيطر.

ضحك **علي** وقال:
"أنا علوي يا سيد جوزيف، كلنا زنادقة على أي حال."
ابتسم لـ **زيلِدا** التي خفضت عينيها نحو بقع العرق.

جاء النادل بالخبز، فأشار **علي** أن يقدمه. ثم قال لزيلِدا بلطف:
"اسمحي لي."
سكب لها زيت الزيتون على الخبز، ثم حضّر لنفسه قطعة أخرى وظل يحدّق بها:
"هل تستمتعين بإقامتك في سوريا؟"

قالت:
"نعم، كانت بلداً جميلاً."
ولم يلحظ **علي** أنّها استخدمت الماضي لا الحاضر.
قال:
"مؤسف أنك لا تستطيعين زيارة الساحل أو حلب، لكن الأخيرة لم تعد صالحة للرؤية. مؤسف حقًا."
قالت:
"ولدتُ هناك، زرتها حين كنت صغيرة."
قال مبتسمًا:
"رائع، إذًا أنت تعرفين مجدها القديم. وأنت نصف سورية؟ مدهش. أمريكا حقًا بوتقة تنصهر فيها الشعوب، كما يقولون."

ثم التفت نحو **سام** وضاقت عيناه:

"دعنا نتمشّى، سيد جوزيف."

غادرا، وبقيت **زيلِدا** تشرب نبيذها برشفة طويلة ممتنّة.

أشعل **علي** سيجارة وهو يمشي، وعرض واحدة على **سام** فرفض. قاده نحو حديقة قريبة.

سأل **سام**:

"هل هناك فريق يتتبعنا؟"

فقال **علي** ضاحكًا:

"ليس من وكالتي، لكن من يدري؟ قد تكون هناك عملية أخرى."

ثم أضاف ضاحكًا وهو ينفض الرماد.

سأله **سام**:

"كيف حال توأميك؟"

قال **علي**:

"بخير، شكرًا. لطالما تساءلت كيف يبدو ملفي لدى الـCIA. هل يحتوي على الأسرار المثيرة؟"

فقال **سام**:

"وجدنا فقط ستًا من عشيقاتك."

ضحك **علي**، ولاحظ **سام** ندبة حمراء على رقبته.

قال علي:

"آه، إذاً فاتتكم الأربع الأخريات. أولئك أخفيتهن بإتقان... ربما حتى الـCIA لن يجدهن."

ثم ابتسم وأشار إلى بقالة صغيرة:

"لدينا ما نقوله، لكن نفدت سجائري."

دخل **سام** معه وعرض أن يدفع الحساب.

ضحك **علي** بالعربية:

"يسعدني أن تعوّضني الحكومة الأمريكية عن إزعاجها."

كان البائع ينظر إليهما بقلق واضح.

ابتسم له **سام** وسأله بالعربية:

"كيف ليلتك؟"

فأجاب الرجل مرتبكًا:

"بخير، سيدي."

لكن عينيه توسّلتا أن يغادرا.

خرج الاثنان وسارا بصمت حتى وصلا إلى الحديقة. لم يفتح **علي** علبة سجائره الجديدة بعد. أشار إلى مقعد فجلسا.

ربّت العلبة على معصمه، أخرج سيجارة وأشعلها. وبعد أن مرّ زوجان، التفت إلى **سام** وقال:

"سيد جوزيف، وجودك في هذا البلد مرهون برحمة حكومتي. نحن نراقبك لحمايتك. الاختفاءات ليست مقبولة."

قال **سام**:

"أفهم."

تابع **علي**:

"ولا تظنّ أن لطفنا ضعف. إن خرقت القواعد مجددًا، فسيكون هناك عقاب. وكما تعلم، هناك قوى مظلمة تتحرك الآن في البلاد، وكسر القواعد يمنحها ذريعة لتبطش."

قال **سام** بهدوء:

"أفهم."

قال **علي**:

"جيد."

أنهى سيجارته وسحقها بحذائه ثم نهض.

كان **سام** يريد أن يستدرجه للحديث، أن يذكر اسم **ڤال** ليرى انعكاسه في عينيه، لكن أي إشارة ستخيفه وتفسد العملية. فبدلًا من ذلك قال:

"لديك زوجة وأطفال. وأنت تقرأ كل التقارير الأمنية. أظنّ أنك لا توافق على طريقة حكومتك في التعامل مع الاضطرابات. أليس كذلك؟"

قال **علي**:

"الحكومة ارتكبت أخطاءً بلا شك."

قال **سام**:

"وهل تعتقد أن هذه الحكومة هي أفضل وسيلة لحماية عائلتك؟"

أشعل **علي** سيجارة أخرى ومدّ العلبة لـ **سام** قبل أن يرحل، ثم قال:

"سيد جوزيف، دعني أوفّر عليك الكلام. أنا الوحيد الذي يُبقي زوجتي وأولادي أحياء. أنصحك أن تقلق على نفسك أكثر، لأنك ستحتاج إلى ذلك."

***

عندما وصل **سام** إلى شقته، لم يحتج أن يلوّح لعنصر المخابرات السورية، فقد كان الرجل يبتسم له من الأسفل.

ولم يتفاجأ حين وجد باب شقته غير مقفل، ولا حين رأى رفوفه مقلوبة، وكتبه ممزقة، وحاسوبه مهشّمًا بمطرقة، وسكاكين المطبخ متناثرة وقد استُخدمت لتمزيق الأريكة.

فتح خزانة المعاطف، ولم يحتج أن يلمسها ليعرف أنها مبللة بالبول.

تتبع رائحة احتراق إلى المطبخ، فوجد أن فتّاحة القمامة محشوة بأدوات المائدة وقد تعطلت. الكراسي محطّمة، والفرن مطفأ، لكن بدافع الفضول فتحه، ليجد رماد كتبه بالداخل.

ابتسم. جهاز التكييف –وهو الأثمن– لم يُكسر، بل سُرق. تصرف ذكي.
وحين وصل إلى الحمام، شعر بالإعجاب الصادق: حوض الاستحمام محطّم، والمغسلة مليئة بالبول، والوسادة محشوة في المرحاض.

لكن اللمسة الأخيرة فاقت التوقعات: كومة بشرية هائلة من الغائط تتوسط السرير، يعلوها **صورة مراقبة باهتة** له مع **علي** يغادران المطعم، مغروسة فيها كشمعة على كعكة عيد ميلاد.

الفصل الحادي والأربعون

حاول **علي** بكل وسعه أن يتجنّب إشراك الرئيس في الأمر. اتصل بـ **رستم** مرتين، وأرسل إليه مذكرة رسمية "سريّة للغاية" تتضمن قائمة الأسماء والمواقع المزيّفة التي اتفقا على تمريرها بحسب خطة **علي**. لكنه لم يتلقَّ أي ردّ. وعندما أرسل **كنعان** إلى مقرّ الحرس الجمهوري، أبقاه أحد مساعدي **رستم** ينتظر ثلاث ساعات قبل أن يخبره بأنّ **رستم** في الفيلا في *بلودان*. وحين وصل إلى *بلودان*، قيل له إنّ **رستم** في *دمشق*.

وأخيرًا، وجد **علي** نفسه ينتظر خارج مكتب سكرتير الرئيس، حتى تمكّن من أن يُحشر في جدول المواعيد لخمس دقائق فقط.

قال **الأسد**، وهو يتصفح الإنترنت بعينٍ شاردة:
"أخوك يؤكد لي أنه أنهى النقاشات بالفعل."

كان **علي** واقفاً أمام المكتب، ولم يُدعَ إلى الجلوس.

تابع الرئيس:
"وأنا أعلم أنه أبلغ **عطية** على الأقل، لأن الرجل سألني عن الموقع خلال اجتماعٍ هذا الأسبوع."
نقر بالماوس مرتين متتاليتين وقال مبتسمًا:
"من الواضح أنّ هذين الرجلين يكرهان بعضهما بشدّة. أخشى أن يأمر **رستم** يومًا **باسل** بقتل **عطية**."

ضحك، ولم يستطع **علي** أن يميّز إن كان يمزح أم لا.

قال بهدوء:
"لقد أجرى جميع المحادثات عدا واحدة، سيادة الرئيس. عملية المراقبة ضد الأمريكي مستمرة، لكننا ما زلنا بحاجة لاختبار المسؤولين الذين لديهم علم بـ—"

قاطعه **الأسد** دون أن يرفع عينيه عن الشاشة:
"سمعت أن فريقك فقد أثر الأمريكي." ثم رفع بصره، وأعاد الموضوع إلى صلبه. "أنت تتحدث عن **بثينة**، أليس كذلك؟ أخوك يرى أنه لا ضرورة لاختبارها، يا **علي**."

قال **علي** بنبرة حذرة:
"وهل توافقه الرأي، سيادة الرئيس؟"

أراح الرئيس يديه خلف رأسه واتكأ على الكرسي، ثم مسّد شاربه النحيل وسأل:
"وماذا تحتاج بالضبط؟"

***

دخل **علي** مكتب **رستم** المنزلي حاملاً المرسوم الرئاسي السري، متجاهلًا اعتراض أحد المساعدين الذي حاول منعه بحجة أنّ **رستم** في اجتماع. وعندما فتح الباب، وجده جالسًا خلف ذلك المكتب المروّع المصنوع على شكل ناعورة، يتصفح التقارير.

قال **رستم** بعصبية:
"اخرج من هنا حالًا—"

قاطعه **علي** ببرود:
"هل تظن أن صديقتك تتجسس لصالح الـ CIA؟"

زمجر **رستم**:
"تبًّا لك، أيها الأخ الصغير. لا أظن ذلك."

قال **علي**:
"إذن لماذا لم تمرّر إليها المعلومات المزيّفة حول منشأة النسخ الاحتياطي في وادي بردى؟"

رفع **رستم** حاجبيه:
"وكيف عرفتُ أنك تعلم؟ وباسم الرب، نحن نعرف كلاهما أن الجاسوس الحقيقي هو ذلك الحقير **عطية**."

ضرب **علي** المرسوم على المكتب بقوة.
"اقرأ هذا."

تناول **رستم** الورقة، وقرأها، وبدأ وجهه يحمرّ تدريجيًّا. ثم وضعها على المكتب مقلوبة بعناية.

قال **علي** بنبرة قاطعة:
"أمامك حتى الليلة لتسلّمها المعلومات."

ثم استدار وخرج.

***

كانت **مريم** تأكل برتقالة ببطء، تنظر بين حينٍ وآخر إلى حقيبتها الضخمة التي استخدمتها لتهريب حقيبة الوثائق إلى القصر. خلال ساعة واحدة أكلت ثلاث برتقالات، وتصبغت أصابعها بالعصير الذي أخذ يلسع أطراف أظافرها المكشوفة. نزعت جزءًا من القشر واستمرت تحدّق في الحقيبة، وكأنها تحاول بإرادتها أن تجعلها تنزلق وحدها إلى مكتب **عطية** دون أن تضطر للذهاب بنفسها.

يا للسخرية. ذاك الوحش الذي أرسل رجالًا بالسلاح والعصي لقتلها في فرنسا، سيكون موته هذه المرة من حقيبةٍ بسيطة.

وبينما كانت تأكل قطعة جديدة من البرتقال، توقفت **بثينة** عند بابها.
"تصبحي على خير، يا **مريم**."

ابتسمت **مريم** قائلة:

"وأنتِ بخير."

كلما قلّ عدد الناس في هذا الطابق، كان أفضل لها. لم تكن تريد أحدًا حولها وهي تبدّل الحقائب. اختفت **بثينة**، فعادت نظرات **مريم** إلى الحقيبة.

رفعت قطعة البرتقال إلى شفتيها، وفجأة داهمها عبير مألوف ذكّرها بـ **كنعان**، الخادم المخلص لـ**علي**، الذي كان يأكل برتقالة أثناء أحد استجواباتها بعد حادثة *إيطاليا*. جلست يومها صامتة تراقبه يقشّرها ببطء بينما يعيد **علي** الأسئلة نفسها، وهي تجيب كما أجابت مرارًا من قبل.

س: الجهاز الذي قدمتِه، هل يتصل بالأقمار الصناعية؟

ج: نعم، هذا ما قاله لي صامويل جوزيف. قلت لك هذا من قبل يا سيادة اللواء.

س: ولماذا أعطاكِ إياه؟

ج: سلّمته المعلومات المتفق عليها. وقلت له إنني أحتاج وسيلة للتواصل مع الـ CIA من دمشق. احتجت جهازًا لذلك. قلت هذا—

س: وماذا أيضًا أخبرتِهم؟

ج: لا شيء.

(صوت أوراق تتقلب)

س: أيّ هؤلاء هو رئيس محطة الـ CIA؟

ج: هذه المرأة.

س: اسمها؟

ج: قالت إن اسمها *أرتميس*.

س: هل هذا اسم أمريكي حقيقي، يا كنعان؟ يبدو مستعارًا.

(صوت غير واضح)

س: حسنًا. هل زودوكم بمنازل آمنة أخرى هنا في دمشق؟

ج: فقط الذي أريتكم إياه، يا سيادة اللواء.

س: هل وعدوكِ بشيء مقابل تعاونك؟

ج: المال.

س: ماذا تناولتِ للعشاء في *سان أنجلو*؟

ج: باستا.

س: أي نوع؟

ج: *كاشو إي بيبي*، سباغيتي بالجبن والفلفل.

س: وماذا أكل صامويل جوزيف؟

ج: قلت لك هذا أربع مرات—

س: وماذا أكل صامويل جوزيف؟

ج: باستا، راجو توسكان، بلحم الخنزير البري.

(أصوات مكتومة، وولّاعة تُشعل)

س: يمكننا أخذ استراحة قصيرة. هل تودّين رؤية ابنة عمك الآن؟

ج: متى ستطلقون سراحها؟

س: عندما تنتهي مهمتك.

ج: ومتى سيكون ذلك؟

س: عندما تنتهي. هل من شيء آخر؟

ج: هل يمكنني استخدام الحمّام أولًا؟

***

تقيّأت **مريم** يومها، ثم جلست متكومة بجانب المرحاض تتنفس بسرعة في راحتيها. لم تدرك حينها أنها عضّت على سبابتها حتى سال الدم. مسحت الجرح بورق الحمّام ونظرت إلى وجهها في المرآة. تذكّرت وعد **سام** حين كانوا بين شجر الكرم وشعرت كأنها خسيسة.

قالت لها **رزان** عندما رأتها تُقاد إلى الزنزانة لزيارة خاطفة:
"تبدين أسوأ مني يا *أختي*، وأنا السجينة هنا."

أنهت **مريم** برتقالتها الأخيرة، جمعت قشورها ورمتها في سلة المهملات. كانت الساعة الثامنة وخمسًا وأربعين دقيقة. بقي خمس عشرة دقيقة. ذهبت إلى الحمّام وغسلت بقايا العصير عن يديها. عادت إلى مكتبها، أطفأت الأنوار، وأغلقت الباب

كأنها غير موجودة. جلست تحت مكتبها، تمسك بالحقيبة الضخمة التي تحتوي حقيبة الوثائق، تسمع نبض قلبها.

خطواتٌ خارج الباب. نظرت إلى ساعتها بالكاد ترى العقارب في العتمة. الثامنة وثمانٍ وخمسون دقيقة. *"إنه منحرف دقيق المواعيد"*، كما كانت **بثينة** تقول دائمًا.

سمعت خطوات **عطية** تمرّ أمام مكتبها في طريقه إلى زيارة **حسن تركماني**، مستشارٍ آخر للرئيس. كانت قد اختارت هذا الموعد بعناية. احتاجت أن يجتمع **عطية** بـ **تركماني**، ويفضل أن يكون الاجتماع ليلًا بعد مغادرة **بثينة**. بهذه الظروف، يمكنها التسلل إلى مكتب **عطية**، تبديل الحقيبة، ثم العودة دون أن يثير وجودها في ذلك الجناح شكوك **بثينة**، التي كانت لا تقل ريبة عن **عطية**.

تحركت **مريم** ما إن سمعت باب **تركماني** يُفتح ثم يُغلق. التقطت حقيبتها، ومشت بسرعة في الممر، تجاوزت مكتب **بثينة**، وانعطفت يسارًا نحو جناح **عطية**. تسارعت خطواتها حتى وصلت إلى مكتبه، وكان مفتوحًا لحسن حظها.

دخلت متذكرةً كيف كان يصفعها على مؤخرتها عند العتبة، وسحبت الحقيبة الجديدة – التي تحتوي جوازات سفر أمريكية لـ **عطية** وزوجته المسكينة، ونقودًا، وجهازًا محمّلًا برسالة تطلب إخراجه من البلاد – ووضعتها على الأرض بجانب حقيبته الأصلية.

قال **سام** يومًا:
"كيف تظنين أن المخابرات ستتعامل معه؟"
قالت: "سيقتلونه."
ابتسم ببرود. "جيد. وسنتأكد من أن هاتفه يتلقى رسائل نصية غريبة من أرقام أمريكية، احتياطًا."

فتحت **مريم** حقيبته، تفحصت المقصورة الداخلية قبل أن تُجري التبديل.

كانت **يونا** قد قالت لها:
"هناك تحذير واحد فقط. لا يمكننا رؤية داخل الحقيبة من الفيديو. استخدمنا واحدة مطابقة وعرّضناها لشهرين من الاستعمال. أنا شخصيًا أدخلت الأوراق وأخرجتها

أكثر من مئة مرة. لكن قد تكون هناك بقعة أو تمزق لم نره. عندما تجرين التبديل، افحصيها جيدًا، وإن لم تتطابق، ألغِ العملية."

جالت عيناها بين الحقيبتين بجنون، تبحث عن أي اختلاف. لكن الأسوأ أنها لم تجد شيئًا، ما يعني أنّ عليها المضيّ قدمًا. وضعت الأوراق في الحقيبة الجديدة، وأعادتها إلى مكان القديمة، ثم وضعت الأصلية في حقيبتها وغادرت المكتب سريعًا.

لم تشعر بأي توتر أثناء التنفيذ، لكنها الآن أحسّت بالعرق يسيل على ظهرها وبثقل الحقيبة على كتفها. كانت كل خطوة تصدر صوتًا مرتفعًا يثير فزعها، فزاد سرعتها محاولةً تجاوز مكتب **بثينة** والوصول إلى مكتبها.

لكن باب **تركماني** بدأ يُفتح، وسمعت صوت **عطية**. قررت بغريزتها أن تختبئ في مكتب **بثينة**.

وقفت بجانب المكتب تلهث بينما يقترب، وتخيلت صوته يسألها عما في الحقيبة، قائلاً بلطفٍ زائف: *يا لها من حقيبة جميلة، أريني ما بداخلها يا عزيزتي.*

تراجعت أكثر إلى الداخل، تراقب ظلّ خطواته يعبر من أسفل الباب، يحجب الضوء للحظة، ثم يبتعد. انتظرت دقيقة، ثم تقدمت بخطوة، فثانية، نحو الباب.

لكنها سمعت صوتين مألوفين في الممر. على غير عادة معظم الأحاديث التي كانت تتنصّت عليها، لم يكن هذا الحديث جنسيًّا. سحبت يدها عن المقبض، وتراجعت إلى الخلف، وأغلقت علي نفسها داخل حمّام **بثينة**.

يا لغبائي، كان عليّ أن أخرج ببساطة وأختلق عذرًا.

جلست على غطاء المرحاض في الظلام، تسمع **رستم** و**بثينة** يتجادلان بعد أن دخلا المكتب. اشتعل الضوء. *كان عليّ أن أقول إنني جئت لأضع ملفًا ونسيته... أو أنني أمشي أثناء النوم... أي شيء سوى أن أختبئ.*

كانت دقات قلبها تدوي في سكون الحمّام. *لماذا هما هنا؟* إن كان لقاءً عاطفيًا فهي هالكة، لأنهما سيفتحان الباب ويجدان جاسوسة لـ CIA جالسة على المرحاض تحمل حقيبة مسروقة.

قالت **بثينة** بنفاد صبر:

"ما الذي لم يحتمل التأجيل؟ ولماذا هنا؟ كنتُ في طريقي إلى البيت."

رد **رستم** بصوت منخفض:

"حدثت مشكلة في *جبلة*. تذكرين الشحنات؟"

"بالطبع. ما المشكلة؟"

"الأمريكيون اكتشفوها. اضطررنا إلى إخلائها ونقل كل غاز السارين إلى منشأة جديدة. احتياطية. في *وادي بردى*. أردت فقط التأكد أنك على علم، إن كنتِ سترسلين شيئًا آخر إلى *جبلة*."

"أفهم. هل العملية ما زالت مستمرة؟"

"نعم. صنعنا ما يكفي. لكن أرجوكِ، ليبقَ هذا بيننا، حبيبتي."

من خلف الباب، استطاعت **مريم** أن تتخيل النظرة الحادة التي رمقته بها **بثينة**، لكنها لم ترد.

***

استمعت **مريم** إليهما يمارسان الجنس نصف ساعة على الأقل، وشعورها بالاشمئزاز طغى عليه ارتياح غامر، لأن الأصوات الحيوانية التي كانت تصدر منهما غطّت على أي حركة قد تُصدرها في الحمّام. سمعت صوت تمزق القماش – ربما ملابس **بثينة** – فعاد إلى ذهنها مشهد **رزان** على شرفة شقتها، ترفع ساقها بثوبٍ ممزق تستعدّ للقفز. ثم عادتا تبكيان وتصرخان تحت سماءٍ نجمية نادرة. *لقد أنقذتها... ولأي شيء؟ من السجن إلى العذاب.*

لقد خذلت الجميع. **رزان**، **سام**، **العم داوود**... والآن ها هي تختبئ في حمّام امرأة تمارس الخيانة.

أغمضت عينيها محاولةً إسكات الأصوات.

لقد خنتِ سام، سلّمتِه لـ علي حسن الذي تكرهينه، فقط لتُنقذي ابنة عمك.

في الظلام، رأت **رزان** بثوبها الأسود المتماوج، غير ممزق، تدور حول نفسها وتقول: *لماذا تساعدين هؤلاء الوحوش من أجلي؟ أنا حرّة يا أختي. حرّري الآخرين: فاطمة، العم داوود... حرّري نفسك. ومن سيساعدك؟ علي حسن؟ أفيقي. سام وحده يمكنك الوثوق به. وقد أفسدتِ كل شيء.*

الآن فقط أدركت أنّ **رزان** لم تكن لترغب منها التضحية بنفسها. كانت لتأمرها بالقتال، لا بالاستسلام. كانت **مريم** تحاول إنقاذها، أولًا من التمرّد، ثم من براثن **علي حسن**، لكنها فهمت أخيرًا أنّ إنقاذ **رزان** يبدأ بتحرير ذاتها.

فتحت عينيها.

انتظرت نصف ساعة بعد مغادرتهما لتتأكد من خلو المكان. ثم خرجت متعرّقة متوترة، تستند إلى الجدار وهي تعود إلى مكتبها. تمددت على الأرض الباردة، ضغطت خدّها على البلاط.

عليها أن تخبر سام.

لكن الجهاز عند **علي**، ونقطة اللقاء سيستغرق وقتًا طويلًا. دوّى قصف قريب، ارتجّت نوافذها.

نظرت إلى الساعة. ربما ما زال **سام** في السفارة. جمعت حقيبتها وغادرت.

ستفعلها الليلة.
ستكفّر عن خطيئتها.
وستستوفي وعده.

الفصل الثاني والأربعون

ذلك اللعين على الأريكة ساعده على تصفية ذهنه. في مكتبه، وهو يعيد قراءة تقارير **علي** عن كوارث المراقبة الخاصة بـ **صامويل جوزيف**، شعر **رستم** بلحظة صفاء تام. اختفاء ضابط الـ **CIA** في جوف الليل، والخلط مع الفرنسي، ونهب الشقة. كانت الفوضى التي تركوها فوق السرير لمسة لاذعة، لكنها لم تُعوض حقيقة أن **علي** قد فشل. والأسوأ أنّ شقيقه الصغير تجرأ على إذلاله بأن جعل الرئيس يكتب مرسوماً يُجبره على تمرير تلك الرسالة السخيفة إلى **بثينة**. أحسّ **رستم** بالغضب يتصاعد داخله، وعضلات فكه تتصلب. عاد فجأة طفلاً من جديد، يدفع **علياً** على الدرج، ينقضّ عليه فوق السرير ممسكاً بسكين المطبخ ليذبحه. كان هو الانتقام، وكان هو خلاص سوريا.

كان عليه أن يُنظّف الفوضى بنفسه.

عليه أن يعتقل **صامويل جوزيف**. سيُدرك الرئيس الأمر حين تتضح الصورة، حتى لو كان **علي** لا يزال مهووساً بعملياته الطفولية. لن يحتاج **باسل** سوى بضع ساعات لانتزاع اسم الخائن الأمريكي من فم العميل. بعدها، مطمئناً إلى أنّ جيشه خالٍ من الجواسيس، سيتمكن **رستم** من إطلاق هجومه الحاسم لإنهاء الحرب. لقد أسقط الأمريكيون القنابل الذرية لهزيمة اليابان وإنهاء الحرب العالمية الثانية. فلماذا لا يقتل هو الإرهابيين بالغاز؟

التقط الهاتف وصاح باسم **باسل**. وصله أحد المساعدين به.

"لديّ مهمة لأبنائك"، قال **رستم**.

"حتماً." سمع صوت خشخشة في الطرف الآخر، كأن **باسل** يضع الهاتف بين رأسه وكتفه. "ما هي؟"

"هناك أمريكي، ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية، هنا في دمشق. اسمه **صامويل جوزيف**. سأرسل لك ملفه. إنه يدير خائناً. أريده حيّاً بين يديّ."

"مفهوم. الميليشيا؟"

"نعم. دون أوراق رسمية." تذكر **رستم** العيون المعتمة، وذكريات **حماة**، وفروة الرأس الممزقة. "ولا أريد أي عمل دموي هذه المرة، تأكد أن الرجال الذين تختارهم نظيفون، لا هيروين. أريده يتكلم، لا جثة ولا طريح مستشفى. فهمت؟"

"هل سيواصل أخوك مراقبته مع الروس؟"

"سأتصل بهم الآن وأطلب منهم الانسحاب. أفسح لهم المجال ليعملوا."

"نعم، سيدي القائد. متى أبدأ؟"

"الآن."

أغلق **رستم** الخط واتصل بمكتب **علي**، فحوّله المساعد.

"هات لي **علياً**"، زمجر، لكن بدلاً منه سمع المساعد يتلعثم قائلاً إن **علياً** ليس في المكتب.

"إذن هات الروسي"، قال **رستم** بصوت مزمجر.

بعد لحظات، جاءه صوت بلكنة سلافية ثقيلة:
"نعم، سيدي القائد."

قال **رستم** بصرامة:
"اسحبوا فرق المراقبة من حول الأمريكي لبقية هذه الليلة. أحتاجهم في مهمة أخرى."

الفصل الثالث والأربعون

كانت **فرقة التنظيف المتعاقدة مع السفارة** لا تزال في شقته.
"لم أرَ شيئاً كهذا من قبل يا سيد جوزيف، لم أرَ شيئاً كهذا من قبل"، تمتم أحد الرجال مراراً وهم يتجولون في الشقة المدمَّرة، لذا بقي **سام** في مقرّ المحطة أكثر من المعتاد، مستغلاً الوقت ليتحقق من الرسائل على قاعدة بيانات **أثينا**. كانت فارغة، كما هي كل يوم منذ عودته من إيطاليا. مرهقاً وقلقاً، ارتدى سترته استعداداً للمغادرة. داخل الجيب، شعر بعلبة سجائر **مارلبورو** التي كان قد اشتراها لـ **علي**. رغم أن **لاس فيغاس** كانت من آخر الأماكن في أمريكا التي يُسمح فيها بالتدخين علناً، إلا أنّه لم يكن يوماً من المدخنين، إذ كان يفضل *المضغ*. لكن لا بأس، فذلك أفضل من لا شيء.

خارج مبنى الديوان، استعار شعلة من أحد حراس المارينز، وشعر أنه مضطر لمجاملته ببعض الأحاديث عن تدهور الوضع الأمني. بدا الشاب المارينزي، في رأي **سام**، متحمساً بصدق لاحتمال انهيار النظام والقانون في العاصمة.
"هل أستعير هذه؟" قال مشيراً إلى علبة الكبريت، فأجابه الجندي أن يمضي بها.
وقف **سام** يواجه السياج المعدني الشاهق المقاوم للتسلّق، يتساءل متى ستطرده المخابرات من البلاد. الحماسة التي شعر بها في الأيام الأولى من خدمته اختفت، وحلّت محلها نذور شر بأن عمله في دمشق ينهار.

كلّفته **بروكتر** بمهمتين: قتل **علي حسن**، وتشغيل **أثينا**. وقد فشل في كليهما.

أولاً، **علي**. لقد اقتربوا كثيراً. لم يفهم بعد لماذا هرب الروسي خلفه في الشارع، أو إلى أين ذهب، لكنه علم من الكلمات التي تلفّظ بها السلافي – *لقد وجدناه* – أنهم كانوا يطاردونه. تحذير **علي** وتخريب شقته يعنيان أن الجليد تحت قدميه بدأ يتصدّع.

إن غرست إبهامك مرة أخرى في عين علي، فقد لا تتمكن من انتزاعها، سيلتهمها ببساطة. سيطردك، أو ربما أسوأ، كما فعل بـ فال.

ثانياً، **أثينا**. **مريم**. لقد أخفت عنه شيئاً في توسكانا. لم تصل أي إشارة منها عبر الجهاز منذ أكثر من أسبوع. ثمة خطب ما.

أشعل **سام** سيجارة أخرى، ورفع بصره إلى العلم الأمريكي المرفرف في السماء الملطخة بآثار القذائف. تذكر المتظاهر الذي حاول تسلق السطح لانتزاعه، وتذكر عيني **مريم** المذعورتين في إيطاليا، ووعده الذي قطعه لها.

انتهى زمنه في دمشق. لم يكن يدري ما سيؤول إليه مستقبله المهني بعد هذه الليلة، وربما انتهى فعلاً. لكنه كان يعلم ما عليه فعله.

أطفأ السيجارة، أدخل الرمز لفتح باب الديوان، ونزل الدرج المؤدي إلى المحطة. أدخل رمزاً آخر، فتح الباب المعدني الثقيل، جمع حقيبته من مكتبه، ودخل مكتب **بروكتر**. كانت تصرخ في الهاتف، لكنها أغلقت الخط حين رأته. اهتزت جدران السفارة تحت دويّ قصف مدفعي للنظام يتردد في البعيد. وقف في العتبة وقال:

"أعرف أن وضعي صعب يا رئيسة. ربما نتحدث إلى **برادلي** صباحاً لنقرر الخطوة التالية؟"

حدّقت فيه دون أن تجيب عن سؤاله.

قالت بجمود:

"اهتم بعميلتك، واحصل على المعلومات. هذا كل ما يهم."

أومأ **سام**، وغادر المحطة متوجهاً إلى مرآب السيارات، ثم عبر أجهزة الكشف المعدنية، وغادر مجمّع السفارة. تلك الليلة سيوفي بوعده.

***

من مقعد على الجانب الآخر من الساحة، راقبت **مريم** خروج **سام** من السفارة. كان عليها أن تتحدث إليه من دون مراقبة، من دون عيون تتعقبه. مهمة صعبة، فهي

واثقة أنه مراقَب من ذيل مخابراتي. ربما لو اقتربت منه بسرعة، وأوصلت الرسالة أثناء مرورها به، لتبدو مصادفة عابرة. قد تنجح. كانت تعرف أنه لن يُفاجأ بوجودها، سيتصرف بذكاء. وكانت متأكدة إلى حدّ كبير أنها تخلّصت من فريق الأمن بعد أن نفّذت حركاتها المضللة فور مغادرتها القصر، تماماً كما تدربت في فرنسا.

كان **سام** يسير بمحاذاة النهر نحو شارع **عدنان المالكي**، الطريق العريض المصفّف بالأشجار المؤدي إلى **ساحة الأمويين** وفندق **الشيراتون**. الشوارع كانت أكثر فراغاً من المعتاد، بسبب المعارك والقذائف التي جعلت الناس يلوذون ببيوتهم. تمنّت **مريم** لو أن الحشود كانت كثيفة كما في السابق، فالوحدة جعلتها مكشوفة أكثر من اللازم وهي تلاحق ضابط الـ **CIA**.

وعندما انعطف **سام** إلى رصيف منعزل بمحاذاة النهر، أدركت أنها لا ترى أي ذيل من المخابرات. أمر غريب. كان على بعد خمسين ياردة فقط، يسير بخطى سريعة. أسرعت **مريم** تلعن حذاءها ذو الكعب العالي وغباؤها. الشارع خافت الإضاءة، خالٍ من المارة، وضجيج السفارة صار ذكرى بعيدة.

ثم رأتهُم.

ثلاثة رجال خرجوا من خلف حاوية قمامة ليقطعوا طريق **سام**. لم يكن حاجزاً. كانت تعرف ما يعنيه ذلك. سحبت مبرد أظافر من حقيبتها وأخفته في قبضتها حتى لا يُرى، ثم أسقطت الحقيبة على الأرض. لحسن الحظ كانت قد تخلّصت من حقيبة **عطية** القديمة.

ركلت حذاءيها جانباً، وبدأت تركض.

***

توقّف **سام** في مكانه حين ظهر الرجال الثلاثة على الرصيف المتصدّع. لم يكونوا يرتدون بزّات رسمية. رجل ضخم يرتدي قميص **NY** يحمل هراوة، والآخران يحملان بنادق **AK-47**، أحدهما ينتعل شبشباً مطاطياً، والآخر يرتدي بنطالاً مموّهاً. لم يوجّهوا أسلحتهم نحوه بعد. حاول أن يفهم المشهد. ميليشيا؟ مجرمون؟ ثوار؟

في دمشق، اختلطت الخطوط. لكن لم يهم. ثم لمح الأصفاد تتدلّى من حزام صاحب الـ **NY**. أياً كانوا، أرادوه حياً.

قال بالعربية:
"مساء الخير، ماذا تريدون؟"

أجابه صاحب الـ **NY**:
"السيد جوزيف، ستأتي معنا."

اللعنة، فكّر **سام**. إنهم يعرفون اسمه. هذا يعني أنهم لا يريدونه ميتاً بعد، وهذا يمنحه بعض الأمل.

سألهم مجدداً بالعربية:
"من أنتم؟"

"الجيش."

نظر **سام** إلى قدمي الرجل المنتعل الشبشب، ثم إلى بندقيته، ثم رفع بصره إلى عيني **NY**. كان هذا الأخير ينظر خلفه. سمع **سام** وقع أقدام حافية تقترب من الخلف. شدّ جسده استعداداً.

***

ريتزِف — كما قال **بيني** في باريس — هي أحد مبادئ **كراف ماغا** الأساسية: *انفجار سلس للعنف.*
ازدادت سرعتها، وقدماها تحترقان على الإسفلت، بينما تتبدّى على وجوه الرجال نظرات ذهول. ثلاثة رجال، سلاحان موجهان. عليها أن تخرج البنادق من المعادلة.

ظلّوا يحدّقون فيها في حيرة، لا يدرون كيف يتصرفون أمام امرأة حافية، أنيقة، بعينين مشتعلتين، تركض نحوهم.

على بعد ستة أمتار، صرخ صاحب الـ **NY** أن تتوقف. فاندفعت أسرع.

ثم كانت بينهم، ومبرد الأظافر يلمع في الهواء، حين غرسته في خصيتي الرجل المنتعل الشبشب. صرخ وهو يهوى، والدم يلطّخ سرواله. هوت بذراعها على بندقيته، فسقطت على الرصيف. انهار متشنجاً، قابضاً على المبرد المغروس في جسده.

***

لم يكن **سام** قد استوعب بعد أنّ من اقتحمت المشهد هي **مريم**، حين اندفع نحو الرجل ذي السترة المموهة الذي كان ينظر برعب إلى مشهد خصيّ صديقه.

وجّه **سام** قبضته نحو صدره، لكن الحقيبة المعلقة على كتفه أعاقت ذراعه، فأخطأ الضربة ببوصة. تراجع الرجل، وبدأ يرفع سلاحه. ركل **سام** ساقه، ثم حوّل يده إلى مخلب وغرس أصابعه في وجهه، يبحث عن تجويف. أدخل إصبعه الأوسط في عينه اليسرى وبدأ يلفّ، وأطرافه تبتلّ بالدم فيما الرجل يصرخ ويحاول تثبيت البندقية.

انفجرت كتف **سام** اليمنى ألماً. فقد توازنه. الهراوة هوت على كليته اليمنى، ثم ثانية. حاول أن ينهض، فانهال عليه صاحب الـ **NY** من جديد، ضارباً ساقه، يصرخ بشيء غليظ النبرة لم يفهمه **سام** قبل أن ينهار على الأرض.

***

كانت **مريم** راكعة، التقطت البندقية من الرصيف، وصوّبتها نحو الرجل بقميص **NY** الذي كان يضرب **سام** بالهراوة. ضغطت الزناد، فدوّى هدير الـ **AK**، وشاهدت الرصاص يمزق وركيه وفخذيه وركبته. سقط.

الرجل ذو السترة المموهة، الذي كان يضع يده على عينه، ترنّح نحو الجدار الحجري القصير الذي يفصل الرصيف عن منحدر النهر. أطلقت عليه دفعة، لكنها بدأت منخفضة، فارتدت الطلقات على الرصيف. صححت الزاوية إلى الأعلى، مزّقت الطلقات أردافه وظهره وعنقه، حتى أصابت إحداها قاعدة جمجمته، فانهار على الجدار واهتزّ للحظة قبل أن يهوي جسده إلى ضفة النهر.

مسحت **مريم** المشهد بعينيها. لحسن الحظ، لم يكن هناك مارة.
رجل ميت في ثياب مموهة عند الضفة، آخر في الشبشب يئنّ على الأرض، ومبرد الأظافر لا يزال مغروساً في جسده. صاحب الـ **NY** يحاول الزحف بعيداً بطريقة بائسة.
وقف **سام** بصعوبة، قابضاً على جانبه الأيمن.

شعرت **مريم** بفوارغ الرصاص تحت قدميها وهي تتقدم نحو الرجل المنتعل الشبشب. كان قد نزع المبرد، لكن سرواله غارق بالدم.

سألته وهي ترفع فوهة البندقية إلى رأسه:
"من أرسلكم؟"

كانت تتمنى أن يقول إنهم متمردون أو لصوص. هذا أهون. على الأقل لن يعرفوا أن **سام** من الـ **CIA**، ولن يربطوها بالأمريكيين.

لم يُبدِ الرجل رغبة في القتال. قال متأوهاً:
"باسل مخلوف... نحن ميليشيا. جئنا لاعتقال الأمريكي."

أشاحت **مريم** بنظرها. ثم ضغطت الزناد، وشعرت بالمادة تتناثر على قدميها.

قالت بالإنجليزية، وهي ترتجف:
"إنهم ميليشيا رسمية."

لاحظت أن أسنانها تصطك رغم دفء الليل. شدّت فكها، ثم وجهت البندقية نحو صاحب الـ **NY** الذي كان يزحف مبتعداً، وضغطت الزناد حتى توقف عن الحركة.

ارتفعت أبواق السيارات قرب السفارة، لكن **مريم** لم تسمع شيئاً.

***

بكل المقاييس، كان المشهد كارثيًا: ثلاثة من عناصر الميليشيا السورية قُتلوا، وضابط في وكالة الاستخبارات المركزية جُرح، وعميلة ميدانية ظهرت على نحوٍ غامض أثناء محاولة الخطف. كانت المعجزة الوحيدة أن الرصيف ظل خاليًا من

المارة والشرطة، لكن ذلك لن يدوم طويلًا بعد دويّ إطلاق النار. لم يكن **سام** يفهم لماذا جاءت **مريم**. لقد خالفت كل قاعدة أمنية ناقشاها ـفي فرنسا.

عادت مريم مسرعة لتلتقط حقيبتها وحذاءها. مسح سام بصماته عن السلاح والتقط المبرد المعدني. ثم نظر إلى الجثة الملقاة على ضفة النهر. تفقد حقيبته ليتأكد من وجود أحد الهواتف المحروقة فيها، وأرسل رسالة قصيرة إلى **إلياس** تحوي عنوانًا، واختتمها بأربع نقاط متتالية،ـفي إشارةٍ إلى حالة طارئة.

أخرجت مريم من حقيبتها مناديل مبللة ومسحت الدم المتناثر على وجهها وعنقها. رتّبت ثيابها وأعادت شعرها إلى الوراء. كانت عيناها ترتجفان وهي تحاول أن تستجمع رباطة جأشها. أعطاها سام العنوان.

اهتز هاتفه فجاء الرد: *حسنًا. عشر دقائق.*

قال لها:
"لا يمكننا الذهاب معًا. اتّجهي نحو الروضة، إنه أقصر مسار كشف مراقبة ، نقطة الالتقاء بعد عشر دقائق."

سألته:
"إلى أين نحن ذاهبان؟"

قال:
"إلى مكان نستطيع أن نتحدث فيه."

***

كانت الأموال التي خُصصت لمجموعة **البانديتوز** قد اشترت شقة متقشفة ـفي الطرف الشمالي من حي المالكي، عند سفح **جبل قاسيون**. تحوي غرفة نوم واحدة فيها مرتبة ملقاة على الأرض بلا ملاءات، ومطبخًا صغيرًا مكدسًا بعلب الحساء المغلّفة، وفي المدخل طاولة بطاقات معدنية وكرسيًا واحدًا. كانت المصابيح العلوية تومض، ورائحة المطهّر الأمونيومي والمبيدات تملأ المكان.

توقّعًا لانقطاع الكهرباء، وضع البانديتوز عدة مصابيح تخييم تعمل بالبطاريات على طول جدار غرفة النوم.

كان **إلياس** سيرسل رسالة جديدة بعد ساعتين، ينقل خلالها مريم في طريق عودتها إلى منزلها، حتى تتجاوز الحواجز الأمنية دون أن يوصلها إلى باب بيتها مباشرة.
ورغم بؤس الشقة، تمنى سام لو يستطيع أن يقضي وقتًا أطول مع مريم هناك، لكن حتى ساعتين كانت مخاطرة، إذ إنّ مراقبيها سيلاحظون غيابها الطويل.

جلسا متقابلين على المرتبة. ارتجّت الأضواء ثم انطفأت. سمع سام هدير المدفعية فوق الجبل. أشعل إحدى المصابيح.

قال:
"لماذا كنتِ هناك؟"

أجابته:
"كان عليّ أن أخبرك بشيء."

كاد أن يصرخ في وجهها: *لماذا لم تستخدمي الجهاز الذي أعطيناه لكِ؟* لكنه كان يعرف السبب، وهو نفسه ما جعله يشعر بالخذلان والاطمئنان في آنٍ واحد. ومع ذلك لم يخفف ذلك من غيظه. تذكّر كلمات **بروكتر**: *"احصل على المعلومات."* نظر إليها بعينين ضيقتين.
"ما الأمر؟"

قالت بصوت متهدّج:
"سمعتُ رستم يخبر بثينة بموقع منشأة احتياطية لتخزين غاز السارين."

قال فورًا:
"وأين هي؟"

"**في وادي بردى**."

"وكيف علمتِ؟"

"سمعتُهما صدفة. كنت في حمّامها بعد أن وضعت الحقيبة في مكتب عطيّة... أنا..." ثم انفجرت بالبكاء.

بحلول تلك اللحظة، كان السوريون قد علموا على الأرجح بإطلاق النار وربطوا سام بالحادثة. ربما سيقتلونه لو وجدوه، أو يعتقلونه ويقدّمونه للمحاكمة قبل أن يعدموه. كان عليه إيصال المعلومة إلى لانغلي الليلة.

قال:
"من يملك الجهاز الآن يا مريم؟"

نظرت إليه بعينين تشتعلان بالدموع:
"آسفة يا حبيبي... أنا آسفة جدًا." ضغطت يديها على عينيها وهي تبكي بحرقة.
"من يملكه؟"

"آسفة، حبيبي، آسفة..."

"أين هو؟"

رفعت وجهها المغسول بالدموع، ووجنتاها محمرتان:
"إنه عند **علي حسن**. لقد أخذوا **رزان**، سام. اقتحموا شقتي واعتقلوها ليلة سفري إلى إيطاليا. استخدمني علي حسن ضدك يا حبيبي... أنا آسفة جدًا."

لم يتفاجأ، وكان يظن أنه سيغضب حين تسمع منه الاعتراف، لكن الذي غمره كان الحزن. حزن لأنها لم تخبره في إيطاليا حين كان يمكنه و**بروكتر** إنقاذها. الآن أصبحا عالقين في دمشق، يتساءلان إن كانا سيخرجان منها حيَّين.

قال:
"هل تعرفين ماذا كانوا يريدون من الجهاز... أو مني؟"

كانت ترتجف وهي تمسح خيوط المكياج المذاب عن وجهها، وبقع الدم اليابس التي فاتتها أثناء التنظيف. في سكون الشقة الكئيبة، رآها سام بوضوح للمرة الأولى منذ لقائهما في إيطاليا. كان وجهها شاحبًا محطمًا، والهالات السوداء تظلل عينيها، وأطراف أصابعها تنزف من القضم.

قالت بصوت مبحوح:

"لم يقولوا لي تفاصيل كثيرة. عليّ قال فقط إنهم يعرفون أنك تلتقي بخائن، ويجب أن يعثروا عليه. ظننت أنهم يقصدونني. "

أمسك يديها برفق وأبعدهما عن فمها ثم قبض عليهما معًا.

"ماذا أعطيتهم غير الجهاز؟"

"معلومات عامة في الغالب. أخبرتهم عن بروكتر..." عضّت شفتها. "وعن البيت الآمن هنا في دمشق. أمروني أن أتواصل معك. كانوا يعلمون أنني التقيتك في حفلة باريس. أراد **علي حسن** أن أعمل ضدك... وأن أحصل على الجهاز."

بدأ سام يحصي الخسائر في ذهنه: جهاز اتصالات من الطراز الأعلى وقع في يد العدو، وبيت آمن انكشف، وأهم عميلة سورية تسرّب ولاؤها. كان قسم مكافحة التجسس سيستشيط غضبًا.

أخذ يتمشى في الغرفة مضطربًا. دوت قذائف جديدة فوق الجبل، انقطعت الكهرباء ثانية بعد لحظات من عودتها.

سألها:

"لماذا تبعتِني الليلة؟"

"لأنني سمعت المعلومة، وعرفت أنك تحتاج إليها. ولم يكن لديّ وسيلة للاتصال بك."

"هل نفّذتِ عملية عطيّة؟ هل تمّ تبديل الحقيبة؟"

"نعم، لكنني لم أخبرك لأن الجهاز لم يكن معي."

"هل أخبرتِ عليّ عن العملية أو عن كمبيوتر بثينة؟"

"لا. أنا وفية لك. نقاتل معًا."

قال بهدوء:

"أعرف، يا حبيبتي، أعرف."

جلست برأسها على كتفه تبكي. لقد خانت وكالة الاستخبارات المركزية، وخانت اتفاقهما في فرنسا، وخانته هو. ومع ذلك كان يعلم أنها صادقة. لقد خاطرت بحياتها بقتل رجال الميليشيا. في عالمٍ آخر، حياةٍ أخرى، كان يمكن لهما أن يستقرا في مكانٍ آمن، لكنهما الآن في دمشق، يراقبان سقوط المدينة في الجحيم.

طوى سام الغضب والحزن والعار جانبًا، وركّز على ما يستطيع فعله. عليه أن يحميها.

قال:
"هل أطلقوا سراح رزان؟"

هزّت رأسها بعزم وهي تحدق في المصباح:
"ليس بعد... **علي حسن** كاذب."

عمل عقل سام بسرعة، يرتب الواجبات والخطوات القادمة: *احمِ عميلتك. حافظ على وعدك.*

قال أخيرًا:
"الطريقة الوحيدة لحمايتك... هي أن نعطي عليّ بالضبط ما يريد."

***

وضعا الخطة وهما يجلسان على المرتبة وجهًا لوجه.

قال سام:
"إذا حدث أي طارئ، سنحتاج وسيلة تواصل ولو لثوانٍ. سأطلب من **إلياس** أن يعطيكِ هاتفًا مؤقتًا في طريق العودة إلى بيتك." أرسل رسالة إلى البانديتوز، وأعطاها رقم هاتفه السري.

لم يحتج أن ينظر إلى ساعته؛ كان يعرف أن أمامهما خمسًا وعشرين دقيقة قبل أن يصل إلياس.

ابتعد سام إلى المطبخ واتصل ببروكتر ليشرح لها ما جرى دون أن يذكر مكانه.

قالت له:

"حان وقت الإجلاء يا رجل، انتهت الحفلة."

لم يعرف كيف يبرر خطوته التالية، فقال ببساطة:

"عليكِ أن تمرري هذه المعلومة الليلة، يا رئيسة. معلومات **أثينا**: السارين موجود في **وادي بردى**. مصدر فرعي مؤكد."

أغلق الهاتف، وأخذ نفسًا عميقًا. حتى لو نجح في هذه العملية، لم يكن واثقًا أن مواجهة بروكتر ورؤسائه في الوكالة ستكون أفضل من محاكمة سورية. في النهاية، الفارق الوحيد هو إن كان اسمه سيُخلَّد بنجمة على الجدار أم لا.

حين عاد، كانت مريم ما تزال جالسة على المرتبة. تمدّد بجانبها. كانت تهمس: *اغفر لي يا حبيبي... أرجوك اغفر لي.*

حتى وضع جبينه على جبينها، وساد بينهما صمت طويل، تناغمت فيه أنفاسهما. قبّلها.

مسحت مريم دموعها ونظرت في عينيه وهي تفك أزرار قميصه. تأوه حين سحبت الكم فوق كتفه المصاب.

قالت هامسة:

"قد تكون هذه آخر مرة، يا حبيبي."

قال:

"أعرف... لكننا عادةً نخطئ في التوقع."

الفصل الرابع والأربعون

دلف **رستم** إلى مقرّ "مكتب الأمن القومي" في صباح الثامن عشر من يوليو، وكان صباحًا حارًّا ومشرقًا، فيما كان ذهنه يغلي بسلسلة من الثارات القديمة. قائمة أعدائه كانت مرشّحة لأن تتضخّم مع مرور النهار.

كانت هذه الاجتماعات اللعينة مملة. فقد أنشأ الرئيس لجنة برئاسة شقيقه الأصغر لتوحيد جهود مكافحة التجسس خلال الحرب. والجانب المضحك الوحيد في تلك الاجتماعات هو اضطرارهم لعقدها خارج مقرّ المكتب الأمني، لأن المقرّ البائس الذي يديره **علي** لم يكن فيه قاعة اجتماعات تتّسع للجميع. لكنّ تلك السخرية من أخيه لم تكن كافية لتخفف عن رستم ما يشعر به من إرهاق، فرفاقه في اللجنة ليسوا سوى بيروقراطيين مترهّلين لا يجيدون إلا الكلام.

قال له صوت مألوف وهو يدخل المبنى:

"قائد، أحتاج إلى لحظة من وقتك."

كان **باسل** في بهو المقرّ ينتظره. جذب رستم ذراعه وأبعده عن الأنظار.

همس رستم:

"هل قبضتم عليه؟"

لم يكن هذا المكان مناسبًا لمثل هذا الحديث.

قال باسل بصوت متردد:

"وقع حادث الليلة الماضية مع رجال الميليشيا."

تقطّبت ملامح رستم:

"حادث؟ تكلم بوضوح يا باسل."

وشعر بأن أحد المارة يرمقه بنظرة فضول.

قال باسل:

"الرجال الذين أرسلناهم لاعتقال ضابط الـCIA قُتلوا. لقد قتلهم وهرب."

تجمّد رستم ـفي مكانه، مذهولًا. مرّ جندي بجانبه وأدّى له التحية، فتجاهله.

تابع باسل:

"عثرنا على الجثث صباحًا قرب النهر. إحداها مطلقة بالرصاص، وأخرى مطعونة... في موضع حساس... والثالثة أُلقيت على الضفة وقد اقتُلعت عينه."

رفع رستم حاجبيه:

"مطعون ـفي ماذا؟!"

قال باسل مترددًا:

"في عضوه الذكري."

زمجر رستم:

"حيوان!" وشعر بضغط الدم يرتفع ـفي عروقه.

"ابحثوا عنه."

"نفتّش ـفي كل مكان يا قائد."

ثم أضاف باسل بعد لحظة:

"وإن وجدناه؟"

قال رستم:

"اجلبوه حيًّا، إن أمكن."

***

كان **علي** غارقًا ـفي غضبه وهو يدخل قاعة الاجتماعات ويتخذ مقعده على رأس الطاولة. كان قد أعدّ جدول أعمال دقيقًا لهذا اللقاء، لكنّه صار بلا قيمة الآن. لم يكن ـفي وسعه التفكير بشيء سوى الكراهية المتأججة تجاه أخيه السادي وذيله باسل. حتى **فولكوف** الروسي، المعروف ببروده، كان غاضبًا هو الآخر بعدما علم أنّ علي لم يكن يعلم شيئًا عن أمر رستم بإلغاء المراقبة ليلة أمس. حين سمع فولكوف الخبر، أمسك بفنجان خزفي وألقاه بقوة على جدار غرفة القيادة، وتناثر الشراب على الأرض، وكان

من الواضح أنّ نصفه على الأقل كان من فودكا *زهرُفلي* المفضلة لديه مع بزوغ الفجر. وقف علي يراقب أحد الروس وهو يكنس الحطام، فيما أشعل سيجارة تلو أخرى.

بدأت بعدها مطاردة **صامويل جوزيف**. كل الأجهزة الأمنية السبعة عشر وُضعت في حالة استنفار، وكلها تلقت الأوامر بأن يكون البحث عنه هو الأولوية القصوى. قاد علي بنفسه المداهمة على شقّة الأمريكي، وفتّش الملجأ الذي خصّصه لمريم حداد، واستدعاها للتحقيق. أُغلقت الحدود، وأُبلغ الأمريكيون رسميًّا في اجتماع متوتر انتهى – كما سمع علي – بشتيمة أطلقها نائب وزير الخارجية السوري في وجه السفير الأمريكي. ومع ذلك، لم يجدوا أثرًا لجوزيف.

لوّح علي للصبي الذي يقدّم الشاي وهو يتفحّص الأوراق أمامه. لم يكن يتذكر اسمه أبدًا. جاء الصبي بعربته الخشبية المهترئة، وحاول ملء الفناجين، لكن يده ارتجفت فانسكب الشاي على الصينية.
قال متلعثمًا:
"آسف يا سيدي... آسف، سيدي اللواء."
أجابه علي بهدوء:
"لا بأس... ناولني منديلًا... ذكّرني باسمك مجددًا."
قال الصبي:
"جبريل يا سيدي."
"حسنًا، ناولني المنديل يا جبريل."

لكن الصبي لم يتحرك. كان يحدّق نحو الباب بفمٍ مفتوح. التفت علي ليرى السبب.

دخل **الرئيس الأسد** بنفسه. كان يُدعى دائمًا لحضور هذه الاجتماعات لكنه لم يحضر أيًّا منها من قبل. نهض علي سريعًا وصافحه، ثم تنحّى جانبًا ليترك له مقعد الصدارة. الرئيس صافح الحضور واحدًا تلو الآخر قبل أن يجلس، فيما جلس **رستم** إلى يمينه متجاهلًا نظرات أخيه الأصغر.

همس علي وهو ينحني نحوه:

"أعرف أنك حاولت قتل الأمريكي الليلة الماضية. هل قبضت عليه، أم أن رجالك أفسدوا الأمر كعادتهم؟"

ابتسم رستم:

"أتظن أنني قتلت ثلاثة من رجال الميليشيا فقط لأخدعك؟ لتظن أنه هرب بينما هو عندي؟"

قال علي ببرود:

"لن أستبعد منك شيئًا يا أخي الكبير."

ابتسم رستم بسخرية:

"تبًّا لك، يا أخي الصغير، لا أعلم أين هو، ولا ما الذي حدث."

وصل الرئيس وصافح رستم ثم جلس، عدّل ربطة عنقه، وأشار إلى علي أن يبدأ.

قال علي للحضور:

"تركيزنا اليوم ينصبّ على العثور على الأمريكي صامويل جوزيف."

لكن نظره كان منشغلًا بعربة الشاي التي دفعها جبريل نحو الرئيس. صرير العجلات غطّى على الكلمات. حاول الصبي أن يصبّ الشاي، فانسكب على الطاولة.

قال الرئيس غاضبًا وهو يبعد الكوب عن نفسه:

"اللعنة، احذر!"

رمقه بنظرة صارمة، والصبي يبحث بيأس عن منديل.

قال الرئيس:

"ألا تملك منديلاً في تلك العربة يا فتى؟"

أشار إلى الرفّ السفلي المغطى بمفرش.

تمتم جبريل:

"سأذهب لأجلب واحدًا يا سيادة الرئيس."

وهمّ بالمغادرة، تاركًا العربة بين علي والرئيس.

زمجر رستم:

"أيها الفتى، خذ العربة إلى الطرف الآخر من الطاولة حتى لا تعيقنا."

نظر جبريل إلى الرئيس ثم إلى علي، وكان العرق يتصبب من جبينه. عاد علي للحديث، بينما دفع الصبي العربة ببطء حتى الطرف المقابل وتركها هناك قبل أن يغادر القاعة، وعيناه تلتقيان بعينَي علي للحظة غريبة.

ساد الصمت. قال الرئيس ممازحًا:

"تفضل يا لواء حسن، أكمل، أذناي ما زالتا تطنّان من ضجيج تلك العربة."

أدخل أصبعه في أذنه وضحك.

وفي اللحظة التالية، سمع علي رنينًا خافتًا، ثم أحسّ بحرارة طاغية، كأن ضوءًا أبيض أعمى بصره. وجد نفسه يسبح في العدم، جسده يدور، وجهه يحترق، ودخان كثيف يخنق أنفاسه. رأى ساقًا مقطوعة تمرّ أمامه في بطء مروّع. ثم دوّامة أخرى، وثقبًا متفحّمًا في السقف... أو الأرض، لم يعد يعرف. ثمّ سكون. أصوات أنين وصرخات وبكاء مكتوم وأنفاس متقطّعة.

سمع الرئيس يلهث:

"يا الله... إلهي..."

وجد علي نفسه جالسًا على الأرض مسنودًا إلى الجدار، على بعد أمتار من كرسيه. الرئيس خلف كرسيه، حيّ، يتحرك. نظر علي إلى ساقيه؛ ما زالتا في مكانهما. حاول تحريك إصبعه، فاستجاب.

التفت حوله وسط الدخان، يسعل بقوة. كانت الأرض مغطاة بأشلاء متفحمة. النصف الآخر من الطاولة اختفى تمامًا. السقف تهشّم، تاركًا فجوة ضخمة. رأى على يمينه رستم يزحف نحوه على مرفقيه.

وقف الأسد مذهولًا ثم سقط ثانية. نهض علي، وراح يساعده على الوقوف، فيما استند رستم إلى الجدار. التقت عينا علي بعيني وزير الدفاع الذي كان جسده ما زال جالسًا، ورأسه... مفقودًا.

***

بعد ساعة، جلس **علي** و**رستم** و**الأسد** في القصر. كان الرئيس يضع ضمادة على عينه اليمنى ولفافات على ذراعيه وصدره المحترق. أما رستم فارتدى دعامة إسفنجية حول عنقه، فيما لم يصب علي إلا بجروح سطحية في وجهه. لم يتصل بعد بـ **ليلى**. لم يعرف ما يقول. ربما ما زال في حالة صدمة.

جلسوا أمام التلفاز يشاهدون تقريرًا على "الجزيرة" بانتظار إحضار **جبريل** للمثول أمام الرئيس. كان قد أُلقي القبض عليه أثناء محاولته الفرار من المبنى بعد الانفجار. على الشاشة، ظهر **زهران علوش**، أمير دوما، يعلن مسؤوليته عن التفجير، ويقول إنه بداية هجوم للسيطرة على العاصمة.

رمى الأسد جهاز التحكّم نحو التلفاز، فتهشّم الزجاج وانطفأت الصورة. وضع علي رأسه بين يديه. خيّم الصمت على الغرفة.

دخل رئيس الحرس الرئاسي، يتقدّمه جبريل مكبّل اليدين، مبلّل العرق، وجهه متورم وعيناه واسعتان من الهلع، ربما لأنه لا يصدق أن الرئيس ما زال حيًّا.

كان علي يتوق للعودة إلى ليلى وأطفاله، لكنّه عالق هنا، في القصر، يراقب مأساة أخرى تتكشّف أمامه. كره هذا كله. كره نفسه.

قال الرئيس:

"انظر إليّ، يا فتى."

ارتجف جبريل. اقترب منه الأسد أكثر.

"قلت انظر إليّ."

رفع الصبي رأسه. فبصق الرئيس في وجهه، ثم صفعه بقوة. انفجر جبريل باكيًا، فحوّل علي نظره بعيدًا.

قال الأسد ببرود مميت:

"والدي قضى ثلاثة عقود يبني سوريا، ولن أسمح لحثالة خائن مثلك أن يهدمها في عهدي. هذه البلاد لا تُحكم إلا بالحذاء، بالسيف، بالبندقية، أفهمت؟ لا حرية في *سوريا الأسد*، لأن أمثالك هم الفوضى التي كبحها نظامنا لعقود. أنت السبب في حربنا، أنت سبب استمرارنا في القتال، سوريا لي، يا ولد، لا لك."

أشار إلى رئيس حرسه، فسحب الرجلُ الصبيَّ خارج الغرفة.
قال الرئيس موجّهًا كلامه إلى رستم:
"ابدأ الآن."

أومأ رستم وغادر، منزعجًا من رباط عنقه الذي مزّقه وهو يهبط الدرج.

قال الأسد لعلي:
"اعثر على الأمريكي."

***

قاد **كنعان** سيارته وهو يُعيد عليًّا إلى مكتبه. عبروا ست نقاط تفتيش، ومقاتلات ميغ تعلو السماء، وجنود الحرس الجمهوري يقفون بوجوه متوترة. سأل نفسه إن كانت هذه نهاية كل شيء. اتصل بليلى.

"حبيبتي، أنتِ والأولاد في البيت؟"
"نعم، ماذا يحدث؟"
"كانت هناك محاولة اغتيال للرئيس أثناء اجتماعنا. أنا بخير. لكن آخرين ليسوا كذلك. الحرس يستعد لهجوم."
"وماذا نفعل؟" جاء صوتها مرتجفًا، وصوت **سامي** يصرخ في الخلفية.

تأمل علي الاحتمالات:
الهرب؟ فكرة سيئة، فالحواجز تملأ الطرق، والمطار سيُغلق بأمر رستم.
الاختباء؟ أسوأ، ستموت إن وجدك أحد الطرفين.
القتال؟ الخيار الوحيد الباقي، ولو كان للنجاة فقط.

قال:
"ابقوا في البيت. وسط المدينة ما زال آمنًا. أنا ذاهب إلى المكتب، وسأعود قريبًا."

حين وصل، مرّ بمركز القيادة الروسي متجهًا إلى مكتبه، وهناك رآه — فولكوف — وجهه يفيض نشوة، يحمل فنجانًا جديدًا من الفودكا وورقة واحدة.

قال بإنجليزيته المكسّرة:

"جنرال، الرئيس بوتين بنفسه أمرني أن أقدّم لك هذه المعلومة. إنها، كما يقول الأمريكيون، ساخنة من الضغوط!"

همّ علي بتصحيح المثل، لكنه تراجع. لا فائدة.

تابع فولكوف:

"حصلنا على معلومة من مصدرنا الأعلى ـفي واشنطن، وصلت الليلة الماضية."

ودفع الورقة نحوه.

كانت تحمل التصنيف المعتاد (TS//HCS//OC REL [36]ISR)، وخمس جمل فقط بينها سطر المصدر. لم يهتم علي بالنص بقدر ما لفت نظره العنوان:

"موقع مخزون الحرس الجمهوري من غاز السارين – مستودع وادي بردى."

شعر برغبة ـفي الضحك... أو البكاء. *وادي بردى*؟ إنه الموقع الذي سلّمه لـ **بثينة**.

***

دخل علي مكتب أخيه ليجده يصرخ ـفي الهاتف محاصرًا بستة مساعدين مذهولين. كان يأمر بتحريك وحدات الصواريخ والمدفعية ـفي أنحاء البلاد. وحين دخل علي، التفت رستم بجسده كله لأنه لا يستطيع تحريك عنقه. عيونه كانت وحشية، وشاربه متفحّم لم يلاحظه علي ـفي القصر.

صرخ ـفي الهاتف وأغلقه بعنف، ثم أشار إلى علي بيده المرتجفة أن يجلس، وطرد المساعدين جميعًا.

قال رستم بصوت أجش:

"لماذا أتيت؟"

---

[36] **TS//HCS//OC REL** رمز تصنيف أمني مُركّب يعني أن الوثيقة "سرية للغاية(TS) "، ومستقاة من "مصادر بشرية" خاضعة لرقابة صارمة(HCS) ، ويتطلب تداولها موافقة "الجهة المنشِئة(OC) "، ومصرح بنقلها (REL) إلى جهات معينة فقط.

دفع علي التقرير الروسي نحوه:

"قدّم الـSVR نسخة لك، لكني افترضت أنك مشغول عن قراءتها."

حدّق رستم في الورقة طويلاً، كأنه ينتظر أن يتبدّل العنوان أمام عينيه، ثم زفر بعمق ووضعها على الطاولة.

قال بهدوء قاتل:

"سأتولى هذا بنفسي... أنا وحدي."

كان علي قد فكّر في اعتقال بثينة، لكنه أدرك أن الأمر تجاوز سلطته هذه المرة. لقد انتهت.

قال بهدوء:

"نعم... أنت من سيتولى الأمر، يا أخي الكبير."

الفصل الخامس والأربعون

هذه الوثيقة الروسية فتحت ثقبًا أسود في دماغ **رستم**.

حماة. شباط عام ١٩٨٢.

كان قد استقلّ مروحية هجومية من دمشق، يحلّق فوق الأراضي المتمردة أسفلَه، والريح تعصف بشَعره، وبندقيته الرشاشة التكتيكية في يده، مستعدًّا لاستعادة المدينة بيتًا بيتًا.

في دمشق كانوا يمزحون ويتبادلون النكات ويلعبون الورق، لكن الآن هو ورجاله صامتون، يحلّقون على ارتفاع منخفض، يراقبون الفلاحين يشيرون نحو المروحيات، يستعدّون – على الأرجح – لإبلاغ إرهابيي الإخوان بقدوم القوات الحكومية.

في **حماة**، اقتحموا الشقة وهم يندفعون وسط الإعصار، يقذفون القنابل، ثم يختبئون للرد بالنار، والغضب يتصاعد فيهم مع سقوط كلّ رفيق. وفي الداخل، وجّهوا بنادقهم إلى العائلة المتجمّعة في الزاوية... قبل أن يسلخوا فروات رؤوسهم.

خرج **رستم** من الثقب الزمني ليجد نفسه في حمّام فيلّته في **بلودان**، المروحية تئنّ في الخارج، والبندقية الروسية موجّهة نحو **بثينة**، فيما تقرير المخابرات الروسية (SVR) مطروح أمام جسدها الغارق في حوض الاستحمام الفاخر ذي الأرجل الذهبية على شكل مخالب دب. تطايرت الورقة في رغوة الماء. التقطتها **بثينة** وهي ترتجف.

كانت شقة **حماة** آنذاك حقيرة، مثقوبة بالرصاص، تفوح منها رائحة الموت. أمّا هذا المكان، فكان نقيًّا، هادئًا، أنيقًا.

استعاد **رستم** تركيزه، فرأى **بثينة** تحاول قراءة الورقة التي تشبّعت بالماء حتى صارت حروفها غير واضحة.

قالت بتلعثم وهي تنكمش إلى الخلف في المغطس:
"ما هذا، حبيبي؟"

انزلقت بعيدًا. الكلّ يفعل ذلك. يحاولون دومًا الابتعاد.
رأى **رستم** فيلّته، وصديقته تستحمّ، غافلة عن الفوضى التي تخنق العاصمة. قبض على البندقية بإحكام، يراقب التقرير الروسي يغرق في الفقاعات.

قال ببرود:
"إنه أمر إعدامك."

وجّه السلاح إلى رأسها. صرخت **بثينة**.
ثم ضغط الزناد.

عاد **رستم** إلى دمشق، مضطربًا قليلًا بعد الجريمة، ليجد **داوود حدّاد** جالسًا في مكتبه كما كان قد طلب سابقًا.

قال **رستم** وهو يومئ له بالجلوس – رغم أنه كان جالسًا بالفعل –:
"اجلس، داوود."

ثم بدأ يشرح حاجته إلى خبرة الفرع ٤٥٠ بعبارات عامة، مستخدمًا كثيرًا اسم "سرايا الدفاع" – سلف الحرس الجمهوري – وهي الوحدة العسكرية المنحلّة التي خدم فيها في الثمانينيات عندما كان ملازمًا شابًّا.

قال **رستم** بصوت متّقد:
"الغاز، يا داوود، هو الطريق الوحيد. العلاج الوحيد للقوارض في الأنفاق، والرعب الوحيد الكافي لجعلهم يرمون سلاحهم. سنهاجم بأسرع ما يمكن."

وأضاف:
"الإخوان، أولئك الإرهابيون في جحورهم، سنُخرجهم بالدخان."

مدّ يده إلى درج مكتبه وأخرج سكيناً كبيرة، غرسها في الخريطة المعلّقة على الجدار، مباشرة في **دوما**. ثم بصق عليها، فانحدرت قطرة اللعاب على الطريق الدولي من حلب إلى حمص.

استدار نحو **داوود** وقال:

"والآن يا داوود... لدينا مسألة خبرة الفرع ٤٥٠. تلقّينا أوامر من الرئيس بشنّ ضربة انتقامية ضدّ الإرهابيين باستخدام مخزوننا الكيميائي. رجالي يجهّزون الصواريخ الباليستية في المواقع المبيّنة في هذا الأمر، الذي أُسلّمه إليك بصفتك الرئيس الجديد للفرع ٤٥٠."

ودفع بورقة عبر الطاولة.

قال وهو يشير إليها:

"ستجد في هذا الأمر القواعد الجوية التي سنقوم فيها بالخلط والتحميل."

ردّ **داوود** وهو يقرأ التقرير:

"ليس لدينا كمية كافية في المخزون، سيدي القائد. ليس لعملية بهذا الحجم."

أجاب **رستم** بحدة:

"لقد أنتجنا مئات الأطنان من غاز السارين في مكان يُدعى **جبلة**، ونُقلت جميعها إلى مخبأ قريب بعدما اكتشفه الأمريكيون والصهاينة. رجالي وضعوا تقديرات تقريبية للمكوّنات الثنائية وأرسلوها إلى مواقع الإطلاق بحسب الأمر الذي سلّمته لك. أريدك أن تشرف بنفسك على التحضيرات."

سأله **داوود**:

"وما الجدول الزمني؟"

قال **رستم** بلا تردّد:

"صباح الغد."

أجاب **داوود** وهو ينهض:

"نعم، سيدي القائد." ثم استدار ليغادر، يعبث بعنقه بتوتّر.

توقّف **رستم** وقال بنبرة مميتة:

"آه، وداوود... رغم أنّ ابنتك المتمرّدة لا تزال في قبضتنا، فإنني أراك خادمًا مخلصًا. فلا تخيّب أملي... من أجلها."

الفصل السادس والأربعون

مثل كثيرٍ من السوريين في ذلك اليوم، تساءلت مريم عمّا إذا كانت هذه هي النهاية.

الحواجز العسكرية انتشرت في كل مكان، واللصوص يجوبون الشوارع، والمتمردون يظهرون على شاشة "الجزيرة" معلنين أن أيام النظام الأخيرة قد بدأت. كانت تسمع دويّ المدافع وصفير سيارات الإسعاف بلا انقطاع.

مع حلول بعد الظهر، تمكّنت ميليشيا **زهران علوش** من اختراق حصار **رستم** واقتحمت مجموعات منها وسط المدينة. وكانت إحدى كتائب الحرس الجمهوري قد أعلنت انشقاقها، وفقًا لتقرير قرأته مريم على موقع "رويترز". أما **بثينة**، فقد ذهبت إلى قصر رستم الترفيهي في **بلودان**، تاركةً مريم تتولّى الإشراف على القصر الرئاسي. أمرت الفريق بالعودة إلى منازلهم بعد الانفجار، وقالت لهم أن يبقوا على أهبة الاستعداد.

رنّ هاتفها المحمول، فظهر على الشاشة اسم **أمينة**، إحدى مساعدات بثينة. صرخت أمينة بمجرد أن أجابت مريم:

– "مريم، لقد ماتت، لقد ماتت!"

قالت مريم بارتباك:

– "من التي ماتت؟ ماذا حدث؟"

– "بثينة يا مريم، في الحوض... الحوض، مريم!" ثم تبع ذلك صراخ، وصوت شفرات مروحية تدور في الخلفية. كانت أمينة تصرخ بكلمات غير مفهومة، لكن مريم سمعتها أخيرًا تقول:

– "أطلق عليها رستم النار."

ثم ساد نحيب طويل.

قالت مريم مذهولة:

– "رستم؟"

– "نعم. وصل بمروحية، دخل إلى الداخل، أطلق النار عليها، ثم غادر. كنت في المكتب... وجدت الجثة... يا مريم، كان مشهدًا... وجهها لم يعد موجودًا، والحوض مغطّى..."

ثم ارتفع صوتها بالبكاء مجددًا حتى لم تعد مريم تميز كلماتها، قبل أن تلتقط شيئًا وسط الاضطراب:

– "وجدت ورقة في الحوض..."

قالت مريم بسرعة، وقد بدأ البرد يتسرّب إلى عظامها:

– "ورقة؟"

– "نعم، كانت عليها كلمات إنجليزية، لكنني لم أستطع قراءة الباقي، كانت مبلّلة جدًّا، وإنجليزيتي ليست جيدة مثلك..."

قاطعتها مريم فجأة وقد تملّكها شعور قاتم:

– "ابقي حيث أنت، الطرق غير آمنة. وأحرقي الورقة، مفهوم؟"

قالت أمينة بصوت مرتجف:

– "وماذا لو عاد؟ ماذا لو عاد ذلك الوحش؟"

راود مريم خاطر رهيب: *المعلومات التي سلّمتها لـ سام... وادي بردى... الموقع الوحيد الذي نطق به رستم لبثينة... ومريم نقلته إلى الـCIA... ثم قتل رستم بثينة!*

لم تعد قادرة على التنفّس، الهواء لا يدخل إلى صدرها، رأسها يدور، وكادت تتقيأ.

قالت لمساعدتها:

– "ستكونين بخير، لن يعود، لقد أنهى ما جاء من أجله. لكن يا أمينة..."

همهمت الفتاة.

رفعت مريم صوتها:

– "أمينة؟"

– "نـنـنعم، مريم؟"

– "إياكِ أن تخبري أيّ جنديّ بأنك رأيتِ من قتل بثينة، هل فهمتِ؟"

ثم أغلقت أمينة الخط وهي تبكي.

ذهبت مريم إلى الحمّام وتقيأت.

***

الآن كانت **مريم** تجلس على سريرها، تنتظر أن تبدأ تنفيذ خطّتها... أو أن يأتي **علي حسن** ليعتقلها... أو أن **جميل عطية** يقتلها... أو أن تموت تحت قذيفة هاون. أيّها يأتي أولًا لا فرق.

سمعت رشق رصاص تحت نافذتها. تطلعت فرأت رجلاً مقنّعًا يركض في الشارع حاملاً صندوقًا على كتفه. **بدأ النهب**.

كان عنصر الأمن الذي يراقب شقتها قد اختفى. *جبان*.

أغلقت الستائر بإحكام، وبدأت تمزّق جلد أصبعها بأسنانها.

ثم دوّى طرق على الباب.

فتحت، فرأت أمامها **عمّها داوود**، متهالكًا. لم يعُد يضع الضمادات على جراحه القديمة، لكنّ مظهره بدا أكثر إنهاكًا من أي وقت مضى. أدخلته وجلست معه في غرفة المعيشة، يسمعان معًا عويل الطائرات وهدير القذائف، بينما تقدّم له شاي الليمون كما لو كانت زيارة عادية.

كان زيّه العسكري مبلّلًا بالعرق، قطرات تتجمع على أنفه وتسقط في فنجانه المرتجف.

قالت له بصوت خافت:

– "ما بك يا عمي؟"

أجابها:

- "كنت سأتصل بوالدك، لكن لم أستطع الوصول إليه."

قطّب وجهه، وشعرت مريم بضغط في صدرها كأن يدًا تخنقها. أومأت بصمت.

قال داوود:

- "سأذهب إلى قاعدة جوية، ربما الليلة. ولا أعرف كيف أقول هذا... لكنني لا أتوقع أن أعود."

كادت تضحك وتقول: *أتمزح؟* لكنها رأت الجدية في عينيه.

فاكتفت بالسؤال:

- "ماذا يحدث؟"

وضع فنجانه ومسح رأسه، فتساقطت بعض الشعيرات على بنطاله.

قال بصوت متهدّج:

- "قلت لك في خطوبة ابنة عمك منذ زمن طويل إنك كنتِ دائمًا جزءًا من مجالس الحرب."

قالت:

- "أتذكر، يا عمي. وكنت فخورة بذلك، وما زلت."

قال:

- "لا أستطيع أن أشرح لك كل شيء، لكن أحتاج منك أمرين... كعضوٍ في المجلس. سامحيني لأنني أطلب منك بهذه الطريقة."

نظرت إلى عينيه القلقتين، وقالت:

- "قل، يا عمي."

- "أولًا، أريدك أن تتعهّدي بأنك ستعتنين بـ **رزان** وتعملين على إطلاق سراحها. وإن لم أعد، فقد تُثار..."

توقّف لحظة، حكّ جرحًا في رقبته، ثم أكمل:

- "أسئلة. أسئلة صعبة."

قالت مريم:

- "أعدك، يا عمي. طبعًا."

ارتسمت راحة خفيفة على وجهه.

قالت:

- "ما الأمر الثاني؟"

أخرج ورقة من جيبه، مبتلّة مهترئة، ترتجف بين أصابعه.

قال:

- "هناك شيء يحدث يجب أن تعرفيه. شيء شرّير إلى حدٍّ يجعلني أخجل من النطق به. لكن إن أعطيتك هذه الورقة، فستصبحين طرفًا فيه. سيكون عليك أن تختاري."

قالت وهي تحدّق فيه بقلق:

- "ولِمَ تخبرني؟"

أجابها بابتسامة حزينة:

- "ألستِ من مجلس الحرب؟ وما هذا إن لم يكن حربًا كبرى؟ أتريدين الورقة؟"

لم أفعل شيئًا.

أومأت برأسها. فدفع الورقة نحوها ووضعها تحت فنجانها، ثم نهض.

قال وهو يقف عند الباب:

- "كتبت فيها كل ما أعرفه. كل شيء."

عانقها، وانهمرت دموعها. وحين رآها تبكي، بكى هو أيضًا.

قال بصوت مبحوح:

- "والدك سيفتخر بك. ومهما يكن ما سيفعله ما في هذه الورقة، أرجوك، عندما يحين الوقت، أخبري **رزان** أن والدها وقف في الصف، وأنه في النهاية، بطريقة ما، ثأر لها. أخبريها بهذا، مريم، أرجوك."

لم تستطع أن تنطق بكلمة، فاكتفت بأن أومأت بعينين غارقتين في الظلام والخوف.

التفت ليغادر، ثم عاد فجأة وقال:

- "هناك خمسة مواقع ـفي الورقة التي أعطيتكِ إياها. من الأفضل أن تُدمَّر الليلة أو صباح الغد."

قالت بدهشة:

- "لكن يا عمي، كيف...؟"

رفع يده مبتسمًا، وجهه أكثر صفاءً، كأنه تخلّص من ثقلٍ عظيم.

قال بهدوء:

- "لا داعي يا مريم. قلت لك هذا من أجل نفسي... من أجل روحي."

***

أغلقت الباب.

قرأت الورقة.

تقيأت مجددًا.

تمنت لو كان هناك وسيلة أفضل للوصول إليه.

اتصلت بالهاتف السري لـ **سام**.

وأخبرته بكل شيء، بسرعة.

ثم شعرت أن يدًا خفية كانت تقبض على صدرها قد أفلتت.

لكنها أدركت ـفي الوقت نفسه... أن كل شيء لم يبدأ بعد.

الفصل السابع والأربعون

ظنَّ **سام** أن ذلك لا بد أن يكون واحدًا من أكثر الرسائل كارثية التي أُرسلت يومًا من عميلٍ إلى وكالة الاستخبارات المركزية. كان يريد أن يركض إلى المحطة فورًا، لكنَّه هو و**مريم** كان أمامهما عملٌ آخر يجب إنجازه. التقط الهاتف المحروق واتصل بالسفارة، فأجابه أحد موظفي القنصلية.

قال سام بنبرةٍ حادة:

– "أخبر الأشخاص في الأسفل أن يتصلوا بهذا الرقم من هاتفٍ يُتخلَّص منه فورًا. الآن، هل فهمت؟"

أجابه الموظف بالإيجاب. أغلق سام الخط وبدأ يتمشى في الغرفة بقلق، فاصطدم بعلب الحساء المكدسة وأسقطها أرضًا. وبعد خمس دقائق، رنَّ الهاتف. رفعه إلى أذنه.

– "اللعنة يا رجل، أين أنت بحق الجحيم؟"

لم يشعر سام يومًا بفرحٍ كالذي شعر به حين سمع صوت **بروكتر**.

– "أختبئ الآن. آسف، لم يكن لدي خيار آخر. سأقرأ عليك شيئًا، مصدرٌ فرعيٌ من **أثينا** أرسله. يجب أن نضعه في نطاق تداولٍ محدود، ليقرأه ثلاثة أشخاص فقط. مفهوم؟"

– "تابع."

أجابت، لكن سام كان يسمع الغضب في صوتها. قرأ الرسالة، فسكتت لحظة ثم قالت:

– "سأرسلها وأتصل بـ **برادلي**، ثم أعيد الاتصال بك."

وانقطع الخط. وبعد عشر دقائق، رن الهاتف مجددًا.
– "تم إرسالها. الآن أخبرني أين أنت، وإلا ستعود إلى الولايات المتحدة بالأصفاد."

***

كانت **طاقة بروكتر السوداء** تملأ شقة الأمان حين وصلت. دفعت بابها بعنف وتقدّمت متخطيةً ضابطها الميداني، ثم رمت حقيبتها على الطاولة بقوة، فارتطمت الأقفال المعدنية بخشونة. حدّق سام في حقيبتها الجلدية السوداء؛ لم يسبق له أن رآها غاضبة إلى هذا الحد.

ضيّقت عينيها وحدّقت فيه حتى نظر إلى الحقيبة، فقالت وكأنها تقرأ فكره:
– "سكيني ومسدس من المحطة. المدينة تحوّلت إلى جنونٍ خالص. مشهد سقوط روما. القوط الغربيون يبلّلون سراويلهم أمام الأسوار، عطشى للدماء والنهب اللعين."

أخرجت رباطًا مطاطيًا من حقيبتها، وربطت شعرها المشعث في ذيل حصانٍ مائل.
– "هل تود أن تخبرني ما الذي يجري بحق الجحيم؟"

ثم تابعت دون أن تمنحه فرصةً للكلام:
– "دعني أرسم الصورة، وأنت تخبرني لماذا لا أصفعك الآن، أضعك في سيارة وأقودك بنفسي عبر الحدود إلى عمّان، مفهوم؟"

صمت سام. أسندت بروكتر ظهرها إلى الطاولة بينما وقف هو أمامها متكئًا على الحائط.

تابعت بصوتٍ مشدودٍ خشنٍ يغلي غضبًا:
– "لدي ضابط حالة، مجنّد بارع، لكن يبدو أن عضوه الذكري هو أداته الرئيسية في تقييم العملاء. هذه العميلة تُهاجم من ميليشيا حكومية، والعميل معها، لأسبابٍ لا أستطيع حتى أن أبدأ بتخيلها. يفرّان إلى هذا القصر الحقير" – وأشارت إلى الغرفة المتهالكة وإلى السرير – "بعد ارتكابهما ثلاث جرائم قتل، ثم يرسلان معلومات

استخباراتية غير مؤكدة عن منشأة إنتاجٍ احتياطية، والتي بدوري أبلغت بها لانغلي على عجلٍ مجنون."

فتح سام فمه ليجيب، فقاطعته:
- "ثم يرفض ضابط الحالة الحضور إلى منطقة الأمان، ويجبرني على تنفيذ عملية تفادي مراقبةٍ انتحارية عبر الحواجز وتحت سقوط القذائف."

حاول الكلام مجددًا، لكنها وضعت إصبعها على فمها.
- "شش... شش... ستصمت تمامًا وتدعني أنهي كلامي. ثم يزوّدنا مصدرٌ فرعي لتلك العميلة بالمعلومات التي نحتاجها لإيقاف حفلة الأسد الكيماوية. رئيسة المحطة الجريئة تنقل المعلومة إلى لانغلي، فيصدر الرئيس أمرًا بقصف المواقع في اليوم التالي، ما يعرض الجميع في السفارة للخطر إذا قرر السوريون الرد."

ارتفع صراخ في الممر خارج الشقة، فنظرت بروكتر نحو الباب. ثم تابعت:
- "وفي هذه الأثناء، ضابط الحالة نفسه يجلس في هذا البيت الآمن، يدير عملياته كأنه محطة مستقلة، ويرفض أن يخبرني بمكانه. لماذا؟"

- "لأن—"

- "سأخبرك أنا. لأنك كنت تعلم أنني سأجيء إلى هنا، أمسكك من خصيتيك وأسحبك إلى السفارة. لذا ستفسّر لي الآن بعض الأمور. حالًا. أنت المسؤول عن **أثينا**، فقل لي ما الذي أصابها؟ ولماذا كانت في مسرح الجريمة؟"

توقفت بروكتر، طوت ذراعيها ونظرت إليه بثبات.

قال سام:
- "تمكَّن **علي** من الوصول إلى **مريم**. المخابرات أبلغت عن محادثتنا في باريس. فاعتقلوا ابن عمها للضغط عليها. أرسلوها إلى إيطاليا لجلب جهازٍ ما، دون أن يعلموا أننا جنّدناها أصلًا. لم تكن مطلعة على العملية، لكنها أدركت أن عليًّا يبحث عن خائنٍ في الداخل."

تنهدت بروكتر بقوة.

- "هل قالت لك ذلك؟"

- "نعم."

- "وماذا أيضًا؟ ماذا أعطتهم؟"

- "معلوماتٍ عن خلفيتي، وعن البيت الآمن الذي استخدمناه."

- "هل ذكرت سببًا محددًا لرغبتهم في الجهاز؟"

- "لا، لا تعرف. ومنذ عودتها إلى دمشق من إيطاليا لم ترَ الجهاز، ولهذا انقطعت اتصالاتها."

قالت بروكتر:

- "إذن هذا سبب لقائها بك؟ لتسليم المعلومة يدويًا بعد أن غيّرت رأيها."

- "نعم. سمعت **بثينة** تذكر **وادي بردى**، وعرفت أننا بحاجة لتلك المعلومة فجاءت مسرعة. ثم هاجموني. آه، وبثينة قُتلت."

- "اللعنة، أأنت متأكد؟"

- "مريم أخبرتني."

- "إذًا ربما لا."

- "كانت على حافة الانهيار عندما اتصلت. سألت عمّا فعلنا بالمعلومة التي سلمتها."

- "الفتاة ممثلة بارعة."

- "ليست كذلك يا رئيسة المحطة. قرأتها جيدًا في إيطاليا. قلت لكِ حينها إن هناك خطبًا ما."

- "ربما تلعب بنا، بك أنت بالذات. هل فكرت بذلك؟ ربما أراد السوريون أن نظن أنهم نقلوا المواد إلى وادي بردى."

– "لا منطق في ذلك. فكّري معي: أمران مؤكّدان. أولًا، مريم تتعقبني خارج السفارة لتسليم معلومة وادي بردى شخصيًا. ثانيًا، تقتل ثلاثة من الميليشيا لتنقذ حياتي."

قالت بروكتر ساخرة:

– "وظللت مقاومًا لشهوتك خلال كل هذا، يا **جاغرز**؟"

لم تتوقع ردًا. رمقت السرير، وسام أيقن أنها تتخيل ما حدث هناك. نصف جفنها الأيسر انخفض قليلًا، ثم أومأت له بالاستمرار.

قال سام:

– "لو كانت مريم عميلة مزدوجة، لما تصرفت هكذا. ولو كان عليّ ذكيًا — وهو كذلك — لما أدار العملية بهذه الطريقة. لم يكونوا ليرسلوها بنفسها لتسليم معلومة وادي بردى، فذلك أثار الشبهات فعلًا. كانوا سيرسلونها عبر الاتصالات المشفرة، ببساطة. ثم، لو كانت خائنة، لما قتلت الميليشيا، بل كانت ستدعهم يعتقلونني."

لم تعلّق بروكتر، ما يعني موافقتها الضمنية، لكنها عادت للهجوم:

– "إذن لماذا قتلت بثينة بحق الجحيم؟"

– "أراهن أن عليًّا يحاول كشف الجاسوس. لا بد أنهم حصروا دائرة الشك. وهم لا يعلمون أن مريم أعطتنا المعلومة الأصلية عن اختبار السارين. عليّ زوّدهم بشيءٍ يعلم أنه سيعود إلى دمشق. نحن حصلنا على طُعم بثينة، ورآه السوريون بطريقةٍ ما، فقتلوها."

– "هراء." قالتها بلا يقين.

– "أحقًا؟ لقد أرسلنا معلومات **جبلة**، وخلال أيام بدأ الحرس الجمهوري الإخلاء. عدد قليل جدًا من الناس في النظام كانوا يعرفون بالموقع. وصلهم تسريب — ومن يدري كم شخصًا في واشنطن يقرأ تقاريرنا؟ آلاف — ثم نقلوا السارين. ضاق نطاق الشبهة، فأرسلوا معلوماتٍ مضللة. إحدى هؤلاء كانت بثينة. أحدهم أبلغها عن وادي بردى، فسمعتها مريم، وأخبرتني، فأخبرتك، فوُزّعت في واشنطن، وتسرّبت إلى عميلٍ خفي، فعادت إلى عليّ. أراهن أن **رستم** هو من قتلها، لا عليّ.

مريم لم تكن تعلم أن المعلومة مزيفة. فقط شعرت بأهميتها، فخاطرت بكل شيء لتسليمها."

قالت بروكتر وهي تهز رأسها:
- "إذن معلوماتها عن مواقع الإطلاق الخمسة صحيحة على الأرجح. ومع مقتل بثينة، سيشعر السوريون بالأمان للمضي قدمًا في هجوم السارين. انتهى وجود الجاسوس."

لقد بلغ سام قمة الجدل معها. إما أن يكسبها فيضع نفسه في خطر، أو يخسرها فتموت مريم. انتصب وقال:
- "نعم، إلا إذا قصفنا المواقع الآن. عندها سيدرك عليّ أن بثينة لم تكن الجاسوسة. حتى لو ظن أن صور الأقمار الصناعية كشفتهم، سيحققون ليتأكدوا. وسيفعل عليّ أمرين مؤكدين: سيستدعي مريم، لأنه سيعلم أن أحدًا سلّم معلومة وادي بردى، وأنها على الأرجح ليست بثينة، لأن الهجوم فشل بعد موتها بساعات، ما يبرئها بعد وفاتها. سيوجّه نظره إلى المرأة التي تعمل في مكتب بثينة، والتي ربما سمعت بالموقع، وكانت موضع شك لدرجة أنهم اعتقلوا ابن عمها كورقة ضغط. سيعذبونها حتى تنهار."

أخرجت بروكتر سكينها من الحقيبة وغرست رأسه في الطاولة تدور به وهي غارقة في التفكير.
- "ما اقتراح العملية؟"

- "أعتقد أنني أعرف كيف نحمي عميلتنا ونُبقيها في مكانها. سأمنح **عليًّا** ما يريد، بنفسي."

- "كيف؟"

***

خفضت بروكتر غضبها قليلًا، وأخذت تستمع بصمت وهو يشرح خطته. وحين انتهى، أعادت السكين إلى غمدها، وسارت نحو غرفة النوم تتفحص السرير

والجدران المتشققة بينما تهتز الأرض تحت وقع القصف. علت أصوات الطائرات النفاثة. كانت الآن واقفة أمامه، تنظر إليه من مستوى أدنى برأسها المرفوع.

لو كانت رئيسة محطة سياسية أو بيروقراطية، لرفضت الخطة فورًا، وربما أرسلت المارينز ليقتادوه بالقوة إلى السفارة. لكنها لم تكن كذلك. كانت **آرتميس أفروديت بروكتر** امرأةً تحكمها قاعدتان فقط: اجمع المعلومة، واحمِ عميلك. لا شيء غير ذلك. وسام قدم لها ما يحقق الأمرين معًا، رغم كلفته الفادحة.

قالت بهدوء قاتل:
– "هل فكرت ماذا سيحدث إن لم يقتنعوا بالاسم؟ إن لم يتحرك البيت الأبيض؟ إن واصل السوريون طحن العجلة؟ إن عاملوك مثلما عامَلوا فال؟"

– "عندها سنعود إلى النقطة ذاتها: مريم على المقصلة. لكن بخطتي نملك فرصة لإنقاذها."

أومأت برأسها، ثم حدّقت في غرفة النوم قبل أن تعود إليه. بصقت على الأرض ولم تقل شيئًا. كانت تعرف.

تذكّر سام قول **برادلي** له في القاهرة قبل زمنٍ طويل:
"يُسمح لك بخطأٍ واحد يا سيد جوزيف، بشرط أن تصارحنا به. الإخفاء والكذب أسوأ من الأخطاء نفسها. الأخطاء تقع حتى من الضباط الجيدين، أما الخداع فلا. يمكنك أن تكذب على زوجتك أو عشيقتك أو أطفالك، لكن ليس على الـCIA."

نظر سام إلى رئيسته. قبل أشهر فقط، كان سيخاف من تبعات اعترافه، أما الآن فلا. *احمِ عميلتك*، هذا كل ما يعنيه. ولم يكن ليستطيع الكذب عليها. لقد أصبحا متّحدين ميدانيًا، وقد خان القسم. أراد الغفران.

كان يحدّق في عينيها لكنه لم يرها؛ كان يرى نفسه من علٍ، جالسًا فوق الثلاجة، يراقب جسده وهو يعترف. جعل ذلك الاعتراف أسهل.
قال بصوتٍ مبحوح:
– "أنا أحبها يا رئيسة."

ضيّقت بروكتر عينيها، وتقدّمت خطوة نحوه، ثم باغتته بلكمةٍ قويةٍ من الأسفل ارتطمت بفكه بفرقعةٍ حادة. سقط أرضًا، ورآها واقفة فوقه، شعرها الأسود الفوضوي يتطاير كوميضٍ ضبابي. جلست عند مستواه. حاول تحريك فكه وهو يتألم.

قالت:

– "يمكنني أن أقول إنك أحمق، وسأكون محقّة في بعض الأمور، ومخطئة في أخرى. لكن أمامك الآن مهمة تتجاوز نزوتك هذه. سيكون حسابنا لاحقًا، بعد أن نعبر هذا الجحيم."

رفعتَه من الأرض وأسندته إلى الطاولة. ثم أدارت ظهرها ورفعت بلوزتها الرمادية عن كتفيها، فكشف ظهرها الموشوم **بسبع نجوم**، وحمّالة صدرٍ برتقالية مرسومة عليها أشجار نخيل. ظن سام أنه يهلوس من أثر الضربة، لكنها أعادت البلوزة إلى مكانها واستدارت نحوه.

قالت بهدوءٍ بارد:

– "سبع نجوم، واحدة لكل ضابطٍ قُتل في هجوم قاعدة خوست عام 2009. رسمتُها حين انتهينا من تصفية المسؤولين. قدتُ فرقة الاغتيال، كنتُ *ملاك الموت*. ولم أشعر بفرحٍ أعظم من ذلك قط. هذه قبيلتي، اخترت جانبي، وأنت حاليًا على هذا الجانب. لكن اعلم، إن فشلت، سأحمّلك المسؤولية شخصيًا. وإن اضطررت أن أضيف نجمةً من أجلك على ظهري، فسأطاردك حتى في العالم الآخر."

أعادت السكين إلى حقيبتها وأغلقتها، ثم حملتها على كتفها وقالت وهي في طريقها إلى الباب:

– "سأضع العلامة وأرسل الرسالة خلال ساعة. ثم أخبرها أننا مستعدون."

وغادرت وسط دويّ قذائف الهاون، دون أن تلتفت خلفها.

الفصل الثامن والأربعون

شعر **عليّ** باهتزاز هاتفه في جيبه، كانت **مريم**.

- "ماذا لديكِ؟"
- "لقد أرسل إشارة. اجتماع طارئ. في البيت الآمن."
- "متى؟"
- "العلامة كانت لحالة طارئة، لكن لم يُحدَّد وقتها بدقة. أنا متأكدة أنهم أرسلوا شيئًا إلى الجهاز أيضًا."
- "شكرًا لكِ. أؤكد لكِ أن ابن عمكِ سيُفرج عنه قريبًا."

ثم أغلق الخط.

كانت المغامرة بتشغيل مريم لصالح الأمريكيين قد أثمرت. لقد أدّت مهمتها بنجاح، واعترف عليّ في نفسه بذلك. استحوذت على الجهاز وقدّمت موقع البيت الآمن. أنجزت دورها بالكامل، بينما كان ابن عمها في سجن مكتب الأمن التابع له، آمنًا ومُطعَمًا جيدًا. لم تكن مريم قد اختُبرت بعد، وكان عليّ بحاجة إلى وسيلة ضغط — ضغطٍ غير مؤذٍ — وقد نجح الأمر.

تقدّم عليّ نحو جهاز الـiPad وفتحه بالحركة ذاتها التي أرتها له مريم من قبل. وبالفعل، وجد أن الأمريكيين حاولوا التواصل معها:

1. **نطلب اجتماعًا طارئًا في الموقع المعتاد فورًا. الحضور قبل الساعة العاشرة مساءً.**

2. **نحتاج إلى تعديل خطة الإخلاء نظرًا للعنف في العاصمة.**

3. **أحضري جواز السفر والحقيبة اليدوية.**

4. سيبدأ الإخلاء مباشرة بعد الاجتماع.

نظر عليّ إلى ساعته: الثامنة والنصف مساءً. نزل الدرج إلى مركز القيادة الروسي، حيث وجد **فولكوف** يحتسي قهوته.

قال عليّ بهدوء:

– "لقد أرسل إشارة لاجتماعٍ مع مريم."

ظل وجه فولكوف هادئًا بلا انفعال.

– "إخلاء؟ الوضع كارثي في الخارج."

– "نعم. يريدون تعديل الطريق، ومناقشة التفاصيل وجهًا لوجه، ثم إخراجها الليلة."

تمتم فولكوف:

– "لدينا فريق مراقبة مضاد يراقب المنزل في الحيّ المسيحي منذ يومٍ كامل. لم يرصدوا شيئًا. المكان نظيف."

قال عليّ ببرودٍ قاتل:

– "جيّد. الليلة نُنهي هذه الفوضى."

الفصل التاسع والأربعون

في طريق **سام** إلى البيت الآمن، سلك طرقًا فرعية متعرجة لتجنّب نقاط التفتيش. كان يتنقل عبر الأحياء، يقترب شيئًا فشيئًا من الحيّ المسيحي، يراقب الوجوه المتكررة والسيارات المشبوهة، يحاول تقليل الازدحام قدر ما يمكن. لم يعد لأيٍّ من ذلك معنى الآن، لكنه فعله بدافع الغريزة، ولأن عليه أن يبدو كما يتوقّع خصومه: ضابط في الـCIA في طريقه للقاء عميلٍ ثمينٍ في قلب سوريا الممزّقة بالحرب.

صعد الدرج داخل المبنى الحجري الأبيض، حتى بلغ السطح الداخلي للطابق الأخير. توقّف هناك وأغمض عينيه، مسترجعًا آخر مرة كان فيها هنا مع **مريم**، قبل رحلتها إلى إيطاليا. تنفّس بعمق. بالنسبة لأي مراقب عبر كاميرا خفية في المصابيح أو أجهزة الكشف، لم يكن ليرى سوى حركةٍ شبه غير ملحوظة.

لكن في تلك اللحظة القصيرة، بين الزفرة وفتح عينيه، رأى **شقيقه الصغير**، ورأى **فال**، ورأى الأرواح التي دمّرها بخطئه. ثم رآها — مريم — في فستانها الأحمر ذاك من باريس.

فتح باب البيت الآمن، فسمع خطواتٍ مكتومة تتسارع على الدرج خلفه — خطواتٌ تزداد وضوحًا مع كل درجةٍ تُصعد. كان سام يتوقعها.

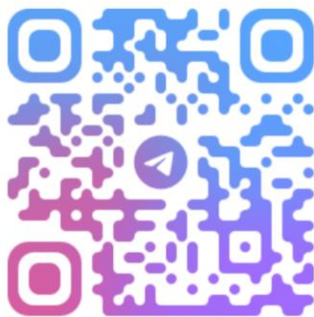
وقف **عليّ** في المطبخ، يدخّن سيجارة. نظر إلى سام دون ابتسامة وقال بنبرةٍ باردة:

– "مطبخ جميل، يا صديقي."

ثم رمى عقب السيجارة على أرضية الرخام، وسحقه بحذائه.

وفي اللحظة التالية، من خلف سام، من فوق رأسه مباشرة — اندفع هواءٌ مضغوط بعنف...

ثم ظلامٌ تام.



الفصل الخمسون

كان **الرئيس بشار الأسد**، وذراعاه وصدره لا يزالان ملفوفين بالضمادات، قد استدعى **رستم** و**عليّ** إلى القصر في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي. فقد وردته رسالة عاجلة من الرئيس الروسي، وأراد أن يستمع الشقيقان إلى الاتصال معه.

جلس الثلاثة على الأرائك الرئاسية، واضعين السماعات في آذانهم، بينما سمع **عليّ** صوت الرئيس الروسي المرتبك بالإنجليزية يقول صباح الخير لرئيس الجمهورية العربية السورية، معربًا عن خالص قلقه على سلامته بعد الهجوم، وعن أمله في أن تتمكّن قوات الأمن السورية من هزيمة آفة الإرهاب أينما وُجدت.

ضغط **رستم** راحتيه على جبهته، كأنه يحاول أن يدفع الكلمات الإنجليزية إلى داخل دماغه بقوة التركيز.

ثم سمع **عليّ** الكلمات الحاسمة الثقيلة اللكنة:
- "لقد تلقّينا معلوماتٍ استخباراتية موثوقة من واشنطن قبل ساعة فقط، من مصدرٍ رفيع في جهاز الـSVR، تُشير إلى أن الأمريكيين يخططون لقصفكم. وقد حصل مصدرنا على هذه المعلومة مباشرةً من مسؤولٍ كبير في الـCIA شارك في المناقشات التي جرت أمس في البيت الأبيض."

توقف الصوت لحظةً لأجل التأثير الدرامي، ثم أضاف:
- "تشير مصادرنا إلى أن هذه المعلومات جاءت من العميل الرفيع الذي جنّده الأمريكيون مؤخرًا."

وتابع **بوتين**:
- "نتوقّع أن يستخدم الأمريكيون حاملة الطائرات *يو إس إس أبراهام لنكولن*

ومجموعة القتال الثانية عشرة الموجودة حاليًا في شرق البحر المتوسط. لقد كلّفنا وحدات التصوير والاستخبارات الإشارية SIGINT بجمع مزيدٍ من المعلومات، إضافةً إلى شبكاتنا العالمية في جهاز الـSVR. وبالطبع، سنزوّدكم بكل التفاصيل حالما تصلنا."

سأل **الأسد**:

– "هل أشار مصدركم إلى التوقيت؟"

فأجاب القيصر الروسي:

– "قريبًا جدًا. وتقييمي أن الضربة الأمريكية تهدف إلى منع استخدام ما يزعمون أنه أسلحة كيميائية، لا إلى إسقاط حكومتكم. ومع ذلك، فإن خبرتي في التعامل مع الأمريكيين علّمتني أنهم لا يفهمون سوى لغة القوة. لذلك يجب أن يُواجَه القصف، حتى وإن كان محدودًا، بردٍّ صارمٍ لا يلين."

هزّ الأسد رأسه موافقًا، مستشهِدًا بأقوال والده عن "المقاومة والصمود"، ووافقه **بوتين** تأييدًا وتشدّدًا.

ثم تتابعت المجاملات الختامية، والوعود بالتعاون، وتبادُل عبارات "الأخوّة"، قبل أن يُعيد الأسد الهاتف المؤمَّن إلى مكانه على مكتبه.

وانفجر صارخًا بوجه الأخوين **حسن**:

"يا الله! الأمريكان الملاعين أولاد الكلاب! حيوانات! حمير! شياطين!"

ثم صرخ بالإنجليزية المكسّرة:

"American fucking bitches! Animals! Donkeys! Demons!"

فكّر **عليّ** أن الرئيس مرّ بأربعٍ وعشرين ساعةٍ قاسية: نجا من محاولة اغتيال، وها هو يدرس استخدام غاز السارين على نطاقٍ واسع ضد شعبه، ويواجه الآن احتمال ضربةٍ أمريكيةٍ انتقامية. عبءٌ ثقيل حتى على أكثر الرجال قسوة.

قال الأسد وهو يحاول تهدئة نفسه:

– "رستم، كم بقي حتى تبدأوا؟"

– "بدأنا خلط المادة وتحميل القذائف مساء أمس. يمكننا البدء الآن ببعضها إن أردت."

– "ابدأوا."

ضغط الأسد على زرٍ في مكتبه وصرخ في وجه سكرتيره الخاص ليحضر الشاي، وهو يتأوّه من الألم بسبب الحروق. نظر **عليّ** إلى السقف متسائلًا في نفسه إن كانت الضربة الأمريكية ستشمل مقر الإقامة الرئاسي نفسه.

قال الأسد بعد أن استقرّ في مقعده:
– "الآن، بشأن العميل. كنت أظن أننا تأكّدنا من أن بثينة هي الخائنة."

ردّ **رستم** بصوتٍ مرتفعٍ على نحوٍ غريب، غير مضبوط، كأنه جهاز راديو دُوّر مفتاحه إلى أقصى حدّ:
– "من الممكن أن يكون لديهم آخر."

لم يكن يبدو في حالٍ جيدة؛ شعره أشعث، عيناه محمرّتان، بدلته العسكرية متجعّدة، وعلى أحد جواربه بقع دمٍ صغيرة — كما لو بدأ بتبديل ثيابه بعد مقتل بثينة، ثم شُغِل بشيءٍ وتوقّف.

قال الأسد بتفكّر:
– "ربما... لكن علينا أن نفترض الأسوأ. عليّ، هل تمكّنتم من استغلال الجهاز الذي حصل عليه عميلك؟"

– "نقرأ المراسلات، لكننا لم نتمكّن بعد من تحديد هوية الجواسيس بدقة. الرسائل مشفّرة وغامضة. غير أن الإيرانيين يعتقدون أنهم سيتمكنون من المساعدة."

– "والأمريكي؟ صار في قبضتكم الآن، أليس كذلك؟"

– "نعم، سيدي الرئيس. أوقعنا به الليلة الماضية بينما كان في طريقه للقاء عميلنا. وهو الآن محتجز لدينا."

قال الأسد بصرامةٍ لا تخلو من الغضب:

– "استجوبوه اليوم. أريد التأكد من أننا سنعثر على جواسيس الأمريكيين. لقد قتل ثلاثة سوريين، والأمريكان على وشك القصف، وأيّ عنفٍ يُمارَس ضده يمكن تبريره أو التغطية عليه بسهولة. فقط استخلصوا المعلومات بسرعة."

– "أمرُك سيدي الرئيس، سأقوم بالتحقيق معه بنفسي حتى نحصل على الأسماء."

التفت الأسد إلى **رستم**، وابتسامةٌ باردة تزيّن وجهه:

– "الرئيس الروسي على حق. إن قصف الأمريكيون، فعلينا أن نردّ بقوة. ما توصيتك؟"

مرّر رستم يديه في شعره، وقطّب حاجبيه، ومسح شيئًا لزجًا عن شاربه قبل أن يقول:

– "لقد لعبنا مع وجود الـCIA في هذا البلد خلال الأشهر الماضية كما تلعب القطة بفأرٍ ميت. نفّذنا عملياتٍ ذكية: استولينا على جهازهم، واصطدنا ضباطهم، وكانت كلها خطواتٍ حكيمة في وقتها. لكنهم الآن يأتون لضربنا في صباح انتصارنا الأعظم، بعد أن حاول عملاؤهم الإرهابيون اغتيالنا جميعًا، يا سيادة الرئيس. كلا، إذا قصفونا كما يقول الروس، فلابد أن تنتهي اللعبة. أقترح أن نرسل الميليشيا لاقتحام السفارة الأمريكية واحتجاز الرهائن. سنقول إنهم، في حماسهم الوطني، اندفعوا للاحتجاج على القصف الأمريكي الصهيوني ضد سوريا المسالمة."

سعل رستم وبصق البلغم في كفّيه ومسحه على بدلته العسكرية، ثم أكمل:

– "وبذلك، نقطع قدرتهم على التجسس علينا مستقبلًا. سيغلقون سفارتهم ومحطتهم الاستخباراتية. نرسل **باسل** وميليشياه ليُلقّنوهم درسًا."

كان الأسد يعبث بضماداته فوق رأسه، ثم التفت إلى **عليّ** يسأله رأيه.

– "إذا فعلنا ذلك، سيضاعف الأمريكيون ضغطهم. مزيد من القصف، وعمليات اغتيالٍ انتقائية، الله أعلم إلى أين قد ينتهي التصعيد."

نظر الأسد إليه لحظةً، متأملًا، فعرف **عليّ** أنه خسر النقاش.

قال الرئيس:

- "ربما كنتَ على حق يا عليّ... وفق القواعد القديمة. لكن الآن أخشى أن أخاك هو الصواب. يجب أن يتعلّم الأمريكيون درسًا."

ثم أشار إلى ضماداته قائلاً:

- "هم لا يلتزمون بالقواعد... ولن نلتزم نحن أيضًا."

الجزء الخامس

الحُرّية

الفصل الحادي والخمسون

كان **سام** ممدّدًا في الزنزانة، مقيدًا، يرتجف من البرد والعتمة الكئيبة. كانوا قد نزعوا عنه ملابسه بعد ضربٍ خفيف، لا شيء خطير، فقط بضع لكماتٍ على الأضلاع والوجه. كان يشعر بالألم، لكنه محتمل. لم يُقدَّم له طعام أو ماء. أمضى ساعاتٍ طويلةً مستيقظًا، فيما موسيقى غريبة — أصوات لا أكثر — تتردّد من مكبراتٍ خفية. لم يكن سينام على أي حال؛ فهناك الكثير مما عليه الاستعداد له.

عمل **سام** لساعاتٍ على ترتيب ذهنه للمعركة القادمة، واضعًا الذكريات والمعلومات في صناديق وغرف وخزائن داخل رأسه. لم يكن يعلم ما الأساليب التي سيستخدمها **علي** في التحقيق، لكنه توقّع أن النمط سيكون شبيهًا بما درسه قبل سنين في "المزرعة" خلال تدريبه في الـCIA: صعودٌ تدريجيٌّ نحو قمة الألم.

في "المعسكر السفلي" من الجبل، سيتوقّع **علي** المماطلة، والأكاذيب، وأنصاف الحقائق. ومع الصعود — نحو الكهرباء ربما — سيتوقّع الانكسار: المزيد من الصدق، بعض التناقضات، أكاذيب أقل. وعند القمة، سيطلب اسمًا واحدًا. ثم سيتأكد من كل شيء.

ولكي يقتنع **علي** أنه انتصر، كان على **سام** أن يجعله يظن ذلك بالفعل. لم يكن يُسمح له بالانهيار بسرعة، ولا بإبداء الطاعة، لأن **علي** سيرى في كليهما علامة خديعة، وسيواصل الصعود حتى يحفر — حرفيًا ربما — في الخزنة المخبأة في عقل **سام**.

تلك الخزنة كانت تحوي اسمًا واحدًا: **مريم**. كان أول ما أخفاه، وأعمقه في دهاليز ذهنه.

الآن، في العزلة المظلمة، بدأ ينبش ذاكرته لترتيب البقية. صنّف بعض المعلومات على أنها "محروقة" أو قابلة للتضحية: انتماؤه للـCIA، موقع البيت الآمن، معرفته بعمليات الحرس الجمهوري في **جبلة ووادي بردى**. فكّر في مجموعة من مواقع الإشارات واللقاءات السرية القديمة التي يمكن للوكالة استبدالها لاحقًا. كلّ ذلك يمكنه الاعتراف به تحت التعذيب، بالتدريج، بعد إنكاره الأولي في "المعسكر السفلي".

بهذه الطريقة، سيبني مصداقيةً أمام **علي**، ويُغريه بالاعتقاد أن صعوده نحو "القمة" يثمر. وفي النهاية، سيسلّمه اسمًا ملفوفًا بشريطٍ أنيق: **جميل عطية**. بذلك سيظن **علي** أنه بلغ الغاية، وسيرمي **سام** مجددًا في الزنزانة، لينشغل رجاله بتدمير عالم **جميل** بحثًا عن الأدلة — الجهاز، المال، جوازات السفر الأمريكية المزيفة، والاتصالات الغريبة في هاتفه وبريده.

انفتح باب الزنزانة، فاندفعت أشعة الضوء القاسية. أمسكه رجلان من كتفيه وجرّاه إلى غرفةٍ أخرى رطبةٍ خانقة، تتدلّى فيها أنابيب صدئة عبر سقفٍ مثقوب. في وسط الغرفة طاولة حديدية ضعيفة الإضاءة، يحيط بها أربع كراسٍ. كانت الأرضية مغطاة ببلاطٍ بنيّ، وتحت الطاولة مصرفٌ معدنيّ.

أجلساه على الكرسي، ثم خرجا. الضوء الكاشف فوقه يخترق عينيه. أطرق رأسه، أغمض عينيه بحثًا عن لحظة راحة. *المعسكر السفلي... الحوار الأول...* أعاد ترتيب ذهنه وأغلق الخزنة التي تخبئ اسم **مريم**، ومعها سرّ ولائها الحقيقي، وعمليتها ضد حاسوب **بثينة** ومواقع الحرس الجمهوري التي تخيّل أنها ستُدمَّر قريبًا بغاراتٍ أمريكية.

انتظر كأن ساعةً مرت. صرير بابٍ معدنيّ فتح جزءًا من الأنابيب الصدئة أمامه على ضوءٍ خافت، ثم أُغلق.

جلس **علي حسن** مقابله، وأشعل سيجارة. مرّر أصابعه على ندبته، وضع يديه على الطاولة، شبك أصابعه، وبدأ الحديث بالعربية:

– "لم تصغِ إلى تحذيري. قتلتَ ثلاثة سوريين، اختبأت، ثم حاولت تهريب إحدى

جواسيسك. مريم رهن الاحتجاز الآن، في هذا السجن بالذات. هكذا عثرنا عليك في المنزل الآمن الليلة الماضية."

سحب من سيجارته، يحدّق في **سام**، الذي ظلّ صامتاً ينظر إلى الطاولة.

– "هناك أمرٌ آخر شديد الأهمية لحكومتي: اسم جاسوسٍ آخر. نعلم أن بثينة لم تكن الوحيدة التي تتواصل معك."

حاول **سام** ألا يتفاعل. قرر أن يختبره:
– "قلتَ إنكم قبضتم على مريم بالفعل."

أخرج **علي** علبة السجائر من جيبه، نقرها على الطاولة، وأسقط رماد سيجارته بيده الأخرى، ثم هزّ رأسه ببطء:
– "الأكاذيب لن تفيدك، يا *صامويل*. أعلم أن هناك آخر. أريد اسمه الآن، وما زوّدك به من معلومات حول خططنا العسكرية."

حدّق **سام** في الضوء الساطع حتى يراه **علي** وهو ينظر إليه بثبات:
– "لا أعلم عمّا تتحدث، يا علي."

غادر **علي** الغرفة، فعاد الرجلان. أمسك أحدهما **سام** من كتفيه، وبدأ الآخر يضرب أضلاعه ضرباتٍ متتالية من الجانبين. لم يتكلّم أحد، لكن الغرفة امتلأت بأصوات الأنفاس المتقطعة والأنين حتى طرحاه أرضًا على وجهه. جلس أحدهما على ظهره، بينما أخذ الآخر يضرب كعب قدمه اليمنى في موضعٍ محددٍ بدقة. شدّ **سام** عضلات عنقه حتى انهارت، ورأى أضواءً تتراقص أمام عينيه قبل أن يسمع *الطعنة* — صوت العظم وهو يتحطم — فصرخ صرخةً طويلة.

قلباه على ظهره، ووزّعا الضربات بين وجهه وعظام قدمه المهشّمة. الرجل الجالس فوقه أمسك بشعره ليثبّت الرأس، وبدأ يلكمه في الفك، مستكملًا ما بدأه **بروكتر** في الليلة السابقة.

العمل على الرأس... خطأٌ كلاسيكيّ. فكّر **سام** وهو يغيب عن وعيه. *الإغماء نعمة.*

صرخ **عليّ** في وجه رجاله عندما عادوا بعد أن وضعوا الأمريكي في غرفةٍ مبردة وسكبوا عليه الماء لإفاقته:

– "بحق الله، أيها العقيد! لا تضربوه حتى يفقد الوعي! يجب أن يُبقي لسانه يتحرّك!"

– "سيّدي الجـ—"

– "ولا كلمة!" قاطعهم وهو يحكّ ندبته. "نادوني فور استيقاظه، وجهّزوا الأسلاك الكهربائية للجولة التالية."

صعد **عليّ** إلى مكتبه، مرّ بجانب الروس الجالسين في الممر، يحرّكون أصابعهم مللاً في انتظار الأوامر للعودة إلى *الأمّ روسيا*. أغلق الباب، جلس، ونظر من النافذة نحو الشرق. كانت المقاتلات والمروحيات تحوم فوق **دوما**.

لقد طارد هذا الأمريكي لشهور، لكنه لم ينجح في كشف جميع جواسيسه. الآن تساءل في نفسه: *لماذا أهتمّ بعد؟ متى سيبدأ هجوم رستم؟ متى سيقصف الأمريكيون؟ ماذا تفعل ليلى والأولاد الآن؟*

فجأة، دوّى انفجارٌ هائل في البعيد. اهتزّ المبنى. *رستم بدأ*. أشعل سيجارة وتوجّه إلى النافذة، فرأى عمود دخانٍ أسود يتصاعد فوق مبنى **مركز البحوث العلمية** في **برزة**. ثم لمح طائرةً تحلّق فوق **قاسيون** — ليست ميغ، لا سورية ولا روسية. عرفها فورًا من خلال تقارير الروس: إنها **F–35** أمريكية.

ألقت عدّة قنابل على **قصر الشعب**، فاشتعل وميضٌ ناريٌّ هائل، تلاه سحابٌ متصاعد. غادرت الطائرة مجال رؤيته، فمدّ عنقه محاولًا رؤيتها مجددًا. لم يرَ شيئًا، فقط أنفاسه المتلاحقة ودوارٌ في معدته. ثم ظهرت ثانية، أو ربما طائرة أخرى، تنحرف جنوبًا نحو **كفرسوسة** ومقرّ **مكتب الأمن**.

تذكّر **عليّ** زوجته **ليلى** والتوأم، وشعر بالغثيان لأنه لم يُودّعهم. *جبان*... قال في نفسه. الطائرة اقتربت بسرعةٍ مذهلة. انحنى غريزيًّا، مستديرًا بجسده، محاولةً لا طائل منها لو أسقطت قنبلة. لكن في اللحظة الأخيرة صعدت الطائرة عموديًا، فاخترقت السماء تاركةً زجاج النوافذ يتطاير كالبلور المنثور على ظهر **عليّ** المنكمش أرضًا.

وقف بعد لحظات، يغطي رأسه، والدم يسيل دافئًا من مؤخرة عنقه. سمع صراخًا في الممر، فترنّح نحو مكتبه واتصل بزوجته:

– "هل أنتن بخير، حبيبتي؟" كان يصرخ ليتغلب على الطنين في أذنيه. سمع صراخ التوأم في الخلفية، و**ليلى** تبكي:

– "يا إلهي، ماذا يحدث؟ سمعتُ انفجاراتٍ ضخمة، الأولاد في حالة هستيرية، الكهرباء انقطعت، ورجل مقنّع أطلق النار في الشارع! هل تسمعني؟!"

سمع معظم كلماتها، لكن الطنين كان يصمّ رأسه.

– "نحن ننتظر الموت هنا!" صاحت. "تلك الطائرات... هل هي إسرائيلية؟ أنا أرى من النافذة ميليشياتٍ تجوب الشوارع! أحدهم كان يركض صباحًا حاملاً تلفازًا! المدينة فقدت عقلها! عد إلى البيت! متى ستصل؟ متى؟ هل تسمعني؟ عليّ؟!"

اشتدّ الطنين، واهتزّ المبنى مجددًا بانفجارٍ آخر. هبّت رياحٌ ساخنة عبر النوافذ المحطّمة، فملأت الغرفة بالغبار.

كانت **ليلى** تصرخ، و**سامي** يردد من الخلف: "بابا! بابا!" تلتها صفارات الإسعاف وصفير الإنذار الجويّ، متأخرةً كالعادة.

لكن ما سمعه حقًا كان الطنين... الطنين الجارف.

– "ابقوا هناك يا ليلى!" صاح. "اختبئوا في خزانة غرفة النوم مع الصغار! سأأتي الآن! أحبكم! قولي لهم إن أباهم قادم!"

أغلق الخطّ، واتجه نحو الباب، الذي فُتح فجأة وارتطم بالجدار.

كان **رستم**، شقيقه الأكبر، قائد الحرس الجمهوري، وبطل **حماة**، واقفًا في العتبة. وجهه مشوّه بالغضب، وعلى ياقة بدلته بقع دمٍ صغيرة، وعنقه عليه كدمات.

كان يجرّ **مريم** من ذراعها اليمنى المقيّدة إلى اليسرى خلف ظهرها. وجهها متورّدٌ من الضرب، وعيناها متعبتان.

سعل شيئًا داميًا ومسحه على ساعده، ثم قال بصوتٍ أجشّ:

– "اليوم هو اليوم، يا أخي الصغير."

***

استيقظ **سام** في غرفة تبريدٍ تشبه مخزن اللحوم، جلده مبتلّ ومتجمّد. سمع أحدهم يقول بالعربية: "استيقظ"، ثم أمسكته أيدٍ خشنة من كتفيه واقتادته إلى طاولةٍ معدنية. ثبّتوا أقطاب الكهرباء على أصابعه وخصيتيه، وتركوه تحت الأضواء الكاشفة وحيدًا.

نظر إلى قدمه المدمّاة؛ لم يتحرك إصبع واحد.

انفتح الباب، ودخل ثلاثة رجال، لم يتبيّن ملامحهم، لكن بدا أن الثاني يدفع الأول أمامه. والثالث أغلق الباب خلفهم. قاد الثاني السجين إلى الكرسي المقابل له. حدّق **سام** في الضوء فرأى ملامحها تتضح شيئًا فشيئًا.

حان وقت الصعود إلى القمة.

***

كانا قد خطّطا لذلك في البيت الآمن — قبل لحظة العشق على الفراش، حين توسلت أجسادهما الغفران لبعضها: هي لخيانتها، وهو لأنه أوقعها في هذه الدوامة.

كانت **مريم** تشعر بالغثيان لأن ذنوبهما لم تكن متكافئة. أرادت أن تعمل مع **سام**، مع الـCIA، ضد النظام الذي تكرهه وضد حياةٍ لم تخترها. نعم، خانته في **إيطاليا**، وسرقت الجهاز، لكنها كان يمكنها أن تخبره و**آرتميس** بتهديدات **علي حسن**، فيجدان طريقًا آخر للهرب.

قال لها **سام** تلك الليلة وهو على الفراش:
– "قد يجلبونك إليّ. **علي** يظن أنني أراك عميلة وفية للـCIA، وقد يستغل ذلك كورقة ضغط. ربما يضعونك في الغرفة نفسها، أو في زنزانةٍ مجاورة. المهم أن تواصلي التمثيل، وأن تتبعي قواعد **علي**، وتتماشَي مع لعبته."

وعندما جاء الطَّرق على الباب، توقعت أن ترى **عليّ** ليتحدثا في خطة الإيقاع بالجاسوس الأمريكي. لكن الداخل كان **رستم** — بدماء **بثينة** الجافة على بزّته، بابتسامةٍ ميتة وعُنقٍ مكسوّ بالكدمات.

قالت بهدوءٍ متوجّس:
- "نعم؟"

فلطمها بقسوة. اندفع رجلان خلفه إلى الشقة. رفعت ركبتها نحو فخذ الأول، لكن الثاني أسقطها أرضًا، وقيّد ذراعيها خلف ظهرها، وضغط رقبتها على الرخام. كبّلوها وسحبوها إلى السيارة التي انطلقت نحو **مكتب الأمن** بينما الطائرات الأمريكية تزمجر فوق دمشق. كان **رستم** يصرخ فرحًا بكل انفجار، ويتمتم في الطريق بكلمةٍ واحدة يكررها: "بثينتي... بثينتي... بثينتي..."

والآن، وعيناها معلقتان على وجه **سام** المشوّه، تخيّلت **مريم** أن تغرس مبرد أظافرها في عنق كلٍّ من الأخوين، هذين الساديين المتنكرين بثياب الشرطة. لكن عليها أن تتماسك أولًا.

قالت وهي تتلوّى من قيودها:
- "لماذا أنا هنا؟"

ولم يُجب أحد.

***

رنّ الهاتف.

تأرجح رأس **سام** ببطء وهو يدرك أن **رستم حسن** هو من يردّ على المكالمة.

قال بصوتٍ مرتجف:
- "هل أنت متأكد؟"
ثم ساد صمتٌ يصرخ من خلال الهاتف، قبل أن يلهث قائلًا:
- "يا الله."

وأغلق الخط بعنف، مُسقطًا الهاتف على الطاولة.
تمكّن سام من أن يشمّ رائحة عرق رستم تقترب منه. أنفاسه كانت فاسدة، حارّة. وضع رستم يده الثقيلة على كتفه، ثم سحب كرسيًّا وجلس إلى جانبه وهو يلهث.

انحنى ليتفحص قدم سام، ثم ضغطها ببوت عسكري فوق موضع الجرح. صرخ سام بألمٍ حاد حتى تكدّرت رؤيته ببقعٍ سوداء تتراقص.

رفع رستم قدمه، وقف وقال ببرود:
– "يبدو أنك نجوت من السهل فقط."

ثم نظر إلى الجدار، فالأرض، قبل أن يشير إلى نقطةٍ على بعد أقدامٍ قليلة من جهة سام اليمنى. انحنى نحوه وهمس:
– "صديقتك **ڤاليري** ماتت هناك بالضبط، على الإسمنت. أليس هذا ساخرًا؟"

ثم عبث بشعره كما لو كان يربّت على كلبٍ جريح.

قال **علي** فجأة:
– "من الجاسوس؟"

لاحظ سام أن عليًّا كان ينحني فوق صندوقٍ أسود صغير. ضغط زرًا بلا تحذير.

لم يرَ شيئًا... لكنه أحسّ بكل شيء.

الألم كان نقيًّا، شاملًا، طاغيًا. لقد تدرب على تحمل العذاب، لكن التدريب شيء، والواقع شيء آخر. لم يكن يتصور أن الألم سيشبه ماءً يغلي في عروقه وعضلاته وعظامه، يسري من قدميه حتى دماغه، يتمدد كأن جسده بالون مفرط الانتفاخ على وشك الانفجار. ثم فجأة توقف كل شيء، وعادت الغرفة في فيضٍ من الضوء والضجيج، فرأى صدره يرتجف قبل أن يتقيأ على الأرض.

سمع **مريم** تسبّ وتشتم.

قال علي مجددًا:
– "من الجاسوس؟"

في القصر الذهني الذي بناه داخل رأسه، لمح سام الخزنة المخفية التي تحتوي على اسم **مريم** وولائها. حاول أن يمحوها من ذاكرته، أن ينسى الغرفة التي فيها،

لكنها ظلت هناك، تناديه بنداءٍ غامض. رمش بعينيه سريعًا، فكر في أول مجموعة من الصناديق، وتلعثم بالكلمات:

– "أنا من الـCIA... لا أعرف من تريدونه، لكني أعرف مواقع دمشق... بيوت آمنة عند سفح الجبل... أنوارٌ معتمة... ضُربت من قِبَل الرئيس... البروكتولوجست..."

قال علي بصرامة:

– "كفّ عن استخدام الأسماء الرمزية."

قال سام وهو يلهث:

– "تمرير بالمسجد... خريطة... أُريك."

قال رستم بازدراء:

– "لسنا مهتمين بهذا."

ضغط علي الزرّ من جديد، وسقط العالم في العدم. الزمن أصبح حلقة لا نهائية من اللهيب، وأضواء القوس ترقص في ذهنه بينما فكر في الخزنة ومحتوياتها. شمّ رائحة غابات الصنوبر في مينيسوتا، سمع أمه تبكي، ثم هوى على الكرسي. أهذا هو القمة؟ كم مرّ من الوقت؟

صرخت **مريم**.

سعل سام، وتدفق الدم من ذقنه. سمع الشقيقين يتجادلان، لكن كلماتهما كانت تتلاشى في رأسه. سمع صوت مريم الخشن يسأل بالعربية بصوتٍ يائس:

– "لماذا أنا هنا؟"

سألها علي:

– "كيف عرفتِ عن جبلة ووادي بردى؟"

أمال سام رأسه إلى الخلف، فدفعه رستم للأمام بيده الخشنة.

الآن... افعلها الآن!

صرخ سام:

– "سمعت وادي في القصر! الممر!"

قال علي بحيرة:

– "من الذي سمع؟ أي ممر؟"

لم يعلم سام كم مرة ضغط علي الزر. الزمن توقف، وفي الظلام رأى الخزنة التي تحمل اسم **مريم**. في إحدى الدورات مدّ يده على سطحها، تحسّس المعدن الخشن، وسمع نقرات وهو يدير القفل.

بدأت الكهرباء من جديد. حاول التمسك بالذكريات، لكنها انزلقت كصورٍ باهتة محروقة الأطراف:

أسوار الذرة في **شيرمانز كورنر**، أمه تقرأ له كتابًا، المصنع، فيغاس، مطبخ آل **برادلي** الرطب في القاهرة... ثم **مريم**: ظلها تحت ضوء النجوم، ضحكتها، شجر الكرم المغمور بضوء القمر. حاول أن يمسكها، أن يجعلها درعًا ضد التيار الوحشي الذي يهزّ عظامه، لكنها تبخرت بين أصابعه. صرخ طلبًا للنجدة في الفراغ، فلم يجبه سوى الألم.

ثم تذكّر الصندوق الملفوف باسم **علي**.

الآن، العب الورقة.

تقيأ على الأرض، وقال متقطع الأنفاس:

– "عطية... عطية..."

قال علي بدهشة:

– "جميل عطية؟"

وبينما بدأ العالم يعود إلى شكله، رأى سام السوريّ يُدخّن، إصبعه ينقر قرب زرّ التعذيب. بدا أنه يفكر بالاسم.

أومأ سام برأسه، وعيناه تتقلبان، ورأسه يترنّح. أمسكه رستم من مقدمة قميصه ودفعه للأمام.

قال سام متلعثمًا:

– "سمعت وادي بردى... بثينة... كانت خدعة..."

دوّى صوتٌ في العدم، ثم سمع صريرًا معدنيًا، وشعر أنه يُسحب على الأرض حتى اقترب من أحدهم. التفت، فرأى **مريم** أمامه. توقف السحب. أصبحا وجهًا لوجه، ركبتهما تفصل بينهما بضع بوصات، وشمّ رائحة شعرها. نظر في عينيها.

ثم شعر بحرارةٍ تلسع عنقه.

رذاذ معدني لامس لسانه، والحرارة تشق طريقها إلى الأعلى على طول فكه المهشم حتى وجهه. سمع صرخات تتطاير: "بثينة! عطية!"

ورأى الخزنة مجددًا، ومدّ يده نحوها.

***

أدار **علي** ظهره عن الاستجواب لخمسة عشر ثانية فقط. في تلك اللحظة اتصل بـ **كنعان** وأمره أن يقلب حياة **جميل عطية** رأسًا على عقب فورًا: مداهمة مكتبه، فيلّته، مصادرة الحواسيب والهواتف... كل شيء.

ولما استدار، رأى أخاه **رستم** يغرز سكينًا مرسومًا بخطٍّ متعرجٍ في عنق ضابط الـCIA.

صرخ رستم قائلًا:

– "هذا من أجل بثينتي الحبيبة!"

تحسس عليّ ندبته القديمة على وجهه، وشاهد رستم ينتزع السكين من خدّ سام، ثم يلتفت نحو **مريم**.

***

صرخت مريم طلبًا للمساعدة وهي تهز يديها المقيّدتين بقوة على الكرسي، فيما كان رستم يقطع سام.

قال وهو يلهث بلعابٍ يتطاير على وجه سام المحتضر:
– "هل تعلمين أنني قتلتها؟ أنتِ جعلتِني أفعل! أنتِ من ورّطها!"

انتزع السكين بقسوة، ورأت مريم الدم يتلألأ على نصلها. بصق سام شيئًا من فمه، ففكّرت بيأس: *ابقَ معي، حبيبي، لا تذهب... ابقَ هنا...*

أمسك رستم ذقن سام ورفع رأسه قائلًا باحتقار:
– "لم أحبّ يومًا الصفقة مع تلك العاهرة." وأشار بالسكين نحو مريم. "أتساءل ما الذي أخبرتك به في إيطاليا؟ كانت تعمل مع بثينة. ربما سمعت عن وادي بردى. ربما بثينة أفشت أكثر مما يجب."

تحرك حول الكرسي حتى صار قرب مريم، وهمس في أذنها بنغمةٍ باردة:
– "هل قتلتِ بثينتي؟"

ارتجف صوتٌ جهوري وقال:
– "من الجاسوس؟"
ولم تعد مريم تعرف إن كان الصوت صوت **علي** أم **رستم** أم الله نفسه.

ارتعشت، ونظرت إلى علي، الغضب ينفلت منه كبركان. تذكّرت أولئك الفتية في الميليشيا، وتذكّرت **فيلفرانش**، وصورةٌ مرتخية في ذهنها تومض: تقف فوق الأخوين **حسن** وتطلق النار حتى يفرغ المخزن.

صرخت بهستيريا:
– "أيها الوغد يا علي! لم أفعل سوى التعاون! جلبتُ لك ما أردتَ، وهذا جزائي؟ لعنكما الله معًا، أنا—"

لكن السكين اخترقت جنبها، تهتز في داخلها بينما رستم يهمس نفس السؤال مرارًا:
– "هل قتلتِ بثينتي؟"

اصطدمت السكين بعظم ضلع، فدفعها بقوة حتى اخترقته. أرادت أن تحدّق في عينيه وتصرخ: "نعم، أنا قتلتها يا وحش!"

لكنها لم تستطع، واكتفت بالتحديق في النصل المغروس داخل جسدها، لا يظهر منه سوى المقبض اللامع. صرخ سام، عيناه تهتزان بجنون. حاولت أن تتشبث بهما كما كانت تفعل حين كانا معًا في الحب، لكن الصورة اهتزت، وسال شيء دافئ لزج على ساقها عندما سحب السكّين منها.

***

الصبي **علي** ممدّد على أرض غرفته، و**رستم** جاثم فوقه، يحاول غرس السكين في حلقه، لينهي ما لم يُنجَز، لينتقم لأبيه ولكلتا وأمه.

ثم جاء الجدّ، دفع رستم جانبًا، وانهال عليه ضربًا.

كان الشيخ قويًّا، رغم سنّه. جلس متعبًا بجانب السرير بعد أن كاد يختنق من الجهد، واحتضن **عليًا** بين ذراعيه بينما كان الأخير يبكي. أما **رستم** فكان ممدّدًا بلا وعي بجانبهما.

قال علي بصوتٍ متهدّج:

– "ذنبُ من، يا جدي؟ أخبرني، ذنبُ من؟"

فأجابه الشيخ بصوتٍ خافتٍ متعب:

– "ليس ذنبك، يا ولدي... ليس ذنبك."

***

سحب **رستم** السكين من جنب مريم ورفعها إلى عنقها.

اندفع **علي** نحوه.

سقط النصل أرضًا وهو يتراجع للخلف. ضربه عليّ في بطنه، ثم في رأسه حتى سُمِع طقطقة أذنٍ تتكسر. وقع رستم أرضًا. حاول النهوض، لكن عليّ التقط السكين وركله على صدره فارتطم بالأرض الباردة. جلس فوقه، وأخذ يضرب بمقبض السكين أنفه حتى تفجّر الدم. أعاد الكرة ثانية، فسمع طقطقة رطبة وصراخ رستم. ثم وجّه ضربة ثالثة، فتناثر الدم كضبابٍ أحمر على وجهه.

نظر في عيني أخيه، اللتين اتسعتا بجوعٍ للحياة، واليدان تتخبطان بحثًا عن السكين أو العين أو أي شيء. ثبّته عليّ في مكانه، حدّق في عينيه طويلًا، ثم غرز

النصل في عنقه بعمق، فقطع الشريان السباتي وشقّ العضلات حتى خبت نظرة **رستم**، وسكنت أطرافه، وخرج آخر أنفاسه.

تدحرج عليّ عن جثة أخيه وجلس على الأرض، يلهث.

كانت **مريم** صامتة الآن، رأسها مائل، و**سام** يصرخ بأنها تحتاج إلى المساعدة. انهار كرسيّه، فبدأ يزحف نحوها متألمًا.
نهض عليّ مترنحًا نحو الطاولة، بينما كان الأمريكي يصرخ ويزحف باتجاه **مريم** الشاحبة الوجه.

اقتحم أحد رجال **كنعان** الغرفة، يديه فوق رأسه، يتفقد الفوضى. نظر إلى جثة رستم، ثم مسح وجهه بيديه المرتجفتين.
أشعل عليّ سيجارة بصعوبة وقال:
- "أحضروا طبيبًا... حالًا."

***

زحف **سام** نحو مريم، يصرخ بها أن تبقى مستيقظة. كل نفسٍ يشبه شظية زجاجٍ في رئتيه. بالكاد كان قادرًا على تحريك عنقه، لكنه رأى جثة رستم ممددة، وعليّ يضغط بقميصه على جرح مريم، ورجلًا يدخل شيئًا إلى الغرفة وسط ضوءٍ باهت.

كانت رأس **مريم** متدلية، ووميض الحياة غاب عن عينيها.

صرخ بكل ما تبقى فيه من هواء:
- "مريم! مريم! مريم!"

رفعه أحدهم بعنف، فصرخ جسده كلّه وهو يُلقى على عربة. تلاشت غرفة السجن، شعر بالريح على وجهه، بالأضواء فوقه. رأى الخزنة في عقله... لم تُفتح بعد.
وللحظةٍ قصيرة رأى **مريم** إلى جانبه على نقالة، أحدهم بعيدًا هناك يصرخ، يمسك كيس محلولٍ في الهواء، والأنابيب تمتد من جسدها.

نظر في عينيها بحثاً عن أي أثرٍ... أي شيء.

ثم دُفِع إلى الممر... وابتعدوا به.

الفصل الثاني والخمسون

عاد **علي** إلى مكتبه وهو في حالة صدمة تامة، وقد تمزق قميصه الأبيض ذو الياقة، ذلك القميص الذي وجد حياةً ثانية حين استخدمته **مريم** رباطًا رديئًا لإيقاف النزيف. حتى **فولكوف** الذي لا تهزه العواصف فغر فاه دهشةً عندما مرّ **علي** بجانب مركز القيادة الروسي. في مكتبه، أزاح **علي** شظايا الزجاج عن كرسيه — بقايا مرور الطائرة الأمريكية المنخفض صباح ذلك اليوم — ثم شرع في تدخين ست سجائر متتالية بسرعة جنونية. وعندما هدأت يده، ارتدى قميصًا احتياطيًا يحتفظ به في درج مكتبه.

اتصل بـ **ليلى**.

صرخت:

– "أين أنت؟ أين أنت يا علي؟ عد إلى البيت حالًا!"

سمع بكاء التوأمين في الخلفية.

سألها:

– "هل أنتم بخير؟"

قالت:

– "نعم، الآن فقط. نحن في الخزانة. عد إلى المنزل."

قال بصوتٍ خافت:

– "رستم مات."

صرخت بدهشة:

– "مات؟ كيف؟ بالقصف؟"

– "حدث شيء في المكتب... فقد عقله... إنه رحل."

– "فقد عقله؟!"

– "سأشرح لاحقًا."

ارتعشت يده اليمنى. حاول أن يسحب سيجارة أخرى من العلبة، فسقطت على الأرض، التقطها بارتباك.

قال:

– "هل أنتم بأمان يا ليلى؟ أنتِ والأولاد؟"

– "نعم، لكن عد فورًا!"

– "سأعود... عليّ أن أفعل شيئًا أولًا."

صرخت:

– "عد إلى البيت يا علي!"

– "أحبك."

أغلق الهاتف وأشعل السيجارة.

وحين وصل إلى الفلتر، نهض ونظر من النافذة المحطمة نحو أعمدة الدخان المتصاعدة من **دمشق**، مصغيًا إلى عويل صفارات الإنذار. حاول أن يستوعب حجم الكارثة.

لقد قتل شقيقه، قائد **الحرس الجمهوري**.

ووعميلته **مريم** تحتضر في غرفة إسعاف مرتجلة في الطابق السفلي.

وعذّب ضابطًا من **CIA** بوحشية — وربما بنجاح — من أجل معلومات. وما زال الرجل أسيرًا لديه.

أما ميليشيا **باسل** فقد اجتاحت السفارة الأمريكية.

اهتز هاتفه، المتصل: **كنعان**.

– "ما الأمر؟"

– "نحن في مكتب **عطية**. وجدنا حقيبة وثائق بها قسم سري مخفي. بداخلها جوازات سفر أمريكية بأسماء مزيفة، تبدو رسمية جدًا، ورزم من النقود، وجهاز غريب. لا أعرف محتواه، لم أرَ مثله من قبل."

– "وماذا عن الحاسوب والهاتف؟"

– "رسائل نصية غريبة من أرقام أمريكية وأوروبية. على الأرجح رموز. الأمر نفسه في البريد الإلكتروني."
– "ألقوا القبض عليه. أحضروه إلى هنا وضعوه ـفي الحجز. سأتصل بالقصر لإبلاغهم."

نزل **علي** إلى الأسفل، فلاحظ نظرات الروس المرتابة والمليئة بالأسئلة ـفي وجوههم، لكنه لم يُعرهم اهتمامًا. لم يكن لديه وقت.
قال:
– "فولكوف، شغّل قناة الجزيرة."

أدار الروسي أحد أجهزة التلفاز. ظهرت على الشاشة لافتة *عاجل*، والرئيس الأمريكي يخاطب الصحافيين من **البيت الأبيض**. قال إن الولايات المتحدة تلقت معلومات مؤكدة تفيد بأن الحكومة السورية كانت تخطط لاستخدام أسلحة كيميائية، ولذلك — بصوتٍ صارم — أمر بضرب أهداف ـفي أنحاء **سوريا** لإيقاف الهجوم وإرسال رسالة إلى "الأسد المتوحش" بأن مثل هذه الفظائع لن تُقبل. وأضاف أن الضربات نجحت ـفي منع الهجوم الكيميائي. ثم فتح الباب للأسئلة. فسأله أحد المراسلين، ملاحظًا أن حصيلة الحرب الأهلية بلغت مئات الآلاف، لماذا تدخلت أمريكا الآن لمنع هجوم السارين، ولم تفعل شيئًا حيال المجازر السابقة بالأسلحة التقليدية؟ تململ الرئيس خلف المنصة. أطفأ **علي** التلفاز.

كان وجه **فولكوف** يعج بالأسئلة، لكن **علي** استدار وخرج دون أن ينطق. عاد إلى مكتبه. عليه أن يعود إلى بيته. والريح تعصف من النوافذ المحطمة خلفه. راوده خاطر بالفرار... أن يقود أسرته إلى **الأردن**.
لكن الطرق الآن مليئة بنقاط التفتيش بعد الغارات. والمطار أيضًا. لديه وثائق رسمية، ربما تنجح الخطة، وربما لا. الهرب سيجعله يبدو قاتلًا — وهو بالفعل كذلك. سيعتقل **المخابرات** والدي **ليلى** وأخاها، وربما يهددونهم بالعنف لإجباره على العودة. هكذا يشدّك النظام إلى عرشه بالحديد والنار.

نزل إلى الأسفل وفتح خزانة الملفات. سحب الدرج الأعلى، وأخرج مجلدًا بعنوان «**مستوى مياه بحيرة الأسد – تقارير وتحليلات ١٩٨٨–١٩٩٢**»، واستخرج

منه شريط فيديو وصورًا لجثتين: **ڤاليري أوينز** وعميلها **مروان غزالي**. أخرج قلمًا وكتب رقمًا وعبارة قصيرة على قصاصة ورق، ووضعها داخل الملف. نظر إلى أعين الموتى في الصور لحظةً، ثم اتصل بالطبيب وهو يصعد الدرج.
– "هل الأمريكي واعٍ؟"
– "نعم، حالته سيئة لكنه قادر على الكلام. لا أنصح بالتحقيق معه."
– "أفهم، سأراه الآن."

***

هرب الأطباء من الغرفة حين دخل **علي**، تاركينه مع **صامويل**. كان شق طويل من الغرز يمتد على عنق الأمريكي وخده، وفكه ملفوف بالضمادات، وقد غُلِّفت قدمه المحطمة بجبيرة جديدة.
استلقى الأمريكي على ظهره، فتح عينيه بصعوبة وقال:
– "هل ماتت مريم؟"
– "لا أعلم... أنا هنا معك."

أراد **علي** أن يدخّن، لكنه تراجع. الغرفة ضيقة، ولم يكن واثقًا أن رئتي الأمريكي تحتملان. فمسّ ندبته هو بيده، وقال:
– "سيكون لدينا أنا وأنت الآن العلامة نفسها."

تطلع **صامويل** إلى السقف صامتًا.
قال **علي**:
– "حدثت اليوم أمور غريبة يا صامويل، لم أعش صباحًا كهذا قط. أريد فقط أن أعود إلى عائلتي، وأظنك ترغب بالأمر نفسه. لذا عندي اقتراح."

حاول الأمريكي أن يلتفت إليه، تأوه، ثم عاد لينظر إلى السقف منصتًا.
قال **علي**:
– "بوسعي أن أبقيك هنا إلى ما لا نهاية، حتى تتعافى، ثم أضعك مجددًا تحت الكهرباء لأتحقق من كل شيء. أصدقاؤنا في **حزب الله** لهم خبرة في استجواب

الأمريكيين لسنوات طويلة. احتجزوا رئيس محطتكم في بيروت، **ويليام باكلي**[37]، أعوامًا، فقط ليتأكدوا أنهم حصلوا على كل شيء... ولإرسال رسالة بالطبع. أستطيع أن أتعلم منك أكثر إن عدت إلى المعتقل."

صمت الأمريكي.

تابع **علي**:

– "رجالي يعتقلون **جميل عطية** الآن."

ولا كلمة من الآخر.

– "هذا الصباح، قصفت حكومتك **سوريا** لمنع هجوم كيميائي مزعوم. استُهدفت قواعد عدة، وخطة هجومنا بالسارين فشلت."

حاول الأمريكي أن يتكلم بصوتٍ مبحوح:

– "لماذا تخبرني بهذا؟"

قال **علي** وهو يحدق في الفراغ:

– "تعرف ماذا أدركت؟ أنني لم أعد أهتم بهذه الحكومة. لكنني أهتم بعائلتي، فهي كل ما أملك. أتدري ما الذي فعله هذا النظام؟ لقد ربط مصير أمثالي بمصيره. عائلتي رهينة الدولة. في بلادكم، تملكون حرية... ما الكلمة؟ أجـ... أجـ..."

قال الأمريكي بصعوبة:

– "Agency."

– "بالضبط، Agency حرية الاختيار. أنتم أحرار منذ زمن طويل، تأخذون ذلك كأمرٍ مسلّم به. ربما تظن أن لديّ الحرية نفسها هنا في سوريا، لكنني لا أملكها. أنا عبد، مثل غيري، وإن كنت عبدًا ذا رتبة أعلى. لكنني لا أريد لعائلتي أن تُباد، ولا أريد أن تطاردني حكومتكم بعد الآن. لذلك أود أن أقدّم أمرين."

وضع المجلد على السرير.

قال الأمريكي:

---

[37] **ويليام باكلي :(William Buckley)** كان رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في بيروت . في مارس 1984، تم اختطافه من قبل الجهاد الإسلامي، وهي جماعة مرتبطة بحزب الله، حيث تعرض للتعذيب وتوفي أثناء الأسر.

- "ما الأول؟"
- "شريط فيديو لاستجواب **ڤاليري أوينز** وعميلها **مروان غزالي**. كلاهما، كما تعلم، ماتا. في الشريط سترى أنني حاولت التدخل لإنقاذها أثناء التحقيق، لكنني فشلت. أخي **رستم** أمسك بي بينما أحد رجاله يقطع قمة رأسها. أجبروني بعدها على كتابة تقرير مزيف يقول إنها تناولت جرعة زائدة من المسكنات."

أخرج **علي** صورة **ڤاليري أوينز** من المجلد ووضعها في يد الأمريكي. نظر إليها هذا الأخير بتمعّن، كأنه يعرفها من قبل.

قال:
- "كيف أعرف أن هذا ليس مفبركًا؟"
- "أتظن أنني أعددت خطة بهذا التعقيد اليوم فقط لأخدعك بشريط؟ في سجلاتكم أو في ملفات **الموساد** صور أو تسجيلات له، يمكنكم التأكد من أن الشخص هو نفسه الذي أقول."
- "اسمه؟"
- "اللواء **باسل مخلوف**."

اقترب **علي** من **صامويل**، ووضع يديه على حافة السرير:
- "أعلم أنك لا تتحدث باسم حكومتك، لا الآن على الأقل، لكنني أريد منك وعدًا شخصيًا: عندما تعود، أخبر رؤساءك أنني قدمت هذه المعلومات بحسن نية. أريد أن يؤخذ ذلك بعين الاعتبار عندما تُختار أهداف القصف القادمة... أو إذا اتصلت بك في الأيام الأخيرة لهذا النظام، أطلب المساعدة. هل فهمنا بعضنا؟"

لم يُجب الأمريكي.

قال بعد لحظة:
- "وماذا ستقول عن أخيك؟"
- "الحقيقة. أنه جلب وكيلتي **مريم** إلى غرفة التحقيق ليستخدمها ضدك، ففقد السيطرة، وقتلته قبل أن يقتلها."

هز الأمريكي رأسه وقال:

- "شيئان... قلت إنك ستعرض أمرين قبل أن تطلق سراحي. الشريط الأول عرفناه، فما الثاني؟"

الفصل الثالث والخمسون

في **جزيرة هيدرا اليونانية**، كانت عرّافة عجوز قد أرت **آرتميس أفروديت بروكتر** — وهي في التاسعة من عمرها آنذاك — مشهد موتها بنفسها.

قالت بروكتر للمحطة بأكملها بينما دوى وابلٌ ثانٍ من قذائف الـRPG على مبنى السفارة في الطابق العلوي:
– "وكان موتي في الرؤية أكثر دمويةً من هذا اللعنة!"

قبل نصف ساعة فقط كانت حافلات **الشبيحة** قد وصلت إلى الساحة، إيذانًا بمظاهرة أخرى وربما ببعض أعمال التخريب أو اقتحام رمزي لمجمع السفارة. لكن **بروكتر** أدركت الآن أنهم لم يرسلوا غوغاء، بل **قوة اقتحام** حقيقية عبرت الجدران، وأطلقت النار على جنديين من المارينز عند المدخل الغربي، ثم فجّرت الأبواب باستخدام **سي–٤** أو لغم أرضي أو ما شابه ذلك. لم تر المشهد، لكنها سمعت النداء المرتبك من موظف الأمن الدبلوماسي — ذاك الذي لم تتذكر اسمه أبدًا — ثم جاءت الكلمة المرعبة: غزو. كانت الميليشيات تزحف على المجمع كأسراب الحشرات.

صرخت **بروكتر** تأمر ببدء **المرحلة الثالثة من التدمير** (إخلاء الأفراد والدفاع الذاتي للضباط). مزّقوا الوثائق، وأذابوا الأقراص الصلبة وأجهزة الاتصال في آلات التدمير الممزوجة بالحمض. وبينما كانت الشفرات تلتهم كل شيء، أمسكت **بروكتر** الهاتف واتصلت بـ **برادلي**:
– "إد، نحتاج إلى كتيبة كاملة، خيول، مروحيات، أي شيء! هؤلاء المجانين سيذبحوننا!"
رفعت الهاتف ليصغي إلى صوت الرصاص والانفجارات، ثم أغلقت الخط.

تقدمت نحو شاشات المراقبة قرب مكتب الدعم. كانت تبث لقطات من الدوائر المغلقة داخل المجمع. شاهدت جنود المارينز يطلقون النار على الميليشيا في ساحة المركبات، ورجال الميليشيا يركضون نحو مكتب السفير عبر بابٍ مخلوع في مبنى السفارة، وموظفي وزارة الخارجية مع جنودٍ آخرين يصعدون إلى الطابق الثالث للاحتماء في غرفة المراقبة العليا. رجل سوري يرتدي زيّ **لواء في الحرس الجمهوري** كان يجول في الطابق الثاني حاملاً بندقية قتالية وسكيناً ضخمًا. فوضى مطلقة.

قالت **بروكتر** بمرارة وهي تحدق في شاشات المراقبة:

– "لقد باغتونا ونحن بلا دفاع !"

نظرت حولها، تعدّ ضباطها.

– "أين اللعينة زيلدا؟"

اهتزت الجدران بوابلٍ جديد من القذائف.

قال أحدهم:

– "كانت في الأعلى، تشرح للسفير في غرفة الاتصالات السرية."

صرخت:

– "تبًّا!"

كان الجميع يحمل سلاحًا، متحلّقين حولها. تابعت تحدّق في الشاشة:

– "ما الذي يفعله لواء من الحرس الجمهوري هنا بحق الجحيم؟!"

رأت الرجل يشهر سكينه ويدخل مكتبًا. على الشاشة الأخرى، ظهر اثنان من رجال الميليشيا ينزلان السلم المؤدي إلى الممر خارج المحطة، يتقدمان بحذر، وأسلحتهما مرفوعة.

قالت **بروكتر**:

– "يكفينا هذا الهراء."

تناولت بندقيتها **الموسبرغ**، فتحت باب القبو، اندفعت إلى الممر، وأطلقت طلقتين على الرجلين، ثم تراجعت بسرعة إلى الداخل. سمعت أنيناً وصرخت بالعربية بأنها ستمنحهم موتاً سريعًا إن أخبروها من القائد. تكرر الأنين. أعادت

عرضها.
جاءها الجواب المتقطع:
– "اللواء... **باسل مخلوف**... هو من أطلق النار على الحارس... نحن لم... نكن... نـ..."

ثم غرغرة وصمت.
تمتمت:
– "اللعنة!"

صاح أحدهم:
– "القائدة، زيلدا تحاول الهرب!"

التفتت نحو الشاشات، فرأت **زيلدا** تندفع خارجة من غرفة الاتصالات، وفي الجهة المقابلة خرج ذلك الضابط، **باسل**، من مكتب السفير. أطلق النار من بندقيته نحو المحللة الهاربة. التقطت كاميرا أخرى لحظة سقوطها على الدرج. ركض **باسل** نحوها.

رأت **بروكتر** أنه يحمل فروة رأسٍ حمراء بيضاء. عندها انفجر في ذهنها مشهد الانفجار القديم في قاعدة **خوست** بأفغانستان. أعادت تعبئة البندقية، وانطلقت نحو **زيلدا**.

استدارت عند الزاوية فاصطدمت بميليشياوي ضخم. صوبت البندقية نحو عينيه الهائلتين، وضغطت الزناد، فتناثر رأسه في طلقة واحدة. كانت **زيلدا** ممددة على بطنها عند أسفل الدرج.
قالت وهي تجرّها:
– "سأسحبك على بطنك يا زي، فقط أخبريني إن شعرتِ بأنك ستفقدين الوعي من الألم."

أطلقت وابلًا آخر على ظلٍّ أعلى السلم، ثم أمسكت **زيلدا** من كتفها وسحبتها إلى داخل المحطة بينما طلقات الشظايا تتناثر على الجدران من حولها. سمعت صوتًا

غريبًا منخفضًا يقول بالعربية إن هؤلاء "الإخوان" نساءٌ فاسدات بلا حجاب، ودعا لتعزيزات. *إخوان؟ ما هذا الهراء؟*

نظرت إلى وجه **زيلدا** الشاحب، وساقيها الممزقتين.
صرخت:
– "زيلدا! تسمعينني؟"

دوّى صوت حذاء في الممر، استدارت بسرعة وأطلقت النار، فبترت نصف ساق رجلٍ كان يصوّب قاذف RPG نحو المحطة. سقط أرضًا.
صرخت:
– "الآن يستخدمون الأسلحة الثقيلة!"

ثم نظرت إلى **زيلدا** الساكنة.
– "اضغطوا على جرحها، اربطوا شيئًا حول ساقيها بسرعة!"

بدأ أحد الموظفين بلفّ قطعة قماش حول أطرافها الممزقة.
– "تماسكي يا زي!"

استدارت **بروكتر** مرة أخرى، أطلقت النار على رجل آخر يهبط الممر، فسقط أمام الباب يصرخ، فدفعت فوهة البندقية إلى صدغه وضغطت الزناد، ثم عادت زاحفة إلى الداخل.

سمعت الصوت الغريب مجددًا — صوت **باسل** — فانخفضت، ثم تدحرجت إلى الممر فرأته ما زال ممسكًا بتلك الفروة. أطلقت عليه، فسقط على بطنه، محاولًا الزحف نحو الدرج. أطلقت مجددًا، وسمعت صوت الشظايا تستقر في وركه الأيمن، فصرخ صرخةً مرضية، بينما الرصاص يمرّ بمحاذاة وجهها.

تذكرت نبوءة العرّافة اليونانية: مكان موتها وزمانه ووحشيته. فكّرت أن تركض في الممر، فقد شعرت أنها **خارج نطاق الموت الآن**. لكنها لم تستطع أن تترك **زيلدا**.
قالت:
– "أصبتُه في مؤخرته يا زي! مباشرةً! تماسكي، عزيزتي."

اصطدمت قذيفة RPG بالحمّام المهدّم خارج المحطة. استدارت عن اللهيب، ثم انتصبت واقفة، قصيرةً ولكن شامخة.

صرخت بالعربية:

- "لقد رأيت موتي، وهذا ليس هو!"

وأضافت بصوتٍ يجلجل في أرجاء المكان:

- "أنا، آرتميس أفروديت بروكتر، **ملاك الموت**!"

الفصل الرابع والخمسون

لم يتذكر **سام** الكثير من الطريق إلى السفارة، سوى أن **علي** جلس إلى جواره في المقعد الخلفي يصيح في رجاله عبر جهاز اللاسلكي. لم يعد يشعر بقدمه، ورؤيته كانت مضطربة، ألوان وأشكال تتراقص أمامه كنقاطٍ دائرية لا تلبث أن تختفي في ضبابٍ يعود من جديد.

أدرك أن شيئًا ما خطأ عندما وصلوا إلى السفارة: صراخٌ من بعيد، روائح دخان خانقة، وصوت **علي** يأمره بالبقاء في السيارة. لم يكن يستطيع السير على أي حال. انبعثت أصواتٌ جديدة من اللاسلكي، وأصدر **علي** أوامر لمجموعةٍ من جنوده خارج السيارة.

في قبو مكتب الأمن، كان **علي** قد أخبره أن بادرة حسن النية الثانية ستكون تأمين نقله بأمان إلى السفارة، وأنه من غير الحكمة أن يرافقه أحدٌ غيره.

حاول **سام** أن يرفع جسده قليلًا لينظر من النافذة نحو ضوء الشمس. *أي مدخل هنا*؟ الدوّار. رأى حافلات، وجموعًا من الناس، وسمع طلقات رشاشاتٍ داخل المجمع. ثم دوّى صوت مسدس. قريب. ثم صياح. *أهكذا ستكون النهاية*؟ تمزقني *جموع غاضبة خارج السفارة*؟ حاول النهوض، لكن قدمه لم تتحرك. طلقٌ آخر، أقرب هذه المرة.

صوتٌ مرتفع. إطلاق نار. مزيد من الصراخ.

فتح **علي** الباب. شعر **سام** بيدٍ تضغط على كتفه، ثم بأيدٍ أخرى ترفعه من تحت ذراعيه. شخصٌ ما — ربما الطبيب؟ — وخز إبرة في جانبه. كانت حادة في البداية، ثم سرت في عروقه دفعة دفءٍ مهدئة. كانوا يحملونه. الأرض تتحرك تحته —

حجارة وحصى ثم أرضيات خشبية تمرّ كأنها تندفع بسرعة. التفت برأسه نحو اليسار فرأى **علي**، وشعر كأنه يسقط في هاوية، كما في كوابيس الحُمّى. أراد فقط دفءَ الشمس على وجهه. أراد **مريم**.

أغمض عينيه ليراها في خياله. وعندما فتحهما، رأى ظلًا يقف فوقه. شيئًا فشيئًا تميّزت الملامح: شعرٌ أسود منكوش، وهيئة تمسك بعصا أو بندقية. حاول أن يتحرك، فلم يقدر.

انحنى الظل وقال بصوتٍ مبحوح:

- "جاغرز... حان وقت ظهورك أخيرًا."

الفصل الخامس والخمسون

بعد ستة أسابيع

كانت **الكاميرا ذات الرؤية الليلية** تركز ببطء على سيارة **باجيرو** متوقفة على الرصيف. الشارع خالٍ تمامًا، إلا من **شاب وفتاة** يسيران في نزهةٍ مسائيةٍ هادئة.

سعل الرجل المشغل للكاميرا، فاهتزت العدسة قليلًا. ثم أعادها نحو المبنى الحجري المتسخ. أربعة حراسٍ يغمرهم ضوء الصوديوم القاسي يتجولون حول **غرفة الحراسة**، يضحكون ويتبادلون النكات.

قال أحدهم:

– "أترى سيقضي ليلته هناك؟"

ثم سُمع سعالٌ آخر من مشغل الكاميرا الصامت.

صدر صوتٌ خافت عبر الجهاز:

– "هنا غارتنر من مكتب المستشار القانوني العام، ما زلتم تنتظرون؟"

أجابت **بروكتر**:

– "نعم، حفلة مبيت هناك فيما يبدو."

قال **برادلي** بحدة:

– "اصمتي يا بروكتر."

ثم أضاف غارتنر:

– "لقد فحصنا **MOLLY** مجددًا باستخدام تسجيلات الفيديو من الأسبوع الماضي ومكتبة الصور. يبدو أن الخوارزمية تعمل الآن. لا نعرف لماذا تعطلت سابقًا."

قال برادلي:

– "نسخ."

ركزت الكاميرا على مدخل **مكتب الأمن**.

قال المشغل:

– "شخصٌ ما يخرج الآن."

وانتقل البث ليركز على شخصيةٍ تخرج من الباب.

***

كانت الأسابيع التي أعقبت **تدمير السفارة الأمريكية** قد دفعت وكالة المخابرات المركزية إلى حالة استنفارٍ كامل. أنشأ المدير **قوة مهام خاصة بسوريا**، وجنّد – كما سمع **سام** – أكثر من مئتي محللٍ ومشغلٍ وتقنيٍ ولغويٍ ومحللِ أهداف. وقد أدى فقدان محطة دمشق إلى تأسيس خليةٍ جديدة للـCIA في **عمّان**، وُضعت **بروكتر** على رأسها.

وأثناء تعافي **سام** من العملية الجراحية في قدمه بألمانيا، سمع عبر قنوات الإشاعة الداخلية في الوكالة أن فريق بروكتر كُلّف بتعقب الأطراف المسؤولة عن الفوضى في دمشق. أما **برادلي** فقد أبلغه بالأرقام القاتمة في مكالمةٍ مقتضبة: أربعة عشر أمريكيا قُتلوا، بينهم ستة من مشاة البحرية، والملحق العسكري، وسبعة من موظفي الخارجية. كما لقي اثنا عشر من العاملين السوريين في الخدمات الخارجية حتفهم.

ستةٌ وعشرون أمريكيا آخرون نقلوا إلى مستشفى **لانشتول** العسكري، من بينهم أربعة ضباطٍ من الـCIA، كانت **زيلدا** بينهم.

أدرك **سام** وهو يجري الحسابات في ذهنه أن ذلك اليوم كان **أشد الأيام دمويةً للوجود الأمريكي في الخارج** منذ تفجير ثكنات المارينز في بيروت عام 1983[38].

فسأل:

– "هل نعرف من قاد الهجوم؟"

[38] هو هجوم انتحاري بشاحنة مفخخة وقع في 23 أكتوبر 1983، واستهدف مقر قوات مشاة البحرية الأمريكية المتواجدة ضمن قوة حفظ السلام متعددة الجنسيات خلال الحرب الأهلية اللبنانية .أدى الهجوم إلى مقتل 241 جنديًا أمريكيًا، ويُعدّ أكثر يوم دموية في تاريخ سلاح المارينز منذ معركة إيو جيما في الحرب العالمية الثانية.

لم يُبدِ برادلي رغبة في الحديث. سمع سام صوت الهاتف يتبدل بين أذني الرجل العجوز، ثم سعالًا مكتومًا، وصمتًا طويلًا.

قال برادلي أخيرًا:

– "ذلك المعتوه الذي قتل فال... **الجنرال باسل مخلوف**. سلخ فروة رأس بعضٍ من رجالنا أثناء اقتحام السفارة. وتقول بروكتر إنه من أطلق النار أيضًا على زيلدا. نحن نعمل على تعقّب الوغد. هذا كل ما أستطيع قوله الآن."

ثم سعل مجددًا، وفي تلك اللحظة من الصمت المرهق بدأ عقل **سام** يدرك **عمق الحفرة التي سقط فيها**.

في النهاية، منحوه أسبوعًا في المستشفى ليغلي في عزلته قبل أن تبدأ **العاصفة البيروقراطية**. استقبله برادلي خلال رحلته الجوية، عارضًا عليه شقةً مفروشة في **تايسون كورنر** للأشهر القادمة، وأبلغه أنه وُضع في إجازةٍ إدارية مع تعليق جميع صلاحياته مؤقتًا. لم يكن برادلي غاضبًا؛ بدا فقط حزينًا، كمن يُضطر لقتل كلبٍ مخلصٍ عضّ طفل الجيران.

بنى المحققون ملفًا دقيقًا وشاملًا للتحقيق الذي ستجريه **لجنة المراجعة الداخلية**. سينظر المجلس في مصيره القريب:

السيناريو الأفضل – تبرئته من الشبهات الاستخبارية وإلصاقه بمكتبٍ في لانغلي لعامٍ أو عامين.

الأسوأ – فصله من الخدمة، وسحب شاراته الأمنية، ومغادرة المقر إلى **حياةٍ مدنيةٍ قاتمة**.

كانت الأسابيع في لانغلي **قاسية ومهينة**. أربع اختباراتٍ نفسية، وفحوصٌ يومية مع أطباء القسم الطبي، وثلاثة فحوصٍ بدنية، ثم **استجوابٌ مطوّل** دام ثلاثة أيام متواصلة مع محققين متناوبين، عازمين على بناء تسلسلٍ دقيقٍ لكل ساعةٍ من أيامه الأخيرة في دمشق. سلّم كل أجهزته – الشخصية والمهنية – واستُجوب حول كل طريقٍ سريٍ استخدمه، وكل تقريرٍ كتبه منذ عمله في القاهرة.

ثم جاءت **اختبارات جهاز كشف الكذب**، امتدادًا لاستجوابات ٍ قاسية وصاخبة.
لكنه أجاب الجميع **بالحقيقة**.
طرحوا الأسئلة بصيغةٍ تسمح بإجاباتٍ بـ"نعم" أو "لا".
سألوه بأسلوبٍ فجٍ ومهين عن تفاصيل علاقته بـ **مريم حداد**:

– "هل كانت لك علاقة جنسية مع عميلتك ـفي فرنسا ودمشق وإيطاليا؟"
ثم عن ملابسات إطلاق سراحه من سجن **علي حسن** وظهوره ـفي السفارة المحطمة:

– "هل سلّمت أي معلوماتٍ سرية للجنرال علي حسن غير تلك الواردة ـفي الأسماء ونقاط الإخفاء ودور الأمان؟"
وسألوه عن **جريمة القتل الثلاثية**:

– "هل أخبرتك مريم أنها جاءت إلى السفارة لتسليم معلوماتٍ خارج قناتها مع علي حسن؟"

– "هل مريم حداد هي من قتلت رجال الميليشيا الثلاثة؟"

بعد أسبوعين، ماتت زيلدا.
كانت على أجهزة الإنعاش ـفي لانشتول، ثم نُقلت إلى واشنطن للجنازة. أوقفت إدارة مكافحة التجسس استجواباته ليحضر المراسم.

كان **برادلي** و**بروكتر** هناك.

تذكّر سام زيلدا وهي تصعد إلى سيارة البروكتر ـفي مطار دمشق الدولي، مفعمةً بالحيوية، متحمسةً لتفكيك شبكة مشتريات القصر.

شعر بالغثيان حين تذكر البرقية التي وقّعها لتمديد مهمتها:
"تطلب المحطة تمديد فترة عملها لثلاثة أشهر لدعم عمليات استخباراتية حيوية جارية." كلماتٌ باردةٌ كانت السبب ـفي مقتل زيلدا... و**قال**.

حاول أن يلحق ببروكتر بعد الجنازة، لكنها غادرت قبل أن يصل إليها.

في تلك الليلة، دعاه **برادلي** للعشاء ـفي مزرعته.
قال مبتسمًا بحزن:

- "أول عشاءٍ لي في البيت منذ ثلاثة أسابيع، وأختار أن أقضيه معك. يا لي من أحمق."

ساعدته **أنجيلا** زوجته على النزول من السيارة، واحتضنت سام بحرارةٍ باكية، ثم شوَت البرغر وتركت لهما صندوقًا من بيرة **كورس** على الشرفة. جلسا يشاهدان غروب الصيف على جبال **بلو ريدج** في صمتٍ تام.

فتح برادلي علبته الثانية، وبدت على وجهه **سنوات أربع إضافية** من الشيخوخة منذ دمشق.
قال بنبرةٍ منخفضة:
- "هذه المحادثة لم تحدث، مفهوم؟ سيحرق الأمن مكتبي إن علم بها."
هز سام رأسه موافقًا.

قال برادلي:
- "لم يرد أي اتصالٍ من **أثينا** منذ قبو علي. لكن هناك إجماعًا متزايدًا على أنها لم تخدعنا - على الأقل ليس طويلًا. قصتها عن ابنة عمها **رزان** تأكدت من وثائقٍ مسروقة. وقد أطلقوا سراحها، بالمناسبة."

ابتسم سام ابتسامةً باهتة عند سماع الخبر، ثم التفت إلى برادلي الذي كان بالنسبة له **الأب الذي خذله**. شعر بالخجل أكثر من أي شيء.
قال بصوتٍ خافت:
- "آسف يا إد... لقد أفسدت الأمر معها. أرجو أن تسامحني."
ابتسم برادلي:
- "أستطيع، وقد فعلت. لن أوبخك بعد اعترافك. لقد تحملت مسؤولية خطئك."

انحنى سام ليمسك بعلبة بيرة أخرى من المبرد، تأوه قليلًا من الألم في قدمه، ثم جلس وفتحها.
شربا في صمتٍ بينما غابت الشمس خلف الجبال.

قال برادلي أخيرًا:
- "نظام الاتصال الذي زودنا به **أثينا** ما زال لغزًا. فحصت وكالة الاستطلاع الوطني

القمر الصناعي ووجدت شيئًا يشبه البرمجيات الخبيثة. التفاصيل غامضة، لكننا نقلنا كل الأصول ونراقب الموقف عن كثب. من المحتمل أن يكون علي والإيرانيون قد سرقوا أسابيع من بيانات الاتصالات المشفرة. نعيد تحليلها لنعرف ما إذا تمكنوا من تحديد هويات عملائنا. قد نضطر لإخراج بعضهم إن ثبت أنهم احترقوا."

سأله سام:

- "كم من الأصول لديكم هناك؟"

قال برادلي:

- "أربعة، بدون **أثينا**."

تمتم سام:

- "فوضى كاملة."

قال برادلي:

- "نعم. ليتنا عرفنا بالأمر في إيطاليا، كنا أنقذناها."

أسند سام رأسه إلى كفيه، فوضع برادلي يده على كتفه. بقيا هكذا لدقائق قبل أن يرفع سام نظره نحو الأفق.

قال برادلي:

- "مجلس المراجعة ربما يُعقد في عطلة الأعياد. اختباراتك جيدة، لكن ستُعاد أخرى. أظنهم سيسحبون تهمة التجسس، لا يعتقدون أنك تكذب، وهذا جيد لمستقبلك. رأيت مثل هذه القضايا كثيرًا، وكلها تُوزن بميزانٍ دقيق: في كفةٍ، علاقتك العاطفية بعميلةٍ قدّمت لاحقًا جهاز اتصالاتٍ للعدو؛ وفي الكفة الأخرى، اعترافها وتعاونها الصادق، وأفعالكما البطولية في دمشق يومي الثامن عشر والتاسع عشر من يوليو."

أنهى برادلي بكرته ورماها قائلًا:

- "هكذا أراها، يا سام. إدارتك لقضية **أثينا** قادت إلى عمليةٍ عسكريةٍ أمريكية أوقفت هجومًا كارثيًا. أنقذتما آلاف الأرواح. هذا سيُكتب لك بوضوح أمام المجلس. التهمة الكبرى هي أنك سلّمت نفسك، وعلاقتك بها... هل جعلتك تلك العلاقة أكثر ضعفًا أمام علي؟ هل قلت له ما لا تتذكره الآن؟"

قال سام:

– "لو أني هربت واعترفت مريم بـ(عطية)، لما صدقها علي قط بشأن معلومات وادي بردى. كانوا سيعذبونها حتى تعترف بكل شيء."

هز برادلي رأسه:

– "أتفهم ذلك. لكن لا أحد يعلم كيف سينتهي اجتماع المجلس."

سأله سام:

– "وما تخمينك؟"

أجاب:

– "فترة اختبار سنتين في المقر. لكن الاحتمال متساوٍ."

قال سام:

– "والاحتمال الثاني؟"

قال برادلي:

– "أن يفصلوك."

أومأ سام، وابتلع آخر ما تبقى من بيره دفعة واحدة، مدركًا أنه لم يعد يكترث بشيء ما دامت **مريم** حية.

قال برادلي بعد لحظة:

– "هناك أمرٌ آخر. انتظر هنا."

دخل إلى المنزل، ونزل إلى القبو، ثم عاد بورقةٍ صغيرة. جلس، فتح علبة بيرةٍ جديدة، مسح ذقنه الخشن، وهمّ بالكلام، ثم توقف مترددًا كأنه يفكر في مدى صواب ما سيفعله.

قال:

– "أنت في إجازةٍ إدارية، لذا ما سأقوله ليس قانونيًا... لكن اللعنة، أحتاج مساعدتك."

مد له الورقة المطوية. أخذها سام، شمّ رائحة الدخان والرماد. آخر مرة رآها كانت في **قبو علي**، حين كان تحت مهدئاتٍ ثقيلة. أحس بالغثيان من مجرد لمسها.

ابتسم برادلي ابتسامةً متعبة وقال:

– "قد لا تتذكر، لكن علي دسّ هذه الورقة داخل الشريط المصوَّر الذي أعطاك إياه قبل أن يعيدك إلى السفارة. الفيديو يؤكد روايته: **الجنرال باسل مخلوف** – تحت أنظار شقيقه الراحل **رستم حسن** – هو من قتل **ڤال** ومروان غزالي أثناء الاستجواب."

سأله سام:

– "وماذا كان علي يفعل حينها؟"

قال برادلي:

– "الغريب أنه حاول منعه، حسب ما يبدو في الشريط. لكن أخاه رستم أوقفه، وترك باسل يسلخ فروة رأس فال."

فتح سام الورقة، فرأى **رقم هاتفٍ سوري** وعبارةً مكتوبة بالعربية، ثم طواها.

قال برادلي:

– "لم نحصل بعد على إذنٍ بالاغتيال، لكن أتوقع أن يُصدر خلال أسبوع. باسل ملوثٌ بالدماء، مسؤول عن مقتل خمسة عشر أمريكيا بينهم زيلدا و ڤال. المشكلة أننا لا نستطيع العثور عليه."

قال سام:

– "الرئيس لا يريد قصف دمشق مجددًا؟"

أجاب برادلي:

– "باسل اختفى. لا اتصالات، لا ظهور في المكتب، هجر فيلته. شبحٌ تمامًا. لا نعرف حتى أين نوجّه القنابل."

قال سام:

– "كنت سأختبئ أنا أيضًا لو قتلت حفنةً من الأمريكيين."

قال برادلي:

– "انظر، أنت أكثر من يعرف علي حسن في الحكومة الأمريكية."

قال سام:

– "وتريد أن تعرف إن كنت أعتقد أنه سيساعدنا في العثور على باسل."

قال برادلي:

- "بالضبط. ما رأيك؟ أنت قلت إن علي متردد في ولائه للنظام، وقد سلّمك شريطاً يضع هدفاً ضخمًا على رأس باسل."

قال سام:

- "أخبرني علي أنه يريد اعتباراتٍ من حكومتنا حين نختار أهداف القصف في المستقبل."

قال برادلي:

- "أتظن أنه سيساعدنا في مقابل تلك الاعتبارات... لو طلبتَ منه أنت ذلك؟"

علي. نظر سام إلى قدمه المترهلة، وتذكّر الكهرباء التي مزّقته وهو في قبضة عليّ يبحث عن اسم، ثم تذكّر ابتسامته تلك الليلة في المطعم مع **زيلدا**، ابتسامة طيبة نصفها إنسانية. تذكّر أيضًا كلمات عليّ عن النظام قبل أن يطلق سراحه، والكراهية التي اشتعلت في عينيه عندما نطق اسم **باسل مخلوف**. قال سام بصوتٍ خافت:

- "عليّ رجل معقّد."

قال إد وهو يلقي نظرة على قدمه:

- "هو كذلك فعلًا."

كانت أسراب البعوض تنقضّ على أضواء الشرفة، بينما انتظر برادلي أن يتابع سام حديثه.

قال سام:

- "هل تتبّعتم الرقم المكتوب على هذه الورقة؟"

أجابه إد:

- "نعم. إنه مكتب عليّ."

- "وماذا عن وضعي الإداري؟ ما زلت موقوفاً، ووصولي للنظام مجمّد."

قال إد بثبات:

- "أريدك أن تعمل على العملية مع **بروكتر**، وليذهب الإيقاف الإداري إلى الجحيم.

بروكتر موافقة. لن نخبر أحدًا. سأهتم بإعادة تفعيل صلاحياتك مؤقتًا. ستبدأ من لانغلي، ثم تنتقل إلى مكتب بروكتر الجديد في عمّان. هذا طبعًا إن وافق الرئيس على التفويض الجديد."

رمقه سام بنظرة حادة، وقال وهو يزفر:
- "إد، أشكرك على ذلك، لكن بحق الله، توقف عن التحديق في قدمي اللعينة! سأكون بخير. وأقسم أني لا أرغب في شيء أكثر من إنهاء هذه العملية. أنا موافق."

أنهى سام علبته الثالثة من الجعة، سحقها بيده، ورمى نظرة صلبة على برادلي. كان يريد العملية، لكنه لم يظن أنها ستقرّبه من **مريم**، المرأة التي أحبها أكثر من أي شيء، والتي اختفت في قلب دمشق — ميتة، أو أسيرة، أو صامتة. آخر ما شوهدت عليه كان فوق نقالة، والسكين مغروس في جنبها. وككل مرة راودته فيها هذه الصورة، شعر بفراغ هائل يجذبه بعيدًا عن جسده.

تجاهل الشعور وسأل:
- "متى أبدأ؟"

***

استقر سام وبروكتر في مرحلة التخطيط العملياتي كزوجين قديمين بعد شجار طويل: تجاهلا أخطاءه، استعادا أدوارهما القديمة، ومضيا قدمًا برؤوس مرفوعة. ذكر سام اسم مريم مرة واحدة فقط، لكن بروكتر — التي قرأت تعابير وجهه الكئيبة عبر شاشة الفيديو من عمّان — رفعت يدها الصغيرة على الشاشة وكأنها تقول له "كفى". وما إن أنزلتها حتى رأى في عينيها الغاضبتين ما يكفي ليفهم. فحوّل تركيزهما إلى صور الأقمار الصناعية الأخيرة لمكتب الأمن، مشيرًا إلى أن عدد السيارات في الشارع المجاور ازداد كثيرًا خلال الأسابيع الأخيرة. هزّت بروكتر رأسها وأخذت قضمة كبيرة من لوح شوكولاتة **باي داي** (الحجم الملكي)، وقالت:
- "الصورة التالية."

فترك الموضوع.

كانت المشكلة الأكبر في العملية هي إصرار البيت الأبيض والطابق السابع في لانغلي على أن تُحدّد وكالة الاستخبارات هوية الهدف باستخدام نظام **MOLLY** والخوارزميات، بإشراف المتخصّصة في التعرّف على الوجوه **سوزان**. لكن الوكالة لم يكن لها أحد في دمشق بعد الآن. فمن سيُشغّل الكاميرات؟

احتدم النقاش بين أعضاء الفريق العملياتي، وانتهى بسلسلة من البرقيات المتبادلة بين سام وبروكتر، بعدما اقترح مازحًا تجربة برنامج MOLLY على متن طائرة استطلاع من دون طيّار. ردّت عليه بروكتر ببرقية قصيرة من فقرة واحدة وصفت فيها اقتراحه بأنه "هراء عملياتي". فهم سام من لغتها السوقية تلك أنها قد سامحته على طريقتها الخاصة؛ إذ كانت لا تمنح خصومها سوى الصمت.

وفي النهاية، قاد سام التوجه نحو الخيار الأنظف: استخدام **البانديتوز** — العملاء المحليين الذين اجتازوا اختبارات جهاز كشف الكذب. قال سام:
– "هؤلاء هم رهاننا الوحيد."

كانت الموافقات معقدة، والمحامون متوترين لأن العملية قد تشمل أجانب في مهمة قتل. لكن برادلي وبروكتر استخدما ثقلهما لدفع الخطة، وسرعان ما وُقّع التفويض الجديد الذي يمنح الوكالة صلاحيات اغتيال **اللواء باسل مخلوف**. حفظ سام الوثيقة في الخزنة تحت مكتبه. لم يكن مكتبه المؤقت في مكاتب لانغلي سوى مساحة شبه فارغة تملؤها أكواب **دانكن دونتس** الفارغة.

بقيت خطوة واحدة فقط — أهم خطوة: العثور على الهدف. ولم يذق سام النوم ليلتين متواصلتين.

***

بدأ الأمر وقت الغداء يوم الأربعاء. وقف سام أمام باب قاعة في لانغلي تحمل لافتة باهتة: (**حلول التقنية العالمية Global Technology Solutions**). كان يحمل الورقة التي دسّها عليّ في الملف بدمشق. فتح له تقني من الـNSA الباب وأدخله إلى غرفة مظلمة تعج بمكاتب بيضاء، وجدرانها مغطاة بشاشات تبثّ قنوات الأخبار.

قاد التقني سام إلى غرفة جانبية حيث كانت وجه **بروكتر** يملأ الشاشة، وجلس إلى الطاولة مترجم الوكالة **عبدالله**، سوريّ الأصل. كان على الطاولة هاتف واحد، وجهازان محمولان على الجدار. أشار التقني إلى الشاشة قائلاً:

– "كما اتفقنا، إذا حاول الإيرانيون أو الروس تتبّع الاتصال، فسيبدو وكأنه صادر من برج في ضاحية المزة."

صرخت بروكتر وهي تحدّق فيه:

– "استمع، جيسون — واسمك ليس جيسون — لقد راجعنا هذا عشرين مرة! ارتدوا جميعًا السماعات اللعينة ولنبدأ. سام، المسرح لك."

راجع سام الخطة مع عبدالله مجددًا، ثم فتح الورقة واتصل بالرقم. كانت الساعة الثامنة مساءً في دمشق. رنّ الهاتف مرتين، ثم جاء الصوت:

– "ألو؟"

قال عبدالله بالعربية الشامية الصافية وهو يقرأ النص الذي أعطاه إياه عليّ:

– "مرحبًا يا صديقي، أعتذر لعدم اتصالي البارحة، لكني أردت أن أبلغك أني أرسلت النبيذ."

سكت الصوت قليلًا. سمع سام أنفاسًا، وتحريك الهاتف بين الأذنين، وصوت درج يُفتح وأوراق تتقلب.

قال الرجل أخيرًا:

– "شكرًا لك، كم أدين لك؟"

قرأ عبدالله ثلاثة أرقام يمكن جمعها لتكوين رقم هاتف.

فقال الرجل:

– "حسنًا، شكرًا."

وانقطع الخط. شعر سام بقشعريرة تسري في عنقه. نظر إلى التقني وقال:

– "يمكنك تشغيل مطابقة الصوت، لكني أؤكد: إنه عليّ حسن."

استدار نحو بروكتر، فرفعت إبهاميها بإشارة الموافقة.

قال سام:

- "إن عاد واتصل، فسيُساعدنا في العثور على باسل."

قطعت بروكتر الاتصال بحركة سريعة من إصبعها على عنقها، وانطفأت الشاشة.

***

وجد سام **أيونا بانكس** جالسة على طاولة عملها في قسم **الخدمات التقنية الخاصة**، داخل غرفة بلا نوافذ تغمرها إضاءة الفلوريسنت. كانت تبتسم، تمرّر يدها على جانب رأسها الحليق، وتشير إليه بالاقتراب. دفعت جانبًا مجموعة حقائب **غوتشي** سوداء قائلة:

- "كل رجال الاستخبارات الصينيين يحملون مثل هذه الحقائب."

ثم أخرجت من الدرج ملفًا أصفر ودفعته نحوه قائلة:

- "لديّ أسئلة كثيرة لا أطرحها."

ابتسم وقال:

- "ذكية."

سحبت الملف قليلًا وقالت وهي ترفع حاجبها:

- "لكن سؤالًا واحدًا فقط: ما احتمالية أن يُفقدني هذا عملي؟"

انحنى سام للأمام ووضع ساعديه على الطاولة، متأملًا صورته القديمة على بطاقته. كم كان شابًا حينها. قال:

- "احتمالية ضعيفة."

ابتسمت وسلمته الملف أخيرًا، لكنها نظرت إلى بطاقته الزرقاء وسألته:

- "متى ستفقد هذه؟"

قال:

- "قريبًا. لدي عمل في عمّان، ثم تبدأ جلسات المراجعة."

فتح الملف فوجد فيه ظرفًا يحمل طابع بريد فرنسي، بداخله منشورات لعروض تأجير وفنادق. قلب الأوراق حتى توقف عند إعلان عن قصر في بلدة **إيز**.

قال:

- "من أين حصلتِ على هذه الصورة؟"

عبست أيونا ولم تجب.

قال:

- "وماذا قلتِ لفريق الوثائق؟"

- "قلتُ لهم أن يصنعوها فحسب. لم يسألوا شيئًا. يحبّون هذا النوع من المهام."

- "سيبدو الأمر وكأنه صادر من مكتب السياحة في فيلفرانش؟"

ابتسمت:

- "بالضبط. حزمة دعائية رسمية تحثّ السيدة على العودة لقضاء عطلة أخرى هناك."

قال:

- "ممتاز."

ساد الصمت لحظة قبل أن تسأله:

- "هل هي بخير؟"

خفض رأسه وقال:

- "لا أعلم."

كانت صورة القصر في إيز تُضيّق صدره. أغلق الملف ببطء. هزّت أيونا رأسها والتزمت الصمت.

قرأ عنوان دمشق على الظرف خمس مرات ليتأكد، ثم أعاد المنشور إلى الداخل، وسلّم الملف إليها، وطرق على الطاولة مرتين.

***

قبل سفره بأيام قليلة إلى عمّان، توجه سام متكئًا على عصاه إلى **مركز الانتشار العالمي**[39] ومعه جوازه الدبلوماسي الأسود وبرقية بروكتر التي توافق على سفره. جلست خلف المكتب موظفة مسنّة تدعى **كورنيليا ج.**، ترتدي نظارات مكبّرة وتستند إلى عصا، كأنها من جيل أيزنهاور. ابتسم سام وقدّم نفسه، لكنها لم تبتسم. نهضت ببطء، تناولت أوراقه وبدأت تكتب رقمه الوظيفي في الحاسوب.

بعد دقائق رفعت رأسها وقالت وهي تعيد قراءة البرقية:

– "هل زوّرتَ هذه يا عزيزي؟"

ضحك سام، لكن وجهها تجمّد في عبوس صارم، فمحا ابتسامته وقال:

– "لم أفعل. يمكنك التحقق في قاعدة البيانات."

تحققت ببطء، وبعد وقت طويل قالت وهي تخفض صوتها:

– "كيف تمكنت من تمرير هذا وأنت في إجازة إدارية؟ لم أر شيئًا كهذا من قبل. لا يُفترض بك أن تملك صلاحية الوصول إلى هذه البرقية أصلًا، فضلًا عن السفر بموجبها."

أشارت إلى بطاقته وقالت:

– "ما لونها؟ أحمراء؟ تحتاج لمرافقة؟ هل أحد هؤلاء الطيبين يراقبك لئلا تسرق ورقة سرية من الخزائن؟"

كانت الطوابير خلفه تمتد حتى الممر، فرفع سام بطاقته الزرقاء وقال بابتسامة متعبة:

– "ما زالت زرقاء يا كورنيليا."

---

[39] **مركز الانتشار العالمي (Global Deployment Center):** هو قسم داخل وكالة المخابرات المركزية (CIA) يعمل كمركز موحد لتسهيل الإجراءات الإدارية وتجهيز جميع الموظفين (سواء كانوا ضباطًا أو عملاء أو متعاقدين) للمهام الخارجية والعمليات السرية حول العالم.

ابتسمت أخيرًا، ونظرت إلى ندب قدمه وقالت:
– "كنت سأسألك عمّا فعلت لتستحق هذا، لكن سأعفيك. لا يحتفظ المرء بوظيفة كهذه وهو فضولي. هيا نُنجز عملك."

بدأت تقرأ بصوتٍ جهوري لائحة القواعد كأنها نص مقدّس:
– "يجب أن تتجاوز الرحلة ثلاث عشرة ساعة لتُمنح تذكرة فوق الدرجة الاقتصادية الأساسية على ناقل أمريكي (دلتا، أميركان، يونايتد... إلخ)."

هزّ سام رأسه موافقًا، عالمًا أنه لا جدوى من الجدال مع قسم السفر. قالت وهي تطبع أوراقه:
– "الغرفة فوق الطابق الرابع وتحت العاشر، كما تعرف. لتكون بعيدًا عن السيارات المفخخة، وقريبًا من سلالم الإطفاء. لا بيوت فخمة لرجال العمليات عندي."

ثم نظرت إلى يده اليسرى الخالية من خاتم الزواج، وهزّت رأسها بأسى.

***

أطفأ سام التلفاز وعاد يتهادى إلى سريره في غرفته بفندق الفورسيزنز في عمّان. جلس على الحافة، يسمع ضجيج السيارات في الدوّار أدناه، ونظر إلى السجادة ثم إلى الخزانة. سوّى الشرشف، تنفّس بعمق وألم، ثم نهض متثاقلًا ليرتدي ثيابه.

دوّت أربع طرقات على الباب. نظر عبر العين السحرية، ثم فكّ السلسلة وفتح.

قال الرجل بابتسامة:
– "جاغرز. حان وقت التحرك. يوم كبير اليوم."

في مقرّ المحطة، كان المساء يهبط ببطء. خرجت بروكتر من مكتبها، ودخل موظف الدعم يحمل وجبات من **بينيغانز** للفريق العملياتي، الجالسين حول الطاولة يعبثون بعلب الستايروفوم المليئة ببرغر ودجاج مقرمش وحلقات بصل وأكوام بطاطا مقلية.

قالت بروكتر بابتسامة متعبة:

– "آخر فرع من بينيغانز في العالم، على ما يُقال... وسط الصحراء هنا."

تولّى **برادلي** المراقبة في مقرّ لانغلي، بينما تولّى **سام** تجهيز القنبلة من عمّان. أمّا الزناد فكان الآن بين يدي **سوزان**، خبيرة التعرّف على الوجوه، إلى جوار طبقٍ لم يُمسّ من قشور البطاطس المقلية. قالت له **بروكتر** إنها تحتاج إلى الحمّام.

– "أنا المشرفة عليك هنا، لذا سترافقني."

بكرمٍ منها، سمحت له بالانتظار خارج دورة السيدات. وعندما خرجت، أشارت إلى صفٍ من المكاتب الخالية وجلست. فدفع هو كرسيًا وجلس قبالتها. أخرجت رباطًا مطاطيًا من جيبها وربطت شعرها.

قالت بهدوء:

– "لن تنال الخلاص منّي، لكنك ستحصل على الغفران. هذا أقصى ما أستطيع تقديمه."

راوده إحساس بالرغبة في احتضانها، لكنه اكتفى بالقول:

– "شكرًا، رئيسة."

قالت:

– "أنا آسفة بشأن «أثينا». كانت عميلتنا في دمشق، مصدرًا ذهبيًا لا يُقدّر بثمن. ثم إنّ الجهل بمصيرها... هذا اللعنة بعينها. لقد أدرتُ ذات يوم عميلًا في قندهار، اختفى فجأة. تبخّر. إلى اليوم يطاردني ذلك. والمضحك أني لم أكن حتى على علاقة به."

فهم **سام** النغمة جيدًا، أدرك أن حديثها صادق، لا تلميحًا ساخرًا إلى خيانته للوكالة. كانت تلك **تعاطفًا حقيقيًا**.

أومأ برأسه. نظرت إليه **بروكتر** نظرة حادّة وقالت:

– "أنت تدرك أنّه حتى لو عادت للظهور، فلن يُسمح لك بالاقتراب من قضيتها، كما لو كنت يهوديًا في مكة، أليس كذلك؟"

قال مبتسمًا بأسى:

– "بالتأكيد، أعرف ذلك يا رئيسة."

أومأت وبصقت في سلة المهملات، ثم أعادت لفّ شعرها بالرباط المطاطي وهي تقول:

– "تذكر تلك الليلة التي اعترفتَ لي فيها، في ذلك البيت الآمن الكئيب في ضاحية العاصمة؟ قلتَ شيئًا مثيرًا للاهتمام."

قال:

– "قلتُ أشياء كثيرة."

أجابت:

– "صحيح، لكنك استخدمت كلمة مدهشة، لم أذكرها لقسم مكافحة التجسس ولا للأمن حين طلبوا مني تفاصيل القصة بعد اعترافك في لاندشتول. قلت بالحرف الواحد: «أنا أحبها، يا رئيسة». لم تقل: «نمتُ معها»، أو «كانت بيننا علاقة». قلتَ: أحبها. هل تتذكر؟"

اقترب **سام** منها وقال بصوتٍ خفيض:

– "قال لي برادلي مرة إنك تستطيع أن تكذب على أيّ أحد، إلا وكالة الاستخبارات. لذا قلتُ لك الحقيقة."

هزّت رأسها ببطء وقالت:

– "إذن ما الخطة يا جاغرز؟ أتصور لو كان الأمر مجرّد شهوة، لتجاوزته بمرور الوقت. لكن الحبّ—كما يقولون—إحساسٌ لزج يصعب الفكاك منه."

قال وهو يزفر:

– "لا توجد خطة. لا يوجد ما يمكن فعله."

أعادت شعرها إلى مكانه وربطته ثانية وقالت:

– "ربما. لكن دعني أسألك سؤالًا يا جاغرز. حين التحقتَ بي في دمشق، كنت ضابط عمليات متحمّسًا في طريقه إلى مستقبلٍ لامع. أمّا الآن..." توقفت لحظة، ثم أضافت

بابتسامة باهتة:

– "فأنت... أقلّ بريقًا، لنقل ذلك بلُطف."

قال سام ساخرًا:

– "أقلّ بريقًا، نعم، وصف دقيق. فما السؤال إذن؟"

قالت بهدوءٍ عميق:

– "هل كانت مريم تستحق ذلك؟"

جمد للحظة. فذكرها للاسم الحقيقي لـ«أثينا»— في خرقٍ واضح لقواعد العمل السري، متعمّد على الأرجح— أخذه على حين غرة. لكن قبل أن ينبس بكلمة، جاء صوت **سوزان** من قاعة الاجتماعات:

– "المستشار القانوني انضمّ للتوّ."

عادت **بروكتر** و**سام** إلى القاعة، حيث كان **إلياس كسّاب** يوجّه الكاميرا نحو مبنى مكتب الأمن. جلس سام إلى جانب بروكتر وهو يغيّر وضع ساقه متألّمًا، متمنيًا لو لم ينسَ جرعته المسائية من الـ«فيكودين».

تابعوا جميعًا على الشاشة **علي حسن** وهو يخرج ويتمشّى ببطءٍ على الرصيف.

قالت بروكتر بنفاد صبر:

– "أين هو باسل بحق الجحيم ؟ نحن لا نحاول قتل علي حسن بعد الآن!"

***

أشعل **علي** سيجارة وهو يسير نحو غرفة الحراسة، رافعًا عينيه إلى سماءٍ مثقّبةٍ بالغيوم. كانت الأسابيع الماضية من أسوأ فترات حياته. لم يعد إلى بيته منذ خمسة عشر يومًا. وتوقّف عن النظر في المرآة. لم يعُد لذلك معنى.

لم يتغيّر لقبه ولا راتبه— وهذا ليس غريبًا في سوريا— لكن الغريب والمروّع كان حجم مسؤوليته الجديدة. قال له **الأسد** بعينين قاسيتين حين أخبره أنه قتل **رستم**:

– "ستتولّى منصب أخيك. الحرس الجمهوري لك. افعل كلّ ما يلزم لسحق التمرّد."

كان **علي** يظنّ أنّ الرئيس أطلق في الوقت ذاته عمليةً سرّية للتحقيق معه، لكنها—إن وُجدت— بقيت شبحًا بعيدًا.

منذ ذلك الحين، بدأ يشكّ في سلامة عقله. كان يرى كابوسًا متكررًا: **ليلى** تصرخ ثم تذوب في النار. يتكرّر المشهد على سريره المعدني في المكتب، عادةً قبل الفجر بقليل.

لكن كانت أمامه الليلة مهمّة أخرى تشغله قبل أن يعود إلى عمله وكوابيسه. أطفأ سيجارته وأشعل أخرى وهو يشقّ طريقه بين السيارات.

مشى ببطء، يملأ صدره بالدخان، وتخيّل لحظة شقّ عنق **رستم**. مرّر أصابعه على ندبته متمنيًا أن توقظ فيه إحساسًا ما: **غضبًا، ندمًا، حزنًا، فرحًا**... أي شيء.

لكنّه لم يشعر بشيء، وتلاشت الذكرى في ظلام الليل بينما واصل سيره.

***

كان **سام** يراقب تسجيل الفيديو لخطوات علي، ويده تعبث بندبته التي تمتدّ من عنقِه حتى خده الأيسر. مرّر إبهامه عليها. شعر بنظرات **بروكتر** تراقبه، فأنزل يده فورًا.

قالت بروكتر:

– "هل من جديد، يا جاغرز؟"

قال:

– "لا شيء بعد."

كان **علي** على بُعد خمسين ياردة من السيارة.

قال **إلياس**:

– "إنه يستدير ببطءٍ شديد."

قالت بروكتر غاضبة:

– "اللعنة، عُد إلى الداخل وأحضر لي باسل!"

***

كان **كنعان** ينتظر **عليًا** ـفي بهو مكتب الأمن.

قال:

– "بدأ يتكلّم أخيرًا، سيدي. أعلم أنك مشغول، لكن يجدر بك أن تسمع بنفسك."

تبع **علي** مساعده إلى القبو، إلى الزنزانة نفسها التي احتجزوا فيها من قبل **ابنة عم مريم حدّاد**، تلك الفتاة الهزيلة ذات رقعة العين السوداء. فتح **كنعان** الباب، فدخل **علي** الغرفة المتجمّدة وجلس إلى جانب السجين على السرير المعدني، مشعلًا سيجارة لتدفئة أصابعه.

قال:

– "إبراهيم... أم أقول **أبو قاسم**؟ سمعتُ أنك اعترفت بأنك من صنع القنبلة التي كادت تقتل الرئيس؟"

أجاب الرجل بصوتٍ أجشّ:

– "وكادت تقتلك أنت أيضًا."

قال علي بهدوء:

– "نعم."

قال أبو قاسم ساخرًا:

– "وأخاك."

ابتسم علي بخبث وقال:

– "كنتَ ستؤدّي لي خدمةً عظيمة. لكنّي اضطررت إلى تولّي الأمر بنفسي."

ونفث الدخان ـفي وجهه.

استدار **أبو قاسم** بدهشة، ثم أعاد نظره إلى الأرض.

قال **علي** وهو ينقر بلسانه:

– "لا أريد معلومات عن الماضي، أريد أن أعرف المستقبل."

رفع السجين رأسه بتعجّب:

- "ماذا تعني؟"

قال علي:

- "أين الموت الأسود؟ زوجتك، القنّاصة... أين هي الآن؟ إلى أين تتجه؟"

أغلق **أبو قاسم** عينيه، وبدأ يتنفس بصعوبة، ثم ابتسم وقال:

- "هذا، يا سيادة اللواء، هو الشيء الوحيد الذي لا أستطيع منحه لك."

نهض **علي** وأطفأ سيجارته على الأرض، وقال:

- "قد لا تستطيع... لكنّك ستفعل."

أشار إلى **كنعان**، الذي دخل يحمل دلواً من الماء المثلّج وسكبه على السجين استعدادًا لجولة تعذيب جديدة.

صرخ **أبو قاسم**، ثم تمتم باسمٍ واحدٍ متكرّر:

"سارية... سارية... سارية..."

وكان نطقه لاسمها يذكّر **عليًا** بـ **ليلى**.

***

سمع **علي** الصوت المميّز عندما عاد إلى مكتبه.

قال **باسل** وهو جالس بالداخل:

- "ما زلت لا أحصل على الإجابات التي أريدها من كنعان."

جلس **علي** إلى الطاولة وأشعل سيجارة.

قال مبتسمًا بسخرية:

- "أدهشني أنك قادر على الجلوس يا باسل، بعد الرصاص الذي زرعته تلك المرأة الأمريكية المجنونة في مؤخرتك أثناء هجومك الأهوج على السفارة."

تجاهله **باسل** ببرود وقال بحدة:

- "أنت المسؤول عن تعطيل عمليتي — العملية المعتمدة رسميًا — ضد السفارة

الأمريكية. أريد إجابات، ولن آخذها من كنعان. أنت من استدعاني إلى مكتبك، فلتتحدث معي بنفسك، لا ترسل إليّ أحد تابعيك."

أجابه **علي** بهدوء وهو ينفث دخان سيجارته:
– "أنا أحاول أن أربح حربًا أنت وأخي كدتما على خسارتها، وهذا يشغلني كثيرًا."

وأشار بيده نحو الباب في إشارةٍ منه أن يغادر. بصق **باسل** على الأرض، ثم لعق شاربه وأشعل سيجارته ونفث الدخان في وجه **علي** دون أن يتحرك من مكانه.

قال **علي** ببرود:
– "اخرج يا باسل."

اعترض:
– "أنت ترتكب—"

قاطعه صارخًا:
– "قلت اخرج."

وقف **باسل** ببطء، وأطفأ سيجارته على الطاولة، ثم استدار مغادرًا.

لم يكن **علي** من النوع الذي يهدد، ولا الذي يفشي الأسرار في نوبات الغضب. فالطريق إلى قمة **المخابرات السورية** لا يمرّ عبر الألسن الطويلة. لكنه هذه المرة كان عليه أن يُصفّي حساباتٍ قديمة.

قال بصوتٍ منخفض:
– "رأيت ما فعلته بالأمريكيين في السفارة، يا باسل."

توقف **باسل**، الملقّب بـ"الكومانشي"، عن السير، واستدار نحوه ببطء، حاجباه معقودان في حيرة.

تابع **علي**:
– "فعلت الشيء نفسه مع ڤاليري أوينز في هذا القبو. وسبق أن فعلته في حماة."

بدأت ابتسامةٌ عريضة تتسلّل إلى وجه **باسل**.

قال **علي** وهو يطفئ سيجارته في المنفضة:
– "كنتُ أراك دائمًا عفريتًا... شيطانًا صغيرًا، لكنك في الحقيقة مجرد كلبٍ مسعورٍ يريد أن يُكافأ على الجيفة التي يجلبها إلى سيده."

اقترب منه حتى كاد يشمّ أنفاسه الرطبة ويرى بريق اللعاب على شاربه الكثّ. وقال بصوتٍ باردٍ قاتل:
– "سيدك مات، يا باسل."

ورسم بإصبعه حركة الذبح على جبينه.

تلاشت ابتسامة **باسل**، ثم استدار وغادر وهو يبصق مرةً أخرى على الأرض.

أشعل **علي** سيجارةً أخرى، وفتح درج مكتبه، وأخرج دفتر ملاحظاتٍ مستعملاً. قلب صفحاته حتى وصل إلى صفحةٍ في الخلف. كانت تحتوي على ثلاثة أسعار ورقم هاتف.

أدخل الرقم في هاتفٍ كان قد اشتراه نقدًا، ثم أرسل رسالة نصية قصيرة.

***

رنّ هاتف **سام**. لم يكن الصوت ضروريًا، فقد كان يحدّق فيه طوال الليل. قرأ الرسالة بالعربية:
"غادر."

عرضها على **بروكتر**، فأومأت برأسها وقالت:
– "اللعنة... هيا بنا."

راقب **سام** المصوّر وهو يضبط الكاميرا على مدخل **مكتب الأمن**. كان **باسل** يخرج من المبنى، يمرّ أمام نقطة الحراسة، ثم يسير على الرصيف متعرّجًا بين السيارات المتوقفة.

قالت **بروكتر**:
– "سوزان؟"

ردّت:

– "أعمل على ذلك يا سيدتي."

كانت **سوزان** تتابع بثّ **إلياس** المباشر بينما تُعرض مقاطع أخرى على شاشةٍ ثانية بجانبها.

قالت:

– "دمشق، قرّب العدسة أكثر قليلًا."

وجّه **إلياس** الكاميرا نحو وجهه.

قالت:

– "شكرًا."

مرّت بضع ثوانٍ.

قالت **سوزان**:

– "أرسلتُ التقييم إلى القسم القانوني."

قال **غارتنر**:

– "تمّ التأكيد. لدينا نتيجة **سوزان** وMOLLY. الهدف هو باسل."

قال **إلياس**:

– "الشارع والرصيف خاليان."

قال **سام** وهو يجهّز الجهاز:

– "أقوم بالتسليح."

قالت **بروكتر** بسخرية:

– "يسير أسرع مما سار عليّ بخطوته المميّزة تلك."

راقب **سام باسل** وهو يمرّ بجانب مؤخرة سيارة **الباجيرو**. تمتمت **بروكتر** بكلماتٍ لم يسمعها، كأنها تعويذة.

قال **سام** بصوتٍ متهدّج:

– "فال... زيلدا... إكرامًا لكما."

وبينما كان **باسل** يعبر أمام باب الراكب، دوّى الانفجار.

انفتح باب **الباجيرو** كأنه ورقة ممزقة، وتناثرت شظايا البلاستيك والألومنيوم المنصهر مخترقة رأس **باسل** وجسده، لترتطم بجدارٍ خرساني خلفه. أظهر البثّ سحابة دخانٍ تتصاعد من حريقٍ صغير شبّ داخل السيارة. وجّه **إلياس** الكاميرا نحو موقع الانفجار، كاشفًا جدارًا مغطى بالدماء، حذاءً أسود ضخمًا، وخصلة شعرٍ كثيفة تشبه قمة رأسه.

***

كانت **فيلفرانش-سور-مير** تتلألأ في الأفق البعيد بينما كانت المرأة تنزلق داخل فستانٍ أحمر، وشعرها مرفوع عند العنق. النوافذ مفتوحة، والستائر تتماوج بنسيم الليل، وأصوات الأبواق والاحتفالات تتردّد من الشوارع تحتها.

أغلق سحاب الفستان، فانحدر شعر **مريم** على ظهرها، وقبّل عنقها، ثم قبض على خصلةٍ من شعرها الطويل واستنشقها بعمق.

ربما حين نصبح كبارًا يمكن أن نعيش هكذا.

استيقظ **سام** على صوت الأذان. شعر بغرابة، ولم يدرك السبب حتى التقط عكّازيه وبدأ يمشي ذهابًا وإيابًا في غرفته لعشر دقائق كما أوصى أطباء **لانغلي**. عندها فقط أدرك ما هو هذا الإحساس الجديد: كان **سلامًا**، لأول مرة منذ دمشق.

أعدّ قهوته وشغّل التلفاز، فرأى خبرًا عن غارةٍ صاروخيةٍ أمريكيةٍ جديدة على دمشق، وعنوانًا فرعيًا يقول:
"قوات العمليات الخاصة الأمريكية تنتشر في أنحاء سوريا."

أطفأ التلفاز.

بقي في **عمّان** يومًا آخر. نام، وقرأ، وشرب مزيدًا من القهوة، وتساءل متى سيعود الإحساس إلى قدمه. لكن معظم وقته قضاه **يفكر فيها**.

مع غروب الشمس، جاءت **بروكتر** إلى غرفته في الفندق، تحمل ورقةً مطوية بيدها. قالت وهي تمدّها له:

– "أعلم أنك فقدت صلاحياتك ومزاياك، يا **جاغرز**، لكن لديّ شيئًا وصل عبر نقطة تسليم من منطقتنا القديمة. الـ **بانديتوز** ما زالوا يتحركون. هرّبتُ هذه الورقة من المحطة، مخالفةً عشرات القواعد والقوانين، لكن لا بأس، فهي موجّهة إليك في النهاية."

رمقها **سام** بنظرةٍ مرتابة.

ابتسمت وقالت وهي تهمّ بالمغادرة:
– "يمكنك أن تسميها غريزة أمومة."

لم تُتقن المزاح تمامًا، لكنها خرجت تاركةً خلفها رائحة القهوة والقلق.

أخذ **سام** الورقة إلى الشرفة، وفكّ طيّاتها بينما كانت **عاصفةٌ رملية** تندفع عبر السماء الحمراء في الجنوب.

الفصل السادس والخمسون

كانت **مريم** تصعد الجبل وسط ضبابٍ من الألم. كانت تمسك جانبها الأيمن وهي تلهث من شدة التعب، تحدّق في مدينتها المنهكة تحتها. كان هذا أولَ مشيٍ طويلٍ لها منذ أن سمح لها الأطباء بمغادرة المستشفى. قالوا إنها محظوظة؛ فالسكين اخترقت ما بين ضلوعها وثقبت رئةً، لكنهم أوقفوا النزيف بسرعة. ستتعافى تمامًا، قالوا. والآن أرادت هواءً نقيًا، وقد وافق طبيبها على أن الخروج سيفيدها.

في ذلك الصباح، جاءت **رزان** إلى غرفتها قبل الفجر بوقتٍ طويل. كانت **مريم** ساهرة، فرأتها تدخل من خلال الظلال، تحمل حقيبةً قديمة على ظهرها. قالت **رزان** بصوتٍ حنون:

- "تعالي معي يا حبيبتي."

كانت **مريم** تعرف أن هذا اليوم سيأتي. فمنذ خروجها من سجن **علي حسن** واختفاء عمها **داوود** أثناء القصف، صمتت **رزان**. لم يكن صمتها صمتَ الغضب والتمرد الذي تبع الهجوم الأول للمخابرات، بل كان صمت التركيز. كانت تُعِدّ نفسها، تستعد لتكون لاجئة. جلست **مريم** في السرير واحتضنت ابنة عمّها بقوة.

قالت **مريم** وهي تبكي:

- "لا أستطيع الذهاب معك يا حبيبتي، ليتني أستطيع."

بكتا معًا، ومدّت **رزان** يديها تتحسس أصابع **مريم**.

قالت مبتسمة رغم الدموع:

- "تحسّنت يداك يا حبيبتي."

تمدّدتا على السرير، تمرّرت **مريم** بأصابعها ـفي شعر **رزان**، وانزلقتا بين النوم واليقظة فيما الساعاتُ تمضي نحو الفجر.

في إحدى اللحظات، نهضت **مريم** من السرير وفتحت خزانتها. تركت الباب مفتوحًا ليتسلّل ضوء القمر. لبست رداءها وجلست على الأرض. كانت تفكّر أنه إن كان **علي** قد زرع كاميرات ـفي غرفتها، فسيكون لها تفسيرٌ لهذا التحرك. سحبت صندوقًا مليئًا بالأوراق من تحت كومةٍ عشوائية من الثياب. كان يفيض بصورٍ قديمة ورسائل وبريدٍ مهمل ومجلات لم تتخلّص منها بعد.

عثرت على الظرف الذي وصل ـفي وقتٍ سابق من ذلك اليوم — الظرف ذو الطابع الفرنسي الذي جعل معدتها تنقبض حين رأته أول مرة. انتظرت طوال النهار. كانت **رزان** تتنقّل ـفي الشقة، وأرادت أن تكون وحدها حين تفتحه.

بهدوءٍ شديد، فصلت الورق عن الغراء وبدأت تقلّب بين المنشورات. رأت صورة **قلعة إيز** ـفي فرنسا، وحدّقت فيها طويلًا حتى أدركت أنها كفّت عن التنفس. أغلقت عينيها وسحبت نفسًا عميقًا. لقد أشار إليها بأنه بخير، وأنه عبر إلى الجهة الأخرى من سجن **علي**. والآن جاء دورها.

عادت إلى السرير، والتفتت ـفي حضن **رزان**.

قالت بصوتٍ خافتٍ وهي ترى الشمس تطلع:

– "عمي زارني قبل أن يختفي."

جلست **رزان** ونظرت إليها ـفي حيرة.

قالت **مريم**:

– "أعطاني قائمة بالمواقع التي كان **الحرس الجمهوري** يخطط لاستخدامها أثناء الهجوم الكيميائي."

أشاحت **رزان** بوجهها بعيدًا عنها، تحدّق ـفي النافذة بصمتٍ غير مصدّق.

قالت **مريم**:

– "أرادني أن أُعطي المعلومات لأصدقاءٍ له."

سألتها مترددة:

– "أصدقاء؟"

– "نعم."

– "وطلب منكِ هذا بنفسه؟"

– "طلب وأصرّ، وهو يعلم تمامًا ما الذي قد يعنيه ذلك له."

– "وهل فعلتِ؟"

– "فعلت."

صمتت **رزان** لحظة، ثم همست:

– "ثم جاءت القنابل... وقتلت أبي."

استلقت **مريم** على السرير تبكي، فاقتربت **رزان** منها واحتضنتها بصمت. ظلّتا كذلك حتى دوّى بوق سيارة من الشارع — مرة، مرتين، ثم ثالثة طويلة. نهضت **رزان**، أخرجت حجابًا من حقيبتها، وغطّت رأسها.

سألتها **مريم** وهي تمسح دموعها:

– "هل رتّبتِ كل شيء؟ الأوراق؟ الجواز؟ المال؟"

أجابت بثقة:

– "نعم يا أختي، كنت حذرة."

كانت ساقا **مريم** ضعيفتين حين عانقتا بعضهما. حاولت أن تحفظ ملامح ابنة عمّها في ذاكرتها — الشعر الطويل، الساقان النحيلتان، الابتسامة الماكرة، العيون المتقدة — وتخيّلت العين المفقودة وقد شُفيت وعادت للعمل.

قالت **رزان** وهي تُعلّق حقيبتها على كتفها:

– "أحبك يا أختي... وأفهم لماذا يجب أن تبقي."

ردّت **مريم** بصوتٍ مختنق:

– "وأنا أعلم لماذا يجب أن ترحلي، يا أختي... لكني أحبك أكثر."

بدأت **رزان** تمشي نحو الباب، فقالت **مريم** بسرعة:

- "انتظري. لا أريد أن أعرف إلى أين ستذهبين، لكن أحتاج شيئًا أتشبّث به، صورةً أتخيلك بها في حياتك الجديدة... إن لم نلتقِ... لوقتٍ طويل."

شدّت فكّها كي لا تنهار بالبكاء، وكانت **رزان** هي الأخرى تكافح دموعها.

قالت **مريم** بابتسامةٍ باهتة:

- "ما اسمك الجديد الذي ستستخدمينه للهروب؟"

أضاء وجه **رزان** وقالت:

- "أم أبيها."

ثم استدارت وغادرت.

***

والآن، فوق الجبل، والهواء المسائي يلامس بشرتها، تابعت **مريم** الصعود نحو القمة.

الفتاة النارية — هكذا قالوا عنها حين كانت تسحق خصومها في نزالات التدريب أيام باريس. ضرباتٌ قاسية، زوايا ضيقة، طاقة شرسة. الانتقام يتوهّج في عينيها. كلّ لكمةٍ وكلّ ضربةٍ كانت استعادةً لذاتها، تمزيقًا لأقفاصها القديمة.

واصلت السير، تنظر إلى المدينة أسفلها. تذكّرت قول عمّها:

"سوريا قلبُ العالم. دماءٌ قديمةٌ تجري في ترابها. مدنها قامت منذ الخلق وستبقى حتى الفناء. وهنا" — وكان يشير بأصبعه إلى الأرض — *"هنا سينتهي العالم."*

رأت أضواء **دمشق** تتلألأ في الوسط، وأعمدة الدخان تتصاعد من ضواحيها المشتعلة.

رأت بريق **القصر الرئاسي** حيث يدير الرئيس عبيده،
والرايات السوداء للجهاد تُرفع في ظلمة **دوما**.

تذكّرت مظاهرةً قديمة، وصيحة ابنة عمها، وشعرت بالأمل الذي كان... وقد انكسر، وتحوّل إلى حربٍ بين آلهةٍ متنازعين.

وسأدمّركما كلاكما.

كانت الآن قريبة من القمة، تتنفس بصعوبة، عرقها يتصبب، وجسدها يئنّ مع كل خطوة. لم تستطع طرد صورة **سام** من ذهنها. كانا رفيقي درب، وشريكها قد مضى. عرفت اسم هذا الشعور، وأجبرت نفسها أخيرًا على أن تهمس به لأول مرة وهي تتابع الصعود.

وصلت **مريم** إلى القمة، والضوء الأخير للشمس يختفي خلف أفق **دمشق** الغربي. أمسكت جانبها المتألم، وقالت لنفسها:

أسرع يا مريم، أسرع، لا تتوقفي... تحركي.

جلست على جدارٍ حجري تنظر إلى مدينتها العتيقة. تفحّصت المكان حولها لتتأكد أنها وحدها. أخرجت الورقة من حذائها.

تحدثت إليه فوق الورقة — بكل ما لم تستطع كتابته.

ثم ركعت، وضعت الملاحظة داخل العلبة المعدنية، ووقفت.
بدأت **مريم** تنزل الجبل، والريح تحمل معها آخر أنفاس الليل.

-تمت-

ترجمات قناة wadistream books

1- الأستاذة – فريدا مكفادن

2- العميل – مارك غريني

3- البوي فريند – فريدا مكفادن

4- المستأجرة – فريدا مكفادن

5- عنبر(د) – فريدا مكفادن

6- بكل انتقام – رايلي ساجر

7- مراودة السيد بريدجيرتون – جوليا كوين

8- الخادمة تراقب – فريدا مكفادن

للمزيد من الترجمات



محطة دمشق

على خلفية سوريا التي ترزح تحت وطأة الخوف وتشتعل بالتمرد، تأتي رواية "محطة دمشق" كإثارة تخطف الأنفاس، لتقدم لوحة فنية معقدة ترسم ملامح الجاسوسية، والحب، والولاء، والخيانة، في واحدة من أصعب مهام المخابرات المركزية الأمريكية وأخطرها على الاطلاق.

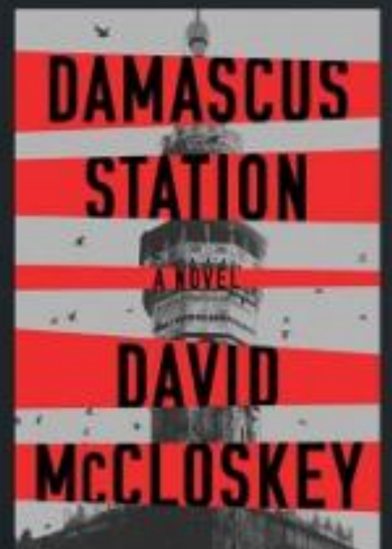
يُوفَد ضابط العمليات في المخابرات المركزية الأمريكية، سام جوزيف، إلى باريس في مهمة مصيرية: تجنيد مريم حداد، المسؤولة النافذة في القصر الرئاسي السوري.

لكن المهمة تأخذ منعطفًا غير متوقع حين يقع الاثنان في علاقة محرّمة. علاقة ستكون بمثابة الوقود الأسرع لعملية تجنيدها، لكنها أيضًا ستزج بهما في قلب خطر يفوق الوصف فور وصولهما إلى دمشق، سعيًا خلف الرجل المسؤول عن اختفاء مسئول أمريكية.

بيد أن مطاردة القط والفأر للقاتل سرعان ما تقودهما إلى دربٍ من الاغتيالات السياسية رفيعة المستوى، وتكشف لهما سرًا أسود يكمن في قلب النظام السوري.







ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks